

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

تفكرات في القرآن الكريم

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

مساعدته مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرصيم الصمراي

الجزء الأول



www.haydarya.com

آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

تفاسات القرآن

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء الأول



بمساعدة مجموعة من الفضلاء

إعداد: عبد الرحيم الصراني

مكارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

نفحات الولاية: شرح عصری جامع لنهج البلاغة / ناصر مكارم الشيرازي؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء؛ إعداد عبدالرحيم الحمراي. - قم: مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، ۱۴۲۶ ق. = ۱۳۸۴.

ISBN 964-8139-58-X (دوره)

ISBN 964-8139-07-5 (ج. ۱)

ج

کتابنامه

فهرستویسی بر اساس اطلاعات فیبا.

عنوان اصلی: پیام امام امیرالمؤمنین: شرح تازه و جامع بر نهج البلاغه

۱. علی بن ابی طالب علیه السلام، امام اول، ۲۳ سال قبل از هجرت - ۴۰ ق. نهج البلاغه - نقد و تفسیر ۲.

علی بن ابی طالب علیه السلام، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. - کلمات قصار. الف. علی بن ابی

طالب علیه السلام، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. نهج البلاغه. شرح. ب. حمراي، عبدالرحيم، ج. عنوان.

د. نهج البلاغه. شرح

۲۹۷/۹۵۱۵

BP ۳۸ / ۰۲ / ۰۷

هوية الكتاب

اسم الكتاب: نفحات الولاية (شرح عصری جامع لنهج البلاغة) / الجزء الاول

المؤلف: سماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء

اعداد: عبدالرحيم الحمراي

المطبعة: سليمانزاده

الطبعة: الاولى

الكمية: ۱۰۰۰ نسخة

عدد الصفحات: ۴۳۲ صفحة

حجم الغلاف: كبير

الناشر: مدرسة الامام علي ابن ابي طالب عليه السلام

عنوان الناشر: قم، شارع الشهداء، فرع ۲۲، تلفكس: ۷۷۳۲۴۷۸-۲۵۱-۰۰۹۸

ردمك: ۹۶۴-۸۱۳۹-۰۷-۵

عنواننا في الإنترنت: www.Amiralmomeninpub.com

السعر: ۳۰۰۰ تومان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

- ١- محمد جعفر الامامي
- ٢- محمد رضا الاشتياني
- ٣- محمد إحساني فر
- ٤- محمد جواد أرسطا
- ٥- إبراهيم البهادري
- ٦- سعيد داودي
- ٧- أحمد القدسي
- ٨- مهدي حسينيان القمي

الدافع الرئيسي لتأليف هذا الكتاب

لم يحظ كتاب بالعناية والرعاية - بعد القرآن الكريم - كما حظي نهج البلاغة ولم يتيسر لغيره مثل هذه المنزلة السامية النامية.

فما أكثر البحوث والدراسات في تصويره الفني وفصاحته وبلاغته وصياغته حتى أضحى مؤثلاً ومنهلاً وأساساً ونبراساً للدراسات الإسلامية ومعيناً ثراً للمعارف الإنسانية. وهل رأينا كالنهج يرغب المؤلفون بشرحه والتعرف عليه والاقتراس منه والاستشهاد به وحفظه ولو بعض حكمه ومواعظه. إنه كتاب المعاني الروحية، والعدالة الاجتماعية، والتربية الرسالية، والقيم الخلقية، والأدلة والكمال والنقاء، ونبض بكل مفيد وسديد ورشيد، ورافض لكل ألوان الشرور والفجور والغرور ومهما استجدت من أفكار وآراء ونظريات واكتشافات خلال هذه القرون المتطاولة فلا تزيده إلا تسديداً وتأبيداً وتحليداً، ولا يزداد المفكرون والباحثون نحوه إلا انسجاماً واحتراماً، لأنه الكتاب الزاهر بالحجج البالغة والزخيرة بالموارد السائغة والجامع بين جلال البلاغة وجمال الصياغة، وبين إيصال المعاني وجزالة المباني وبين دقة التصوير ورقة التعبير.

لقد عكفت كأغلب الأفراد الشغفين بنهج البلاغة على مطالعة بعض أجزائه. بحسبها كانت تتطلبه الضرورة والحاجة، حتى لاحت بوادر الخامس عشر من خرداد عام ١٩٦٣ م فألقي القبض عليّ برفقة طائفة من كبار العلماء والمفكرين فاودعنا السجن. كانت ظروف السجن عصبية جداً في الأيام الأولى حيث عمدت جلاوزة النظام الشاهنشاهي البائد إلى حظر أغلب الأشياء عن الوصول إلينا، غير أن الضغوط التي مارسها الرأي العام دفعت بذلك النظام

إلى التخفيف من وطأته والتنازل عن بعض المحظورات الثقافية؛ الأمر الذي جعلنا نطلب من أصدقائنا وذوينا إتياننا ببعض الكتب إلى السجن. أمّا أنا فقد ناشدتهم كتاب نهج البلاغة لأستغل تلك الفرصة المناسبة وأتفرغ فيها للتأمل في هذا الكتاب العظيم، وقد منّ الله عليّ ووفقني للتدبر والتحقيق في دراسة القسم الثاني من هذا الكتاب والذي يشمل الرسائل والوصايا السياسية والأخلاقية، آنذاك أيقنت بأن نهج البلاغة لأعظم وأكبر مما كنا ن فكر فيه ونتصوره عنه. فقد رأيت نفسي حينها أمام بحر زاخر من العلوم والمعارف التي تعالج أهم قضايا الإنسان في كافة أبعاده المعنوية والمادية، كما يمد الإنسان بمختلف المواهب المعنوية التي تمكنها من بلوغ شاطئ الأمان في هذه الدنيا المحفوفة بالمكاره.

آنذاك أدركت عمق خيبة وخسران أولئك الذين ولّوا ظهورهم لهذا الكنز الفيّاض والمتهل العذب وجعلوا يسيلون لعابهم لموائد الأجانب بما يعجزون عن الإتيان بمثل قطرة من بجره المتلاطم!

من عجائب هذا الكتاب الذي اقتنى آثا القرآن حتى طبع بصفاته وسماته إنّه وخلافاً للمدارس الفكرية والأخلاقية والسياسية التي يبليها الزمان فإنّه يحمل في طياته صفات العصرية والتجدد وكانّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه وتوجيهاته تفرع سمع المعاصر وتجعله يعيش أجواء مسجد الكوفة. وما أجدر عشاق الحق والحقيقة والمستعشرين لمعرفة العلوم الربّانية والمتطلعين لعيش الحياة الحرة الكريمة أن يقصدوا كل يوم ضريح هذا العالم الفذ السيد الشريف الرضي (جامع نهج البلاغة) فيؤدوا له طقوس الاجلال والاكبار ويقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة بفضل الجهود المضنية التي بذلها من أجل جمع كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فزود بها البشرية جمعاء فضلاً عن المجتمعات الإسلامية.

وماذا بوسعي أن أقول بشأن نهج البلاغة الذي حار في وصفه البلغاء وعجز عن تصويره الفصحاء وعيت عن الاحاطة بكنهه العلماء، وعليه لا أرى من جدوى في الاستغراق في هذا الموضوع، وأخوض في الغرض والدافع من هذا الكتاب. فقد أقبل العلماء والأدباء على هذا الكتاب النفيس - نهج البلاغة - بين حافظ وناسخ وشارح، حيث بلغ عدد شراحه في العصر القديم والحديث ما جاوز الخمسين شارحاً الذين بذلوا ما بوسعهم لسبر أغواره واستخراج

كنوزه وجواهره حتى قدموا خدمة جليلة لطلاب المعرفة والحكمة، إلا أن الانصاف هو أن هذا الكتاب ما يزال يعيش مظلومية كبرى وغربة عظمى، وليس هناك من سبيل لازالتها سوى في تظافر الجهود وتعبئة الأفكار والطاقات من أجل إعادة النظر والاسهاب في تفاصيل وجزئيات هذا الكتاب الثر، ولا سيما في عصرنا الراهن الذي تشهد فيه المجتمعات الإنسانية ذروة المشاكل والمطبات التي تعترض حياتها اليومية، إلى جانب ظهور المذاهب والمدارس الفكرية المختلفة والحملات الشعواء التي تقارنها الأجهزة الاستكبارية والدوائر النفعية الغارقة في الأهواء والشهوات وحب الدنيا والخلود إليها ضد العقائد والأخلاق والفضيلة والتقوى بغية تحقيق أهدافها المشؤومة في ضمان مصالحها ونهب خيرات البشرية وتجريدها من هويتها الإنسانية. أجل فالعصر الحاضر يجعل نهج البلاغة يتطلب جهوداً أكثر وأنشطة أوسع وأشمل من شأنها التوصل إلى الطرق والأساليب التي تذلل الصعاب المادية والمعنوية والفردية والاجتماعية، إلى جانب التصدي إلى النزعات الفكرية الهدامة التي تستهدف الدين والأخلاق. وعلى هذا الأساس وما أن فرغنا من نشاطنا القرآني في التفسير الذي دوناه - التفسير الأمثل - وكتابنا رسالة القرآن والتي حظيت باقبال المحافل العلمية والأوساط التحقيقية حتى آتينا على أنفسنا أن نواصل نفس هذه الجهود وبمعاونة الاخوة الفضلاء من العلماء بخصوص نهج البلاغة على غرار الجهود والأساليب التحقيقية التي إعتدناها في التفسير القرآني - الأمثل - بل إن التجارب السابقة قد جعلت هذا الجهد المتواضع أقرب من غيره إلى الاتقان والاكمال. نعم لقد عزمنا على مباشرة هذا العمل رغم كثرة المشاكل والعراقيل وسعة حجم المسؤوليات مستلهمين العزم والامداد من البارئ سبحانه وعبده الخالص ربيب النبي ﷺ أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعد أن وعدنا الاخوة الذين وقفوا إلى جانبنا في التفسير القرآني بتقديم كافة أشكال الدعم والعون في هذا المجال لكي نعد شرحاً جديداً جامعاً لهذا الكتاب من شأنه تلبية حاجات العصر ووضع الحلول الوافية الشافية للمعضلات الفكرية والاجتماعية، كما استعنا في بعض المواقع بما أورده المفسرون والشارحون القدماء والمعاصرون من أجل إغناء كافة جوانب المواضيع، إلى جانب اعتماد الأفكار والاطروحات الحديثة المعاصرة.

لقد باشرنا هذا العمل غرة الثالث عشر من شهر رجب المرجب لعام ١٤١٣ هـ الميلاد الميمون لأمير المؤمنين عليه السلام وسار بخطوات بطيئة هادئة حتى استغرق إعداد المجلد الأول - رغم الجهود الجماعية المشتركة - ما يقارب الثلاث سنوات (ومن الطبيعي أن لا تشوب الأعمال العجلة في بدايتها). حتى اتسقت لنا الأمور فأخذنا نحث السير ونهض سريعاً بهذا العمل، رغم يقيننا بأننا مازلنا نحوم في هذا المحيط المتلاطم والبحر العميق؛ الأمر الذي لا يبدد ويسيراً قط. والأفضل ألا أخوض في التفاصيل التي اعتمدت في هذا الشرح وأترك ذلك للاخوة القراء، ويسرني هنا أن أناشد كافة الاخوة الفضلاء أن يتحفونا بآرائهم بما يقرب هذا العمل من أهدافه ومقاصده، إلى جانب النظر بعين العفو والصفح إلى الخطأ والزلل.

وأخيراً أسأل الله أن يتفضل علينا باتمام هذا الجهد المتواضع بغية التزود من مائدة نهج البلاغة لنا ولكافة جيع الفكر والعقيدة، إنه نعم المولى ونعم المجيب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قم - الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازي

٣ ربيع الثاني ١٤١٧ هـ

٢٠ / تموز / ١٩٩٦ م

السيد الرضي جامع نهج البلاغة

هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي، ولد في بغداد سنة تسع وخمسن وثلاثمائة للهجرة. أمه فاطمة بنت الحسين بن أبي محمد الحسن الاطروش بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي امرأة فاضلة عرفت بالورع والتقوى والبصيرة الثاقبة، فقد قال فيها السيد الرضي (ره):

لَوْ كَانَ مِثْلَكَ كُلُّ أُمَّ بَرَّةٍ
غَفَى الْبَنُونَ بِهَا عَنِ الْآبَاءِ

كما يتصل نسب جدّه بالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام وهو أبو أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام أبي إبراهيم موسى الكاظم عليه السلام. وقد كانت له منزلة عظيمة في الدولة العباسية والدولة البويهية، حتى لقبه أبو نصر بهاء الدين بالطاهر الأوحّد. أقبل السيد الرضي على العلم والفقّه والأدب حتى بات أبدع أبناء زمانه، وقد خلف أبيه عام ٣٨٨ بتولي نقابة الطالبين في حياته، وعهد إليه بالنظر في المظالم والحج بالناس. إبتدأ ينظم الشعر وله من العمر عشر سنين أ وتزيد قليلاً، حكم بعض النقاد بأنّه أشعر الطالبين، وإلى جانب ذلك فقد كان كاتباً بليغاً مترسلاً، أمّا المرحوم العلامة الأميني فقد صرّح بشأن السيد الشريف الرضي قائلاً: «وسيدنا الشريف الرضي هو مفخرة من مفاخر العترة الطاهرة، وإمام العلم والحديث والإدب، وبطل من أبطال الدين والعلم والمذهب، ومهما تشدق الكاتب فان في البيان قصوراً عن بلوغ مداه»^١.

أساتذة السيد الرضي

لقد ذكر العلامة الأميني إسم أربعة عشر من أساتذة السيد الرضي ومنهم:

- ١- أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن مرزبان النحوي المعروف بالسيرا في المتوفى عام ٣٦٨ هـ فقد درس السيد الرضي عليه النحو ولما يبلغ العاشرة من عمره.
- ٢- النحوي المعروف أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفى عام ٣٧٧ هـ.
- ٣- هارون بن موسى.
- ٤- الخطيب المشهور أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن نباتة المتوفى عام ٣٩٤ هـ.

٥- القاضي عبد الجبار، العالم الشافعي المعتزلي.

٦- الفقيه والمحدث والمتكلم الشيعي الكبير الشيخ المفيد والذي يعدّ من أعظم أساتذة السيد الرضي. وهناك قصة رائعة جديرة بالسماع بشأن كيفية تتلمذه وأخيه السيد المرتضى على يد الشيخ المفيد. فقد قال مؤلف كتاب «الدرجات الرفيعة»: رأى المفيد أبو عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمام في منامه، كأنّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها والداها الحسن والحسين ﷺ صغيرين فسلمتها إليه، (وقالت له: علمهما الفقه). فاتبه متعجباً من ذلك، فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحوها جواريا وبين يديها ابناها محمد الرضي وعلي المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها. فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي، قد أحضرتما لتعلمهما الفقه.

فبكى أبو عبد الله - الشيخ المفيد - وقصّ عليها المنام وتولى تعليمهما الفقه، وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا؛ وهو باق ما بقي الدهر «وردت هذه القصة في شرح ابن أبي الحديد، ج ١ / ٤١».

تلامذة السيد الرضي

روى كبار علماء الفريقين أنّ العلامة الأميني ذكر تسعة من تلامذة السيد الرضي، ويمكن الإشارة هنا إلى أبرز من روى عنه ومنهم شقيقه السيد المرتضى وشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي كانت للسيد الرضي همة كبيرة جعلته يؤسس مدرسة لطلاب العلوم

الدينية أسماها «دار العلم» ولعلها أول مدرسة يتلقى فيها الطلاب الدروس صباحاً بينما يخلدون إلى الراحة والسكن مساءً في نفس المدرسة، وهي على غرار مدرسة أخيه السيد المرتضى، وقد كان الشيخ الطوسي والقاضي عبد العزيز بن براج من تلاميذها وسبقت مدرسته «المدرسة النظامية» ببغداد بحوالي ٨٠ سنة وربما كانت تقليداً لها^١.

كتب ومؤلفات السيد الرضي

ذكر العلامة الأميني أنّ السيد الرضي خلف أكثر من تسعة عشر كتاباً، أهمها أثره الخالد نهج البلاغة الذي يضم خطب ورسائل وكلمات الإمام علي عليه السلام. ثم يورد الشيخ الأميني أسماء واحد وثمانين كتاباً زمان السيد تعرضت لشرح نهج البلاغة أو ترجمته. ومن أهم الكتب التي ألفها السيد الرضي:

- ١ - خصائص الأئمة، والذي أشار إليه المؤلف في مقدمة نهج البلاغة.
- ٢ - مجازات الآثار النبوية، والذي طبع عام ١٣٢٨ هـ في بغداد.
- ٣ - الرسائل العلمية في ثلاثة مجلدات.
- ٤ - معاني القرآن.
- ٥ - حقائق التأويل في متشابه التنزيل والذي عبّر عنه الكشي بحقائق التنزيل.

السيد الرضي والشعر

كان السيد الرضي نابغة في الشعر، علماً أنّ الشعر لم يضيف شيئاً لشخصيته العظيمة، ورغم ذلك فقد جادت قريحته الشعرية بمختلف الفنون والآداب والصنوف الشعرية التي تكشف عن مدى قدرته في نظم الشعر. يذكر أنّ السيد الرضي قد أنشد قصيدة غزّاء كشف فيها النقاب عن علو نسبه ولما يبلغ العاشرة من عمره ولذلك عدّه بعض الأدباء أشعر شعراء قريش، وربما رجّح شعره على المتنبي، وهناك رسائل ومبادلات بينه وبين الصاحب بن عباد وأبي اسحاق

١. مذكرات العلامة الشريف الرضي / ٢٩.

الصابي، وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه قائلاً: سمعت محمد بن عبد الله الكاتب أنه قال عند أبي الحسين بن محفوظ قال: سمعت من فريق من الأدباء أنهم قالوا: السيد الرضي أشعر شعراء قريش. فرد ابن محفوظ قائلاً: نعم، هذا كلام صحيح، ثم أضاف: كان هناك بعض الأفراد الذين يحسنون الشعر في قريش إلا أنهم قليلوا النظم للشعر، ولم يكن سوى السيد الرضي يكثر إنشاد الشعر إلى جانب إتصافه بالعدوثة والجمال.

القابه ومناصبه

لقبه بهاء الدولة سنة ٣٨٨ بالشريف الأجل، وفي سنة ٣٩٢ بذي المنقبتين، وفي سنة ٣٨٩ بالرضي ذي الحسين، وفي سنة ٤٠١ أمر أن تكون مخاطباته ومكاتباته بعنوان الشريف الرضي أن المناصب والولايات كانت منكثرة على عهد سيدنا الشريف من الوزارة التنفيذية والتفويضية والامارة على البلاد بقسميها العامة والخاصة، تولى الشريف نقابة الطالبين وامارة الحاج والنظر في المظالم سنة ٣٨٠ وهو ابن ٢١ عاماً على عهد الطائع، ثم عهد إليه في ١٦ محرم سنة ٤٠٣ بولاية أمور الطالبين في جميع البلاد فدعي «نقيب النقباء»^١.

١. النقابة: موضوعه على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية ولا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف، ليكون عليهم أحيى وأمره فيهم أمضى وهي على ضربين: خاصة وعامة، وأما الخاصة فهو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجارز لها إلى حكم وإقامة حد فلا يكون العلم معتبراً في شروطها ويلزمه في النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً:
- ١- حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس هو منها، وأخرج عنها.
- ٢- تمييز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتى لا يخفى عليه منه يتوآب.
- ٣- معرفة من ولد منهم من ذكر أو أنثى فيثبته.
- ٤- أن يأخذهم من الآداب بما يضافي شرف أنسابهم وكرم محتدهم لتكون حشمتهم في النفوس موقورة وحرمة رسول الله ﷺ فيهم محضورة.
- ٥- أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من المعطال الخبيثة.
- ٦- أن يكفهم عن ارتكاب المآثم.
- ٧- أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم.
- ٨- أن يكون عوناً لهم في استيفاء الحقوق.
- ٩- أن ينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم العامة.
- ١٠- أن يمنع أمثالهم أن يتزوجن إلا من الأكفاء.

وفاة السيد الرضي

توفي السيد الرضي عليه السلام في السادس من شهر محرم الحرام من سنة ست وأربعمائة - وله من العمر ما يناهز السابعة والأربعين - وحضر جنازته الوزير فخر الملك، وجميع الأعيان والأشراف والقضاة والصلاة عليه، وقد أقيمت مراسم العزاء في داره في الكرخ. روى أغلب المؤرخين أن جسده الطاهر قد حمل إلى كربلاء فدفن إلى جوار قبر جدّه، والذي يفهم من بعض النقول التاريخية أن قبره في مقدمة الحائر الحسيني. ومضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه وصلى عليه فخر الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمي، فألزمه بالعود إلى داره.^١

رثاه الكثير من الأدباء والشعراء وفي مقدمتهم أخيه السيد المرتضى الذي أنشده قائلاً:

يا للرجال لفجعة جذمت يدي وددت لو ذهب عليّ براسي
لله عمرك من قصير طاهر ولربّ عمر طال بالأدناس

❦❦❦

❦❦❦ ١١- أن يقوم ذوي الهفوات منهم فيما سوى الحدود.

١٢- مراعاة وقوفهم بحفظ اصولها وتنمية فروعها.

١. أغلب ما أوردناه بالنسبة لحياة السيد الرضي قد اقتبسناه من كتاب الغدير ٤ / ١٨١ - ٢١١، إضافة إلى شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، عبقرية الشريف الرضي، سفينة البحار ومذكرات العلامة الشريف الرضي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه

يعد الحديث عن علي عليه السلام أو نهج البلاغة عملاً سهلاً وفي نفس الوقت وليس سهلاً! فهو ليس سهلاً بالنسبة لمن يروم الغوص في أعماق علي عليه السلام والوقوف على كنهه وحقيقته والاحاطة بكافة جوانبه الفكرية وسعة إيمانه وقوة صبره وعظم فضائله وملكاته، أو أن يتعرف على نهج البلاغة كما هو في حقيقته. ولكن من السهل الوقوف على بعض قبسات هذين النبراسين العظيمين والقمرين الزاهرين. لا تخفى شخصية علي عليه السلام على مسلم، فكل من له أدنى معرفة بعلي عليه السلام وتاريخه وسيرة حياته سيوقن بأنه الإنسان الكامل - بعد رسول الله صلى الله عليه وآله - وأنه آية من آيات الحق جل وعلا وان كتابه نهج البلاغة ليس إلا شعاعاً من شمس المنيرة. فنهج البلاغة بحر من العلم ومحيط من الحكمة وكنز لا ينضب وحديقة غناء بالزهور وسماء مزينة بالنجوم ومصدر لسعادة الإنسان في مسيرته الدنيوية.

ومما لاشك فيه أن من يروم إقتحام هذا الميدان عليه أن يعدّ الكتب والمجلدات علّه يحصي بعض حقائق الأمور، بينما لا نهدف - في هذه المقدمة - إلا إلى التطرق إلى بعض الإشارات المقتضبة من أجل التمهيد للخوض في شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام والتي نراها أفضل طريقة للتعريف به، وهل الجو المشمس إلا دليل على وجود الشمس.

وهنا أود أن ألفت إنتباه الاخوة القراء إلى أن عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والزعماء - ولا سيما من غير المسلمين - قد تناولوا بالبحث والدرس كتاب نهج البلاغة فرأوا أعظم مما ظنوا وتصوروا فأطلقوا عباراتهم المعروفة بشأن نهج البلاغة بما يكشف عن مدى تأثرهم والذهول الذي أصابهم فلم يتالكوا أنفسهم ويعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم وعواطفهم.

ويبدو أن كل واحد من هؤلاء قد تأثر بجانب معين من نهج البلاغة، وربما أمكننا إيجاز هذه الجوانب في المحاور الرئيسية الثلاث الآتية:

- ١- فصاحة وبلاغة نهج البلاغة.
- ٢- المضامين العميقة لنهج البلاغة.
- ٣- الجاذبية المخارقة لنهج البلاغة.



١- فصاحة النهج وبلاغته

لابد في هذا الأمر من الاستشهاد بأقوال البلغاء والفصحاء والأدباء والشراح والكتّاب الذين سيروا - حسب قدرتهم - أغوار نهج البلاغة فتأثروا بما لمسوه من حلاوة وطلاوة في فصاحته وبلاغته وسحر بيانه بما لم يعهدوه، فأطلقوا عباراتهم بشأنه ومنهم:

١- وما أحرانا أن نتجه بادئ ذي بدء صوب جامع نهج البلاغة والذي يعتبر من جهايزة الفصاحة والبلاغة الذي احتل الصدارة من بين فصحاء العرب وبلغائها وقد أفنى عمره في جمع خطب نهج البلاغة، ألا وهو السيد الرضي الذي وصفه الكاتب المصري المعروف الدكتور «زكي مبارك» في كتابه «عبقريّة الشريف الرضي» قائلاً: «هو اليوم أبداع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق».

يقول الشريف الرضي في مقدمته الرائعة لنهج البلاغة: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مُشْرِعَ الْفَصَاحَةِ وَمُورِدَهَا وَمَنْشَأَ الْبَلَاغَةِ وَمَوْلِدَهَا وَمِنَهُ ظَهَرَ مَكْنُونُهَا وَعَنْهُ أَخَذَتْ قَوَانِينُهَا وَعَلَى أَمْثَلَتِهِ حَذَا كُلُّ قَائِلٍ خَطِيبٍ وَبِكَلَامِهِ اسْتَعَانَ كُلُّ وَاِعِظٍ بَلِيغٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ سَبَقَ وَقَصُرُوا وَقَدْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرُوا»، ثم يفسر هذا الكلام فيقول: «لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي».

٢- الشارح المعروف الذي أفنى عمراً في شرح وتفسير نهج البلاغة وتحدث بشغف وإعجاب عن علي عليه السلام وهو عز الدين عبد الحميد ابن أبي الحديد المعتزلي الذي يعدّ من أشهر علماء العامة للقرن السابع الهجري^١.

١. يقع شرحه في عشرين مجلداً وقد استغرق في تأليفه أقلّ بقليل من خمس سنوات وهي مدة خلافة علي عليه السلام على حدّ تعبيره.

فقد تحدث مراراً وكراراً بهذا الشأن في شرحه وأذعن لعظمة فصاحة وبلاغة النهج. فقد قال على سبيل المثال بشأن الخطبة ٢٢١ التي أوردتها علي عليه السلام - بشأن البرزخ - «وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلي عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي ابن الرقاع: قلم أصاب من الدواة مدادها... فلم قيل لهم في ذلك قالوا إنا نعرف مواضع السجود في الشعر كما نعرفون مواضع السجود في القرآن»^١.

ثم قال في موضع آخر حين عرض للمقارنة بين كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام وكلام «ابن نباتة»^٢ الخطيب المعروف الذي عاش في القرن الهجري الرابع: «فليتأمل أهل المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلام بعين الانصاف ليعلموا أن سطرأ واحداً من كلام نهج البلاغة يساوي ألف سطر منه بل يزيد ويربي على ذلك»^٣. وينقل أيضاً إحدى خطب ابن نباتة في الجهاد والتي تمثل قمة الفصاحة وقد ضمنها عبارات أمير المؤمنين عليه السلام الواردة في الجهاد «ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا» فيقول: «فانظر إلى هذه العبارة كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً وتنادي على نفسها نداءً فصيحاً، وتعلم سامعها أنها ليست من المعدن الذي خرج باقي الكلام منه، ولا من الخاطر الذي صدر ذلك السجع عنه، ولعمر الله، لقد جمّلت الخطبة وحسنتها وزانتها وما مثلها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يتمثل بها في رسالة أو خطبة، فأنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهو وتثير، وتقوم بنفسها، وتكتسي الرسالة بها رونقاً، وتكتسب بها دياجة»^٤.

وأخيراً نختتم كلامه بما أوردته في مقدمة شرحه للنهج حيث قال: «وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة»^٥.

٣ - «جورج جرداق» الكاتب المسيحي اللبناني المعروف الذي ألف كتابه المشهور

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/١٥٣.

٢. هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة المتوفى عام ٣٧٤.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/٢١٤.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٨٤.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٢٤.

«الإمام علي صوت العدالة الإنسانية» حيث أفرد فصلاً من كتابه لبيان خصائص الإمام علي عليه السلام فقال بخصوص نهج البلاغة: «أما في البلاغة، فهو فوق البلاغات، كلام ضم جميع مجالات اللغة العربية في الماضي والمستقبل، حتى قيل عنه: كلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»^١.

٤- «الملاحظ» الذي عاش مطلع القرن الهجري الثالث ويعدّ من أبرز أدباء العرب ونوابغهم، حيث أورد بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه المعروف «البيان والتبيين» فجعل يثني عليه. ومن ذلك قال في المجلد الأول من كتابه المذكور حين طالعت كلماته عليه السلام: «قيمة كل امرء ما يحسنه»^٢؛ لو لم تكن في كل هذا الكتاب إلا هذه الجملة لكفت، بل وزادت، فأفضل الحديث ما كان قليلاً ومفهوماً ظاهر جلي ويفنيك عن الكثير، وكأنّ الله كساه ثوباً من الجلال والعظمة وحجاباً من نور الحكمة بما يتناسب وطهر قائله وعلو فكره وشدة تقواه.

٥- «أمير يحيى العلوي» مؤلف كتاب «الطراز» حيث أورد في كتابه عبارة عن الملاحظ أنّه قال: «إنّ الرجل الذي لا يجارى في الفصاحة ولا يبارى في البلاغة، وفي كلامه قيل دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، ولم يطرق سمعي كلام بعد كلام الله ورسوله سوى كلمات أمير المؤمنين كرم الله وجهه من قبيل قصار كلماته «ما هلك امرء عرف قدره» و«من عرف نفسه عرف ربه» و«المرء عدو ما جهل» و«استغن عن شئت تكن نظيره واحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره»، وعليه فليس من العبث أن يعرب هذا الأديب الزيدي «صاحب كتاب الطراز» عن دهشته لاستناد كبار علماء المعاني والبيان بدواوين شعراء العرب وأدبائهم بغية السبيل إلى الفصاحة والبلاغة بعد كلام الله وكلام النبي صلى الله عليه وآله ولولا ظهورهم لكلمات الإمام علي عليه السلام، بينما كانوا يعلمون أنّه يمثل قمة الفصاحة والبلاغة وفي كتاب نهج البلاغة كل ما يريدون من فنون أدبية من قبيل الاستعارة والتشثيل والكناية والمجاز والمعاني و...»^٣.

١. علي صوت العدالة الإنساني ٤٧/١.

٢. نهج البلاغة، قصار الكلمات ٨١.

٣. الطراز ١٦٥/١ - ١٦٨.

٦- الكاتب المشهور «محمد الغزالي» الذي نقل في كتابه «نظرات في القرآن» عن اليازجي أنه أوصى ولده قائلاً: «إذا شئت أن تفوق أقرانك في العلم والأدب وصناعة الانشاء فعليك بحفظ القرآن ونهج البلاغة»^١.

٧- المفسر المعروف «شهاب الدين الآلوسي» الذي قال - حين بلغ اسم نهج البلاغة -: «إنّ انتخاب هذا الاسم لهذا الكتاب نابع من كونه يشتمل على كلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق المتعال، وهو كلام يقترب من الاعجاز يضم البدائع في الحقيقة والمجاز»^٢

٨- الاستاذ «محمد محيي الدين عبد الحميد» الذي قال في وصفه لنهج البلاغة: «كلّ هذه المزايا مجتمعة، وتلك الصفات متأزرة متناصرة؛ وما صاحبها من نفح إلهي وإفهام قدسي، مكنت للإمام عليّ من وجوه البيان، وملكته أعنة الكلام، وألهمته أسمى المعاني وأكرمها، وهيأت له أشرف المواقف وأعزها، فجرت على لسانه الخطب الرائعة والرسائل الجامعة والوصايا النافعة»^٣.

٩- أحد شراح نهج البلاغة «الشيخ محمد عبده» إمام العامة والكاتب العربي المعروف، الذي قال بشأن النهج في مقدمته عليه - بعد أن اعترف بأنه تعرف مصادفة على هذا الكتاب الشريف - ويبدو أنّ هذه قضية جدية بالتأمل -: «حين تصفحت نهج البلاغة وتأملت موضوعاته بدالي وكأنّ هذا الكتاب عبارة عن معارك عظيمة، الحكومة فيها للبلاغة والقوّة للفصاحة وقد حملت من كل حذب وصوب على جنود الظنون الباطلة وسلاحها الأدلة القويّة والبراهين الساطعة».

١٠- «السبط بن الجوزي» أحد أبرز الخطباء والمؤرخين والمفسرين المعروفين العامة، الذي صرّح في «تذكرة الخواص» قائلاً: «وقد جمع الله له بين الحلاوة والملاحة والطلاوة والفصاحة لم يسقط منه كلمة ولا بادت له حجة، أعجز الناطقين وحاز قصب السبق في السابقين الفاظ يشرق عليها نور النبوة ويحير الافهام والألباب»^٤.

١. نظرات في القرآن / ١٥٤، طبق نهج البلاغة ٩١/١.

٢. نقلاً عن كتاب (الجريدة الغيبية) عن مصادر نهج البلاغة / ١٧.

٣. مصادر نهج البلاغة ٩٦/١.

٤. تذكرة الخواص، الباب السادس / ١٢٨.

١١ و١٢- ونختتم هذا الفصل بقولين لأديب مسيحي معروف وهو الكاتب والمفكر العربي المشهور «ميخائيل نعيمة» الذي قال: لو كان علي مقتصراً على الإسلام لم يتعرض شخص مسيحي (يشير إلى الكاتب والمفكر المسيحي اللبناني جورج جرداق صاحب كتاب الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) لسيرته وحياته ويتابع الأحداث التي واجهته فيترنم بشجاعته التي أصابته بالدهشة والذهول؛ ولم تقتصر شجاعة الإمام وبسالته على ميدان الحرب، فقد كان رائداً في البلاغة وسحر البيان والاخلاق الفاضلة وعلو الهمة وعمق الإيمان ونصرة المظلومين واتباع الحق وبسط العدل. ثم قال في موضع آخر بأن ما قاله وفعله هذا النابغة ما لم تره عين وتسمعه أذن، وأنه لأعظم من أن يسع المؤرخ بيانه بقلمه ولسانه. وأخيراً فقد قال فيه ابن أبي الحديد: وأما الشجاعة فانه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحاسن من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة؛ وهو الشجاع الذي مافراً قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى ثانية، وأما السخاء والجود ففيه يضرب المثل فيهما، فكان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده، وقال الشعبي: كان أسخى الناس؛ كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط. وأما الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسيء؛ وقد ظهر صحة ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم - وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضا - فصفح عنه، وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة، ولما قال محض بن أبي محض لمعاوية: جثتك من عند أعيان الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيان الناس! فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره.

٢- المضامين الرصينة الشاملة لنهج البلاغة

من المميزات التي يتصف بها نهج البلاغة التي تلفت انتباه القارئ إذا ما أقبل عليه إنما تكمن في شموليته وتنوع مضامينه الرصينة، بحيث «تجعله يصدق أن هذه الأقوال المتقنة الدقيقة التي تعالج أمور شتى تصل إلى حدّ التضارب إنما تصدر من عين واحدة، ومن المسلم به أن هذا الأمر لا يصدر إلا من أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي أودع قلباً حافظاً وروحاً سامية تفيض علوماً ومعارفاً إلهية حقة وأسراراً حجة لا يسعها سوى ذلك القلب. ويسرنا هنا أن نستشهد بالأقوال التي ساقها كبار العلماء والمفكرين بهذا الخصوص.

١- ونستهل ذلك بما أروده العالم المعروف «محمد عبده» إمام العامة، فقد رسم صورة رائعة عن حاله وهو يطالع لأول مرة نهج البلاغة وما اشتمل عليه من خطب ورسائل وكلمات قصار عجزت العقول أن تجود بمثلها فصاحة وصياغة وبلاغة، فقال: «وكان لطيف الحس، نقيّ الجوهر، وضاء النفس؛ سليم الذوق، مستقيم الرأي، حتسن الطريقة سريع البديهة، حاضر الخاطر؛ حوّل قلباً؛ عارفاً بمهّمات الأمور إصداراً وإيراداً.

٢- نقل «الشيخ البهائي» في «كشكوله» عن كتاب «الجواهر» ان «أبو عبيدة» قال: قال علي عليه السلام تسع جمل عجزت بلغاء العرب عن الإتيان بواحدة منها؛ ثلاث في المناجاة، وثلاث في العلوم، وثلاث في الأدب. ^١ ثم خاض في شرح هذه العبارات التي وردت ضمن كلماته في نهج البلاغة وسائر أحاديثه.

٣- الدكتور «زكي مبارك» الذي صرّح في كتابه «عبقريّة الشريف الرضي» قائلاً: «أعتقد أنّ دراسة نهج البلاغة تمنح الإنسان المروءة والشهامة وسمو الروح، ولا عجب فهو ينبع من نفس عظيمة واجهت الوقائع والحوادث بشجاعة الأسود» ^٢.

١. كشكول الشيخ البهائي ٣/٣٩٧.

٢. عبقرية الشريف الرضي ١/٣٩٦.

فالكلام هنا لا يتناول سعة المعلومات وكسب المعارف والعلوم، بل قصره على استشعار المهمة والمروءة وسمو النفس في ظل التمعن بالنهج.

٥ - «ابن أبي الحديد» هو الآخر أعطى الكلام حقه فقال: ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله ﷺ إلا لهذا الرجل، ومن أنصف علم صحة ذلك، فإن شجاعته وجوده وعفته وقناعته وزهده يضرب بها الأمثال. وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية، فلم يكن من فن أحد من العرب، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفر دون به، وأول من خاض فيه من العرب علي عليه السلام ولهذا تجد المباحث الدقيقة في العدل والتوحيد مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك.^١

٦ - أورد «المرحوم السيد الرضي» بعض العبارات المقتضية العميقة المعنى في كتابه الشريف بشأن مضامين نهج البلاغة، وهي جديرة بالتأمل والاهتمام، من ذلك ما ذكره ذيل الخطبة «٢١» حيث قال:

«إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله ﷺ بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً». أما الخطبة «٢١» فهي:

«فإنّ الغاية أمامكم وإنّ وراءكم الساعة تحذوكم، تخففوا تلحقوا فانّما يفتنر بأولكم آخركم». كما أورد مثل هذا المعنى ذيل الحكمة «٨١» من كلماته القصار فقال: «وهي الكلمة التي لا تصاب لها قيمة ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة».

٧ - ونطلق الحديث هنا للكاتب المصري المعروف «عباس محمود العقاد» الذي يعدّ من كبار الأدباء المعاصرين لمرئى مدى اعجابه بنهج البلاغة، فقد أورد بعض العبارات الجزيلة في مواضع من كتاب «عبقريّة الإمام علي عليه السلام» والتي تبين عمق معرفته بشخصية الإمام ومدى تأثره بكلماته، فقد قال: «إن نهج البلاغة عين متدفقة بآيات التوحيد والحكمة الإلهية التي توسع معارف الباحثين في العقائد والتوحيد والمعارف الإلهية».^٢

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤٦/١٦.

٢. العبقريات ١٣٨/٢ (طبعة دار الكتاب اللبناني).

وقال في موضع آخر: «إن كل نموذج من كلماته شهادة؟»

على قدرته الإلهية ببيان الحقائق، أنه لا شك من أبناء آدم الذي علم الأسماء، فهو مصداق لقوله تعالى: «أوتوا الكتاب» و«فصل الخطاب»^١.

وقال أيضاً: «إن كلماته ﷺ تمثل قمة الحكمة والفصاحة والبلاغة، وقد قال رسول الله ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل». فهذا الحديث يصدق على علي ﷺ قبل غيره، فكلماته الحكيمة في مصاف كلمات الأنبياء ﷺ»^٢.

٨- وقال الكاتب والأديب المعاصر «محمد أمين النوسي» يصف نهج البلاغة: «إنه الكتاب الذي جعله الله حجة واضحة وقد ضمنه علي ﷺ الأمثال القرآنية والحكم الربانية بفصاحة وبلاغة قل نظيرها»^٣.

٩- وهذا الأديب المصري المعروف «طه حسين» الذي يعتبر عميد الأدب العربي، فقد قال بعد أن تعرض لردّ علي ﷺ على السائل الذي كان شاكاً في حرب الجمل: «إني لم أر ولم أعرف جواباً بعد الوحي وكلام الله أعظم وأروع من هذا الجواب»^٤.

١٠- المرحوم «ثقة الإسلام الكليني» الذي نقل في الجلد الأول من كتابه الكافي إحدى خطبه ﷺ في التوحيد، فقال: «هذه من خطبه المعروفة ولو اجتمعت الانس والجن لبيان حقائق التوحيد لعجزت عما بينه علي ﷺ ولولاه لما عرف الناس سبيل الوحدانية»^٥.

١١- ونختتم البحث بما أورده العلامة الفقيه آية الله الخوئي، إذ قال: «حين يرد الإمام ﷺ بحثاً في خطبه من نهج البلاغة فإنه لا يترك مجالاً بعده للحديث حتى يخيل لأولئك الذين لا علم لهم بسيرة أمير المؤمنين ﷺ أنه قضى عمره في ذلك الموضوع»^٦.

١. العبقرات ٢/ ١٤٤.

٢. العبقرات ٢/ ١٤٥.

٣. مصادر نهج البلاغة ١/ ٩٠.

٤. جولة في نهج البلاغة ١٨/ ١٩.

٥. أصول الكافي ١٣٦١.

٦. البيان ٩٠/ ٩٠.

٣- جاذبة نهج البلاغة الفارقة

لقد شعر جميع من تعامل مع نهج البلاغة - من قبل أشياخ علي عليه السلام أو سائر العلماء والأدباء المسلمين ومن سائر الأديان - دون استثناء بوجود قوة كامنة تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إن مثل هذه الجاذبة التي اتسمت بها كافة خطبه ورسائله وكلماته هي التي دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشرح والتفسير وتدوين المقالات والأبحاث والاستغراق في مختلف جوانب شخصية الإمام علي عليه السلام. بدورنا نرى أن هذه الجاذبة تحتزن عدة دوافع، يمكن إيجاز أهمها في ما يلي:

١ - لقد شحن نهج البلاغة بالأقوال التي تصرح بمواساة الطبقات المحرومة والمستضعفة، إلى جانب الحديث عن مجابهة الظلم والطغيان ومقارعة حكام الجور والطواغيت. فقد تعرض في عهده الذي عهده إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر إلى الخطط والبرامج التي ينبغي اعتمادها في كيفية إدارة شؤون البلاد. يتحدث عليه السلام في هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقات الاجتماعية السبع، حتى إذا بلغ الطبقة المحرومة من الناس أفصح عن مكتوبات نفسه وسيرته في التعامل معها فيوصي عامله قائلاً له: «الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى...»، ثم يؤكد عليه: «فلا يشغلنك عنهم بطر فأنك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامه الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم بمن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال» ولم تقتصر وصايا عليه السلام بهذا المجال في هذا العهد فحسب، بل لم ينفك يؤكد ذلك في كل خطبة من خطبه وموعظة من مواعظه لعماله وولاته.

٢ - لقد سلك نهج البلاغة سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التي تؤدي به

إلى البؤس والشقاء، وكذلك تحريره من قيود الطواغيت والظلمة، فهو يستفيد من كل فرصة لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانب تأكيده على أنه ما جاع فقير إلا بما متع به غني، وأن تراكم الثروة يفيد تضييع الحقوق وعدم العمل بالأحكام الشرعية.^١

ويصرح الإمام عليه السلام: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كحلة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيتم دنياكم هذه أزهدي من عفتة عنز!» فهو يؤكد على شدة تنمره في إعادة روح الحرية والعدالة والمساواة التي لا يعرف المهادنة فيها، بل أبعد من ذلك في أنه لا يرى الامرة والحكومة سوى وسيلة ووظيفة لتحقيق هذه الاهداف^٢. ويخطيء كل من يظن أن علياً عليه السلام يمكنه أن يتهاون في هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصية علي؛ الأمر الذي أكدته في رسالته إلى عثمان بن حنيف^٣.

٢ - النفحات العرفانية التي ينبض بها نهج البلاغة إنما تناغم الأرواح المتعطشة للحكمة فتسقيها الشراب الطهور الذي يسكرها بالعلم والمعرفة!

فلا يرى القارئ لخطبه في الله وصفاته الجمالية والجلالية سوى أنه يخلق مع الملائكة ليخترق حجب المعرفة والكمال^٤ أما إذا تحدث عن أهوال القيامة وسكرات الموت والعاقبة التي تنتظر الإنسان فلا تراه إلا وكأنه أمسك بقبضة الغافلين وأخذ يسوقهم نحو المصير الذي منه يهربون والعاقبة التي عنها لاهون.^٥

٤ - قوة الجاذبية الأخرى التي يخترنها نهج البلاغة والتي أشرنا إليها سابقاً أنه عليه السلام أمير الكلام في كل موضوع يطرقه بما يجعلك تتصور أنه بارع في هذا الموضوع وقد أفنى عمره في بيان عناصره ومقوماته وسائر جوانبه، ولا يحسن شيئاً آخر سواه وسرعان ما يتبدد هذا التصور حين تطالعه وقد تحدث في موضوع آخر - فاذا تناول - على سبيل المثال - قضية

١. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ١٧٧/٣.

٢. الخطبة الشقشقية (الخطبة ٣).

٣. الرسالة رقم ٤٥.

٤. الخطبة الأولى وخطبة الأشباح ٩١/ وسائر الخطب بهذا الشأن.

٥. الخطب ١٠٩ - ١١١ - ١١٣ وما شابهها.

التوحيد وشرح أسماء الله وصفات الجلال، خيل إليك أنه فيلسوف رباني سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متتالية وليس له مثل هذا العمق فيما سواه؛ فليس للتجسم من سبيل إلى حديثه، ولا من سبيل إلى سلبه الصفات، بل يقدم صورة عن التوحيد تجعل الإنسان يرى ربه ببصيرته في كافة السموات والأرضين حاضر فيها وفي نفسه فيمتلئ قلبه حباً لله ومعرفة به. بينما لا تكاد العين تقع على خطبته في الجهاد، حتى لا تغيب عنها صورته كأمر شجاع ومقاتل بأسل مغوار قد ارتدى بزته العسكرية وأخذ يستعرض أساليب الحرب وفنون القتال و استراتيجية الدفاع والهجوم، وكأنه أفنى عمره في ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر في ما سواها.

فاذا تصفحنا نهج البلاغة وطالعنا خطبه ووصاياها لعماله وولاته حين أخذ بزمام الأمور وترعم قيادة الأمة، رأينا يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهارها، إلى جانب استعراض مصير الأقاليم الظالمة والأمم المستبدة بالاضافة إلى الاسس والمبادئ التي من شأنها ضمان سلامة الأنظمة الاجتماعية والسياسية الحاكمة، بما يجعلك تظن بأنه عكف عمراً على هذه الأمور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياة ونواحيها. ثم نقلب صفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً بشرية نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحد الأصفياء من أصحابه ويدعى «همام» الذي يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له ﷺ ما يقارب المئة من صفاتهم بعبارات أحكم صياغتها وبلاغتها كأنه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربية النفوس حتى يصعق همام صعقة كانت نفسه فيها. حقاً إن هذه الأبحاث العميقة الفريدة المتنوعة التي شحنت بها نهج البلاغة تعدّ من الخصائص والمميزات التي اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

أقوال العظماء بشأن جاذبية نهج البلاغة

الأقوال التي ساقها كبار جهابذة العلماء بخصوص الجاذبية الكامنة في نهج البلاغة تعتبر من الشواهد التي تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:
فالسيد الرضي جامع نهج البلاغة الرائد الذي يعدّ من مشاهير الأدباء العرب يصرح

أحياناً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبارات التي تكشف عن عمق افتتانه بما يورد وعدم تمالكه لنفسه تجاه قوة سبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنه قال إثر نقله للخطبة رقم «٨٣» من نهج البلاغة «وفي الخبر أنه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب» ونقرأ في خطبة المتقين - حين سأله ذلك العارف «همام» عن صفات المتقين - أنه حين بلغ ذلك الموضوع من الخطبة، صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أما والله لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواظ بالبالغة في أهلها».

كما علق السيد الرضي على الخطبة رقم «٢٨» ليعرب عن عمق أثرها في روحه وعقله فقال: «إنه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاض والازدجار...» وأضاف: «ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا إن اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقة الجنة والغاية النار» فان فيه مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجيباً ومعنى لطيفاً... فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام».

وقال ذيل الخطبة «١٦»: «إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به». وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلا العالمون».

وهكذا نقل ما أورده المفسر والمحدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشقية حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال: «هيهات يا ابن عباس! تلك شقشقة هدرت ثم قرت». قال ابن عباس: «فو الله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد».

فقد قال ابن أبي الحديد: «هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين»^١.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠٢٧. (بتلخيص)

أسناد نهج البلاغة

ما من شك في أن خطب ورسائل نهج البلاغة وكلماته القصار وردت (على ضوء جمعها من قبل المرحوم السيد الرضي) على نحو الروايات المرسلة؛ أي لم تذكر أسانيدھا بما يجعلھا متصلة بالمعصومين، وقد أدت هذه بدوره إلى تشكيك البعض أحياناً، ولا سيما بالنسبة لأولئك الذين ظنوا بأن نهج البلاغة وبفضل مضامينه العظيمة قد يكون سنداً لا ثبات حقانية مذهب الشيعة وأفضلية علي عليه السلام على جميع الصحابة؛ فاتخذوا ذلك ذريعة لفرض طوق من العزلة على هذا الكتاب في أوساط الرأي العام الإسلامي. وإن كانت هذه الزوبعة - ولحسن الحظ - لم يكن لها أدنى تأثير في أفكار علماء وأدباء الفريقين الذين كسروا حاجز الصمت وكالوا له المدح والثناء وخاضوا في شرحه وتفسيره، وقد مرت علينا نماذج من ذلك، مع ذلك نرى من الضروري الخوض في قضية أسناد النهج بغية إزالة الشك وإماطة اللثام عن حقيقة هذا الكتاب وهنا لا بدّ من الالتفات إلى أمرين:

١ - أن أغلب خطب نهج البلاغة ورسائله وكلماته القصار - إذا لم نقل جميعها سوى معشاره - إنما هي من قبيل المطالب المستدلة المبرهنة أو ذات الاستدلال المنطقي، بعبارة أخرى من قبيل «القضايا التي قياساتها معها». وعليه فهي ليست بحاجة إلى سلسلة السند بصفتها مباحث تعبدية، فالأعم الأغلب من المضامين وردت بشأن المعارف العقائدية من قبيل: المبدأ والمعاد والصفات وأدلة عظمة القرآن ونبي الإسلام ﷺ وما شاكل ذلك. كما وردت بعض المضامين كمواظب ونصائح ودروس وعبر بشأن حياة الأمم السابقة ونظم إدارة شؤون البلاد والحياة الاجتماعية والآداب ومسائل الجهاد وما إلى ذلك من المباحث المنطقية الاستدلالية الخاضعة للدليل والبرهان.

ولما كانت نتاجات كبار الفلاسفة وعلماء العلوم المختلفة وحتى النتاجات الأدبية الشعرية

لقطاحل الشعراء تؤخذ دون الحاجة إلى سلسلة الأسانيد، فإن هذا الأمر يجري على مضامين نهج البلاغة بما يجعله غنياً عن تلك السلسلة، وحقيقة الأمر أنها تحمل أدلتها معها «قضايا قياساتها معها». نعم هناك محور صغير في النهج قد عنى ببعض الأحكام الفرعية التعبدية، فإن كان من حديث عن السند، أمكن إقتصاره على هذا المحور والذي لا يشكل قطعاً عشر كتاب نهج البلاغة. ونخلص من هذا إلى عدم جدوى هذه الضجة المفتعلة بشأن أسانيد النهج، وهي زوبعة جوفاء عديمة الأثر.

٢ - بغض النظر عما سبق، فإننا لا نرى من عقبة في هذا الأمر حتى وإن اعتمدنا المعايير المتعارفة لحجية السند بالنسبة لنهج البلاغة؛ وذلك لأن المعيار الأصلي لقبول الحديث والرواية - على ضوء ما فرغ منه في علم الأصول وبرهن في محله - إنما يتأقن الوثوق بها من طرق مختلفة؛ فأحياناً يحصل الوثوق بالرواية من خلال سلسلة السند وثقة الرواة، كما يحصل أحياناً أخرى مثل هذا الوثوق بواسطة كثرة الرواة - وفي الكتب المشهورة والمعتبرة - وأخيراً قد يكون مضمون الرواية على درجة من العمق والرصانة على أنه إنما صدر من النبي ﷺ أو الإمام المعصوم؛ الأمر الذي يجعلنا نثق بهذه الرواية وهذا ما ذكره بالنسبة لزبور آل محمد ﷺ الصحيفة السجادية (إلى جانب الاسناد المعتبرة التي أوردها بهذا الشأن)، بفضلها ضمت أدعية رفيعة سامية ذات مضامين عميقة صدرت عن الإمام السجاد علي بن الحسين زين العابدين ﷺ. ولا شبهة ولا ريب أن من يتمعن في خطب نهج البلاغة ويستدبر مضامينها ويتأمل أسرارها، فإنه لا يملك سوى الازدعان بأن مثل هذه الكلمات محالة الصدور عن الإنسان العادي وأنها لم تصدر سوى عن النبي ﷺ أو امتداده الإمام المعصوم ﷺ.

وعلى حد تعبير كبار علماء الفريقين: «إن كلامه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق». وبناءً على هذا وعلى ضوء بزوغ الشمس دليل على وجودها، فإن مضمون نهج البلاغة دليل على اعتبار سنده وصدوره عن المعصوم ﷺ، واننا لنوقن بذلك على أنه لم ينسب لمعصوم سوى لعلي ﷺ. فن ذا الذي يحتمل أنه صدر من فرد عادي ثم نسبه لعلي ﷺ؟! إذا كان مثل هذا الابداع أو حتى عشر من أعشاره فلم لا ينسبه لنفسه ويفوز بهذا الشرف؟ وناهيك عما تقدم وعلى ضوء ما نعرفه عن شخصية «السيد الرضي» ووثاقته وعلو مقامه، فإننا نقطع بأنه لم

ينسبه إلى علي عليه السلام ما لم يكن قد رأى مصادره المعتمدة، فهو لا يقول روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال كذا، بل اعتاد القول «ومن خطبة عليه السلام ومن رسائله ومن كلماته القصار». فكيف وأنى لهذا العملاق أن يتحدث بهذه الثقة والقطع وينسب الكلمات لإمامه المعصوم دون أن يستند إلى أسناد معتبرة وردت بهذا الشأن؟! أضف إلى ذلك فقد دونت عدّة مصنفات قبل «السيد الرضي» ضمت أغلب خطب ورسائل نهج البلاغة والكلمات القصار؛ الأمر الذي يثبت أن هذه الكلمات كانت متداولة أيضاً - قبل السيد الرضي - ومعروفة بين العلماء والمحدثين والرواة وأحياناً بين عوام الناس.

ومن شأن هذه الشهرة أن تغنينا عن الاسناد. بل ذهب بعض كبار المؤرخين أن الخطب التي اشتهرت بين الناس كانت أكثر بكثير من هذا المقدار الذي جمعه «السيد الرضي» في نهج البلاغة، والواقع هو أن النهج عبقات من تلك الخطب. ومنهم المؤرخ المعروف «المسعودي» الذي عاش لقرن قبل «السيد الرضي»، الذي صرح في كتابه «مروج الذهب» بشأن خطب الإمام علي عليه السلام قائلاً: «والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربع مائة ونيف وثمانون خطبة»^١، والحال لا يضم النهج أكثر من مئتين وأربعين خطبة. ونقل العالم المعروف «السبط بن الجوزي» في كتابه «تذكرة الخواص» عن «السيد المرتضى» أنه قال: «بلغتني أربعة خطبة من خطب الإمام علي»^٢. وقال صاحب «البيان والتبيين» العالم المعروف: «كانت خطب الإمام علي عليه السلام مدونه ومحفوظة ومشهورة»^٣. وقال «ابن واضح» في كتابه «مشكلة الناس لزمانهم»: «لقد حفظ الناس الكثير من خطب الإمام علي عليه السلام، فقد ألقى أربعمئة خطبة حفظها الناس، وهي هذه الخطب المتداولة بيننا»^٤.

وهنا لا بدّ من القول بأن جمعاً من العلماء المعاصرين والفضلاء ألقوا كتباً كمصادر وأسناد لنهج البلاغة، حيث استخرجوا أسانيد الخطب من الكتب التي صنفت قبل «السيد الرضي» وصرحوا بها في كتبهم، من قبيل كتاب «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» تأليف العالم المحقق

١. مروج الذهب ٢/ ١٩٤، طبعة دار الهجرة قم.

٢. تذكرة الخواص ١٢٨/.

٣. البيان والتبيين ١/ ٨٣.

٤. مشكلة الناس لزمانهم ١٥/.

«السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب» الذي يجعل الباحث يقف على هذه الحقيقة، وهي أن السيد الرضي لم ينفرد قط بنقله لهذه الخطب.

يذكر أن هذا الكتاب يفيد بأن نهج البلاغة قد جمع من مئة وأربعة عشر كتاباً، وأن أكثر من عشرين منها قد دوت من قبل علماء كانوا يعيشون قبل السيد الرضي. ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المذكور حيث لا نرى المقام يسع للاستغراق أكثر من هذه العجالة. والذي تجدر الإشارة إليه هنا أن السيد الرضي قد استفاد من خمسة عشر كتاباً - ذكرها خلال بعض تعليقاته على كلمات نهج البلاغة - في جمعه لنهج البلاغة.^١

ونستنتج مما مرّ معنا خواء الشكوك التي نشأت من عدم وجود الأسانيد.

شروح نهج البلاغة

حديثنا الأخير في هذه المقدمة، كلام مختصر بشأن الشروح والتراجم التي أوردها علماء المسلمين بخصوص هذا الكتاب منذ عصر السيد الرضي حتى عصرنا الحاضر، ويبدو أن هذه الشروح إنما تتضاعف وتزداد كلما ابتعدنا أكثر عن عصر السيد الرضي، والسبب في ذلك يعود إلى تنامي المعرفة بهذا الكنز النفيس كل يوم، وما هذه المؤتمرات والندوات التي أقيمت وما

١.

١- البيان والتبيين للمجاهد.

٢- تاريخ الطبري.

٣- الجمل للواقدي.

٤- المغازي لسعيد بن يحيى الأموي.

٥- المقامات لأبي جعفر الاسكافي.

٦- المقتضب للمبرد.

٧- حكاية أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام.

٨- حكاية ثعلب عن ابن الاعرابي.

٩- خبر ضرار الضبابي.

١٠- رواية أبي جحيفة.

١١- رواية كميل بن زياد النخعي.

١٢- رواية مسعدة بن صدقة لخطبة الاشباح عن الصادق جعفر بن محمد.

١٣- رواية نوف البكالي.

١٤- ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام من غريب الحديث.

١٥- ما وجد بخط هشام بن الكلبي.

زالت تقام بخصوص نهج البلاغة إلا شهادة حية أخرى على صحة ما أوردناه. فقد أشار المرحوم العلامة الأميني في المجلد الرابع من كتابه الغدير في ترجمته لحياة المرحوم السيد الرضي إلى هذه المسألة وقال: «لقد كتب أكثر من خمسين شرحاً على نهج البلاغة منذ عصر المرحوم السيد الرضي لحد الآن...» ثم خاض في ذكر هذه الشروح، إلى جانب ذكر مؤلفيها وتاريخ وفاتهم، وبإضافة التراجم التي ظهرت في هذه الأواخر، فقد أحصى ما يقارب الحادي والثمانين ترجمة وشرحاً^١ وبالطبع فإن كل شرح من هذه الشروح (كتفاسير القرآن) قد سلط الضوء على جانب من جوانب نهج البلاغة، فقد خاض البعض في جانبه الأدبي بينما تناول البعض الآخر أبعاده التاريخية أو الفلسفية أو القضايا التربوية والاجتماعية وما إلى ذلك.

هذا وقد ذكر مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغة» أكثر من مئة وعشرة شروح وتفسير لنهج البلاغة، بينما ذكر بعض الفضلاء في كتبهم أسماء ثلاثمائة وسبعين كتاباً ألفت في شرح نهج البلاغة وترجمته وتفسيره^٢. وبالرغم من ذلك لا بد من الاعتراف بأن هذا الكتاب ما زال لم يظفر ببغيته من سبر أغواره والغوص في أعماقه من أجل استخراج كنه معانيه لتعالج متطلبات العصر والزمان وأنين البشرية، كيف لا وأبعاده كأبعاد شخصية علي عليه السلام التي لا يحيطها الكلام ولا يلم بتفاصيلها القلم والبيان. وهنا لا بد من القول بأن الشروح والتراجم المذكورة ليست واسعة كاملة، وأن بعضها قد اكتفى بمحور من محاور نهج البلاغة، ولم يشذ منها سوى النزر القليل من الشروح التي تعاملت بشمولية مع النهج ومنها:

١ - «أعلام نهج البلاغة» والذي اعتبره العلامة الأميني من أقدم شروح نهج البلاغة، ومؤلفه «علي بن الناصر» من معاصري المرحوم السيد الرضي.

٢ - «منهاج البراعة» لمؤلفه سعيد الدين هبة الله القطب الراوندي، وهو من أعلام القرن الهجري السادس.

٣ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي - من أعلام القرن السابع الهجري - وهو

١. الغدير ٤/ ١٨٦-١٩٣.

٢. المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة / ١٠ (جدير ذكره أن عدد الشروح التي وردت في مصادر نهج البلاغة مئة وواحد لا مئة وعشرة).

من الشروح المشهورة ويقع في عشرين مجلداً.

٤- شرح ابن ميثم البحراني - من علماء القرن السابع - وهو من الشروح الواسعة الرائعة.

٥- منهاج البراعة للمرحوم الحاج الميرزا حبيب الله الموسوي الخوئي، والمعروف بشرح

الخوئي، وهو من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجري.

٦- شرح «الشيخ محمد عبدة» من مشاهير علماء العامة الذي عاش في القرن الثالث عشر

الهجري.

وأخيراً لا يسعنا المقال لأن نذكر أسماء طائفة من الفضلاء المعاصرين الذين صنفوا

شروحاً عظيمة لهذا الكتاب النفيس. وما يجدر ذكره هو أنّ صاحب كتاب «الذريعة» الفاضل

المرحوم المحدث الطهراني قد ذكر مئة وأربعين شرحاً للنهج أوردتها علماء الشيعة، بينما أحصى

ستة عشر شرحاً لعلماء العامة، يعدّ أقدمها شرح الفخر الرازي المتوفى عام ٦٠٦ هـ.^١



لماذا جمعت نهج البلاغة

أما بعد حمد الله الذي جعل الحمد ثمناً لنعمائه، ومعاداً من بلائه، وسبيلاً إلى جنانه، وسبباً لزيادة إحسانه، والصلاة على رسوله نبي الرحمة، وإمام الأئمة، وسراج الأمة، المنتخب من طينة الكرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق. وعلى أهل بيته مصاييح الظلم، وعصم الامم، ومنار الدين الواضحة، ومثاقيل الفضل الراجحة صلى الله عليهم أجمعين، صلاة تكون إزاء لفضلهم، ومكافأة لعملهم، وكفاء لطيب قرعهم وأصلهم، ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع، فاني كنت في عنفوان السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السلام: يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام، وعاقبت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الأيام، ومساطلات الزمان. وكنت قد بوبت ما خرج من ذلك أبوباً، وفضلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب؛ دون الخطب الطويلة، والكتب المبسوطة. فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجبين ببدائعه، ومتعجبين من نواصحه، وسألوني عند ذلك أن أبتدىء بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه؛ من خطب، وكتب، ومواعظ، وأدب. علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدينيوية، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب؛ إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة

وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثله هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر. اعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة، مضافةً إلى المحاسن الدثرة، والفضائل الجمّة. وأنه عليه السلام انفراد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه فهو البحر الذي لا يساجل والجسم الذي لا يحافل وأردت أن يسوغ لي التمثل في الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المجمع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها: الخطب والأوامر، وثانيها: الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختبار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب. مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفضلاً فيه أوراقاً، لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عني عاجلاً، ويقع إليّ آجلاً. وإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض به، وأشدها ملاحظة لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كالم غير منتظمة؛ لأنني أورد النكت واللمع، ولا أقصد التسالي والنسق.

ومن عجائبه، عليه السلام، التي انفراد بها، وأمن المشاركة فيها، أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواج، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه كلام من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كسر بيت. أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلا حسّه، ولا يرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلاً سيفه، فيقطّ الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة، التي جمع بها

بين الأضداد، وألف بين الأشتات، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة بها.

وربما جاء في أثناء هذا الاختيار اللفظ المردد، والمعنى المكرر؛ والعذر في ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً؛ فربما اتفق الكلام المختار في رواية فنقل على وجه، ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعاً غير موضعه الأول؛ إمّا بزيادة مختارة، أو لفظ أحسن عبارة فتقضي الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيره على عقائل الكلام. وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أولاً فأعيد بعضه سهواً أو نسياناً، لا قصداً واعتماداً. ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب بـ«نهج البلاغة» إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليه طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويمضي في أثناءه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق، ما هو بلال كل غلة، وشفاء كل علة، وجلاء كل شبهة. ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، وأتنجّر التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان، قبل خطأ اللسان، ومن زلة الكلم، قبل زلة القدم؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

الخطبة ١

ومن خطبة له ﷺ

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة، وما تصدرها النهج إلا دلالة واضحة على براعة السيد الرضي في الاختيار. فالخطبة تتضمن الرؤية الإسلامية للصفات الكمالية والجمالية، ثم تشير إلى قضية خلق العالم بصورة عامة ومن ثم خلق السموات والأرض والملائكة، كما تخوض في خلق آدم ﷺ وتعرض لقصة سجود الملائكة وإعتراض إبليس وهبوط آدم ﷺ إلى الأرض. ثم يتطرق ﷺ إلى فلسفة بعثة الأنبياء ولا سيما خاتمهم نبي الإسلام ﷺ إلى جانب التحدث عن عظمة القرآن الكريم وأهمية سنة النبي ﷺ، كما يتوقف عند مسألة الحج من بين الأحكام الإسلامية كفرع من فروع الدين بصفته فريضة إلهية كبرى تختزن بعض الأسرار واللطائف، بالشكل الذي يمد المتتبع لهذه الخطبة برؤية شمولية لأهم القضايا الإسلامية، من شأنها تقديم الحلول لكافة المصاعب التي تنطوي عليها والتي تعترض سبيلها.

١. وردت هذه الخطبة (ليست بصورة كاملة بل بعضها) في عدة كتب قبل السيد الرضي (ره) وبعده. وكان ممن رواها قبله: ١- المرحوم الصدوق في كتاب التوحيد ٢- المرحوم ابن شعبة الحراني في كتاب تحف العقول. أما من نقلها بعده: ١- الواسطي في كتاب عيون الحكمة والمواعظ ٢- المرحوم الطبرسي في الاحتجاج ٣- ابن طلحة في كتاب مطالب السؤال ٤- القاضي القضاعي في دستور معالم الحكم ٥- الفخر الرازي في التفسير الكبير ٦- الرمخسري في ربيع الأبرار ٧- القطب الراوندي في منهاج البراعة ٨- المرحوم العلامة المجلسي في ج ٤، ١١، ١٨، ٥٧، ٧٧، ٩٢ و ٩٩ من بحار الأنوار. طبعاً هناك تفاوت بين العبارات التي وردت في الكتب المذكورة مع ما ورد في نهج البلاغة.

وأخيراً فالخطبة من وجهة نظر بمثابة فاتحة الكتاب، حيث تقدم صورة كلية عن المسائل التي درج عليها نهج البلاغة والتي وردت في المحاور الرئيسية لخطبه ورسائله وكلماته القصار. وقد قسمنا هذه الخطبة إلى خمسة عشر قسماً تناولنا كل قسم منه بالبحث بصورة مستقلة لنخلص إلى النتائج الكلية التي يمكن التوصل إليها من الخطبة كوحدة كاملة.



القسم الأول



يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحج وتحتوي على حمد الله وخلق العالم وخلق الملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبي والقرآن والأحكام الشرعية:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُونَ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بَعْدُ الْهِمَمُ وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّيَّاحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيِّدَانَ أَرْضِهِ».

﴿﴾

الشرح والتفسير

بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية

إن نظرة عابرة إلى مضامين هذه الخطبة تفيد إشارة الإمام علي عليه السلام إلى إثنتي عشرة صفة من الصفات الإلهية بتصوير فني رائع ونظم شاق:

في المرحلة الأولى يشير إلى كيفية عجز العباد عن إظهار المدح والثناء وأداء حق الشكر الإلهي (أشير في هذه المرحلة إلى ثلاثة أوصاف) ويبين في المرحلة الثانية عجز البشرية من الناحية الفكرية عن إدراك عظمة الله وكنه ذاته المقدسة (إشارة إلى وصفين في هذه المرحلة) وفي المرحلة الثالثة يورد الدليل على ما أشار إليه سابقاً والذي يكمن في خروج هذه الذات

عن الحدود وعدم تناهي نعمه وآلائه؛ الأمر الذي يستبطن ويعلل عجزنا عن إدراك ذاته القدسية واستحالة أداء حقّه في الشكر والحمد (وهو يشير في هذه المرحلة إلى أربعة أوصاف) وأخيراً يشير ﷺ في المرحلة الرابعة إلى خلق العالم والكائنات، وكأنه أراد أن يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهي أن معرفة الذات الإلهية إنما تقتصر على هذا السبيل، والذي يمثل منتهى قدرتنا واستطاعتنا (ويشير في هذه المرحلة إلى ثلاث من صفاته الفعلية).

ويقيد هذا الأمر أن الدقة والنظام هي الأسس التي استندت إليها هذه العبارات الرفيعة التي تضمنتها الخطبة التي أوردتها هذا المعلم الرباني.

الآن وبعد هذه النظرة العامة نعود إلى بحث وتفسير هذه الأوصاف الاثني عشر التي اشتملت عليها الخطبة:

فقد استهل الإمام ﷺ خطبته بحمد الله والثناء عليه مع التصريح بالعجز عن أداء حق الحمد، فقال ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ»^١.

وذلك لأن أوصافه «الكمالية» و«الجمالية» لا تعرف الحدود، فما يؤديه الملائكة والناس من حمد ومدح إنما يتوقف على مقدار معرفتهم بالذات المطلقة لا بمقدار كمالاته جل وعلا. وأنى لسائر الأفراد بزعم المعرفة وهذا النبي الكريم الذي يمثل أعظم أنبياء الله يظهر عجزه عن معرفة الخالق المتعال فيصرح قائلاً: «ما عرفناك حق معرفتك»^٢. فاذا عجز الإنسان عن معرفته فكيف يسعه حمده ومدحه؟ وعليه فان ذروة حمدنا، ما أورده الإمام ﷺ؛ أي إظهار العجز عن حمده وثنائه والاعتراف باستحالة بلوغ هذه الدرجة على جميع مخلوقاته سبحانه. فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق ﷺ أن الله أوحى إلى نبيه موسى ﷺ أن اشكرني

١. كثر الكلام بين اللغويين ومفسري القرآن ونهج البلاغة بشأن معنى الحمد والمدح والشكر، غير أن المشهور بينهم أن الحمد هو كل مدح إزاء الأعمال الحسنة الاختيارية؛ بينما ينطوي المدح على مفهوم أوسع يشمل الأعمال الاختيارية وغير الاختيارية، أما الشكر فأخص من المدح ويقتصر على إيصال أحدهم نعمة إلى آخر فيشكره على تلك النعمة. (من أراد المزيد فليراجع مجمع البحرين، لسان العرب، المفردات، شرح ابن الهيثم وشرح العلامة الخوئي). بينما صرح بعض مفسري القرآن ونهج البلاغة كالزمخشري في الكشف وابن أبي الحديد في شرحه أن «الحمد والمدح أخوان، لا فرق بينهما»، ويبدو أن التفسير الأول أصح.

٢. أورد العلامة المجلسي ضمن توضيحه لبعض الأخبار في البحار، تعليقاً على كلام المحقق الطوسي هذا الحديث «ما عبدناك حق عبادتك وما عرفناك حق معرفتك» دون ذكر سنده. بحار الانوار ٢٣/٦٨.

حق شكري. قال ﷺ: إلهي! كيف أؤدي حق شكرك، وشكرك نعمة تحتاج إلى شكر (وهكذا يكون التوفيق إلى الشكر نعمة أخرى تستحق الشكر). فقال: «يا موسى الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مِنِّي»^١.

وهنا لا بد من القول بأن الإنسان إذا ما قال: الحمد لله، فإنه أتى به كاملاً دون تقيصة، إلا أن يكون في حق الله، ولذلك جاء في الخبر أن الإمام الصادق ﷺ خرج من المسجد ولم يظفر بدابته، فقال ﷺ: إن أعادها لي الله شكرته حق شكره، فلم تمض مدة حتى أتى بها إليه فقال ﷺ: الحمد لله. فقيل له: جعلت فداك ألم تقل أشكره حق شكره؟ فقال ﷺ: ألم تسمع قولي الحمد لله.^٢

أما في الوصف الثاني فقد قال: «ولا يحصي نعمائه العادون». وذلك لأنَّ نعمه المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية والفردية والجماعية لأكثر وأعظم من أن تعدَّ وتحصى. فبدن الإنسان - على سبيل المثال - مؤلف ممَّا لا يحصى من الخلايا والأنسجة (يبلغ متوسطها عشرة مليارات) التي تشكل كل وحدة منها كائناً حياً ومركباً معقداً ونعمة من نعمه سبحانه والتي يتعذر إحصاء عددها في عشرات الآلاف من السنين، فاذا عجز الإنسان عن إحصاء نعم الله في هذا الجانب اليسير فقط، فكيف يسعه أن يحصي جميع هذه النعم والآلاء على المستويات المادية أو المعنوية؟ في الواقع ليس لدينا من علم بكافة نعمه ليتسنى لنا عدّها أو إحصائها. فأغلب نعمه قد أغرقت كياننا وأحاطت بوجودنا، وحيث لم نسلبها قط فقد غفلنا عنها ولم نحط بها (فلا يشعر بالنعمة إلا بعد فقدانها)، أضف إلى ذلك فإن ظفر الإنسان بالنعم والآلاء إنما يتناسب طردياً واتساع مدى علمه ومعرفته؛ الأمر الذي يؤدي إلى الازدعان - وكما قال أمير المؤمنين ﷺ - بهذه الحقيقة «ولا يحصي نعمائه العادون». ويمكن لهذه العبارة أن تكون علة للعبارة السابقة «لا يبلغ مدحته القائلون» إذ كيف يمكن حمد الله والثناء عليه في ظل العجز عن إحصاء نعمه! ويبدون أن هذه النعم ما زالت لا تعرف الحدود رغم الحالة المؤسفة في قيام بعض الظلمة والفئات النفعية باحتكار أغلب النعم أو تضييعها من خلال البذخ

١. اصول الكافي ٢/٩٨، ح ٢٧.

٢. المصدر السابق ١٩٧/٩٧، ح ١٨.

والاسراف والتبذير، وتعريض طبقات المجتمع للتعب والارهاق. ويقول ﷺ في الوصف الثالث: «ولا يؤدي حقه المجتهدون». وهذه الجملة في الحقيقة استنتاج ترتب على العبارة السابقة، فاذا تعذر إحصاء النعم فكيف يمكن أداء حقها؟ بعبارة أخرى فإن حقه بقدر عظمة ذاته القدسية، في حين شكرنا وحمدنا بقدر قدرتنا الزهيدة، فأين هذا الحمد من ذلك الحق! ولا يقتصر هذا المدح والثناء وأداء الحق على العجز في الجانب العملي فحسب بل هو قائم حتى من الناحية الفكرية.

ولذلك أردف ﷺ - وفي إطار بيانه لوصفين آخرين - قائلاً: «الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن^١». وكأن التعبير ب«بعد الهمم» و«غوص الفطن» إشارة إلى حقيقة مؤداها أن الأفكار الخارقة مهما انطلقت في قوس الصعود والظن المتوهجة في قوس النزول فأنها تبقى عاجزة عن إدراك كنه ذاته المقدسة. ولا يترك الإمام الاقرار بهذا العجز دون تقديم الدليل، فيقول: «الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت^٢ موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود».

أي أني لنا الاحاطة بكنه ذاته، والحال أن فكرنا بل جميع كياناتنا محدوداً لا يحسن سوى إدراك الأشياء المحدودة، بينما لا تعرف الذات الإلهية من حدود من جميع النواحي، فليس هنالك من حد أو وصف قابل للإدراك لصفاته المطلقة من الازل إلى الأبد والتي تأتي الاولية والاخرية والبدائية والنهاية. ولا يقتصر هذا الأمر على الذات، فصفاته هي الأخرى ليس لها من حدود، فعلمه لا يعرف الحدود، وقدرته لا متناهية، ولا غرو فصفاته عين ذاته التي ليس لها حد محدود.

بعبارة أخرى فإن الله وجود مطلق ليس له أي قيد وشرط، ولو كان لقيد أو شرط وحد من الحدود من سبيل إلى ذاته لأصبح مركباً، في حين نعلم بأن المركب - كما يقول الفلاسفة -

١. «همم» جمع همة تعني في الأصل الذويان والجريان والحركة ولهذا يطلق الهم حيث بسبب ذويان الجسم الإنسان وروحه، ثم أطلق على كل أمر مهم أو ما يشغل فكر الإنسان (ورد شبه ذلك في المفردات).

«غوص» تعني في الأصل الغمس في الماء، ثم أطلقت على الدخول في كل عمل مهم.
«فطن» جمع فطنة على وزن فتنة الفهم والذكاء حسب لسان العرب.

٢. «الأجل» بمعنى انتهاء الشيء، كعمر الإنسان وما إلى ذلك كالعقود والعهود.

يمكن الوجود لا واجب الوجود - وعليه فواجب الوجود ذات مطلقة غير محدودة في كافة أبعادها، ولذلك كان سبحانه وتراً واحداً ليس له كفوؤاً ولا شبيهاً، لاستحالة قيام وجودين مطلقين من جميع الجهات، وذلك لأنّ هذا التناقض إنّما يؤدي إلى محدودية الطرفين، فهذا فاقد لوجود ذلك، وذاك أيضاً فاقد لوجود هذا (تأمل هذا الموضوع).

وبعد أن تعرض الإمام عليه السلام لصفات الجبال والجلال (الصفات الثبوتية والسلبية)، أشار عليه السلام إلى جانب من صفاته الفعلية سبحانه، فقال: «فطر^١ الخلاق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد^٢ بالصخور^٣ ميدان^٤ أرضه». لقد استوحيت هذه التعبيرات من بعض الآيات القرآنية، فالبارة «فطر الخلاق بقدرته» مستوحاة من الآية الشريفة «فاطر السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» التي وردت في عدة سور قرآنية من قبيل: سورة يوسف / ١٠١ وسورة إبراهيم / ١٠٠ وسورة فاطر / ٣٥ وسائر السور المباركة.

والعبارة «نشر الرياح برحمته» من الآية الشريفة «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»^٥.

والعبارة «وتد بالصخور ميدان أرضه» من الآية ١٥ من سورة النمل «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ»^٦.

وبالالتفات إلى ما ذكرنا من معنى «فطر» فانه شبه الخلق بشق الحجاب الظلّهاني للعدم؛ الحجاب المتسق والمنسجم الذي لا شق فيه، غير أن قدرته المطلقة تشقه وتخرج منه المخلوقات، وليس من شأن أية قدرة سوى قدرته أن تفعل هذا. فقد اتفقت كلمة الفلاسفة والمفكرين على استحالة استحداثنا لشيء من العدم، أو تحويلنا من وجود إلى عدم، وكل

١. «فطر» من مادة «فطر» على وزن بمعنى شق الشيء من الطول ومنه الافطار في الصوم

٢. «وتد» من مادة «وند» (على وزن وقت) بمعنى إثبات الشيء ولذلك يطلق الوند على المسمار الذي يثبت في الأشياء ويمنحها الثبات أيضاً، وأحياناً يطلق «الوند» على وزن «الوقت».

٣. «الصخور» جمع «صخرة»، وقال صاحب لسان العرب تعني الحجر الكبير الصلب.

٤. «ميدان» من مادة «ميد» على وزن (صيد) بمعنى الحركة والاضطراب وميدان على وزن (ضربان) بهذا المعنى أيضاً و«ميدان» على وزن (حيران) وجمعه ميادين بمعنى الفضاء الواسع.

٥. سورة الأعراف / ٥٧.

٦. سورة النمل / ١٥.

مامن شأن قدرتنا فعله هو تغيير شكل الموجودات من شكل إلى آخر ولا غير! أما التعبير بالرحمة عن حركة الرياح فهو تعبير عذب رائع ينسجم ولطافة النسيم وهبوب الرياح وآثاره المختلفة من قبيل حركة السحب والغيوم نحو الأراضي القفار وتلقيح الأزهار ونمو النباتات واعتدال الجو وحركة السفن والفلك في البحر وانخفاض درجات الحرارة وسائر الخيرات والبركات المكنونة في هذه الحركة. أمّا عن كيفية توتيد الأرض بهذه الجبال والصخور، فالحق لا يمكن الآن قبول النظريات والاطروحات التي أوردها قدماء العلماء بهذا الشأن إثر قولهم بسكون الأرض وعدم حركتها، حتى جاءت النظريات الحديثة التي تنسجم مع الحقائق العلمية من جهة وتتفق والآيات القرآنية والروايات الواردة بهذا الخصوص من جهة أخرى، وذلك لأنه:

١- أنّ وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية يؤدي إلى الحد من آثار ظاهرة المد والجزر التي تشهدها اليابسة بفعل جاذبية الشمس والقمر. فلو اجتاحت الأراضي الرخوة سطح الأرض لأصبح المد والجزر كالبهار والأنهار بما يجعل من المتعذر العيش على هذه الأرض.

٢- أنّ جذور الجبال متصلة مع بعضها تحت القشرة الأرضية وكأنّها درع قد أحاط بالأرض، ولولاها لماجت الأرض وعاشت الحركة باستمرار وفقدت استقرارها بفعل الضغط الداخلي الذي تفرزه الغازات الداخلية والمواد المذابة. وما الزلازل التي تقع إلا نتيجة طبيعية لمثل هذا الضغط الذي يتجاوز الحدود المعينة، ولولا هذه الجبال لتواصلت هذه الزلزلة دون انقطاع.

وبناءً على ما تقدم فإن هذه الصخور (الجبال) إنّما توتد الأرض وتحول دون فقدانها لاستقرارها، وناهيك عمّا تقدم فإنّ الجبال تعدّ من أهم مصادر الحياة الجوفية للإنسان، وأنّ كافة العيون والأنهار إنّما تتبع من مصادر الجبال الجوفية وتلك التي على سطح الأرض.

ويتضح ممّا ذكرنا سابقاً بشأن الدور الحيوي الذي تلعبه الرياح والجبال في حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية، علة تأكيد الإمام على ﷺ هذين الأمرين بعيد الإشارة إلى مسألة الخلق والخلقة.

القسم الثاني

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ جَهَلَهُ وَمَنْ جَهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ عَدَّاهُ.»

❦❦❦

الشرح والتفسير

توحيد الذات والصفات

تمثل هذه العبارات دورة تربوية تامة في المعرفة الإلهية. فقد اعتمد أمير المؤمنين عليه السلام عبارات مقتضبة عميقة المعنى بحيث قدم صورة عن الحق تبارك وتعالى لا يمكن الإتيان بأحسن منها حتى ولو جمعنا كافة دروس التوحيد والمعارف إليها وجعلنا بعضها إلى جانب البعض الآخر، فأنها تعجز عن رسم مثل تلك الصورة.

فقد ذكر عليه السلام في هذا الجانب من خطبته خمسة مراحل لمعرفة الله يمكن إيجازها في مايلي:

١- المعرفة الإجمالية والناقصة

٢- المعرفة التفصيلية

٣- توحيد الذات والصفات

٤- الإخلاص

٥- نفي التشبيه

فقد قال عليه السلام مبتدأ «أول الدين معرفته». لا شك أن الدين هنا يعني مجموعة العقائد

والواجبات والوظائف والأخلاق، ومن المعلوم أنّ دعامتها الأساسية هي «معرفة الله»، وعليه فمعرفة الله تمثل الخطوة الأولى على الطريق من جانب والمحور الرئيسي لكافة أصول الدين وفروعه، وليس لهذا الدين من حيوية دون هذه المعرفة - أمّا أولئك الذين يعتقدون بأنّ هناك شيئاً آخر قبل معرفة الله، إلّا وهو النظر في طريق معرفة الله والتحقيق بشأن الدين ووجوب المطالعة، فهم على خطأ كبير. وذلك لأنّ وجوب التحقيق يمثل أول الواجبات، بينما تمثل معرفة الله أول دعامة للدين، أو بعبارة أخرى فإن التحقيق مقدمة ومعرفة الله أولى مراحل ذي المقدمة.^١

والنقطة الأخرى المفروغ منها هي أنّ المعرفة الإجمالية قد أودعت فطرة الإنسان ولا تتطلب أدنى تبليغ بهذا الشأن، وإنما بعث الأنبياء لاستبدال هذه المعرفة الإجمالية بتلك المعرفة التفصيلية الكاملة المتقنة وإغناء جوانبها وتطهير الفكر البشري من أدران الشرك وأرجاسه.



ثم قال ﷺ: «وكمال معرفته التصديق به». هنالك عدّة تفاسير للفارق بين التصديق والمعرفة. بادئ ذي بدء المراد هنا بالمعرفة هي المعرفة القطرية، والمقصود بالتصديق المعرفة العلمية والاستدلالية. أو أنّ المراد بالمعرفة هنا المعرفة الإجمالية، والمقصود بالتصديق المعرفة التفصيلية. أو أنّ المعرفة تشير إلى العلم بالله، والتصديق يشير إلى الإيمان، لأنّ العلم لا يفارق الإيمان، فالإنسان قد يوقن بشيءٍ إلّا أنّه لا يؤمن به قلبياً - بمعنى التسليم له والاذعان به قلبياً، أو بتعبير آخر الاعتقاد به - وأحياناً يضرب الفضلاء مثلاً لانفصال هذين الأمرين عن بعضهما، فيقولون: إنّ أغلب الأفراد يشعرون بالهلع ولا سيما في الليلة المظلمة حين البقاء إلى جانب ميت في غرفة خالية، رغم علمهم بأنه ميت، لكن كأن العلم لم يتفد إلى أعماقهم ويتسلل إلى قلوبهم، فلم يحصل ذلك الإيمان المطلوب وبالتالي فقد تمخض عن هذا الهلع والخشية. وبعبارة أخرى فإنّ العلم هو تلك المعرفة القطعية بالشيء، إلّا أنّها قد تكتسب صبغة

١. لقد ذهب المرحوم العلامة المعروف «محمد جواد مغنبة» في كتابه «في ظلال نهج البلاغة» إلى أنّ هذه المعرفة تعني الطاعة والانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهذا هو المعنى الذي اختاره من قبله الشارح الخوئي - رضوان الله عليه، فإن كان مرادهما الطاعة بالمعنى الشامل للكلمة بما فيها الأمور العقائدية صح ذلك، وإن اقتصر على الجوانب العملية فقط يرد عليهما ما أوردناه سابقاً.

سطحية فلا تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان وروحه، فاذا نفذت إلى أعماقه وبلغت مرحلة اليقين بحيث أذعن الإنسان بذلك قلبياً، فإن ذلك العلم يكتسب صفة الإيمان.



ثم قال ﷺ في المرحلة الثالثة «وكمال التصديق به توحيده». فما لاشك فيه أن الإنسان لم يبلغ مرحلة التوحيد الكامل على أساس معرفته التفصيلية لله أو بتعبير آخر بالمعرفة القائمة على أساس الدليل والبرهان. فالتوحيد التام في أن ينزه الذات الإلهية عن كل شبه ومثيل ونظير. وذلك لأن من جعل له شبيهه وصنوه لم يعرفه، فالله وجود مطلق غني بالذات عما سواه وليس كمثلته شيء، ومن طبيعة الأشياء التي لها أشباه وأمثال أن تكون محدودة، لأن أي من الشبهين منفصل عن الآخر وفاقد لكمالاته.

إذن فالإنسان لا يبلغ مرحلة الكمال إلا بالتصديق بذاته المنزهة في أنه واحد؛ واحد لا عن عدد، بل واحد بمعنى خلوه من الشبيه والمثيل.



ثم ينتقل الإمام ﷺ إلى المرحلة الرابعة وهي مرحلة الاخلاص فيقول: «وكمال توحيده الاخلاص له». والاخلاص من مادة الخلوص بمعنى تصفية الشيء عن الغير، بمعنى التصفية والتنزه. وهناك خلاف بين مفسري نهج البلاغة بشأن هذا الاخلاص، وهل المراد به الاخلاص العملي أم القلبي أم العقائدي. والمراد بالاخلاص العملي هو أن يعيش الفرد ذروة التوحيد الإلهي فلا يسأل سواه ولا يرى غيره فيما يقوم به من أفعال وأعمال. وهو الأمر الذي تناوله الفقهاء في بحث الاخلاص في العبادة، وقد أورد «الشارح الخوئي» (ره) هذا التفسير بصفته أحد الأقوال دون أن يذكر من قال به.^١

أما الاخلاص القلبي والذي عبر عنه «الشارح البحراني ابن ميثم» بالزهد الحقيقي فهو يعني توجه القلب إلى الله وعدم التفكير بما سواه، والانشغال بغيره^٢. إلا أننا نرى أن الاخلاص

١. منهاج البراعة ١ / ٣٢١. وقد نقل الشارح الخوئي بأن لصدر الدين الشيرازي مثل هذا الاعتقاد في شرح الكافي.

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١ / ١٢٢.

مفهوم عظيم وسامي لا ينسجم وما أورده الشراح في هذه العبارات، ومن المستبعد أن يكون هذا هو المراد به. أمّا المفهوم الوحيد الذي يناسبه هو تنزيه الاعتقاد بالله تبارك وتعالى؛ أي تنزيهه في وحدته عن كل شبيه ومثيل، إلى جانب تقديسه عن التركيب من الأجزاء.



وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى في المرحلة الخامسة حين قال: «وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه». وبعبارة أخرى فإن الحديث في المرحلة السابقة قد تناول الاخلاص على نحو الإجمال، فلما بلغ الاخلاص هنا مرحلة الكمال غاص في التفاصيل، ليتضح من ذلك أنّ الاخلاص في التوحيد يتطلب تنزيهه عن كافة الصفات التي يتصف بها المخلوق، سواء كانت هذه الصفات بمعنى التركيب من الأجزاء أم غيرها، وذلك لأننا نعلم بأنّ جميع الممكنات بما فيها العقول والنفوس المجردة هي في الواقع مركبة (على الأقل مركبة من الوجود والماهية) وحتى الجردات؛ أي الموجودات الخارجة عن المادة هي الأخرى ليست مستثناة من هذا التركيب، أمّا الموجودات المادية فكلها متركبة من الأجزاء الخارجية، لكن الذات الإلهية المقدسة لا تشمل على الأجزاء الخارجية ولا الأجزاء العقلية، لا يمكن تجزأته في الخارج ولا في إدراكنا وفهمنا. وكل من غفل عن هذه الحقيقة لم يظفر بالتوحيد الخالص، ومن هنا يتضح بأنّ مراده عليه السلام بقوله «كمال توحيد نفي الصفات عنه» ليس الصفات الكمالية؛ لأنّ كافة الصفات الكمالية من قبيل العلم والقدرة والحياة وما إلى ذلك من الصفات ثابتة له، بل المراد الصفات التي ألفناها وتعرفنا عليها وهي صفات المخلوقين المشوبة بالنقص. فالمخلوقات لها حظ من علم وقدرة، غير أنّ علمها وقدرتها محدودة ناقصة مشوبة بالجهل والضعف والعجز، بينما الذات الإلهية منزّهة عن مثل هذا العلم والقدرة وأفضل دليل على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام في ذيل هذه الخطبة بشأن الملائكة فوصفهم بقوله: «لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين». أضف إلى ذلك فإن صفات المخلوقات منفصلة دائماً عن ذواتها، أو بعبارة أخرى فإنّ صفاتها زائدة على ذواتها. فالإنسان شيء وعلمه وقدرته آخر، وبناءً على هذا فوجوده مركب من هذين الشيئين، والحال أنّ صفات الله عين ذاته وليس هنالك من سبيل لهذا التركيب. والواقع أنّ أعظم عقبة تعترض مسيرة التوحيد إنّما تكمن في قضية

«القياس»؛ أي قياس صفات الله بصفات المخلوقات المفعمة بأنواع النقص والعيب، أو الاعتقاد بالصفات الزائدة على الذات؛ الورطة التي وقعت فيها الأشاعرة «فرقة من المسلمين»^١.



ولذلك أورد الإمام عليه السلام قائلاً: «لشهادة كل صفة - من الممكنات - أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف - من الممكنات - أنه غير الصفة».

فكلامه عليه السلام دليل واضح وجلي في أنّ الصفات الزائدة على الذات تشهد بلسان حالها أنها غير الموصوف، وكل موصوف يشهد بأنه ليس من الصفات، اللهم إلا أن نقول بأن صفاته عين ذاته، ونؤمن بأن الله ذات جميعها علم وجميعها قدرة وجميعها حياة وأزلية وأبدية، وإن كان إدراك مثل هذا الاعتقاد متعذر علينا نحن المخلوقات الذين أنسنا بصفات المخلوق فقط ونرى أنّ الإنسان شيء وعلمه وقدرته شيئاً مضافاً للذات زائداً عليها، لأننا نلد من أمهاتنا وليس لنا من علم وقدرة ثم نحصل عليها لاحقاً.



ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ويردّها بعبارة قصيرة إلا أنها عميقة المعنى فيقول: «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله». فالواقع أنّ كلام الإمام عليه السلام يفيد أن اثبات الصفات التي تتصف بها المخلوقات لله يستلزم التركيب في وجوده سبحانه؛ أي كما أنّ المخلوق - الإنسان - مركب من الذات والصفات فإن الله مركب كذلك؛ بينما لا ينسجم هذا المعنى وواجب الوجود، لأن كل مركب يحتاج إلى أجزائه والحاجة تتناقض والغنى المطلق لواجب الوجود.

١. الأشاعرة هم أتباع «أبو الحسن الأشعري» الذين يؤمنون بالمعاني، والمراد بالمعاني هو أن مفهوم الصفات من قبيل العالمية والغالبية... كالذات الإلهية قديمة أزلية، كما أنها في نفس الوقت غير الذات الإلهية، وعليه فهم يعتقدون بأزلية بعض الأشياء، بعبارة أخرى يقولون بتعدد القدماء، وهي العقيدة التي تتنافى تماماً والوحدانية الخالصة، ولذلك ينفي أتباع أهل البيت عليهم السلام - على ضوء ما تلقوه عنهم من تعاليم كالذي جاء في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة وكلمات أئمة العصمة عليهم السلام - هذه المعاني التي تمثل الصفات الزائدة على الذات، وقد أشارت العبارة «لا شريك له ولا معاني» لهذا الأمر.

وهناك تفسيران آخران ذكرنا هذه العبارة:

الأول: أننا إذا اعتبرنا صفاته سبحانه غير ذاته، فإن ذاته ستكون مركبة، لأن الذات والصفات على فرض التناقض ستشتملان على جهات مشتركة ومتمايزة والذي يعبر عنه «ما به الاشتراك» و«ما به الامتياز». لأن كليهما مشترك في الوجود وفي نفس الوقت متمايزان عن بعضهما، وفي هذه الحالة لا بد أن نعتبر ذاته مركبة من جهتين مختلفتين أيضاً.

الثاني: أن تؤمن بوحدة الذات الإلهية، ولا نعني بها الوحدة العددية، بل يعني مفهوم الوحدة بالنسبة للذات الإلهية أنها منزهة عن الشبيه والمثيل والنظير. وبشكل عام فإن الوجود المطلق من كل الجهات يأبى أن يكون له شبيه ومثيل، فإن قلنا بأن صفات الله كذاته أزلية وأبدية ومطلقة، نكون قد حددناه سبحانه من جانب وقلنا بشبيه له من جانب آخر (لا بد من التأمل في هذا الكلام) وهذا هو المعنى الذي كشف عنه الإمام عليه السلام في إطار توضيحه للاخلاص، فقال «فمن وصف الله سبحانه» أي وصفه بصفات المخلوقين «فقد قرنه» بالأشياء الأخرى «ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه ومن جزاه فقد جهله» لأنه حين جزاه بمعنى جعل ذاته مركبة من أجزاء وحقاً لم يعرف الله من اعتقد بتركب ذاته؛ وذلك لأنه تصور كائناً على شاكلته - من حيث التركيب والمحدودية - وأسماء الله.



ثم يقول عليه السلام: «ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عدده». ويوجد احتمالان بشأن قوله عليه السلام: «ومن أشار إليه» الأول أن يكون المراد بها الإشارة العقلية، والثاني أن يكون المراد بها الإشارة العقلية والحسية. وتوضيح ذلك أن الإنسان إذا لم يعرف الله بتلك الحقيقة المطلقة اللامتناهية فإنه سيمتلك في ذهنه مفهوماً محدوداً وخاصاً عنه سبحانه، أو بتعبير آخر فإنه سيشير إليه بالإشارة العقلية، وبالطبع سيكون محدوداً في هذه الحالة تصوراً، وذلك لتعذر إدراك وتصور اللامحدود واللامتناهي على الإنسان المحدود والمتناهي. فالإنسان إنما يدرك ما يحيط به من أشياء يسعه تجسيمها في فكره المحدود، وبالطبع فإن مثل هذه الموجودات محدودة. وعلى هذا الضوء فإن الله سيكون في مصاف المعدودات والأشياء القابلة للعدد، لأن من لوازم المحدود هو إمكان تصور موجود آخر في موضع آخر مثله.

والأول الوحيد الذي ليس له ثان من كان غير محدود من جميع الجهات ولا يسعه العدد. وعلى هذا الأساس فإن مولى الموحدين - علي بن أبي طالب (عليه السلام) - قد عكس حقيقة التوحيد في هذه العبارة القصيرة ذات المعنى العميق، فوصف البارئ سبحانه بما يفوق الخيال والقياس والظن والوهم. وهي ذات الحقيقة التي كشف النقاب عنها الإمام الباقر (عليه السلام) حين قال: «كل ما ميزتموه باوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»^١.

والاحتمال الآخر مازال قائماً بأن يكون المراد «بالإشارة» الإشارة العقلية والإشارة الحسية أيضاً؛ وذلك لأن الله ليس بجسم ولا عرض والاعتقاد بجسمية الله جهل محض، ونتيجة ذلك كون الذات الإلهية محدودة لأن كل مشار إليه فهو محدود، فالمشار إليه لا بد أن يكون في جهة مخصوصة، وكل ما هو في جهة فله حد وحدود.

سؤال

هنا يبرز سؤال يطرح نفسه: إذا تعذرت حتى الإشارة العقلانية لله، فإن معنى ذلك تعطيل معرفة الله وإغلاق أبواب المعرفة بوجه الإنسان وبالتالي سوف لن يكون هناك من مفهوم لمعرفة الله. وذلك لأننا كلما حاولنا التوجه إلى تلك الذات المقدسة ارتطمنا بمخلوق من نسج أفكارنا، كلما أردنا الاقتراب منه لم نزد إلا بعداً عنه، فما أحرانا والحالة هذه الا تقتحم ميدان المعرفة بغية عدم الابتلاء بالشرك.

الجواب

إن الجواب على هذا السؤال يتضح من خلال الإلتفات إلى نقطة مهمّة - من شأنها أن تحل المشكلة هنا وفي سائر الموارد - وهي أن المعرفة على نوعين: معرفة إجمالية ومعرفة تفصيلية، أو بتعبير آخر معرفة كنه الذات ومعرفة مبدأ الأفعال. فإنا حين نتأمل عالم الوجود بما يضم من العجائب والغرائب والكائنات بتلك الروعة والجمال والعظمة، بما في ذلك وجودنا نحن الأفراد لنشعر بأن هنالك خالقاً ومدبراً لهذا الكون وهذا هو العلم الإجمالي الذي يمثل ذروة معرفة الإنسان بالله (غاية ما في الأمر أننا كلما تعرفنا أكثر على أسرار الوجود وقفنا بصورة

أعمق على عظمته وتعززت به معرفتنا الإجمالية أكثر فأكثر) إلا أننا حين نعود بالسؤال لأنفسنا عن ماهيته وكيفيته ونحاول الاقتراب من حقيقة ذاته المقدسة لا نخطئ سوى بالحيرة والغموض؛ الأمر الذي يجعلنا نقول بأن السبيل إليه مفتوح على مصراعيه وفي نفس الوقت مؤصد ومغلق تماماً.

وهنا يمكننا إيضاح هذه المسألة بمثال بسيط. فالكل يعلم بوجود قوة الجاذبية؛ لأن كل جسم يترك في الهواء يسقط إلى الأرض بفعل جاذبيتها، ولولا هذه الجاذبية لانعدم استقرار الأجسام على سطح الكرة الأرضية. ولا تقتصر معرفة الجاذبية والعلم بوجودها على العلماء، بل يدركها حتى الصبية والأطفال؛ ولكن ماهى حقيقة الجاذبية، هل هى أمواج لا مرأية أم ذرات مجهولة أم قوة أخرى؟ والعجيب أن قوة الجاذبية وخلافاً لكل ما نعرفه من قوانين عالم المادة، يبدو أنها لا تحتاج من زمان للانتقال من نقطة إلى أخرى، بل على خلاف الضوء الذي يمثل أسرع حركة في عالم المادة، في حين قد يحتاج إلى مدة زمنية تصل إلى ملايين السنين الضوئية للانتقال في الفضاء من نقطة معينة إلى نقطة أخرى. إنا قوة الجذب فتنتقل في لحظة من أية نقطة في العالم إلى أخرى، أو أنها تمتلك حد أقل من السرعة يفوق ما سمعناه لحد الآن. فما هذه القوة التي تمتلك مثل هذه الآثار؟ وما حقيقة كنه هذه القوة؟ ليس هنالك من يسعه تقديم جواب شاف لهذه الاسئلة. فاذا كان علمنا ومعرفتنا بشأن القوة الجاذبة - التي تعتبر أحد المخلوقات - تقتصر على المعرفة الإجمالية دون المعرفة التفصيلية، فأنى لنا توقع المعرفة بكنه الذات المقدسة لخالق عالم المادة وما ورائها من وجودات لا متناهية؟! لكن مع ذلك فاننا نراه حاضراً وناظراً في كل مكان ومقارناً لكل وجود في العالم. إنا العبارة «ومن حده فقد عده» فهى إشارة إلى أمر مهم يتضح من الكلام السابق وهو أن من حد الله وجب عليه أن يراه محدوداً، وعبارة أخرى فانه يعتقد بإمكانية وجود الشريك له. لأن المطلق من جميع الجهات فقط هو الذي يأبى الشبيه والمثيل والشريك؛ بينما إن كان محدوداً (مهما كانت عظمته وقدرته) كان له شبيهاً ومثيلاً خارج ذاته، وبتعبير آخر فليس هناك من ضير في تصور موجودين محدودين أو أكثر (مهما بلغ كبرهما)، بينما يستحيل تصور وجود ثان للمطلق من كل الجهات؛ وذلك لأن كل ما يتصور إنما يعود إلى ذاته.

القسم الثالث

«وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ «عَلَامٌ»؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لَأَعْنُ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَأَعْنُ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَأَبْمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَأَبْمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَأَبِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَأَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَأَسَكَنٌ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ».



الشرح والتفسير

ليس كمثله شيء

لقد تعرض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى عدّة نقاط حساسة ودقيقة بشأن مباحث التوحيد بكلمات قليلة ومعان عميقة يمكن إيجازها في خمس:

١ - كون الذات الإلهية المطلقة منزهة عن المكان، فقد قال عليه السلام: «ومن قال فيم؟ فقد ضمنه». فالكلمة (في) إنما تستعمل بشأن المكان الذي يحوي الشيء ويحيط به، من قبيل قولنا فلان في الدار، والورد في البستان وما إلى ذلك، ونتيجة ما تقدم هو محدودية ذاته سبحانه، بينما أشرنا سابقاً إلى أن كافة أدلة التوحيد تفيد كون الذات المقدسة مطلقة من جميع الجهات.

وهكذا من سأل «علام» بشأن الله؟ (على العرش، على الكرسي، على السموات) فقد حده لأنه أخلى منه سائر المواضع «ومن قال علام؟ فقد أخلى منه». فمثل هذه الأسئلة تستلزم كون الذات القدسية محدودة، وهذا مالا ينسجم وكونه واجب الوجود. وبناءً على هذا فكل من تصوره على العرش أو على السموات أو أي مكان آخر فقد جرد نفسه من التوحيد الخالص، وفي الواقع فأنه يعبد مخلوقاً من نسج خياله الفكري ويسميه الله. فقد ذهب بعض الجهال إلى

أن الشريفة «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^١ دليل على جسمية الله وأنه على العرش، بينما تفيد كلمة «استوى» معنى السيطرة على الشيء ولا تقتصر على معنى التربع على الشيء أو الاستقرار عليه، بل هناك تعبير كنائي معروف ومتداول بشأن تزعم الأمور والأخذ بزمامها في مقابل اعتزال السلطة وانفلات القدرة، فيقال «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» في مقابل «ثل عرشه» ولا يراد كسر عرش السلطة أو التربع عليه. وعليه فالذي تفيد الآية الكريمة «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» هو استقرار حكومته وسلطته سبحانه على العرش. على كل حال يبدو من السذاجة والسخرية الاستدلال بهذه الآية على جسميته سبحانه.

٢- يشرح الإمام عليه السلام في هذه العبارة «كائن لا عن حدث» أزليته سبحانه وكون ذاته غنية عن الحدود من ناحية الزمان، ثم يقول عليه السلام: «موجود لا عن عدم» وهذا هو الفارق بينه وبين جميع المخلوقات المسبوقة بالعدم والحدوث، بينما لم تسبق الذات الإلهية بمثل ذلك العدم والحدوث. بل لا يمكن وصفه بصفتي «الكائن» و«الموجود» دون تنقية مفهومها من صفات المخلوقات المسبوقة بالعدم.^٢

٣- العبارة الأخرى تضمنت إشارة رائعة إلى كيفية الرابطة السائدة بين المخلوقات والخالق والممكنات بواجب الوجود، حيث قال عليه السلام: «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة». لقد ذهب أغلب الناس وحتى أغلب الفلاسفة والعلماء إلى أن الرابطة التي تسود المخلوقات بالله، هي رابطة بين وجودين مستقلين في أن أحدهما مخلوق للآخر، كوجود الشعلة العظيمة والشعلة الصغيرة التي توقدها من تلك الشعلة، في حين الحقيقة شيء آخر

١. سورة طه / ٥.

٢. لقد ذهب بعض شراح النهج إلى أن العبارتين المذكورتين إنما تبيينان موضوعاً واحداً، بينما اعتبر البعض الآخر - مثل ابن أبي الحديد - أن قوله عليه السلام: «كائن لا عن حدث» إشارة إلى الحدوث الزماني في العبارة الأولى، ولم ينف حدوثه الذاتي إلا في كلمته الثانية بغض النظر عن الزمان لأنه واجب الوجود. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١ / ٧٩). في حين ذهب آخرون إلى عكس ذلك ففسروا العبارة الأولى بنفي الحدوث الذاتي أو الذاتي والزماني، والعبارة الثانية بنفي الحدوث الزماني. (شرح نهج البلاغة لابن ميشم، ١ / ١٢٧). ولكن لم يقم دليل واضح على أي من هذا التفاوت، لأن مفردة الحدوث عادة ما تطلق على الحدوث الزماني، كما يمكن حملها على الحدوث الذاتي أيضاً، وهكذا يمكن إطلاق نقطة العدم على العدم الذاتي والتي غالباً ما تطلق على العدم الزماني. وعليه تبدو هاتان العبارتان متأكدتان في معناهما وهو نفي الحدوث الزماني والذاتي؛ على أنهما تنفيان أي حدوث وعدم عن الذات الإلهية سواء بالنسبة للذات والزمان.

تماماً. فالفارق بين المخلوق والمخالق هو ليس من قبيل الفارق بين وجود ضعيف وقوي قط، بل الفارق هو فارق بين وجود مستقل من جميع الجهات ووجود تابع. فعالم الوجود برمته تابع له ويتغذى في كل آن من نور وجوده عليه. فإله سبحانه ليس منفصلاً عن عالم الوجود كما أنه ليس عين الموجودات (كما ذهب إلى ذلك الصوفية التي تقول بوحدة الوجود والموجود)، وأن التوحيد الواقعي إنما يتوقف على إدراك هذه الحقيقة. ويمكن إيضاح هذه الحقيقة بهذا المثال (رغم النقص الذي يشوب مثل هذه الأمثلة). فشعاع الشمس رغم وجوده وكونه غير قرص الشمس، إلا أنه متصل بها تابع لها، هو غيرها لكن لا على نحو المغايرة وبمعنى الانفصال والاستقلال، ومعها ولكن ليس بمعنى الالتحام والاتحاد. وهما لا شك فيه أن ارتباط موجودات هذا العالم بالذات الإلهية المقدسة أكثر قرباً وتبعية مما صدره هذا المثال، والحق لا يمكن العثور على مثال دقيق في هذا العالم لتصوير عمق هذه التبعية والوحدة وفي نفس الوقت الثنائية (أي الوحدة في الكثرة). رغم أن الأمثلة ومنها المثال المذكور - أو كالتصورات الذهنية للإنسان التابعة من روحه وغير المنفصلة عنها وفي نفس الوقت تابعة لها وليس لها من مفهوم دونها - يمكنها أن توضح إلى حد ما هذا الموضوع.

٤ - تناول الإمام عليه السلام صفة أخرى من صفات الذات الإلهية المقدسة، فقد قال عليه السلام: «فاعل لا بمعنى الحركات والآلة». لقد جرت المحاورات اليومية عادة على الاصطلاح بالفاعل على الفرد الذي يقوم ببعض الأعمال من خلال حركات اليد والرجل أو الرأس والرقبة وسائر الأعضاء، ولما كانت قدرة الإنسان وسائر الكائنات محدودة وتعذر الإتيان بكافة الأفعال والأعمال على هذه الأعضاء، فإنه يستعين ببعض الوسائل والأدوات ليسد بها ذلك النقص الذي يشوب قدرته، فهو يستعين بالمطرقة لدق المسامير، وبالمناشير لنشر الخشب وبالمكائن والآلات الضخمة لنقل الأحمال الثقيلة من مكان إلى آخر، وكل هذه الأمور هي من آثار الأجسام والجسمانيات.

ولما كان الله منزهاً عن الجسمية، وقدرته غنية مطلقة خارجة عن الحد والحدود فإن فاعليته لا تعني القيام بالحركات أبداً، كما أن قدرته المطلقة أغنته عن الاستعانة بالأدوات والآلات. فإله سبحانه فاعل قبل أن تخلق الآلة ولو كان محتاجاً للآلة لعجز عن خلقه لاولى

الأشياء، وبعبارة أخرى فإن فعله إبداع. نعم فهو قادر على خلق عالم الوجود أو اعدامه في طرفة عين أو أقرب بإرادته وقوله (كن)، كما له خلقه تدريجياً أو في أية مدة نبتغيها إرادته. والذي يجدر الالتفات إليه هنا هو أننا حين نصفه سبحانه بأنه فاعل فلا ينبغي أن نقارن فاعليته بذواتنا وأنها تستعين بالادوات والآلات. وبالطبع فإن هذا الكلام لا يعني أن ليس لله من ملائكة تتولى تدبير الأمر والتي وصفها القرآن ﴿...فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

فقد جرت عادته على ايجاد الحوادث عن طريق الأسباب، لان إرادته شاءت ذلك لا محتاج لها.

٥- ثم قال الإمام عليه السلام: «بصير إذ لا منظور إليه من خلقه».

صحيح أن مفردة بصير مشتقة من مادة البصر، إلا أنها تطلق بالمعنى المجازي على الله سبحانه لا الحقيقي. فكونه بصيراً يعني علماً بجميع الأشياء القابلة للرؤية وحتى الأشياء التي ترى ولم تخلق بعد. وبناءً على هذا فإن بصيرته تعود إلى علمه اللامتناهي، حيث نعلم جميعاً بأن علمه أزلي. وأخيراً فقد تحدث الإمام عليه السلام عن وحدانيته سبحانه في غناه عن الأنيس فقال: «متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده»^١

وتوضيح ذلك هو أن الناس وسائر الكائنات الحية وبحكم كون قدرتها محدودة في نيل المنافع ودفع الاضرار فإنها مضطرة للاستعانة ببني جنسها ومن غيرها لتشعر بالأمن تجاه بعض الأخطار التي تهددها. وهنا يتفاقم شعور الإنسان بالاستيحاش لوحدته، بينما يأنس بوجود سائر الأفراد إلى جانبه ولا سيما أثناء تعرضه للأخطار والآفات والبلايا والأمراض والأوبئة. وأحياناً يندفع الإنسان الضيق النظر ليقارن الله بنفسه فيشعر بالدهشة والذهول كيف يكون الله وحيداً قبل ايجاده لهذه المخلوقات، وكيف لا يكون له من أنيس يسكن إليه، وأخيراً كيف يشعر بالاستئناس بهذه الوحدة؟! غافلاً عن أنه وجود مطلق لا يحتاج الاستعانة

١. هناك احتمالان بشأن «إذ» الواردة في العبارة؛ الاحتمال الأول: هل هي ظرفية تشير إلى عدم وجود شيء خلق في الأزل ولم تكن سوى ذاته المقدسة ليأنس بها ويستوحش لفقدها؟ أم إن «إذ» هنا بمقام التعليل، يعني كان وما زال واحداً لأنه لم يكن هناك من وجود، حيث لا يحتاج إلى أحد؟ يبدو أن الاحتمال الثاني هو الأقوى، كما إن «لا» في قوله «لا يستوحش» زائدة وردت للتأكيد، بينما ذهب البعض إلى أنها جملة استثنائية.

بأحد، وليس له من خشية لعدو ليستعين عليه بظهير، كما ليس له من صنو يستأنس به. ولذلك كان وسيكون متوحداً.

ويتضح مما ذكرنا سابقاً أن لمفردة «المتوحد» مفهوم يختلف عن مفهوم «الواحد» و«الأحد».

تأملات

لقد تضمنت هذه العبارات العميقة المعاني والعظيمة المضامين عدّة معطيات ودروس قيمة من شأنها حل أغلب المشاكل العقائدية على مستوى «معرفة الله وأسمائه وصفاته» ومنها:

١ - علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»

لقد كثرت الكلام في أوساط الفلاسفة والعلماء بشأن كيفية الرابطة بين الخالق والمخلوق، فقد أفرط البعض منهم حتى اعتقد بأن الخالق هو عين المخلوق إثر رؤيتهم القائمة على أساس وحدة الوجود والوجود. فهم يقولون ليس هنالك أثر من وجود شخصي واحد في عالم الوجود وكل ماسواه ترشحات من ذاته، أو بتعبير آخر: هناك شيء واحد فقط أمّا الكثرة والتعدد فهي خيالات وظنون وسراب يحسبه الظمان ماء. أحياناً يستعيضون عن الوحدة والاتحاد بقولهم بالحلول على أنه ذات حلت في كافة الأشياء وتتخذ لها شكلاً في كل وقت بينما يشعر الجهال بالازدواج والحال ليس الكل إلا شيء واحد لا غير.^١ وزبدة القول أنهم يرون عالم الوجود بمثابة بحر وقطراته سائر الموجودات. وبعبارة أخرى فإن أي ازدواجية في هذا العالم ليست سوى ضرباً من الخيال والوهم. بل يعتقد البعض منهم أن الفرد لا يعدّ صوفياً

١. هذه هي عقيدة أغلب المتصوفة، وشاهد ذلك العبارة المشهورة التي يطلقها زعماء هذه الفرقة «إني أنا الله وأعظم من ذلك ما يرددوه من قولهم «سبحاني ما أعظم شأنني»، أمّا البعض الآخر فقد نظم أبياتاً من الشعر وصرح فيها بقوله «أن الصنمية والوثنية هي ذات العبودية» كما ورد في الأشعار الطائشة للمولوي التي تصور الله بشكل صنم عيار (وهو عبارة عن موجود مشكوك) يتلبس يوماً بهيئة آدم ويوماً بهيئة نوح وآخر موسى وعيسى وأخيراً بشكل محمد ﷺ كما يتلبس بهيئة علي وسيفه ذو الفقار وبالتالي بشكل منصور الذي اعتلى أعواد المشتقة! (نقلًا بتلخيص عن العارف الصوفي وماذا يقولان / ١١٧).

حقيقياً ما لم يؤمن بوحدة الوجود والموجود، وذلك لأنّ وحدة الوجود تشكل الركيزة الأصلية لقضية التصوف!

وبالطبع فإنّ بعض كلماتهم يمكن حملها على المعاني الصحيحة والصائبة من قبيل أنّ الوجود الحقيقي القائم بالذات في العالم واحد وكل ما سواه تابع له مستمد وجوده منه (كما أوردنا ذلك سابقاً في التشبيه بالمعاني الأسمية والحرفية) أو كل ما عدا الذات الإلهية المقدسة - الوجود المطلق من جميع الجهات - يمثل موجودات صغيرة ضئيلة ليس لها شأن يذكر ولكن لا يعني ذلك أنّها لا تمتلك وجوداً واقعياً حقيقياً. ولكن الذي لا شك فيه هو أنّ بعض أقوالهم وعقائدهم لا يمكن تبريرها والتماس التفسير الصائب لها، فهم يصرحون بأن ليس في عالم الوجود أكثر من وجود واحد وكل ما سواه سراب وخيال، وأبعد من ذلك تصرّحهم بأنّ الوثنية وعبادة الأصنام لو خرجت عن شكلها المحدود فهي عين عبادة الله، لأنّ كل العالم هو، وهو كل العالم. فهذا الكلام يستتبع لوازم فاسدة ليست بخافية على أحد على ضوء العقائد والتعاليم الإسلامية، ناهيك عن تعارضها والوجدان بل البديهيات وانكارها للعلة والمعلول والخالق والمخلوق والعابد والمعبود، وذلك لأنّه لم يعدّ هناك من مفهوم للفارق بين المعبود والعبد والشارع والمكلف، بل حتى الجنّة والنار وأهلها، فكلها واحدة وكلها عين ذاته وما هذه الكثرة والتعدد الا وهم وخيال ولو أزيلت هذه الغشاوة عن أبصارنا فسوف لا نرى إلاّ وجوده سبحانه! إلى جانب ذلك فان من لوازم ذلك القول بجسمية الله والحلول وما إلى ذلك. وعليه فعقائدهم لا تتسجم مع الوجدانيات والأدلة العقلية ولا تتفق مع العقائد الإسلامية وتعاليم القرآن الكريم، ومن هنا انبرى المرحوم المحقق اليزدي (ره) - الفقيه المعروف - ليكتب في عروته الوثقى في مبحث الكفار: «لا إشكال في نجاسة الغلاة^١ والخوارج والنواصب وأما المجسّمة والمجبّرة والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلا مع العلم بالتزامهم بلوازم مذهبهم من المفاصد»^٢.

١. «الغلاة» هم المغالون في الأئمة عليهم السلام ولا سيما علي عليه السلام فعدوه هو الله أو أنّه اتحد به. و«الخوارج» هم أصحاب النهروان الذين أسماهم النبي صلى الله عليه وآله بالمارقين وقد قتلهم الإمام شرقتلة في النهروان. وأما «النواصب» فهم أعداء أهل البيت عليهم السلام.

٢. العروة الوثقى، بحث نجاسة الكافر، المسألة ٢.

وتتضمن المسألة أمرين مهمين يجدر الالتفات إليهما: أحدهما عطف أصحاب عقيدة وحدة الوجود على المجبرة والمجسمة وجعل الجميع بمنزلة واحدة، والآخر بان عقائدهم تنطوي على مفاسد دينية إذا التزموا بها خرجوا من ريقة الإسلام وإن لم يلتزموا بها فهم مسلمون. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك أن مذهب هؤلاء يتصف ببعض المفاسد التي يؤدي الالتزام بها إلى الخروج عن صف المسلمين. أما الجدير بالذكر هو أن كافة العلماء الذين كتبوا حاشية على العروة الوثقى - حيث جرت عادة العلماء الكشاف عن اجتهادهم وقدرة استنباطهم للأحكام الشرعية من مصادرها المقررة على كتابة تعليقة على العروة الوثقى - قد أقرروا بما أورده صاحب العروة أو أضافوا لما ذكره بعض القيود (من قبيل قولهم بما لا يوجب إنكار التوحيد والرسالة) ^١.

وللوقوف على عمق المفاسد التي انطوت عليها هذه المسألة، نرى من الضروري هنا الإشارة إلى نموذج ورد في دفتر الرابع للشاعر المثنوي حين نقل قصة طويلة بشأن قول «بايزيد» سبحاني ما أعظم شأني، فقد واجه اعتراضاً من صحبه، فقال لهم: «لا إله إلا أنا فاعبدون» فقالوا له ما تقول؟! قال: سأقول ذلك ثانية فاحملوا السكاكين واطعنوني بها. فشهّر صحبه سكاكينهم وجعلوا يطعنونه، إلا أنهم شعروا بأن كل طعنة كانت تمزق أجسادهم لا جسده. فهذه الاسطورة الخرافية من شأنها الإشارة إلى مدى الاندفاع والتيه الذي بلغه أصحاب هذا المسلك.

وأخيراً نختتم هذا الموضوع بما أورده أحد المعاصرين من شراح نهج البلاغة إذ قال بهذا الخصوص: إن هذا المذهب (القائل بوحدة الوجود بمعنى وحدة الوجود) إنما يستنكر لكافة القوانين العقلية والأسس الوجدانية وروح الأديان الإلهية، ويرفع من شأن عالم الوجود ليبلغ به المرتبة الوجودية الإلهية أو ينزل بالوجود الإلهي إلى الحضيض فيسويه بسائر مخلوقاته، ويبدو أن مثل هذا المذهب إلى الأذهان والأذواق والهروب من الإشكالات أقرب منه إلى التعقل والالمام بالواقعيات. ^٢

١. للوقوف على المزيد راجع كتاب مصباح الهدى ١/ ٤١٠ للمرحوم آية الله الشيخ محمد تقي الأملي (الفقير والفيلسوف المعروف) وكذلك تقريرات المرحوم آية الله الخوئي ٣/ ٨١-٨٢.
٢. ترجمة وتفسير نهج البلاغة، الاستاذ الجعفري ٢/ ٦٤.

٢- انحراف الجاهل عن حقيقة صفات الله

لو تأملنا بدقّة وأجلنا الفكر في كلماته ﷺ لاكتشفنا مدى قطعه الطريق أمام أي انحراف عن مبدأ التوحيد وحقيقة صفات الله، واتضح لدينا المفهوم الحقيقي لقوله سبحانه وتعالى «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»^١ و«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ»^٢ و«وَمَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ»^٣ و«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^٤ و«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ»^٥ وما إلى ذلك من المضامين القرآنية الشريفة.

فهذه المسألة وإضافة لكاها الأبحاث المتعلقة بوحدة الوجود - بمعناها الصحيح - من شأنها أن تقف حائلاً أمام أي انحراف في فهم الصفات الإلهية. إلا أن أصحاب الضلالة قد وطأوا وادياً لا يجز عليهم سوى الخجل والخيبة، ومنهم طائفة «المجسمة» التي أضفت صفات الممكنات على الله تبارك وتعالى فصوروه كجسم من الأجسام وقد انطوى على بعض الأعضاء من قبيل الجسم واليد والرجل والشعر المجدد ومن باب أولى أن يحدوه بالمكان والزمان فذهب البعض إلى إمكانية رؤيته سبحانه في الدنيا، بينما اقتصر بها البعض الآخر على الآخرة.

فقد قال المحقق الدواني - من مشاهير الفلاسفة - طبق نقل بحار الأنوار - أن: «المشبهة منهم من قال: إنه جسم حقيقة، ثم افترقوا فقال بعضهم: إنه مركب من لحم ودم وقال بعضهم: هو نور متلألئ كالسبيكة البيضاء، طوله سبعة أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنه على صورة إنسان، فمنهم من يقول: إنه شاب أمرد جعد قطط، ومنهم من قال: إنه شيخ أشمط الرأس»^٦.

والأدهى من ذلك أنهم قالوا ببعض الصفات الجسمية لله سبحانه من خلال ما نقلوه من

١. سورة ق / ١٦.

٢. سورة الحديد / ٤.

٣. سورة المجادلة / ٧.

٤. سورة النور / ٣٦.

٥. سورة الانفال / ٢٤.

٦. بحار الأنوار ٢٨٩/٣.

روايات عن النبي ﷺ - وهى روايات موضوعة بالطبع - وصحيحه. ومن ذلك أنه سئل ابن عباس: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قال: بلى، فسئل: كيف رآه؟ قال: رآه على كرسي ذهبي مفروش بالذهب ويحمله أربعة من الملائكة في حديقة خضراء^١.

وبغض النظر عما سبق فقد شحن «صحيح البخاري» و«سنن ابن ماجه» وغيرها بالروايات التي صرحت بأن الله سيرى في يوم القيامة^٢، حتى أن بعض الروايات صرحت بأن أهل الجنة سيرونه كما يرى القمر بدرًا^٣ والحق أن مثل هذه الروايات دفعت بالكثير من علماء العامة للاعتقاد برؤية الله يوم القيامة والاستماتة في الدفاع عن هذه العقيدة. بينما هذا القرآن يهتف آناء الليل والنهار ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^٤ وقد خاطب سبحانه كليمه موسى ﷺ قائلاً ﴿لَنْ نَرَاكَ﴾^٥ ونعلم بأن «لن» نافيه أبدية. وقد تصدى الإمام علي ﷺ لبيان هذه المسألة في خطبة الأشباح، فقال ﷺ: «والرابع أناسي الأبصار عن أن تفاله أو قدره أو تبصره»^٦. كما قال ﷺ في خطبة أخرى ببلاغته وفصاحته الجلية: «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر»^٧. وناهيك عما تقدم فإن هذه العقائد تمثل مخالفة صريحة لما يحكم به العقل؛ وذلك لأن الرؤية لو كانت جائزة على الله لكان جسمًا له مكان وجهة، الأمر الذي يعنى محدوديته وتغيره وبالتالي سلبه وجوب الوجود وجعله من إمكاناته. وهنا يأتي دور عبارات أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ ومنها العبارة السابقة لتكون كالشمس في رابعة النهار فتميط اللثام عن الحقائق وتسحق العقائد الباطلة والخرافية وتستعرض الدروس القيمة في التوحيد ومعرفة الصفات الإلهية. ولما جرت العادة أن يقابل

١. توحيد ابن خزيمة / ٢١٧ (طبق نقل بحوث في الملل والنحل) ١ / ١٤٥.

٢. صحيح البخاري ٥٦ / ٦. تفسير سورة النساء؛ سنن ابن ماجه ج ١ مقدمة الباب ١٣ ح ١٧٧.

٣. للوقوف على هذه الروايات الموضوعة يقيناً وكذلك تنفيذ هذه الروايات واستعراض الأدلة التي تضمنتها الآيات والروايات المعتبرة التي صرحت باستحالة رؤية الله في الدنيا والآخرة، راجع من التفسير الموضوعي للقرآن نفحات القرآن ٢٤١ / ٤ - ٢٥١.

٤. سورة الانعام / ١٠٣.

٥. سورة الاعراف / ١٤٣.

٦. نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

٧. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

كل إفراط بتفريط فقد انبرت طائفة بوجه المجسمة التي نزلت بالله سبحانه إلى مرتبة الجسم فاعتمدت عقيدة التعطيل لتقول باستحالة معرفة الله لا على مستوى كنه ذاته ولا أوصافه، ولا تحسن سوى المفاهيم السلبية من صفات الله، فكل ما نفهمه من قولنا أنه عالم هو أنه ليس بجاهل، أمّا عالميته المطلقة فهي خافية علينا تماماً، وعليه فمن مواضع فخر الإنسان أن يودع مسألة معرفة الله بوثقة النسيان ولا يقترب من هذا الوادي الذي ينطوي على ظلمات دامسة ويتناقض والتعاليم القرآنية المسلمة التي تقودنا إلى معرفة الله.

ونختتم بحثنا بعبارات أخرى أوردها الإمام عليه السلام في نهج البلاغة بهذا الخصوص فقال: «لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً»^١.

فالحق أنّ هذا التعبير هو الخط المعتدل الفاصل بين الإفراط والتفريط (المشبهة والمعطلة) في معرفة الله. هذا وقد شحن نهج البلاغة بالكلمات البليغة الرائعة التي تضمنتها خطبه عليه السلام بشأن صفات الله والسبيل الصحيح لتوحيده سبحانه، وستعرض في أبحاثنا القادمة لخطبه عليه السلام بهذا الخصوص.



٣ - نفى الحدوث الذاتي والزماني للذات القدسية

تفيد عباراته عليه السلام بهذا الشأن أنّ الذات الإلهية منزهة عن الحدوث الذاتي والحدوث الزماني. والمراد بالحدوث الزماني هو وجود الشيء في الزمان، أو بتعبير آخر مرور المدة الزمانية على شيء لم يكن موجوداً ثم يوجد. وهذا هو المعنى المتصور بعد خلقه عالم المادة؛ لأنّ الزمان انبثق من خلال خلقه العالم المادي بحيث أصبح هناك مفهوم للحدوث والعدم الزماني. أمّا الحدوث الذاتي فالمراد به الشيء الحادث في ذاته بغض النظر عن ظهور عالم المادة، أو

١. نهج البلاغة، الخطبة ٤٩.

بتعبير آخر لا يترشح وجوده من باطن ذاته، بل يكون تابعاً ومعلولاً لوجود آخر، ومن المسلم به أن ليس من سبيل هذين الحدوثين إلى الذات المقدسة الواجبة الوجود في الماضي والمستقبل، بل وجوده هو الوجود الاصيلي (عليك بالدقة والتأمل).



٤ - هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟

هل يمكن اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟ يبدو من تعبيره ﷻ: «موجود لا عن عدم» إمكانية اطلاق هذا اللفظ على الذات الإلهية المقدسة، ولكن من المسلم به أن المفهوم الأصلي لهذا اللفظ الذي ورد بصيغة اسم المفعول والذي يعني أن الآخر هو الذي منحه الوجود، لا يصدق على ذاته المقدسة، فالموجود هنا يشتمل على مفهوم آخر وهو يتضمن معنى ذي الوجود؛ وهو المعنى الذي صرح به في بعض شروح نهج البلاغة، بحيث يطلق الموجود تارة على الماهيات الممكنة التي اتصفت بالوجود، كما يطلق تارة أخرى ويراد به أصل الوجود^١. وقد ورد هذا التعبير (الموجود) في بعض روايات أصول الكافي أيضاً^٢.



١. مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١/ ١٣٩.
٢. أصول الكافي ١/ باب أدنى المعرفة، ح ١؛ أيضاً ١، باب النهي عن الصفة، ح ١؛ أيضاً ١، باب جوامع التوحيد، ح ٤.

القسم الرابع

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِبَةَ اسْتِفَادَهَا وَلَا حَرَكَةَ أَحْدَثَهَا وَلَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا وَلَا مَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَغَرَزَ غَرَائِزَهَا وَالزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَخْبَائِهَا».

۸۰۰۸

الشرح والتفسير

تصدر الكلام بشأن خلق العالم

لقد تضمنت بداية هذه الخطبة المهمة إشارات دقيقة عميقة المعاني إلى معرفة الله وصفاته والتي تمثل أولى مراحل المعرفة الإنسانية، ثم طرق ﷺ بعد ذلك إلى خلق العالم وكيفية ابتداء الخلق والعجائب التي انطوت عليها السماء والأرض، وإن كانت مكتملة للأبحاث السابقة بشأن صفات الله. فقد قال ﷺ: «أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِبَةَ اسْتِفَادَهَا وَلَا حَرَكَةَ أَحْدَثَهُ وَلَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا».

١. «أنشأ» من مادة «إنشاء» بمعنى الأيجاد وان ذكروا لها عدة معان.
 ٢. «روية» بمعنى الري من الماء كما ورد في مقاييس اللغة، إلا أنها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقة. وكأنه يروي فكره بشأن تلك المسألة، أو ي تلك المسألة بفكره واداء حق التفكير.
 ٣. «أجال» من مادة جولان بمعنى الحركة والتجوال.
 ٤. «همامة»: لقد ذكر شراح ومفسروا نهج البلاغة لهذه المفردة عدة معان. فقد عنها البعض بالرغبة القطعية الباطنية بالشيء بحيث ينزعج لفقدانها (شرح ابن ميثم البحراني ١/ ١٣٢). بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها تعني التردد في القيام بعمل (منهاج البراعة ١/ ٥١). وقال آخرون أنها تعني الاهتمام بالشيء (شرح مغنية ١/ ٢٧).
- وقال ابن أبي الحديد في شرحه المعروف لنهج البلاغة: وقوله ﷺ: «ولا همامة نفس اضطرب فيها» فيه رد على

فالإمام عليه السلام يبين البون الشاسع بين الخلق الإلهي والأعمال والأفعال التي تصدر عن المخلوقات. فالإنسان مثلاً إذا أراد أن يقوم بعمل ولم يكن لهذا العمل من سابقة وظن فكره وتأمله لينطلق إليه، وإن كان له سابقة احتذى بتجربته وتجارب الآخرين كما يعتمد إلى خزينه الذهني والفكري بشأن ترتيب مقدمات العمل بغية التوصل إلى نتائجه وكيفية أدائه، وأحياناً يتيه في ترديده وحيرته بحيث يحكم رأيه ويقوم بالعمل على أساسه. وليس هنالك من سبيل لأي من هذه الحالات والاحتمالات للذات الإلهية المقدسة، فما من حاجة إلى الفكر والتأمل ولا إلى التجارب السابقة ولا الحركة الفكرية استناداً إلى ترتيب المقدمات والحصول على النتائج ولا التردد والاضطراب في الأعمال والقرارات. فليس وجود الشيء إلا إرادته **«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»**^١. بعبارة أخرى فان هذه الاحتمالات الأربع إنما تتعلق بحصيلة أعمال الأفراد الذين له حظ محدود من العلم والقدرة، ولازمة ذلك الحاجة وأفكار الآخرين وتجاربهم والشعور بالاضطراب والقلق. ولا سبيل لهذه الحالات إلى من خرج علمه وقدرته عن الحدود حين الخلق.

ويتضح بجلاء مما قيل أن المراد بالحركة في العبارة المذكورة إنما هي حركة الفكر في باطن النفس. ولكن هناك معنى آخر ساقه بعض المفسرون للحركة على أن المراد بها الحركة الجسمية الخارجية التي تعدّ من لوازم الأجسام والله أعظم وأجل وأسمى من الجسم والجسمانيات. ويبدو أن المعنى الأول أنسب من الثاني؛ لأنّ الحالات الثلاث الأخرى التي وردت قبل وبعد العبارة المذكورة كلها مرتبطة باتخاذ القرار والتفكير والتأمل قبل الإتيان بالعمل.

وزبدة الكلام أنّ أفعال الله ليست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلك لأنّ

﴿﴾ المجوس والثوية القائلين بالهمامة الذين يعتقدون بأنّ النور الأعظم حين هم بمجابهة الظلمة بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشيء يسمى بالهمامة.

أما في اللغة - كما ورد في لسان العرب - فالهمامة تعني الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأة عجوز اسم «هيم» و«هيمه».

ويبدو مما ذكر أن «الهمامة» الواردة في العبارة إنما تعني الضعف والعجز في العزم والإرادة بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنه يتخذ القرار بصعوبة.

١. سورة يس / ٨٢.

أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفته الكاملة بالنظام الأحسن للخلقة والقدرة التامة على جميع الأشياء، وإرادته قاطعة تامة لا لبس فيها ولا ترديد ولا تأمل وتفكير في إفاضة الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذة في الخلق.



ثم أشار ﷺ إلى كيفية خلق الموجودات والتدبير الإلهي في ظهور الأشياء طبق الخطط والبرامج المنظمة فقال ﷺ: «أحال الأشياء لأوقاتها» أي أن الله جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً وذلك لأن خلقه قائم على أساس التدريج والتخطيط الزمني بغية إيضاح عظمة تدبيره وقدرته الفريدة الفائقة). فلما فرغ من الإشارة إلى التصنيف الزمني لخلقه الموجودات، تطرق ﷺ إلى نظامها الخاص الداخلي والتركيب فقال ﷺ: «ولام^١ بين مختلفاتها». وهذا من عجائب عالم الخلقة، فقد ألف الله سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متسقة وكأنها شيء واحد، فقد لآم بين البارد والحر والظلمة والنور والموت والحياة والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامة الاختلاف ذات طبائع متنوعة.

وأبعد من ذلك فقد أوجد رابطة عميقة محكمة بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرد ونوراني وشفاف للغاية والآخر مادي وظلماي وخشن للغاية. ثم قال ﷺ: «وغرز^٢ غراثها».

فقد أودعها الله سبحانه طبائعها ثم جعل لكل موجود طبيعته والهمة غريزته. وهذا في الحقيقة من الحكمة الإلهية البالغة التي أودعت كل موجود صورته الطبيعية المنبعثة منه دون الحاجة إلى محرك خارجي، ولولا الدوافع الذاتية لهذه الموجودات لانقطعت استمرارية

١. «لام» و«لائم» من مادة «لام» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شيء إلى شيء آخر والملائمة بينهما، ومن هنا أطلق على الدرع اسم «الأمة» على وزن «رحمة» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

٢. «غرز» من مادة «غرز» على وزن «قرص» تعني في الأصل غرس الأبرة أو الجعل والادخال، ثم أطلقت فيما بعد على الطبائع التي أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحية، وكان هذه الطبائع بمثابة البذور التي غرست في أرض الوجود الإنساني.

الأشياء ولسادها الاضطراب والفوضى. وهناك اليوم تعبيران مختلفان بشأن هذه الدوافع الذاتية في الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطرة وأن معرفة الله مودعة في الفطرة الإنسانية .. وأحياناً أخرى يعبر عنها بالغريزة. فثلاً يقولون أن للإنسان غريزة جنسية، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغة غريزية. وهذا في الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التي تتسم بالبعد الفكري (الفطرة) والآخر بخصوص تلك التي ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفي (الغريزة). إلا أن كليهما يعني الخلقة على أساس المعنى اللغوي.



ثم قال عليه السلام: «والزمها أشباحها». وقد تضاربت أقوال المفسرين - لنهج البلاغة - بشأن هذه العبارة، فذهب البعض ومنهم ابن أبي الحديد الذي قال ان الضمير المنصوب في «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أي ألزم الغرائز أشباحها، أي أشخاصها لأن كلا مطبوع على غريزة لازمة، وبالنتيجة فان العبارة تأكيد على ثبوت غرائز الموجودات. بينما ذهب البعض الآخر إلى أن المراد بالعبارة وجود التشخيصات الخاصة لكل موجود، أي أن الله سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً في علم الله فقد تبلورت في الخارج على هيئة جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فان الضمير في «الزمها» يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافة إلى كون العبارة تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فإن الذي يبدو أن التفسير الثاني أصح وأصوب من التفسير الأول. وتوضيح ذلك أن الله تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من الخصائص. الخصائص التي أودعت باطن ذاتها والتي عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرائز، والخصائص في الجوانب الظاهرية من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتي عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله «ألزمها أشباحها» وعلى هذا

١. «أشباح» جمع «شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغة بمعنى الشخص في الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشيء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذي يتراءى ظله ثم يظهر فجأة.

الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغة في افاضته للخصائص الباطنية والظاهرية لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصة به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات.

تذييل

الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته ﷺ إشارة لنقطة مهمة طالما ورد التأكيد عليها كراراً في القرآن: وهي أنّ لكافة موجودات عالم الخلق والمادة تصنيف زماني خاص وفي نفس الوقت الذي يحكمها التضاد والاختلاف إلا أنّها منسجمة مع بعضها البعض ومكملة لها وأنّها مهديّة على الدوام طبق نظمها الذاتي الباطني والظاهري وأنّها تنطلق كقافلة منتظمة ومنسجمة نحو هدفها النهائي دون أي تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقة دون أن تخطأه. فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهة والثمار في فصلي الربيع، ذبولها وجفافها وتساقطها في فصلي الخريف والشتاء، حركة الشمس في الابراج الاثني عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما اودع الإنسان من قوى باطنية وظاهرية كلها شواهد على الهداية التكوينية الإلهية، والتي صرّح بها القرآن على لسان موسى ﷺ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^١ وقال: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^٢ و﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^٣.

وهذا في الحقيقة يمثل آية من آياته سبحانه في عالم الوجود التي تجعل الإنسان أكثر معرفة بالهداية التكوينية والنظم والتصنيف الزمني والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق في التفكير بهذا العالم.

8008

١. سورة طه / ٥٠.

٢. سورة الروم / ٣٠.

٣. سورة الحجر / ٢١.

ثم قال ﷺ: «عالمًا بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرانها^١ وأحنائها^٢»^٣.

والواقع أنّ هذه العبارات الثلاث قد جاءت بمثابة دليل أو إيضاح للعبارات السابقة، وذلك لأنّ من أراد أن يخلق موجوداً في وقته المناسب ويلتئم بين الأشياء المختلفة ويودعها غرائزها الباطنية ولوآزمها الظاهرية فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطة وقدرة تامة وشاملة من جانب آخر. ولذلك قال ﷺ: «عالمًا بها قبل ابتدائها...» ولا يقتصر علمه على ابتدائها وانتهائها فحسب، بل هو عالم محيط بلوآزمها وعللها وآثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالمًا بهذه الأمور قادراً على الإتيان بها، فان له أن يضع كل شيء في موضعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه في مسيرته الوجودية إلى كماله المنشود.



تأملان

١- هل يصطلح بالعارف على الله؟

لقد تحفظ بعض مفسري نهج البلاغة على وصف الله سبحانه بالعارف. ويبدو أنّ هذا التردد ينبع من أمرين: الأول ما أورده «الراغب» في «المفردات» من أنّ المعرفة والعرّفان تعني إدراك الشيء من خلال التفكير والتأمل والتدبر في آثاره، أو بتعبير آخر إنّما يطلق اسم المعرفة على العلم المحدود الذي يتأقّى عن طريق التفكير، ومن المسلم به أنّ العلم الإلهي ليس

١. «قرائن» جمع «قرينة» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجة الرجل قرينته (الصحاح والقاموس وسائر الكتب اللغوية)، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة كابن أبي الحديد إلى أنّ القرائن جمع فرونة (على وزن معونة) وهي النفس ولكن يبدو المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التي وردت في الجملة.

٢. «أحناء» جمع «حنو» على وزن فعل «وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شيء فيه اعوجاج وانحناء - على ضوء ماورد في المقاييس ولسان العرب - كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً (وذلك لأنّ جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات).

٣. لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الضمائر التي وردت في هذه العبارات إنّما تعود إلى الأشياء لا الغرائز كما صرح بذلك بعض شراح نهج البلاغة؛ وذلك لعدم وجود الانسجام بين الاحتمال الثاني ومضمون الجملة.

كذلك. والثاني الحديث الذي روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنَّ لَهُ (تعالى) تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» حيث يجمع العلماء على أن اسم العارف لم تكن واردة ضمن هذه التسعة والتسعين إسمًا^١ إلا أن الدراسة الإجمالية تفيد أن هذا الوصف قد اطلق كراراً على الله في الروايات الإسلامية، وبالإضافة إلى نهج البلاغة الذي تعرض هنا لهذا الأمر بصورة وصفية وفي موضع آخر بصورة فعلية، فقد ورد هذا الوصف كثيراً في الروايات التي نقلها أصول الكافي^٢.

ويشير هذا الأمر إلى أن مفردة المعرفة وإن كانت في الأصل تعني المحدودية أو الحاجة إلى التفكير والتدبر، غير أنها اتسعت أثر كثرة الاستعمال حتى صارت تطلق على كل نوع من العلم والمعرفة، وإن لم تكن وليدة الفكر والتدبر.

أمّا بشأن الروايات المرتبطة بالتسع وتسعين اسماً لله، فينبغي القول أن هذه الرواية لا تقصر الأسماء على تسعة وتسعين أبداً، بل هي تشير في الحقيقة إلى صفات الله وأسمائه الحسنى، ولذلك صرّحت بعض الروايات بألف اسم للبارئ سبحانه، وأخيراً أي دليل أعظم من أن يستفيد الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة من هذا الاسم أو مشتقاته بالنسبة لله وهو الأعراف والأعلم أكثر من غيره بخصوص أسماء الله وصفاته.

٢ - كيفية علم الله بالموجودات قبل إيجادها

إنّ أحد أعقد المباحث الفلسفية والعقائدية هو بحث «علم الله بالموجودات قبل إيجادها». فإنا نعلم بأنّ الله سبحانه عالم بالحوادث التي ستقع، وهذا ما ورد التأكيد عليه في الآيات القرآنية الشريفة، وهو ما ورد في العبارة المذكورة، ومن جانب آخر فإن علم الله ليس من قبيل «العلم الحسولي»؛ أي ليس هنالك من انعكاس للصورة الذهنية للأشياء في ذاته؛ وذلك

١. لقد أورد ابن ميثم هذا الموضوع بصيغة اشكال ثم أجاب عنه بان أسماء الله أكثر من هذا العدد وقد ذكر عدّة شواهد على مدعاه (شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ١/١٣٧). جدير بالذكر ان هذا الحديث قد ورد في الدر المنثور عن صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسنند أحمد وسنن الترمذي وسائر المصادر الروائية ١٤٧/٣ (نفحات القرآن ٤/٤٦).

٢. أصول الكافي ١/٩١، باب النسبة، ح ٢ وص ١١٣، باب حدوث الأسماء، ح ٢.

لأنه ليس له من «ذهن» كالمخلوقات، فعلمه لا يتأق من خلال انعكاس صور الموجودات، بل علمه «علم حضوري»؛ أي أن المخلوقات حاضرة عنده، ونعلم أن ليس هناك من معنى للعلم الحضوري بشأن الأشياء التي لم تظهر للوجود؛ بل هذا الإشكال وارد حتى بخصوص الموجودات التي زالت وانعدمت في الماضي؛ فان كان لنا من علم بها بفضل صورها الذهنية التي تبلورت في أعماقنا وأفكارنا. ولكن كيف لمن ليس له ذهن وصور باطنية وليس من سبيل للحوادث إلى ذاته المقدسة أن يحيط بها؟! على سبيل المثال: لقد زالت صورة فرعون ورهطه وانقطع تأريخهم، وليس لنا سوى استحضار صورتهم في أذهاننا، ولكن ما كيفية علم الله به وهو ليس من قبيل علمنا؟ فهل يمكن القول بأنه ليس عالماً بالماضي؟ أم ليس له من علم بالمستقبل؟ أبداً لا يمكن ذلك! إذن إن كان علياً فما كيفية هذا العلم؟

لقد أثارَت هذه المسألة الجدل في أوساط الفلاسفة والعلماء فقدموا عدّة أجوبة بهذا الشأن، سنقتصر هنا على الإشارة إلى بعضها:

١- إن الله كان وما زال عالماً بكافة الأشياء بذاته التي تعتبر علة لجميعها، وبعبارة أخرى فإن لذاته أعظم الحضور لدى لذاته، وهذا العلم بذاته هو علم إجمالي بكافة حوادث العالم وموجوداته قبل الوجود وبعده. وتوضيح ذلك أننا لو علمنا على نحو الدقة بعلة الأشياء فان مثل هذا العلم سيقود بالنتيجة إلى العلم بنتائجها ومعلولاتها؛ وذلك لأن كل علة تشتمل على كافة كمالات المعلول وزيادة، ولما كان الله علة جميع الأشياء ويعلمها بذاته ويحيط بها، وفي الواقع فان هذا نوع من الكشف التفصيلي تجاه جميع الأشياء من خلال العلم الإجمالي. ويمكن توضيح هذا الكلام بالقول: إن الحوادث الماضية لم تنعدم بالمرّة أبداً وإنما لها وجود وحضور في عمق حادث الحاضر. كما أن الحوادث المستقبلية ليست معزولة عن الحوادث الحاضرة فهي مرتبطة بها ونابعة منها. وعلى هذا الأساس فإن الماضي والحاضر والمستقبل إنما يوجد سلسلة من العلل والمعاليل بحيث أن العلم باحدى حلقاتها إنما يعني العلم بما قبلها وما بعدها من حلقات. على سبيل المثال لو علمنا بدقة الأوضاع الجوية للكرة الأرضية والعوامل المؤدية لظهور الأجواء الفعلية وأحطنا بكافة جزئيات وروابط عللها ومعاليها، فاننا سنستطيع التعرف بدقة على أوضاع الأجواء لما قبل أو بعد آلاف السنين؛ وذلك لأن ملف

حوادث الماضي والمستقبل موجودة في الحاضر. فالיום يحمل انعكاساً دقيقاً عن الأمس، والغد عن اليوم والعلم التام بجزئيات اليوم بمعنى العلم التام بالحوادث الماضية والمستقبلية. فاذا التفتنا إلى هذه الحقيقة وهو أن الله سبحانه المصدر الأصلي لجميع حوادث الأمس واليوم والغد وأن له العلم بذاته المقدسة، فإن علينا أن نقر بأنه عالم أيضاً بحوادث المستقبل والحاضر والماضي. وبالطبع فإن آثار كل موجود مهما كان إنما تتبع إرادة الله وأمره، إلا أن سنته جرت في منح الموجودات القدرة على القيام بفعاليتها، فاذا شاء جردها منها.^١

٢ - الإجابة الثانية التي يمكن إيرادها في هذا المجال أنه يمكن لعلمنا تصور الأمس واليوم والغد، وذلك لأننا موجودات محدودة. أمّا بالنسبة لله الذي لا حدد لذاته فليس هنالك من مفهوم للأمس واليوم والغد لديه، بل إن كافة الأشياء والحوادث حاضرة عنده بجميع جزئياتها وخصوصياتها.

ويمكننا الاستشهاد بمثال على هذا الكلام:

افرض أن هناك فرداً في زنزانه مظلمة ليس لها سوى نافذة صغيرة على الخارج. فاذا مرت قافلة من الجمال من هذه النافذة فانه سيشاهد في بداية الأمر رأس وعتق جمل واحد ثم يرى رجله وذنبه ومن ثم سائر الجمال في هذه القافلة. فصغر النافذة هو الذي يشكل السبب الذي يجعله يعيش حالة من الماضي والحاضر والمستقبل، بينما يختلف هذا الموضوع تماماً بالنسبة لذلك الفرد الواقف على سطح في محيط مكشوف خارج تلك الزنزانه وينظر إلى الصحراء، فهو يرى قافلة الجمال معاً خلال حركتها.



١. إن من أورد هذا الجواب لحل الإشكال المذكور قد واجه هذا السؤال: وهو أن لازمة هذا الكلام أن ليس لله من علم بكثرة الموجودات بوصف الكثرة قبل وجودها، لأنه ليس هنالك من كثرة في ذاته، أو بتعبير آخر، أن علمه متفاوت بالموجودات قبل وجودها وبعده: فقد كان سابقاً على نحو العلم الإجمالي، ولاحقاً على نحو العلم التفصيلي، والعجيب أن بعضهم قد اعترف بهذا التفاوت.

القسم الخامس

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءَ وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ وَسَكَاتِكَ الْهَوَاءَ».

٤٥٥٨

الشرح والتفسير

كيفية بداية خلق العالم

لقد تناول الإمام عليه السلام بداية انبثاق الخلق فقال عليه السلام: «ثم أنشأ سبحانه فتق^١ الأجواء^٢ وهو يشير إلى شق الطبقات الجوية، ثم فتح جوانبها وأطرافها «وشق^٣ الأرجاء^٤» وأوجد الفضاء والهواء «وسكائك^٥ الهواء^٦». فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم إيجاد أطرافها وجوانبها

١. «فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضجوة بين شيئين وهي ضد الرتق (كما أورد ذلك الراغب في مفرداته). ويقال للصبح «فتيق»، لأنه يشق الأفق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب أنه يطلق «فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفصيح اللسان، لأنه يتحلى بلسان طلق ذرب.
٢. «أجواء» جمع «جو» بمعنى - حسب قول المفردات ولسان العرب - الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.
٣. «شق» بمعنى الفتحة في الشيء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذي يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.
٤. «أرجاء» جمع «رجاء» (دون همزة) تعني حسب «مقاييس اللغة» أطراف البر أو أطراف أي شيء آخر، الرجاء بالهمزة فيعني الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب «التحقيق» أن معناها الأصلي الشيء الذي يرجى وقوعه في الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوة «رجاء» دون همزة.
٥. «سكائك» جمع «سكائة» على وزن خلاصة، قال صاحب لسان العرب أنها تعني الفضاء الواقع بين السماء والأرض، وقال ابن أبي الحديد هي أعلى الفضاء.
٦. «الهواء» بمعنى الخالي والساقط، ولذلك يطلق لفظ الهواء على كل شيء خالي، ومن ذلك الفضاء بين السماء والأرض. وأما سبب إطلاق لفظة «الهوى» على الشهوات والنزوات النفسية فهي أنها تشكل مصدر سقوط الإنسان في الدنيا والآخرة (مقاييس اللغة، مفردات الراغب، لسان العرب). ويبدو ان اطلاق هذه المفردة على الغاز اللامرئي المركب من الاوكسجين والاوزون إنما هو من الاستعمالات الجديدة والذي يناسب أيضاً المعنى الأصلي، لأنه يبدو موضعاً خالياً (وإن ورد بهذا المعنى في بعض الروايات أيضاً).

ومن ثم طبقاتها. وتشير العبارة بأجمعها إلى أنّ الخلق الأول في عالم المادة كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذي يسعه استيعاب الكرات السماوية والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحة الورقية التي يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أنّ كلمة «ثم» في العبارة لا تفيد معنى الترتيب التكويني، بل تفيد الترتيب والتأخير البياني؛ لأنه قد أُشير في العبارات السابقة إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض. وفي الواقع فقد تضمنت العبارات السابقة أبحاثاً بشأن خلق الموجودات بينما تكفلت هذه العبارة شرح تلك الأبحاث وتفصيلها. على كل حال فإنّ ظاهر هذه العبارة تفيد أنّ الفضاء أول مخلوق في عالم المادة، غير أنّ هناك ترديد لدى بعض الفلاسفة والمتكلمين بشأن الفضاء في أنّه أمر وجودي أم عدمي؟ فهناك من يعتقد كما أنّ الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأنّ الزمان هو وحدة الحركة) فإن المكان هو الآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفة ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبني عمارة ذات عدّة طبقات فإننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العمارة كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنيها عليه، وإذا أردنا أن نبني عمارة أكبر فإنها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصة فإننا نؤمن بما أورده الإمام عليه السلام بقوله «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء» ونوكل الاستغراق في هذا البحث إلى محله.

تأمل

هل العالم المادي حادث؟

هناك كلام كثير يدور بين الفلاسفة والعلماء بشأن العالم فهل العالم المادي حادث أم قديم أزلي؟ فالبعض يرى أنّه قديم وأزلي بينما يعتقد الأعم الأغلب أنّه حادث. أمّا دليل القائلين بالأزلية والقدم فإنما يستند إلى الذات الإلهية المقدسة القديمة وكل ما سواها فهو حادث ومخلوق وتابع لذاته المقدسة. وأمّا أنصار عقيدة حدوث العالم فأحياناً يستدلون بالأدلة الفلسفية على مدعاهم وأحياناً أخرى بالأدلة العلمية. فبرهان الحركة والسكون من الأدلة

الفلسفية المعروفة التي تقول بأن عالم المادة دائماً في حالة حركة وسكون، والحركة والسكون من «الأمر الحادثة» وما كان معروضاً للحركة والسكون فهو حادث أيضاً. ويمكن ايراد هذا الدليل بتعبير أوسع وأشمل وهو أنّ عالم المادة دائماً في حالة تغيير، والتغيير والتبدل علامة على الحدوث، لأنّه لو كان أزلياً وهو مسرح على الدوام للتغيير والتبدل فان ذلك سيكون جمع بين الحدوث والقدم، أي لا بدّ أن نرى التغييرات وهي من الأمور الحادثة أزلية، وهذا تناقض صريح. ويتضح هنا أكثر فأكثر اقرار هذا الدليل للحركة الجوهرية التي تقول بأنّ الحركة كامنة في ذات الأشياء، بل هي عين ذاتها؛ لأنّ وجود الحركة هذا الأمر الحادث في الأزل لا معنى له. ونترك دراسة وتحليل هذا الدليل إلى الأبحاث الفلسفية الواردة بهذا الشأن. الدليل العلمي فهو الدليل الذي يقول بأنّ العالم في حالة تآكل دائمية وقد قامت الأدلة والبراهين العلمية التي تثبت ذلك، ويصدق هذا الأمر على التيارات والثوابت والأرض وما كان على سطحها. فالتآكل المستمر دليل على أن هناك نهاية وخاتمة لعالم المادة. لأنّ التآكل لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، فاذا قبلنا أنّ للعالم المادي نهاية، يجب أن ندع عن بأن له بداية. لأن الشيء لا يكون أزلياً ما لم يكن أبدياً. فالأبدية تعني اللانهاية، والشيء اللانتهى ليس بمحدود، وإذا كان ليس بمحدود فلا بداية له، وعليه فالشيء إذا لم يكن أبدياً سوف لن يكون أزلياً. ويمكن ايراد هذه الكلمة بصيغة أخرى وهي أنّ العالم لو كان أزلياً وفي حالة تآكل، فلا بدّ أن يكون هذا التآكل قد أنهى عمر العالم لأنّ تناهى التآكل يساوي العدم. وتعبير آخر على ضوء آخر النظريات العلمية أنّ العالم المادي يسير نحو الروتينية. فالذرات تتلاشى تدريجياً وتتحوّل إلى طاقة، والطاقة تسير نحو الروتينية (بالضبط كشعلة النار التي توقدها في غرفة فتتحوّل مادة النار إلى حرارة فتنتشر هذه الحرارة تدريجياً في وسط الغرفة حتى تكون بالتالي شيئاً روتينياً لا أثر له). وكلما مرت لا نهاية الزمان على العالم ستحصل هذه الحالة؛ أي تحوّل كافة المواد إلى طاقة وبالتالي تتحوّل هذه الطاقة الفعالة إلى طاقة روتينية وباهتة.

لكن لا يعني هذا الكلام أنّ زماناً قد مرّ ولم يكن لله من خلق وأنّ ذاته الفياضة قد توقفت عن هذا الفيض، بل بالعكس فان عملية الخلق مستمرة، إلا أنّ المخلوقات كانت دائماً تشهد حالة التغير والتبدل وأنّ جميع هذه المخلوقات تابعة لذاته المقدسة، أو بتعبير آخر كان له

حدوثاً ذاتياً لا زمانياً. وذلك لعدم إمكانية تصور الحدوث الزمني للجميع. وما ورد في الرواية التي قالت: «كان الله ولا شيء معه»^١ إنما يراد بها أنه لم يكن شيء مصاحباً لذاته بل مخلوقاً لها (لابد من التأمل).

❦❦❦

١. توحيد الصدوق/٦٦، كما ورد شبيه هذا المضمون في /١٤٥-٢٢٦.

القسم السادس

«فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاظِمًا تَيَّارُهُ مُتْرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلُهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ
الْعَاصِيفَةِ وَالزُّعْزَعِ الْقَاصِيفَةِ فَأَمْرَهَا بَرْدٌ، وَسَلْطَتُهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرْنَهَا إِلَى
حَدِّهِ، الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتَيْقٌ وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ».

ۛۛۛۛ

الشرح والتفسير

الماء كان أول مخلوق

ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين علي عليه السلام ولاسيما في هذه العبارات وما سيتبعها في توضيح كيفية خلق العالم هو أن الله سبحانه قد خلق ابتداء الماء - أو بتعبير آخر - مائعا يشبه الماء ثم حمّله على ريح عاتية شديدة، وقد أمرت هذه الريح أن تحفظ هذا المائع وتحول دون تشتته وتفرقه. ثم هبت ريح شديدة أخرى بهدف إيجاد أمواج في ذلك المائع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المائع تموجاً شديداً حتى ارتفع في الفضاء، فخلق منه السفوات السبع. جدير بالذكر أن الماء والريح والعاصفة وما شابه ذلك - في ذلك الوقت الذي لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفة - كناية عن موجودات شبيهة بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعي المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الأمور، فلم يضعوا أية مفردة لما حدث أوائل خلقة العالم. وإن أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته عليه السلام على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التي طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام عليه السلام على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فآخر الفرضيات التي توصل إليها العلماء بشأن بداية ظهور العالم، هو أنّ العالم برمته في

البداية كان بهيئة كتلة غازية عظيمة شبيهة بالمائع، كما يمكن الاصطلاح عليها باسم «الدخان»، أو بتعبير آخر كانت الطبقات العليا من العالم دخاناً، وكان هذا الدخان يتخذ شكل المائع بفعل حالة الضغط كلما إقترب من مركز العالم.

أمّا الشيء الذي تكفل بحفظ تلك الكتلة العظيمة للغاية إنما تمثل بالجاذبية التي تحكم جميع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبية على ذلك الغاز المائع فشدته وحالت دون خروجه من حدوده. ثم ابتدأت هذه الكتلة العظيمة بالدوران حول نفسها (أو أنها كانت تدور حول نفسها منذ البداية) وهنا ظهرت قوة الطرد المركزية.^١ وقد أدت قوة الطرد المركزية هذه بتلك الكتلة العظيمة من ذلك الغاز المضغوط أن تقذف في الفضاء الخالي، وعلى حد تعبير نهج البلاغة كما سيأتي في العبارات التالية من هذه الخطبة «فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم ظهرت منها المنظومات والكواكب والكرات الصغيرة والكبيرة للعالم؛ الأمر الذي نعتة القرآن ونهج البلاغة بالسّموات السبع. طبعاً كل ما نريد أن نقوله - دون الاصرار على هذا الموضوع - هو الانسجام القائم بين عبارته عليه السلام والقرصيات والنظريات العلمية الواردة بذات الشأن، حيث يمكن استيعاب كلام الإمام علي عليه السلام على ضوء النظريات والاطروحات العلمية المعاصرة بخصوص ظهور السموات والارضين والكواكب والاجرام السماوية وسائر الكرات. ومنتقل الآن إلى أصل عبارته، فقد قال الإمام عليه السلام: «فاجرى فيها ماء متلاطماً^٢ تياره^٣».

«التلاطم» بمعنى اصدام الأمواج ببعضها، والتيار يعني الموج، ولا سيما الأمواج التي يقذفها الماء خارجاً، أفليس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلك الغازات الأولية المضغوطة التي تمثل المادة الأولية للعالم على ضوء نظريات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أكد الإمام علي عليه السلام على شدة

١. كل شيء يدور حول نفسه إنما يتعرض إلى قوة تحاول طرده من المركز، كالشعلة التي ندورها بأيدينا فإذا تركناها فجأة قذفت إلى نقطة بعيدة، وما هذا إلا لوجود قوة الطرد المركزية، وكلما تضاعفت هذه القوة فإن شدة القذف خارجاً تتناسب طردياً وازدياد تلك القوة.

٢. «متلاطم» من مادة «لطم» على وزن حتم بمعنى صفع الوجه باليد، ثم استخدمت هذه المفردة لاحقاً بمعنى اصطدام الأمواج مع بعضها.

٣. «التيار» بمعنى أمواج البحر التي يقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض (مقاييس اللغة ولسان العرب) على كل نوع من الأمواج.

تدفق ذلك الماء وعظم تلاطمه فقال: «متراكم^١ زخاره^٢».

ثم أضاف عليه السلام: «حملة على متن الريح العاصفة^٣ والزعزعة^٤ القاصفة^٥».

فالعاصف بمعنى الضاربة والكاسرة والزعزع بمعنى الضطربة والشديدة الهبوب وكذلك القاصفة التي تهلك الناس بشدة هبوبها، وكان كل هذه المفردات تأكيدات متتالية لبيان قوة تلك الريح وسعتها وشموليتها. ثم أمرت هذه العاصفة العظيمة المرعبة بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها «فأمرها برده، وسلطها على شدة^٦، وقرنا إلى حده». أو ليست هذه العاصفة العظيمة والشديدة إشارة إلى أمواج الجاذبية التي سلطها الله على جميع ذرات عالم المادة والتي كانت سبباً لتماسك أجزائها وعدم تشتتها وتأثيرها، وتقييدها بالحركة في إطار حدودها؟ فهل هناك من تعبير أروع وأدق من الريح العاصفة القاصفة لتبيين الأمواج العظيمة للجاذبية في ظل تلك الأجواء.

وقد حصلت كل هذه الأمور و«الهواء من تحتها فتيق^٧ والماء من فوقها دفيق^٨»

والفتيق من مادة فتق بمعنى المفتوق؛ المفتوح، ودفيق من مادة دفق بمعنى الحركة السريعة.

١. «متراكم» من مادة «ركم» على وزن رزم بمعنى تراكم شيء والقاء بعضه على بعض، وتطلق على الغيوم والرمال والمياه وحتى الجموع الغفيرة من الناس التي تتجمع في موضع (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

٢. «زخار» من مادة «زخر» و«زخور» بمعنى الامتداد والارتفاع، كما يطلق على امتلاء البحر وتلاطمه.

٣. «عاصفة» من مادة «عصف» على وزن عصر بمعنى الخفة والسرعة، ومن هنا يطلق العصف على قشور الجبوب التي تكسر بسرعة، كما يقال «عاصف» و«معصف» للشيء الذي يحطم سائر الأشياء وينعمها (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

٤. «زعزع» على وزن زمزم بمعنى الحركة والاضطراب والاهتزاز، كما تستعمل بمعنى الشديد (مقاييس اللغة ولسان العرب).

٥. «قاصفة» من مادة «قصف» على وزن حذف بمعنى كسر الشيء، ومن هنا يطلق القاصف على العواصف الشديدة التي تكسر السفن في البحار وكذلك الرعد والبرق الشديد الكاسر (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

٦. «شد» على وزن مد بمعنى قوة الشيء وقدرته، ولذلك يصطلح بالشديد على الفرد القوي (ولاسيما القوي في الحرب). كما تستعمل هذه المفردة بمعنى ربط العقدة وأحكام وثاقها (سواء كانت في البدن أو في القوى الباطنية والروحية أو في المصيبة والعذاب). (لسان العرب، المفردات ومقاييس اللغة).

٧. «فتيق» من مادة «فتق» ذكرناها سابقاً.

٨. «دفيق» من مادة «دفق» على وزن دفن بمعنى دفع الشيء إلى الإمام، كما تستعمل بمعنى السرعة. ولذلك يطلق «الادفق» على الناقة السريعة.

نعم إنَّ هذه الأمواج المتدفقة أتما تحد بواسطة تلك الريح العاصفة، فتحول دنها ودون تجاوزها لحدودها - وهنا يبرز هذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقة على سطح الماء رغم وجود تلك الريح العاصفة الحائلة والمائعة، فالمعروف أن تلك الأمواج عادة ما تظهر بفعل حركة الرياح والعواصف، رغم أنَّ الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الذي يقف وراء حركة الأمواج.

يبدو أنَّ العامل الذي يقف وراء ظهور هذه الأمواج هو شيء كامن في باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الدوام. ولكن ليست لدينا رؤية واضحة لماهية هذا العامل، إلاَّ أنه ينسجم تماماً والنظريات التي أوردها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، فهم يقولون أن انفجارات نووية متواصلة وقعت في جوف الغازات الأولى ذات الطبيعة المائعة، وهي هذه الانفجارات التي تحدث اليوم في الشمس. فهذه الانفجارات العظيمة قضت على سكون واستقرار هذه الغازات المائعة وأوجدت تلك التلاطمات في أمواجها المتدفقة.

ولا بد لنا من متابعة المقطع الآخر لاكمال هذا القسم فنقف على الصورة الدقيقة التي رسمها الإمام عليه السلام لإنبثاق الخليقة.

القسم السابع

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبُّهَا وَأَدَامَ مُرَبِّهَا وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا
وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيْقِ الْمَاءِ الزَّخَارِ وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَّصَتْهُ
مَخْضُ السَّقَاءِ وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَسَاجِيَهُ
إِلَى مَاثِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّبْدِ رُكَامَهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ وَجَوٍّ
مُنْفَهَقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُقْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا وَعُلْيَاهُنَّ
سَقْفًا مَحْفُوظًا وَسَمَكًا مَرْفُوعًا بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا وَلَا دِسَارٍ يَنْظِمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا
بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثُّوَابِقِ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا وَقَمَرًا مُنِيرًا
فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ».

۵۰۰۸

الشرح والتفسير

دور العواصف في انبثاق الخلقة

كما أوردنا فإن هذه الكلمات امتداد لعباراته السابقة ونتجه بادئ ذي بدء إلى فهم
التعبيرات الدقيقة والعميقة في كلام الإمام عليه السلام دون اصدار حكم بشأنها، ثم نتحدث بعد ذلك
عن مدى انسجامها مع آراء ونظريات العلماء المعاصرين بخصوص مسألة خلق العالم.
فالإمام يشير في كلامه إلى عدّة مراحل. فقال عليه السلام: «ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبتها».
فالريح العقيم هي الريح الخالية من السحب التي تؤدي إلى نزول المطر، وبالتالي فهي لا

١. «اعتقم» من مادة «عقم» على وزن قفل بمعنى الجفاف المانع من قبول الأثر، ويطلق العقيم على المرأة التي لا تتقبل نطفة الرجل، كما تأتي بمعنى الضيق أيضاً كما ورد في المفردات ولسان العرب ومقاييس اللغة.
٢. مهبتها من الهبوب على وزن السجود الحركة بالنسبة للسيف والاضطراب ومن هنا نطلق على هبوب الرياح.

تلقح سحاباً ولا شجراً. ثم وصفها ﷺ بملازمتها للماء وعدم انفصالها عنه فقال: «وأدام مربها^١» خلافاً للرياح العادية التي تهب أحياناً وتسكن أحياناً أخرى؛ ريح شديدة عاتية (تختلف كلياً عن الرياح والعواصف الاعتيادية) فقال ﷺ: «وأعصف^٢ مجريها». وهي ريح تهب من مكان سحيق وليست على غرار الريح الاعتيادية التي تنطلق من أماكن قريبة (وأبعد منهاها). ثم أشار في المرحلة الثانية إلى مهمة هذه الرياح «فامرها بتصفيق^٣ الماء الزخار، واثارة موج البحار» فقامت هذه الريح العاتية العظيمة بمخض الماء كقرباب السقاء «فمخضته^٤ مخض السقاء». «وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم قال ﷺ: «ترد أوله إلى آخره وساجيه^٥ إلى مائره^٦».

وقال ﷺ في المرحلة الثالثة بشأن تراكم المياه وارتفاعها «حتى عب عبا^٧» بمعنى ارتفاع أعلاه «ورمى بالزبد ركامه^٨». ثم قال ﷺ في المرحلة الرابعة: «فرفعه في هواء منفثق وجو منفهق^٩» فخلق منها تبارك وتعالى السموات السبع «فسوى منه سبع سموات» حيث جعل الأقسام السفلى، كالأمواج المكفوفة المسوكة والطبقات العليا كالسقف المحفوظ «جعل

١. «مرب» من مادة «رب» التي تعني في الأصل التربية، وتطلق الرب على المربي والمالك والخالق (وهو مصدر له معنى الفاعلية) ويفيد معنى الاستمرار والملازمة إذا جاء من باب الأفعال (إرباب) لأن التربية متعذرة دون الاستمرار).

وبناءً على هذا فإن «مرب» مصدر ميمي بمعنى الدوام والبقاء.

٢. «أعصف» من مادة «عصف» على وزن عضر، بمعنى السرعة والحركة والشدة كما ذكرنا.

٣. «تصفيق» من مادة «صفق» على وزن سقق بمعنى تقليب الشيء بعضه على بعض بحيث يصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفيق على ضرب الكفين - وهي هنا بمعنى تحريك المياه وتقليبها على بعضها (لسان العرب، مقاييس اللغة، شرح محمد عبدة).

٤. «مخض» من مادة «مخض» على وزن قرض بمعنى تحريك الموانع في ظروفها، ولذلك يستعمل هذا التعبير أثناء تحريك اللين في القربة لفصل الزبدة عنه.

٥. «ساجي» من مادة «سجو» على وزن سهو بمعنى السكون والهدوء.

٦. «مائره» من مادة «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة، وتطلق هذه المفردة على الجادة أيضاً لأن الناس يتحركون عليها ذهاباً وإياباً.

٧. «عباب» من مادة «عب» بمعنى شرب الماء سريعاً دون تروث، ومن هنا اطلق العباب على الماء الكثير والمطر الغزير والسييل العظيم، وهي هنا بمعنى تراكم المياه على بعضها.

٨. «ركام» أشرنا إلى معناها سابقاً (ما تراكم منه بعضه على بعض).

٩. «منفهق» من مادة «فهق» على وزن فرق بمعنى المفتوح الواسع، ولذلك يصطلح بالمنفهق على الجزء الواسع من الوادي والوعاء المملوء بالماء.

سفلاهن موجاً مكفوفاً^١ وعلياهن سقفا محفوظاً^٢ وسمكاً^٣ مرفوعاً^٤».

ثم أشار ﷺ إلى عدم وجود الأعمدة التي تحملها ولا المسامير التي تحكم وثاقها فقال: «بغير عمد^٥ يدعمها^٦ ولا دسار ينظمها^٧» وأخيراً تأتي المرحلة الأخيرة - الخامسة - «ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب^٨». ثم أشار ﷺ إلى القمر والشمس وتحرك كل منها ضمن مداره «واجرى فيها سراجاً مستطيراً^٩ وقمرأ منيراً في فلك دائر وسقف سائر ورقيم^{١٠} مائر».

تأملات

١ - دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة

للعلماء المعاصرين نظريات متعددة لا تتجاوز حدود الفرضيات بشأن خلق العالم؛ حيث لم يكن هناك مخلوق قبل مليارات السنين ليشهد كيفية ظهور العالم، مع ذلك هناك بعض الشواهد والقرائن التي تؤيد صحة بعض هذه الفرضيات. أما العبارات التي ساقها الإمام ﷺ فهي تنطبق تماماً على بعض الفرضيات المعروفة، ستعرض لها الآن دون الاصرار على أن الإمام ﷺ إنما أراد هذه الفرضيات. فكما أسلفنا في الأبحاث السابقة أن العالم كان في البداية كتلة ضخمة من الغازات المتراكمة الكثيرة الشبه بالمئات بحيث يصح نعتها بالماء، كما يصح

١. «مكفوف» من مادة «كف» على وزن سد بمعنى قبض الشيء وجمعه، ولذلك اطلق على راحة اليد الكف لأنها سبب قبض اليد، كما يطلق المكفوف على الأعمى لقبض بصره.
٢. «سمك» بمعنى الارتفاع ولهذا يسمى السقف بالسمك لارتفاعه.
٣. «عمد» على وزن سبد وعمد كلاهما جمع «عمود» بمعنى الدعامة.
٤. «يدعم» من مادة «دعم» على وزن فهم بمعنى دعامة الشيء ودعام ودعامة بمعنى الخشب الذي يحمل الأشياء ويشدها، وتطلق على الشيء والشخص الداعم.
٥. «دسار» بمعنى المسمار والحبل الذي يربط به الشيء.
٦. «ثواقب» من مادة «ثقب» على وزن سقف بمعنى الشيء؛ ثقب الشيء واختراقه ومن هنا اطلق الثواقب على الكواكب المضيئة المنيرة، فكأن نورها ينقب البصر وينفذ فيه، أو أن نورها يخترق السماء ليصلنا.
٧. «مستطير» من مادة «طير» بمعنى انتشار الشيء في الهواء، ثم استعمل كل شيء سريع وكذلك الطيور. ومستطير بمعنى واسع ومنتشر. ومن هنا يقال استطار الفجر، أي انتشر ضوءه.
٨. «رقيم» من مادة «رقم» بمعنى الخط والكتابة، كما وردت هذه المفردة بمعنى الكتاب. وهو اسم من أسماء الفلك وسمي به لأنه مرفوم بالكواكب.

الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنية. وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنها في العبارة المذكورة بالريح:

قوة الجاذبية التي حفظته متماسكاً وحالة دون تشتته وزواله، والقوة الدافعة التي تدفعه إلى الخارج إثر الحركة الدورانية حول نفسه وبفعل قوة الطرد المركزية، وهذه هي الريح والعاصفة الثانية. فإذا أقررنا بالحركة الدورانية للعالم الأول على أنها كانت مستذبذبة تشتد أحياناً وتنخفض أحياناً أخرى فن الطبيعي أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمة في تلك الكتلة الغازية العظيمة الشبيهة بالمائع بحيث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط. وفي الختام فإن الطبقات الأكثر خفة والأقل وزناً - والتي ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام عليه السلام - قد قذف بها نحو الفضاء الخارجي (أن مفردة «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبدة التي تطفو لحفتها على سطح محتويات القربة).

وبهذا فقد اشتدت الحركة الدورانية، فانفصلت أجزاء كبيرة من هذه الكتلة العظيمة وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شدة بلغ نقاطاً مرتفعة وأما ما كان منها أقل شدة فقد بلغ نقاطاً أوطى. لكن الأجزاء التي بلغت نقاطاً مرتفعة أصبحت على هيئة سقف محفوظ وذلك بفعل قوة الجاذبية التي لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام عليه السلام.

ثم ظهرت في ذلك الفضاء المترامي السنوات السبع (التي سنتناولها بالحديث لاحقاً) دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر في مواقعها وتتن في حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبة والدافعة. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيرة والكبيرة، فانطلقت قطع متناثرة من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيرة تدريجياً نحو الكرات الكبيرة بحكم الجاذبية فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرقت الشمس واضيء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد في بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أن العامل الذي أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماوية عن الكتلة الأولى إنما يعزى إلى الانفجار الداخلي العظيم والذي

ظل سببه مجهولاً غامضاً لحد الآن. فالتى الانفجار المذكور بأجزاء عظيمة من الكتلة الغازية الاولى الشبيهة بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله ﷺ: «ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار...» إشارة إلى هذا الانفجار العظيم الذي انطلق من أعماق المادة الاولى. لكن وكما قلنا سابقاً فإن الهدف من هذا الكلام هو ايضاح مدى انسجام عبارات الخطبة مع الفرضيات الواردة بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً.



٢ - كيفية ظهور العالم

تعد مسألة كيفية ظهور العالم من أعقد المسائل التي واجهها العلماء والمفكرون. فالمسألة المذكورة تعود إلى ما قبل مليارات السنوات، ولعلها القضية التي لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذي حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفيضة والتحقيقات والفرضيات الضخمة التي توصلوا إليها في هذا المجال وبالتالي لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير محور هذه المسألة. إلا أن روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التي تسود الفكر البشري لم تدعه يقف مكتوف الايدي حيال هذه القضية والصمت إزائها. فالواقع أن لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صورة في أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر. وبالطبع فإن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية قد اكتفت بإشارات مقتضية بالنسبة لهذا الموضوع؛ الأمر الذي لا يؤدي إلا إلى رسم صورة باهتة في الذهن لا ترقى إلى إمطة اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها. على كل حال فإن العبارات الواردة في هذه الخطبة أننا تتناغم وما ورد في خطبته رقم ٢١١ التي قال فيها ﷺ: «وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه اطباقاً ففتقها سبع سموات، بعد ارتفاقها».

من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلامية بعدة أبحاث بهذا الشأن، والواضح أن أغلب هذه الروايات تنسجم وخطب نهج البلاغة الواردة بهذا الخصوص مع فارق جاء في

أغلبها وهو تصرّحها بأنّ الزبد أول شيء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذي كوّن السموات.^١

ولكن وكما أوردنا آنفاً فإنه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ المادة الأولى على الأقوى كانت عبارة عن غازات مائية مضغوطة يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفة. والجدير بالكدر هنا هو أنّه ليس هناك من تضاد بين الروايات التي صرّحت بأنّ أول ما خلق الله الماء، أو الشيء الأول الذي خلقه الله كان نور النبي ﷺ أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدثت عن خلق عالم المادة بينما تحدث البعض الآخر عن خلق عالم المجرّدات والأرواح. كما يتبيّن عدم وجود التناقض بين ما أوردناه من مضامين الروايات وما صرّحت به الآية ١١ من سورة فصلت التي قالت: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان».



٣ - الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن

الطريف أنّه كانت هناك نظريتين بشأن ظهور العالم في الوسط الذي نزل فيه القرآن - أو بعبارة أدق في العصر الذي نزل فيه القرآن -: الأولى نظرية «بطليموس» التي سادت المحافل العلمية لخمسة عشر قرناً واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى. وعلى ضوء هذه النظرية فإنّ الأرض كانت مركز العالم وتدور حولها تسعة أفلاك؛ وهي أفلاك تشبه الأغطية البصلية وشفافة وبلورية ومتراكمة بعضها، وكان كل كوكب سيّار (عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري وزحل) في فلك، كما كان لكل من الشمس والقمر فلكهما. وإضافة إلى هذه الأفلاك السبع، هناك فلك يرتبط بالكواكب الثابتة (المراد بالكواكب الثابتة هي تلك الكواكب التي تطلع معاً وتغرب معاً دون أن تغير مواقعها في السماء بخلاف الكواكب الخمس التي ذكرناها). وبعد الفلك الثامن؛ أي فلك الثوابت هناك فلك الاطلس الذي ليس له أي كوكب، أمّا مهمته فهي

١. للوقوف على هذه الروايات، انظر ١٠/٣ و ٥٧ من بحار الأنوار، طبعة بيروت. وردت أغلب الأحاديث في ج ٥٧.

سوق العالم العلوي للدوران حول الأرض، وهو الفلك الذي يسمى أيضاً بفلك الأفلاك.
أما الفرضية الأخرى فهي الفرضية التي تستمد قوتها من فرضية بطليموس بشأن العالم
وتفسره على أساس العقول العشرة.

وعلى ضوء هذه النظرية التي طرحها جمع من الفلاسفة اليونانيين فإن الله لم يخلق بادئ ذي
بدء سوى شيء واحد هو العقل (الملك أو الروح العظيمة والمجردة التي اصطلح عليها بالعقل).
وقد خلق هذا العقل شيئين هما العقل الثاني والفلك التاسع، ثم خلق العقل الثاني العقل الثالث
والفلك الثامن، وهكذا خلق عشرة عقول وتسعة أفلاك، ثم قام العقل العاشر بخلق
موجودات هذا العالم. والواقع ليس هنالك من دليل على هذه السلسلة من الفرضيات، وهكذا
هو الحال بالنسبة لفرضية بطليموس رغم ذلك فقد كانت هذه الفرضيات هي السائدة لقرون.
أما القرآن والروايات الإسلامية فقد رفضت الفرضية الأولى - فرضية بطليموس - كما
رفضت الفرضية الثانية - فرضية العقول العشرة - وذلك لأننا لم نر أثر لها في الآيات
والروايات المعروفة - ولا سيما في نهج البلاغة - وهذا بدوره يمثل أحد الأدلة والشواهد على
استقلالية القرآن وعظمة الأخبار الإسلامية واستنادها إلى الوحي لا إلى الأفكار البشرية،
والإلا لاصطبغت بصبغتها.^١

وقد رأينا الانسجام التام بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الروايات الإسلامية بشأن
ظهور العالم. فالمحور الأصلي في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية إنما كان الحديث عن
السموات السبع لا الأفلاك التسع ولا العقول العشرة، وستتناول لاحقاً تفسير السنوات
السبع.

لكن من المؤسف أن قدماء شراح نهج البلاغة - ممن تأثروا بفرضية العقول العشرة
ونظرية بطليموس بشأن ظهور العالم - قد سحبوا هذه الفرضيات على شرح نهج البلاغة

١. لقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى حركة الأرض من قبيل الآية ٨٨ من سورة النمل ﴿وتسرى الجبال
تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ والآية ٢٥ من سورة المرسلات ﴿الم نجعل الأرض
كفأناً﴾. (وطبق بعض التفسير فان الآية ٤ من سورة يس ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار
وكل في فلك يسبحون﴾ تدل على أن الشمس والقمر يسبحان في الفضاء العلوي. للوقوف أكثر على التفاصيل.
انظر تفسير الأمل.

فسعوا جاهدين لحمل الخطبة المذكورة عليها دونما أية ضرورة أو حاجة إلى ذلك؛ فهي لم تكن سوى فرضيات وقد ثبت بطلانها اليوم.

فقد أثبتت التحقيقات والمشاهدات العلمية وتجارب علماء الفلك عدم وجود فلك بالمعنى الذي ذهب إليه بطليموس، وأن الكواكب الثابتة والسيارة والتي يفوق عددها بكثير مما ظنه القدماء وأنها تدور في فضاء خال (وَأَنَّ السَّيَّارَاتِ إِنَّمَا تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ لَا حَوْلَ الْأَرْضِ والثوابت على المحاور الأخرى) وأن الأرض ليست مركزاً للعالم فحسب، بل هي سيارة صغيرة من سيارات المنظومة الشمسية وهذه الأخرى منظومة صغيرة من بين ملايين بل مليارات منظومات العالم العلوي. أما أنصار فرضية العقول العشرة ورغم تأثرها بفرضية بطليموس - التي سلم اليوم بطلانها - إلا أنهم يستندون إلى قاعدة من القواعد العقلية «والتي تصرح بان الواحد لا يصدر منه إلا واحد» لإثبات صحة فرضيتهم ولا نرى هنا من ضرورة للاستغراق في شرح هذه القاعدة .

ولما كانت هذه القاعدة تفتقر إلى الدليل من وجهة نظر أغلب العلماء، فإن أسسها تعتبر جوفاء لا قيمة لها.^١



٤ - ما المراد بالسفوات السبع؟

لم يقتصر الحديث عن السفوات السبع على نهج البلاغة - في هذه الخطبة والخطبة ٢١١ - فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع^٢. وهناك عدة تفاسير أوردتها العلماء القدماء بشأن السفوات السبع، ولا نروح الخوض فيها

١. لقد أشار المرحوم «الخواجة نصير الدين الطوسي» في كتابه «تجريد الاعتقاد» إلى الأدلة الخمسة لفرضية العقول العشرة فيفندها جميعاً ويقول في عبارة قصيرة «وأدلة وجوده مدخولة». وللوقوف أكثر على هذا الموضوع راجع كلام الخواجة والعلامة الحلبي بهذا الشأن.

٢. الطريف أن القرآن أشار إلى السفوات السبع في سبع من آياته، وهي الآية ٢٩ من سورة البقرة، ٤٤ من سورة الاسراء، الآية ٨٦ من سورة المؤمنون، الآية ١٢ من سورة فصلت، الآية ١٢ من سورة الطلاق، الآية ٣ من سورة الملك والآية ١٥ من سورة نوح. كما وردت بعض الآيات التي أشارت بعبارات أخرى إلى هذا الأمر.

جميعاً؛ الا ان التفسير الوحيد الذي يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذي قال بأن المراد بالسفوات السبع هو المعنى الواقعي لهذه الكلمة؛ فالسما هي مجموعة من الكواكب والنجوم في العالم العلوي، والسبع هو العدد سبعة المعروف ولا يراد به الكثرة، غاية ما في الأمر أن الذي نفهمه من الآيات القرآنية هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابتة ومتحركة كلها مرتبطة بالسما الاولى. وبناءً على هذا فان وراء هذه السما العظيمة ستة سموات عظيمة أخرى لم يتسنى لحد الآن للعلم البشري التوصل إلى معرفتها.

والآية السادسة من سورة الصافات تؤيد هذا المعنى: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوَكِبِ»، كما ورد هذا المعنى في الآية ١٢ من سورة فصلت «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ»، وجاء في الآية الخامسة من سورة الملك «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ». والطريف في الأمر أن المرحوم العلامة المجلسي قد ذكر هذا التفسير - في بحار الانوار - على أنه احتمال اقتدح في ذهنه، أو استنتاجه من الآيات والروايات كما يعبر عن ذلك اليوم.^١

وهنا لا بد من القول بأن الأجهزة العلمية لم تتمكن حتى اليوم من إمطة اللثام عن هذه العوالم الست، إلا أن الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلاً، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أن هناك أشباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم أخرى، على سبيل أوردت بعض المجلات الفضائية نقلاً عن المرصد الجوية المعروفة «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظور مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التي يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية، لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافة البالغة ألف مليون سنة ضوئية، غير أنه يتعذر رؤية ما فيه من أشياء، ومما لاشك فيه أن ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطة التي نعيش على وجهها. وما هذه الدنيا العظيمة التي تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلا ذرة تافهة لا قيمة لها مقارنة بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا أخرى

عظيمة فيما وراء هذه الدنيا.^١ ونخلص مما سبق إلى أن العوالم التي تمّ كشفها من قبل البشرية ورغم عظمتها وما تتطوي عليه من أسرار وأعاجيب ليست إلا جزءاً ضئيلاً من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سيكشف النقاب عن العوالم الست الأخرى.



٥ - كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الأمور

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ عبارات الإمام عليه السلام بشأن ظهور العالم لم ترد بصيغة فرضية واحتمال أبداً، بل صورها عليه السلام وكأنّه يشهد ذلك الظهور، وهذا دليل على استناد علمه إلى خزانة علم الغيب الإلهي أو تعليمات النبي صلى الله عليه وآله التي تستند إلى الوحي حتى تحدث ابن أبي الحديد بهذا الشأن فقال: «إن أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام^٢». وكيف لا يكون الإمام عليه السلام كذلك وهو القائل: «أنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض»^٣.



١. مجلة الفضاء ٥٦ / آذار عام ١٩٧٢ م.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٠ / ١.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

القسم الثامن

«ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَصَاقُونَ لَا يَتَزَايِلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلَا سَهُوُ الْعُقُولِ وَلَا فِتْرَةُ الْأَبْدَانِ وَلَا غَفْلَةُ النَّسِيَانِ وَمِنْهُمْ أَمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَالسِّنَّةُ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ، وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ وَالْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ، لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ وَلَا يَحْدُونَهُ بِالْأَمَاكِنِ وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

عالم الملائكة

يوصل الإمام عليه السلام خطبته التي تطرق فيها إلى خلق السموات وكيفية ظهور العالم، فيتحدث عن خلق الموجودات السماوية وملائكة العالم العلوي فيشير بعبارات قصيرة بليغة إلى أصناف الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وطبيعة أنشطتهم ومهامهم وعظم خلقهم ومدى علو معرفتهم، فالواقع هو أن هذا القسم من الخطبة يختص بالتعريف بالملائكة. فاستهل كلامه

قائلاً: «ثم فتق مابين السموات العلا»^١ فالذي يستفاد من هذا التعبير أنه كانت هناك فواصل بين السموات وقد التحمت في البداية ثم ما لبثت أن انفصلت، وهذا بالضبط على الخلاف مما تضمنته نظرية بطليموس في أن السموات كأغشية البصل متراكمة على بعضها دون وجود أية فجوة. ثم قال الإمام عليه السلام: «فملاهن أطواراً^٢ من ملائكته^٣». وقد ورد نظير هذه العبارة في الخطبة رقم ٩١ المعروفة بخطبة الأشباح حيث قال: «وملا بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها» كما ورد في موضع آخر من هذه الخطبة قوله: «وليس في أطباق السماء موضع اهاب إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد».

ثم يتطرق عليه السلام إلى أصناف، أو بعبارة أدق أطوار الملائكة فيقسمهم إلى أربعة أقسام: القسم الأول: أرباب العبادة، ثم يقسم هؤلاء إلى أقسام، فمنهم من هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع «منهم سجود^٤ لا يركعون»، ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصب قط «وركوع لا ينتصبون» ومنهم الصافون في الصلاة بين يدي خالقهم لا يتزايلون «وصافون^٥ لا يتزايلون». ذهب البعض إلى أن «صافون» هنا بمعنى الصف في العبادة، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن معناها فتح أجنحتهم في السماء بدليل الآية القرآنية القائلة: «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَاقَاتٍ^٦». وهناك احتمال آخر أن يكون المراد بها الوقوف في صفوف منظمة والاستعداد لطاعة أوامر الله وامتنالها.

إلا أن الاحتمال الأول أكثر انسجاماً مع الجمل السابقة واللاحقة، والواقع أنهم يمارسون الحالات الثلاث لعبادتنا في القيام والركوع والسجود. فالتعبير بصافين إنما أنه إشارة للصفوف المنظمة للملائكة، أو القيام المنظم لكل منها. وهذا عين ما ورد في خطبته عليه السلام في وصف المتقين

١. «العلا» جمع «عليا» بمعنى الأعلى والأشرف.

٢. «أطوار» جمع «طور» على وزن قول بمعنى الصنف، كما تعني الحد والحالة أيضاً.

٣. ان الضمير «هن» في العبارة كما يشير ظاهرها يعود إلى السموات، إلا أن المراد الفواصل بين السموات بدليل قوله «ثم فتق...» وقاء التفريع في «فملاهن».

٤. «سجود» جمع «ساجد»، كالركوع جمع راكع.

٥. «صافون» جمع «صاف» على وزن حاد من مادة «صف» بمعنى المساواة وقد اقتبست في الأصل من «صفصف» بمعنى الأرض المستوية.

٦. سورة الملك / ١٩.

لهمام «أما الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن»^١. وأخيراً المسبحون الذين لا يملون التسبيح والتحميد له سبحانه «ومسبحون لا يسأمون». فظاهر هذه الجملة يفيد أن هؤلاء طائفة أخرى غير الطوائف الثلاث القائمة والراكعة والساجدة (وإن ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المسبحين هم الطوائف المذكورة سابقاً، حيث يمكن الاستشهاد ببعض الروايات التي تؤيد ما ذهبوا إليه. فقد روي أنه سئل النبي ﷺ: كيف صلاة الملائكة؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى نزل عليه جبرئيل ﷺ فقال له: «أن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذي الملك والملكوت وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذي العزة وأهل الجبروت وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون سبحان الحي الذي لا يموت»^٢.

لكن هل المراد بهذا السجود والركوع والقيام ذات أعمالنا في السجود والركوع والقيام أم إشارة إلى درجات خضوع الملائكة وعبادتهم حسب مراتبهم ومقاماتهم، المسألة محل بحث وتقاش. فإذا اعتبرنا الملائكة أجساماً لطيفة ولهم أيدي وأرجل ووجوه وجبهات فإن المعنى الأول أنسب، وإن نفينا عنهم الأجسام، أو أقررنا بأن لهم جسم غير أنه ليس على غرار أجسامنا فإن المعنى الثاني هو الأنسب (وستحدث في الأبحاث القادمة عن هذا الأمر).

على كل حال فإن هذه المجموعة من الملائكة منهمكة في عبادة الله وتسبيحه وتقديسه وكأن مهمتهم مقتصرة على العبادة فقط. والواقع هو أن هذه آية بيّنة من آياته سبحانه وعظمة مقامه وعلو شأنه وعدم حاجته إلى عبادة العباد، وبعبارة أخرى فإن المحتمل أن فلسفة خلقه هؤلاء الملائكة هو عدم اغترار العباد من الناس بعبادتهم وليعلموا على فرض المحال أنه لو كان بحاجة إلى العبادة فإن هناك الملائكة المنهمكين بالعبادة فلا ينبغي أن يتصور عباد الله في الأرض ان عبادتهم أو عدمها ليست لها أدنى تأثير على كبرياء الله وعظمته، ولو كفروا جميعاً لما ضره ذلك ذرة «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ»^٣. ثم أشار ﷺ إلى صفات هؤلاء الملائكة

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٢. بحار الانوار ٥٩/ ١٩٨.

٣. سورة الزمر ٧/.

فقال ﷺ: «لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان». على العكس من الناس الذين يشعرون تدريجياً بالفتور من جراء تكرار العبادة فيخالطهم التعاس فيصاب الجسم بالوهن والضعف ويعرض لهم السهو والنسيان. إلا أن الملائكة بعيدون كل البعد عن هذه الحالات والعوارض. فهم على درجة من العشق للعبادة والاستغراق في المناجاة والتسبيح بحيث لا يعرض عليهم النوم والغفلة والفتور قط. وبعبارة أخرى فإن الفتور في إداء الوظائف إنما يستند إلى أمور ليست لها من سبيل إلى الملائكة أبداً. فأحياناً تتمثل تلك الأمور بالتعب وغفو العين وسهو العقول وضعف البدن وأحياناً أخرى بالغفلة والنسيان ولما كانت أي من هذه الأمور ليست لها من سبيل إلى الملائكة، فاتهم لا يفترؤ في عبادتهم قط.



ثم يعرض ﷺ إلى القسم الثاني من الملائكة وهم السفراء بينه تعالى وبين المكلفين من البشر بتحمل الوحي الإلهي إلى الرسل «ومنهم أمناء على وحيه والسنة إلى رسله ومختلفون بقضائه وأمره» فهم في الواقع الوساطة بين الله والأنبياء. ونفهم من هذه العبارة أن السفارة الإلهي لا تقتصر على جبرئيل ﷺ، بل هو في الحقيقة زعيم سفراء الله، القرآن بدوره أشار إلى هذا الصنف من الملائكة: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»^١، وقال في آية أخرى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ»^٢، كما أشار أحياناً إلى الملائكة من حملة الوحي فقال: «يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»^٣.

كما أشارت بعض الروايات الإسلامية وسائر خطب نهج البلاغة إلى هذا المعنى أيضاً. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المراد بالقضاء والأمر الإلهي الوارد في العبارة التي نخوض فيها هو الأحكام والأوامر الدينية الشرعية، لا القضاء والأوامر التكوينية التي احتملها البعض

١. سورة النحل / ١٠٢.

٢. سورة البقرة / ٩٧.

٣. سورة النحل / ٢.

من شارحي نهج البلاغة؛ وذلك لعدم انسجام هذا الاحتمال والعبارات السابقة - التي طرحت مسألة أمناء الوحي - اما مختلفون هنا فقد جاءت من مادة الاختلاف بمعنى الذهاب والاياب والتردد على الأماكن.

ثم أشار ﷺ إلى القسم الثالث من الملائكة «ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه». «حفظة» جمع حافظ بمعنى الحارس، ويمكن أن يكون لها هنا معنيان: أحدها حفظها للعباد بمراقبة أعمالهم واحصائها وتسجيلها، كما أشارت إلى ذلك الآية الرابعة من سورة الطارق القائلة «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ» وضرب آخر من هؤلاء الملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات والبلاء، ولولا ذلك لكان الإنسان مسرحاً للفناء والزوال والاعطاب، وهذا ما صرّحت به الآية الحادية عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

ولكن يبدو أن المعنى الأول أنسب بالالتفات إلى العبارات السابقة التي تحدثت عن الوحي والتكاليف الشرعية، والعبارة اللاحقة التي أشارت إلى الجنة وجزاء الأعمال، وإن لم يستبعد الجمع بين المعنيين عن مفهوم العبارة.

أما مفردة سدنة فهي جمع سادن بمعنى البواب، وجنة على وزن كتاب واحدها جنة، والذي يستفاد من هذه العبارة إنَّ لله عدّة جنان، ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنها ثمانية كما وصفها القرآن وهي «جنة النعيم، جنة الفردوس، جنة الخلد، جنة المأوى، جنة عدن، دار السلام، دار القرار وجنة عرضها السموات والأرض»^١.

أما فائدة وجود الملائكة الذين يحفظون أعمال العباد، فقد قيل بأن الإنسان يشعر بالمسؤولية أكثر لوجودهم ويكون أعظم مراقبة لنفسه وأحرص في سلوكه وتعامله، وذلك لأن الهدف الأسمى هو تربية الإنسان وتهذيبه وإبعاده عن الرذيلة والانحراف.



وأما القسم الرابع من الملائكة فهم حملة العرش، الذين وصفهم ﷺ بقوله «ومنهم الثابتة

١. «سدنة» جمع «سادن» بمعنى الخادم والبواب.

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميشم ١٥٨/١ وشرح نهج البلاغة للمرحوم العيرزا حبيب الله الخوني ٢٦٧/٢.

في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العيا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ناكسة^١ دونه أبصارهم متلفعون^٢ تحته بأجنحتهم مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة» ثم يستغرق ﷺ أكثر في التعرض لصفاتهم فيقول: «لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدونه بالاماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر»^٣. أجل فقدرتهم ليست قدرة جسمانية، بل يتمتعون بقدرة روحانية خارقة متعذرة على الإنسان، ومن هنا أوكلت لهم مهمة حمل العرش. والواقع أنهم بلغوا أعظم مقامات التوحيد بحيث أصبحوا قدوة في التوحيد لكافة عباد الله ولا سيما أولياء الله البارزين من الناس. فهم لا يرون من مثيل وشبيه ونظير لله قط، كما لا يرون من حدود لذاته وصفاته سبحانه، حتى أنهم يرونه أعظم من الخيال والقياس والظن والوهم؛ وذلك لأن كل ما يتصوره الإنسان أو الملك إنما هو مخلوق لله والله أعظم من أن يكون مخلوقاً. أمّا المراد بالعرش وحمله العرش وماهية وظائفهم والمفاهيم التي وردت في هذه العبارات، فهذا ما سنتناوله في هذه الأبحاث.

تأملات

١ - ماهية الملائكة!

هنالك عدّة أبحاث تضمنتها الآيات القرآنية بشأن الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وأفعالهم والمهام المختلفة الموكلة إليهم. كما شحنت الروايات الإسلامية بالأخبار التي تتحدث عن الملائكة ومقاماتهم وصفاتهم وأعمالهم، غير أنه لم يرد البحث في التحدث عن ماهيتهم، ومن هنا كثر الكلام بين العلماء والمتكلمين بهذا الشأن. فيرى علماء الكلام، بل أغلب علماء الإسلام أنّ الملائكة موجودات ذات أجسام لطيفة.

١. «ناكسة» من مادة «نكس» على وزن عكس بمعنى الانقلاب رأساً على عقب ولذلك يطلق المنكوس على الوليد الذي يسقط على رجليه.

٢. «متلفعون» من مادة «لفع» على وزن نفع بمعنى الاشتغال على الشيء والالتفاف به، ومن هنا يقال للمرأة حين تلف عليها عباءها «تلفعت المرأة».

٣. «نظائر» جمع «نظير» بمعنى المثل.

كما وردت بعض العبارات التي أشارت إلى النور على أنه المادة الأصلية لخلق الملائكة، فقد وردت العبارة المعروفة بشأنهم في أغلب المصادر الإسلامية التي وصفتهم قائلة: «الملك جسم نوري...». أما المرحوم العلامة المجلسي فقد قال: «ترى الإمامية بل جميع المسلمين سوى طائفة قليلة من الفلاسفة أنّ الملائكة هم أجسام لطيفة نورانية ولها أن تأتي بأشكال مختلفة... وأنّ الأنبياء والأوصياء العصومين كانوا يرونهم»^١. وبعبارة أخرى فإنّ الملائكة أجسام نورية والجن أجسام نارية والانس أجسام كثيفة. أمّا ما عليه جمع من الفلاسفة فهو أنّ الملائكة مجردون من الجسم والجسمانيات وأنّ لهم أوصاف لا يستوعبها الجسم. وقد نقل المرحوم «الشارح الخوئي» في «منهاج البراعة» عدّة أقوال بهذا الخصوص بلغت ستة أقوال، إلا أنّ أصحاب هذه الأقوال هم قلة قليلة جداً.

لاشك أنّ وجود الملائكة - ولا سيما بالالتفات إلى تلك الصفات والمقامات والأعمال التي ذكرها القرآن - لمن الأمور الغيبية التي لا يمكن إثباتها وبتلك الخصائص والصفات إلا من خلال الأدلة الثقلية.

فالقرآن يصف خصائصهم على أنّهم:

١- موجودات عاقلة ذات شعور.

٢- لا يعصون الله وهم بأمره يعملون.

٣- إنّ الله قد أوكل لهم عدّة وظائف ومهام. فمنهم حملة العرش، ومدبرات الأمر، والمأمورة بقبض الأرواح، حفظة أعمال البشر، حفظة الإنسان من المهالك والأخطار، المدد الإلهي لنصرة المؤمنين في المعارك، عذاب الأتوم الظالمة والطاغية ومبلغي الوحي إلى الأنبياء.

٤- اختلاف مقامات الملائكة وتفاوتهم في الدرجات.

٥- المداومة على تسبيح الله وتقديسه وتمجيده.

٦- تمثيلهم أحياناً بهيئة البشر وما شاكل ذلك للأنبياء وبعض العباد الصالحين كمریم عليها السلام.

وما إلى ذلك من أوصاف يتعذر إحصائها في هذا البحث. وبمحت ماهية الملائكة في أنّها

مجردة عن الجسم أو غير مجردة ليس من ورائه طائل، إلا أنّ ظاهر الآيات والروايات - إذا لم نطرح لها توجيهها وتفسيراً خاصاً - هو أنّ الملائكة ليس من قبيل المواد الكثيفة والعناصر الخسنة، مع ذلك فهم ليسوا مجردات مطلقاً، لتضافر الروايات والآيات التي صرّحت بعروض الزمان والمكان والأوصاف الأخرى الملازمة للأجسام عليهم. وهذا ما تؤكده عبارات الإمام عليه السلام في هذا القسم من خطبته وكذلك ما ورد في خطبته المعروفة بالأشباح. ولكن على كل حال فإنّ الإيمان بالملائكة على نحو الإجمال لمن الأمور التي أكد عليها القرآن الكريم، فقد ورد في الآية ٢٨٥ من سورة البقرة قوله تعالى: «أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ». ^١

الجدير بالذكر هنا هو أنّ بعض المغفلين وارضاءً لأولئك الذين ينكرون عوالم الغيب فقد عمدوا إلى تفسير الملائكة بالقوى والطاقات التي تختزنها الطبيعة الإنسانية وسائر الموجودات والكائنات، والحال أنّ أدنى تأمل ونظرة إجمالية للآيات القرآنية تفيد رفض هذه الفكرة تماماً؛ كيف لا وقد ثبتت بعض الصفات للملائكة من قبيل العقل والشعور والإيمان والاخلاص والعصمة.



٢ - أصناف الملائكة

الملائكة على أصناف وأقسام عديدة على ضوء ما أشارت الآيات والروايات، وقد وردت في هذه الخطبة الأصناف الأربعة الرئيسية منهم «أرباب العبادة والسفراء وحفظة العباد كالكرام الكاتبين ومنهم سدنة الجنان وحملة العرش». ولكن وكما ذكرنا سابقاً فإنّ الآيات القرآنية قد أشارت إلى الأصناف الأخرى من الملائكة، ومنهم الموكلون بعذاب الامم الطاغية الظالمة، والموكلون بالامدادات الغيبية ونصرة المؤمنين ومدبرات الأمر وقبضة الأرواح، غير أنه يمكن اختصار جميع هذه الطوائف في مدبرات الأمر التي تتولى إدارة شؤون

العالم. فقد اقتضت السنة الإلهية وجرت بغية اظهار قدرته وعظمته وتحقق أهدافه وأغراضه أن تسند إدارة شؤون العالم إلى الملائكة المأتمرين بأوامر الله والبعيدين كل البعد عن الوهن والضعف والفتور والسهو والنسيان والتباطؤ في الطاعة ولكل صنف من أصناف الملائكة وظيفته المختصة به.

والحق أن الإنسان إذا تأمل أقسام وأصناف الملائكة وسعة وعظمة الوظائف الموكلة إليها يشعر بالتصاغر والحقارة ويتساءل من أكون في خضم هذا العالم الواسع المليء بعمال الله وجنوده الذين لا يفتر عن عبادته وطاعته وامتنال أوامره؟ واين تكون عبادتي وطاعتي من هذه العبادة والطاعة التي تؤديها الملائكة؟ وما قيمة قوتي وقدرتي مقارنة بقوة الملائكة وقدرتها؟ والخلاصة فانه يقف على عظمة هذا العالم والأعظم منه خالقه من جانب وحقارته ودنوا موضعه من جانب آخر، وهذه إحدى حكم وفلسفة وجود الملائكة.



٣ - العرش وحملته

لقد أشارت الآيات القرآنية عشرين مرة إلى العرش الإلهي، كما كثرت الأبحاث التي تضمنتها الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن، وعلى ضوء بعض هذه الروايات فإن عظمة العرش متعذرة على التصور البشري، حتى قيل بهذا الخصوص: ما السموات والأرضين وما فيها مقابل العرش إلا حلقة في صحراء عظيمة.

كما صرّحت بعض الروايات بأن أعظم ملائكة الله يعجزون عن بلوغ ساق العرش وأن أسرعوا في تحليقهم إلى يوم القيامة. كما جاء في الخبر أن الله خلق للعرش ألف لسان وضمنه صورة جميع مخلوقاته في الصحاري والبحار.

كما روي أن الله حين خلق العرش، أمر الملائكة بحمله، فما استطاعوا أن يحملوه، فخلق ملائكة، فعجزوا عن حمله، فحمله الله بقدرته، ثم أمر سبحانه ثمان من الملائكة المأمورين بحمل العرش أن يحملوه.

فقالوا: وهل يسعنا حمله وقد عجزت الملائكة. فأمروا بذكر الله والقول «لا حول ولا قوة

إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» والصلوات على محمد وآله، فلما فعلوا سهل عليهم حمله.^١
وتشير كل هذه الكنايات إلى عظمة عرشه سبحانه، أمّا ماهية العرش، فهي من الأمور
التي كثر البحث فيها بين العلماء، ونرى ان الاستغراق في شرح هذا الأمر إنما يبعدنا عن الهدف
الأصلي، ولذلك نكتفي بإشارة مختصرة إلى هذا الموضوع:

فقد كان للملوك والسلاطين عرشان، أحدهما منخفض يعتلونه في الأيام الاعتيادية
ويسرون شؤون الحكم ودقة أمور البلاد، وآخر مرتفع يرتقونه في الأيام الخاصة والمرام
المهمة والكبيرة. وقد اصطلحت الآداب العربية على الأول بالكرسي والثاني بالعرش، وقد
درجت هذه الآداب على التعبير بالعرش كناية عن القدرة والسلطة وإن افتقر العرش
للدعامات المرتفعة، كما هناك المعنى الكنائي الآخر الذي يشير إلى فقدان السلطة والذي
جسدته العبارة المشهورة «ثل عرشه». والله هذان العرشان في الامرة والحكومة كونه سلطان
عالم الوجود (وبالطبع لما كان الله ليس بجسم ولا في زمرة الجسمانيات فالمفهوم الكنائي هو
المراد هنا من العرش والكرسي).

على كل حال يبرز هذا السؤال: ما كنه هذا العرش الإلهي؟ ومن التفاسير التي يمكن
ايرادها بهذا الشأن هو أنّ عالم المادة والسّموات والأرضين والمنظومات والمجرات كلها بمثابة
الكرسي وعرشه المنخفض كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»، والمراد بالعرش هو العالم الكامن وراء عالم المادة (المادة الكثيفة
والغليظة)، التي لا تحيط بعالم المادة فحسب، بل ليس عالم المادة أمامه سوى مقدار تافه لا
أهميه له. أمّا حملة العرش فما لاشك فيه انهم ليسوا ملائكة غلاظ الهيكل وأقوياء الجسم
والبنية بحيث يحملون على أكتافهم دعائم العرش الذي استوى عليه الرحمن؛ لأنّ للعرش - كما
أشرنا سابقاً - معنى كنائي والقرائن العقلية التي تفيد تنزهه الله عن الجسم والجسمانية إنما تؤيد
صحة هذا المعنى، وعليه فحملة العرش ملائكة عظام ذوي مقامات رفيعة وليس لهم من شبيهه
أو نظير ولهم تدبير عالم ما وراء الطبيعة وتنفيذ أوامره سبحانه في كل مكان، أمّا التعبيرات

١. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٢/٣٢ - ٣٥، وقد أورد المرحوم العلامة المجلسي الروايات المرتبطة
بالعرش والكرسي في المجلد ٥٥ من بحار الأنوار، ومنها الروايات السابقة في ص ٥، ١٧ و ٥٥.

التي ساقها الإمام في أوصافهم بقوله «الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم» فكل هذه تفيد مدى قدرتهم في تدبير شؤون العالم. طبعاً يجب علينا أن نحمل الألفاظ أينما وردت على معانيها الحقيقية، إلا أنه يتعذر علينا ذلك الحمل ولا يبقى أمامنا سوى المعنى الكنائي كالذي أوردناه بشأن الآية القرآنية المباركة «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» إذا كانت هناك القرائن العقلية المسلمة. نعم لقد نهض هؤلاء الملائكة بالقيام بهذه الأمور بالاستناد إلى قوتهم وقدرتهم، بل بحول الله وقوته، كما ينهمكون بالتسبيح والتقديس وعدم الفتور عن ذكر الله، وهذا ما صورته الآية السابعة من سورة المؤمن التي أكدت إلى جانب ذلك على دعائهم واستغفارهم للمؤمنين «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا».



٤ - عصمة الملائكة

يتمتع الملائكة بصفات جمّة وقد تكفلت عباراته المذكورة (الواردة بشأن الطائفة من الملائكة المشغولة بالعبادة) ببيان بعض هذه الصفات: «لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان». كما أشار القرآن إلى تنزههم عن الذنوب والمعاصي «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ يَعْمَلُونَ»^١، ووصف الموكلين بالعذاب منهم «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ»^٢.

طبعاً يتصور البعض أنه ليس هنالك من مفهوم لعصمة الملائكة من عدمها، إلا أن هذا التصور لا يبدو صحيحاً؛ صحيح أن الملائكة لا تنطوي على دوافع الذنب والمعصية من قبيل الشهوة والغضب (أو أنها ضعيفة جداً فيهم)، ولكن لا ينبغي الغفلة عن أنهم فاعلون ومختارون ولهم القدرة على ارتكاب المخالفة، بل إن الآيات القرآنية تصرح بمدى خشيتهم من

١. سورة الأنبياء / ٢٦٦-٢٧.

٢. سورة التحريم / ٦٧.

العقاب الإلهي ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^١، فالآية الشريفة تكشف عن عصمتهم وطهارتهم من المعاصي في ذات الوقت الذي يسعهم ارتكابها. ومن هنا تتضح مغازي بعض الروايات التي صرحت بتباطؤ بعض الملائكة في امتثال أوامر الحق وعقابهم على هذا التباطؤ بصفته يمثل ترك الأولى الذي يصدق على الأنبياء، ونعلم جميعاً بأن ترك الأولى لا يعدّ ذنباً قط، بل قد يكون عملاً مستحباً، إلا أنه يعتبر ترك الأولى مقارنة بعمل يفوقه، ونوكل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع إلى أبحاثه المختصة به.



٥ - مقام معرفة حملة العرش

يفهم من العبارات الواردة بهذا الشأن أنّ العامل الذي جعل حملة العرش مؤهلين للقيام بهذه المسؤولية الخطيرة لا يقتصر على قوتهم وقدرتهم، بل يمتد ذلك إلى سعة وسمو مستوى معرفتهم بالله تبارك وتعالى. فقد بلغوا أعظم مقامات التوحيد ونفي كافة أشكال الشرك والشبيه والمثيل للحق تعالى، ومن هنا استحقوا أهلية تحمل تلك المهمة العظيمة؛ الأمر الذي يعتبر درساً لا بدّ أن يتعلمه العباد وذوي المعرفة بالله.



القسم التاسع

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزَنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تَرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَأَطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ ذَاتِ أَعْضَاءٍ وَوُضُوءٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُضُوءٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَّصَلَتْ لِيَوْقَتِ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، فَمَثَلَتْ إِنْسَانًا ذَا أَدْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكْرٍ يَنْصَرِفُ بِهَا، وَجَوَارِحٍ يَخْتَدِمُهَا وَأَدْوَاتٍ يُقَلِّبُهَا وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِ وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ، مَعْجُونًا بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ».



الشرح والتفسير

خلق آدم ﷺ

بعد الإشارات البليغة التي وردت في الأقسام السابقة من هذه الخطبة العميقة المضامين بشأن خلق العالم والسموات والأرض تناولت خطبة الإمام ﷺ هنا خلق العالم والسموات ثم عرجت هنا إلى سائر مخلوقات هذا العالم ومن بينها خلق الإنسان ومراحلته المختلفة والتي قسمها ﷺ إلى خمس مراحل تكتنف تمام مسيرة حياته وهي:

- ١ - خلق آدم من ناحية الجسم والروح (يعني في مرحلتين).
- ٢ - سجود الملائكة لآدم وتمرد ابليس.
- ٣ - إسكان آدم الجنة ثم بيان ترك الأولى الذي صدر من آدم ﷺ وندمه وتوبته وأخيراً قبول توبته وإخراجه من الجنة والهبوط إلى الأرض.

٤ - لقد أصبح لآدم ذرية ثم تكاثرت هذه الذرية فكونت المجتمعات البشرية ثم بعث الله أنبياءه ﷺ يكتبه السماوية المقدسة من أجل هداية الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشرية والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحي والرفعة والكمال.

٥ - المجتمعات البشرية من جانبها خطت خطوات عريضة نحو التكامل حتى تأهلت لتقبل الدين الخاتم حيث اصطفى الله رسوله محمد ﷺ فبعثه بالقرآن الكريم لهداية الإنسانية وانقاذها من خلال اطروحته التي تتضمن السعادة والفلاح، ثم تحدث الإمام ﷺ عن القرآن.

مراحل خلق آدم ﷺ من الناحية الجسمية والروحية

قال الإمام ﷺ بشأن خلق جسم آدم ﷺ: «ثم جمع سبحانه من حزن^١ الأرض وسهلها وعذبها^٢ وسبخها^٣ تربة». فالعبارة تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهة، كما تشير من جهة أخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفة على وجه الأرض لتنطوي على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التي تحتاجها المجتمعات البشرية في مختلف مجالات حياتها، ثم أشارت إلى مادة أخرى هي الماء والتي اختلطت بالتراب فقال ﷺ بهذا الشأن «سنها^٤ بالماء حتى خلصت ولاطها^٥ بالبله حتى لزبت^٦».

فالواقع أن دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفة مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجة والرابطة بين هذه الأجزاء. ثم أشار ﷺ إلى مسألة تبلور خلقة الإنسان من ذلك التراب والطين فقال ﷺ: «فجبل منها صورة ذات أحناء^٧ ووصول وأعضاء وفصول». في الواقع «أحناء» جمع «حنو» إشارة إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع

١. «حزَن» على وزن «وزن» بمعنى المواضع الوعرة على الأرض، كما يطلق الحُزَن أو الحزَن على الهم والغم، لأنه نوع وعورة في روح الإنسان.
٢. «عذب» على وزن «جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.
٣. «سبخ» وجمعها سبخ بمعنى ما ملح من الأرض.
٤. «سن» من مادة «سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شيء، كما تأتي بمعنى نعومة الشيء.
٥. «لاط» من مادة «لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشيء وعجنه.
٦. «لزبت» من مادة «لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.
٧. «أحناء» جمع «حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.

والفك العلوي والسفلي وراحة القدم بحيث يتكيف البدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعذر قيامه بمثل هذه الأفعال التي يمارسها اليوم لو كان البدن على هيئة جسم هندسي مكعب أو ما شابه ذلك. أمّا العبارة «وأعضاء وفصول» فهي تشير إلى الأعضاء المختلفة التي ترتبط مع بعضها من خلال المفاصل؛ الأمر الذي أكسب البدن القدرة العملية على ممارسة مختلف الأنشطة فلو كانت يد الإنسان على سبيل المثال مستوية ذات عضو واحد وعظم واحد لا تقوى على أداء الفعاليات التي تؤديها الآن، بينما نعلم أنّ البارئ سبحانه جعلها عدّة عظام وغضاريف وعدّة أعضاء متصلة مع بعضها البعض الآخر؛ الأمر الذي جعل كل اصبع بل كل سلامية من أصابعه وإضافة لليد تتمتع بعملية خاصة وهذه بدورها تعدّ آية من آيات حكمته وعظمته سبحانه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة لاحقة فقال: «اجمدها حتى استمسكت وأصلدها حتى صلصلت»^٢ وبذلك فقد أعد الإنسان إعداداً تاماً من الناحية البدنية بحيث يسير إلى الغاية المعينة المرسومة له «لوقت معدود وأجل معلوم»^٣. فقد روي في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الحالة دامت أربعين سنة، فكان جسد آدم ملقى في موضع والملائكة تمر به وتقول لأي أمر خلقت؟^٤

ولعل هذه المدّة الزمانية - كما صرح بذلك بعض المحققين - كانت اختباراً للملائكة أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأني في الأمور وعدم الاستعجال فيها. وهنا جاءت المرحلة الثانية؛ مرحلة نفخ الروح في الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعة الإنسانية التي زود فيها الإنسان بقوى العقل والإدراك التي تسوقه لممارسة الأعمال: «ثم نفخ فيها من روحه فمثلت^٥ إنساناً ذا أذهان يجيلها»^٦. العبارة «ذا أذهان يجيلها» إشارة إلى مختلف القوى العقلية والذهنية التي

١. «أصلد» من مادة «صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشيء صلباً أصلاً.

٢. «صلصل» من مادة «صلصلة» بمعنى اليوسة والجفاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرّد ملامستها لشيء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.

٣. اللام في «لوقت معدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنّها لام التعليل، بينما احتدل البعض أنّ المراد بهذه العبارة هو أنّ هذا الوضع سيستمر إلى قيام الساعة ثم تنفكك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً للغاية، لأنّه من المراحل المختلفة لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضية نفخ الروح

٤. «فبقي أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة فتقول لأمر ما خلقت؟»، منهاج البراعة ٢ / ٤٤.

٥. «مثلت» من مادة «مثول» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.

٦. «يجيل» من مادة «اجالة» (مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور).

زود بها الإنسان ويوظف كلاً منها في مجال من مجالات حياته بحيث يلائم بينها جميعاً في مسيرته نحو الهدف المنشود (والقوى المذكورة عبارة عن قوة الإدراك وقوة الحفظ وقوة الخيال و...). وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الذهن في الأصل يعني القوة، ثم استعمل بمعنى العقل والفهم والدراية وسائر القوى العقلانية، فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام قد عنى مختلف هذه القوى معتبراً كل واحدة منها نعمة وعناية من العناية الإلهية ثم قال عليه السلام: «وفكر يتصرف بها». قد يتصور أحياناً أنّ هذا التعبير من قبيل العطف التفسيري والتعبير الآخر لمفهوم العبارة السابقة، غير أنّ الظاهر هو أنّ كل عبارة من العبارتين تشير إلى حقيقة: فالعبارة «ذا أذهان يجيلها» إشارة إلى مراحل المعرفة والتصور والتصديق وفهم وإدراك الحقائق، وأمّا العبارة «وفكر يتصرف بها» فهي إشارة إلى الأفكار التي تخضع لمرحلة التطبيق ويتصرف الإنسان بواسطتها في مختلف الأشياء (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الفكر في الأصل يعني الحركة الفكرية وتوظيف الذهن). على كل حال فقد جاءت مفردة «فكر» بصيغة الجمع (كالأذهان بصيغة الجمع) لتفيدان القوى العقلية والأفكار الإنسانية كثيرة للغاية ومتنوعة، وهذه نقطة مهمّة أكدها كبار الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس، وإليها تعزى الفوارق في الاستعدادات الفكرية لافراد البشرية. فربما كان هناك الأفراد الأقوى في قسم منها وأضعف في القسم الآخر بيننا هنالك العكس، فالمسألة تنطوي على أسرار ورموز عجيبة للغاية، وكلما غاص الإنسان في كنهها تعرف أكثر على عظمة الحق خالق هذه القوى الذهنية والفكرية. ثم يتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى شيئين يسهman في إيصال الإنسان إلى هدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التي زوده بها الله سبحانه لتسه له تحقيق ما يصبو إليه «وجوارح يخدمها^١ وأدوات يقلبها». فالواقع هو أنّه يجتاز أربع مراحل لبلوغ الهدف: تمثلت المرحلة الأولى بالمعرفة والإدراك والتصور والتصديق ومرحلة الفكر ومن ثم ائتمار الأعضاء والجوارح، وأخيراً الاستعانة بالأدوات المختلفة التي خلقها الله في هذا العالم حين لا تجدي الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، كما أنّ كل مرحلة من هذه المراحل الأربع متنوعة تتفرع منها عدّة فروع. ولما

١. «يخدم» من مادة «اختدم» بمعنى الاستخدام.

كان بلوغ الأهداف المرسومة يتطلب تشخيصاً وتمييزاً للحق من الباطل والصواب من عدمه وكافة المحسوسات المختلفة، فإنه يتحدث عن إحدى قوى النفس المهمة والتي تعتبر في الواقع المرحلة الخامسة، ألا وهي قوة التمييز ولا يراد بها سوى المعرفة «ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل». كما يتمكن بواسطة هذه القوة من تمييز المحسوسات من قبيل الأطعمة والأذواق... «والأذواق والمشام والألوان والأجناس»^١. والواقع ان قدرة التمييز والتشخيص والمعرفة لمن أهم قوى الإنسان العقلية التي تشمل الأمور المعنوية كالحق والباطل كما تشمل الأمور المادية المحسوسة كالألوان والمشام والأذواق. فهل قوة التمييز هذه هي قوة مستقلة، أم داخلية في مفهوم الذهن والفكر في العبارة السابقة؟ يبدو من كلامه عليه السلام أنها قوة مستقلة، جدير بالذكر أن الحديث تطرق لأربعة أصناف من الأمور المادية والمحسوسة وهي: الأذواق، المشام، الألوان والأجناس التي تشير هنا إلى مختلف أنواع الموجودات^٢. من قبيل مختلف أنواع النباتات، الطيور والحيوانات وما إلى ذلك، أما عدم الإشارة إلى المسموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بيان الأقسام الثلاثة كان على نحو المثال، فذهن كل مستمع سينتقل إلى بقية ذلك من خلال الأقسام الثلاثة المذكورة. ثم ينتقل الإمام عليه السلام ليشير إلى أهم خصائص الإنسان التي تشكل المصدر الرئيسي لأغلب ظواهر حياته فيقول: «معجوناً^٣ بطبيعة الألوان المختلفة». ولعل هذه العبارة إشارة إلى اختلاف ألوان الناس وأعراقهم المتفاوتة، أو اختلاف لون أجزاء البدن حيث إن بعضها تام البياض (كبياض العين والعظام) والآخر تام السواد (كالشعر) وسائر الألوان التي يكسبه خلطها جمالاً خاصاً، كما يمكن أن يكون المراد بها معنى أوسع بحيث يشمل سائر الاستعدادات والغرائز المختلفة. ثم أضاف الإمام عليه السلام قائلاً: «والأشباه المؤتلفة» من قبيل الأوردة والشرايين والأعصاب

١. أن العبارة «والأذواق والمشام والألوان والأجناس» هي عطف على عبارة الحق والباطل، بينما عدها البعض عطفاً على المعرفة. في حين يفيد التأمل في كلامه عليه السلام أن المعنى الأول هو الأنسب، وعلى ضوء المعنى الأول فان قوة التمييز المعرفة ستشمل كل هذه الأمور، أما على أساس المعنى الثاني فان المعرفة تعذ من النعم الإلهية، كما أن قوة الشامة والباصرة والذائقة هي نعمة أخرى (لابد من التأمل هنا).

٢. «الجنس» في اللغة بمعنى الأقسام والأنواع المختلفة، وهناك القرائن الواردة في خطب نهج البلاغة التي تدل على هذا المعنى ومنها الخطبة رقم ٩١.

٣. «معجوناً» حال للإنسان الذي ورد في العبارة السابقة.

والعظام التي تشبهه إلى حد بعيد بعضها البعض الآخر، وفي نفس الوقت تقوم بعدة وظائف ومهام. وأخيراً قال ﷺ: «والأضداد المتعادية والأخلاق المتباينة من الحر والبرد والبلية والجمود»^١. والعبارة إشارة إلى الطبائع الرباعية المعروفة في الطب التقليدي، والأطباء المعاصرون وأن تنكروا هذه الطبائع لفظاً، غير أنهم اوردوها بتعابير أخرى من قبيل الاستعاضة عن الحرارة والبرودة بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، كما يصطلحون بزيادة ماء الجسم وقلته بدلاً من البلية والجمود.

على كل حال فإن عبارات الإمام ﷺ آتفة الذكر إنما تشير إلى قضية مهمّة في أن الله سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مركباً من مواد مختلفة وكيفيات متنوعة واستعدادات وغرائز متباينة، وأن هذه الفوارق والتباينات شكلت أساس التفاوت في أساليب التفكير لدى أفراد الجنس البشري؛ الأمر الذي أدى في خاتمة المطاف إلى تلبية مختلف حاجات الجماعات البشرية واشغال المناصب الاجتماعية على ضوء تلك الاستعدادات بحيث تنتظم الأمور ويوضع كل شيء في موضعه فيتنسق النظام العام، ولا يسع المقام الخوض أكثر في تفاصيل هذا الموضوع.



تأملات

١- خلق آدم ﷺ

نفهم من العبارات التي تضمنتها خطبة الإمام ﷺ أن خلق آدم ﷺ قد تم بصورة مستقلة متكاملة على هذه الصورة التي نحن عليها اليوم دون أن يطوي مراحل النشوء والارتقاء من الكائنات الحية المتسافلة؛ الأمر الذي أكده القرآن كراراً على لسان آياته الشريفة. طبعاً كلنا نعلم بأن «القرآن الكريم» وكذلك «نهج البلاغة» ليسا من قبيل كتب العلوم الطبيعية، بل هما كتابان تكفلا بهداية الإنسان وتهذيبه بالدرجة الأساس إلى جانب الإشارة حسب المقام وما

١. يمكن أن تكون جملة «من الحر والبرد» بياناً للأخلاق المتباينة، أو للأضداد والأخلاق معاً.

يتناسب وأبحاثه العقائدية والتربوية إلى بعض مسائل العلوم الطبيعية. أما النظرية السائدة اليوم في الأوساط العلمية بشأن خلق الإنسان فهي نظرية «تكامّل الأنواع». ويرى أنصار هذه النظرية أنّ كافة أنواع الكائنات الحية لم تكن سابقاً كما هي عليه اليوم، بل كانت موجودات بسيطة أحادية الخلية ثم تكاملت بعد أن سبحت في مياه المحيطات وغاصت في أعماق البحار لتتكامل تدريجياً فتغيرت من نوع إلى آخر من خلال تغييرها لأشكالها فانتقلت من البحار إلى الصحارى. والإنسان هو أحد هذه الكائنات الذي قطع مسيرته التكاملية بعد أن اجتاز تلك المرحلة التي كان فيها قرداً بشكل إنسان، وعليه فقد انحدر الإنسان من تلك الكائنات المتسافلة. وبالطبع فإن أنصار هذه الفرضية قد انقسموا إلى عدّة طوائف، فمنها اتباع «لامارك» و«داروين» و«الداروينية الحديثة» وطائفة «موتاسيون» (نظرية الطفرة) وما إلى ذلك من الطوائف التي تقدم كل منها أدلتها على صحة نظريتها بهذا الشأن.

ويقف مقابل هؤلاء، أتباع ثبوت الأنواع حيث يقولون بأنّ أنواع الكائنات الحية قد ظهر كل منها بصورة منفصلة منذ البداية بهذه الهيئة الحاضرة، كما أقاموا أدلتهم وبراهينهم التي تعرض بالنقد للأدلة التي اعتمدها نظرية التطور والتكامل، ولا يسعنا الخوض في تفاصيل هذه النظرية. ونكتفي هنا بالإشارة بصورة مقتضبة للمواضيع التالية:

١- يستفاد من القرآن الكريم وكذلك خطب نهج البلاغة مسألة ثبوت الأنواع على الأقل بالنسبة للإنسان، بينما لم ترد مثل هذه التصريحات بشأن سائر أنواع الكائنات - رغم أنّ بعض أنصار فرضية التطور والتكامل التي تشمل الإنسان بشكل عام يصرون على توجيه الآيات القرآنية وعبارات خطب نهج البلاغة بحيث تنسجم ونظرية النشوء والارتقاء، حتى ذهبوا إلى أنّ هذه الآيات والخطب أدلة على مزاعمهم. إلا أنّ المتتبع المحايد يدعّن بأنّ هذه المزاعم تنطوي على تكلفات وخرج لا يمكن قبولها إلا من خلاله.

٢- إنّ قضية التكامل والارتقاء أو ثبوت الأنواع ليست من قبيل القضايا التي يمكن إثباتها من خلال التجربة والأدلة الحسية والعقلية، وذلك لأنّ جذورها قد امتدت لملايين السنين السابقة، وعليه فإن كل ما يورده أنصارها أو مخالفيها إنما هي فرضيات وأدلتها ليست سوى

أدلة ظنية، وبناءً على ماتقوم فانه يتعذر القول بنفي آيات خلقة الإنسان وعبارات نهج البلاغة وفقاً لأقوال هؤلاء.

وبعبارة أخرى: ان العلوم تجد سبيلها وتعتمد معاييرها في مثل هذه الفرضيات دون أن تقدح في التعاليم الدينية، ومن هنا كانت الفرضيات العلمية تشهد التغيير والتحول على الدوام، فلعل الغد يفرز كشف قرائن جديدة بحيث تحظى فرضية ثبوت الأنواع بأنصار أكثر. على سبيل المثال فقد طالعنا الصحافة في هذه الأواخر بخبر يفيد العثور على مهاجم بشرية تعود لما قبل مليوني سنة وهي لا تفرق كثيراً مع الإنسان المعاصر؛ الأمر الذي زعزع مرتكزات فرضية التكامل، وذلك لأن أصحاب هذه الفرضية يزعمون أن الإنسان الذي كان يعيش قبل مئات الآلاف من السنين لم يكن بهذه الصورة التي عليها الإنسان اليوم أبداً. فالنتيجة التي يمكن أن نخلص إليها مما سبق أن هذه الفرضيات ليس لها من صمود واستقرار وغالباً ما تتزلزل أسسها ودعائها بفعل الاكتشافات والاختراعات الحديثة، ولكن حيث ليس من سبيل سوى هذا في العلوم الطبيعية بصفته دعامة يعتمد عليها حتى تأتي فرضية أخرى فتطرده سابقتها وتفتح الميدان. والخلاصة فإن التعامل مع الفرضيات يختلف عنه تماماً مع المسائل العلمية القطعية؛ فالمسائل العلمية القطعية من قبيل تركيب الماء من ذرتين أوكسجين وذرة هيدروجين هي من أمور الحس والتجربة والتي يمكن البرهنة عليها من خلال الأدلة القطعية، أما الفرضيات فهي حدسيات تبرهن بسلسلة من القرائن الظنية، وهي تحظى بالقبول والتأييد ما لم تقم القرائن العلمية المخالفة لها، دون أن يدعي أحد قطعيتها.

٢ - التركيب المزدوج للجسم والروح

يستفاد مما مرّ معنا في هذه الخطبة المسنجمة والآيات القرآنية أن الإنسان خلق من عنصرين: العنصر المادي المركب من الماء والتراب (أبسط مواد العالم) والعنصر الآخر هو الروح الإلهية السامية، وهذا هو سر التضاد الباطني للإنسان حيث تتنازع الدوافع التي

١. راجع من أجل الوقوف بصورة أعمق كتاب «الداروينية وآخر فرضيات التكامل». كما استعرضنا ذلك بصورة مقتضبة في تفسيرنا الأمثل ١١/ الآية ذيل الآيات ٢٦ حتى ٤٤ من سورة الحجر.

تسوقه إلى العالم المادي وتلك التي تدفعه إلى العالم الملائكي. فهو يتصف بالخلق والطبيعة الحيوانية من جانب ويتحلى بالطبيعة الملكوتية والروحانية من جانب آخر. ولهذا أيضاً فهو يتمتع بقوس صعودي ونزولي تكاملي غاية في العظمة بحيث زود بالملكات والاستعدادات التي تبلغ به في قوس الصعود درجة «أعلى عليين» بينما يهبط في النزول والانحطاط إلى «أسفل السافلين» وليت هناك مثل هذه الميزة في الكائنات سوى للإنسان ولا تمنح سوى للمطهرين من الأفراد فتكسبهم قيمة ومنزلة رفيعة، ولا غرو فقد تماسك وحفظ نفسه مقابل جميع عوامل الانحطاط وعناصر التسافل والانسحاق نحو المادة والمادية وقد اجتاز كافة العقبات والمطبات. ولعل الملائكة عجزت عن إدراك ذلك الأمر قبل خلق آدم فظنت التكرار في هذا الخلق دون حصول جديد، فحسبوا أنّ هذه الخلقة تحصيل حاصل من خلال تسيبهم وتقديسهم. والمهم في الأمر هو أنّ الله سبحانه قد نسب الروح التي نفخها في آدم إليه سبحانه فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^١. ونعرف على نحو البدهة أن ليس لله من جسم ولا روح، وأنه يهدف إلى بيان عظمة الأشياء التي يضيفها إلى نفسه من قبيل «بيت الله» و«شهر الله» فالهدف هو أن هذه الروح الآدمية تتمتع بآثار من صفات الله كالعلم والقدرة والخلقية والابداع. والواقع هو أنّ الله قد نفخ في آدم أشرف وأفضل روح، ولذلك نعت نفسه سبحانه بأحسن الخالقين فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^٢ وبالها من مصيبة أليمة ومفجعة أن يحث الإنسان الخطي نحو السقوط بحيث يتحول إلى ما يجعله أسوأ من الانعام ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^٣ في حين يمتلك مثل هذه الاستعدادات والقدرات والإمكانات التي تبلغ به الكمال والمقام الذي ينتظره ويؤهله لأن يتميز على كافة المخلوقات فيرتدي التاج العظيم الذي يكرمه على من سواه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا...﴾.

٣ - الإنسان، أعجوبة عالم الكون

يعتبر الإنسان - في الحقيقة - من أعجب ظواهر عالم الوجود، وقد تضمن كلام الإمام عليه السلام

١. سورة الحجر / ٢٩.

٢. سورة المؤمنون / ١٤.

٣. سورة الأعراف / ١٧٩.

إشارة إلى غيظ من فيض أسرار الوجود: الاشتغال على الجوارح والأعضاء المتنوعة والقوى المختلفة والقدرات المتفاوتة، والتركيب من العناصر المتضادة والتشكل من عدة عوامل عجت بصورة بالغة التعقيد بحيث جمع فيه كل شيء، حتى أصبح في الواقع نموذج مصغر لجميع عالم الوجود، وعالم صغير يضاهي العالم الكبير.

أترعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهذه الميزة التي يتحلى بها الإنسان تجعلنا نتعرف بصورة أعمق على أهمية خلقه من جانب، كما تلفت انتباهنا إلى مدى عظمة خالقه من جانب آخر، فمراد الإمام عليه السلام من هذه الميزة الفريدة للإنسان إنما يكمن في الإشارة إلى عظمة الخالق وعظمة المخلوق.

القسم العاشر

«وَاسْتَأْذَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةُ وَدِيْعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشُّقُوءُ وَتَعَزَّزَ بِخَلْقِهِ النَّارِ وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظْرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِسُخْطِهِ وَاسْتِثْمَامًا لِلْبَلِيَّةِ وَإِنْجَازًا لِلْعِدَّةِ فَقَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

۵۰۰۸

الشرح والتفسير

بداية انحراف إبليس

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لقضية خلق آدم حتى تطرق إلى موضوع آخر ذا صلة وثيقة به مستخلصاً منه الدروس والعبر التي يمكن أن تحتذيها البشرية جمعاء في مسيرتها إلى الله، فقال عليه السلام: «وَاسْتَأْذَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةُ وَدِيْعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» فالذي تفيدُه العبارة أن الله قد أخذ عهد الملائكة مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذي وردت الإشارات إليه في القرآن الكريم ومنها الآية ٧٠ و٧١ من سورة ص: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ» فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ^٢. فقد كانت الملائكة تدرك أن الوفاء بذلك العهد إنما يحصل حين خلق آدم وتكامله بهذه

١. «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع حسب «المقاييس» وأورد الآخرون ما يشبه هذا المعنى أيضاً.

٢. سورة ص / ٧٠ - ٧١.

الصورة الإنسانية ، ولذلك أمرهم الله سبحانه لما أتم خلقه بالسجود «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ»^١.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة أن هذا الأمر قد يكون مستغرباً لدى الملائكة ويثير اندهاشهم ولعلمهم يتساهلون في امتثاله لولا تلك المقدمة بذلك العهد الذي أخذ عليهم، ولذلك أعدهم الله سبحانه لهذا الأمر مسبقاً ليعلم أن مثل هذه المقدمات ضرورية في الأوامر المهمة. ثم يتطرق ﷺ إلى الدوافع التي وقفت وراء ترداد إبليس فقال ﷺ: «اعترقته الحمية^٢ وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقه النار واستوهن خلق الصلصال».

فالواقع أن العامل الأصلي لتمرده إنما كان تلوثه الباطني والذي عبر عنه بالشقوة إلى جانب الكبر والغرور والحمية والأنانية التي تفرزها طبيعة ذلك الدنس الباطني والذي غلب على فكره وأعمى بصيرته ليصده عن رؤية الواقع فيغتر بخلقه النار ويراهها أعظم شأناً من خلقه الطين والتراب؛ التراب الذي يعتبر مصدر جميع الخيرات والبركات والمنافع والفوائد، بالتالي حسب أن علمه ومعرفته إنما تفوق حكمة الله - طبعاً لا يبدو هذا الحكم قريباً من الأفراد الذين يغرقون في مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأناني المضروب عليه بحجاب الغرور قد يرى القبة حبة والحبة قبة أحياناً، فعباقره الفكر وجهابذة العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانية وحب الذات ربما يرتكبون أفضع الأخطاء والزلات. فالمراد بالشقاوة هنا تلك الموانع الباطنية والصفات الرذيلة التي كانت لدى الشيطان، وهي الموانع والصفات الاختيارية التابعة من أفعاله السابقة وهي ليست شقوة ذاتية وغير اختيارية؛ لأن الشقاوة تقابل السعادة. وتعني السعادة توفير الإمكانيات وتمهيد السبيل من أجل الحركة نحو الصلاح والشقاوة تعني المطبات والصعوبات التي تعترض هذا السبيل؛ والمهم أن كل هذه الأمور إنما تنبع من ذات أفعال الإنسان وسائر الموجودات المختارة لا أنها تستند إلى العوامل الجبرية والقهرية. على كل حال فإن إبليس قد ارتكب هذه المعصية الكبرى والخطأ الجسمي ليسقط

١. سورة البقرة / ٣٤.

٢. «الحمية» من مادة «حمى» على وزن نهى معناها الأصلي الحرارة التي تنتج من الشمس والنار والمواد الأخرى أو من داخل جسم الإنسان، كما يعبر أحياناً بالحمية عن القوة الغضبية حيث إن حالة الإنسان تشتعل آنذاك، ويطلق الحمى على حرارة البدن حين الارتفاع.

بالمرة فيطرد من حظيرة القرب الإلهي حتى أصبح من ألن خلق الله وأبعدهم عن رحمته بفعل تلك المعصية الخطيرة؛ غير أن هذه اللعنة والطرده من الرحمة لم تكن لتوقظه فتأدى في غيه وغروره واستناد السيرة المغرورين والمتعصبين من ذوي الأنفة والحمية فقد باشر عملاً قبيحاً آخر تمثل بتوعده باغواء آدم وذريته، ثم سأل الله ويدافع اشباع غريزة غضبه وحسده النظرة إلى يوم القيامة ليرتكب معصية أخرى أفدح من سابقتها «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»^١. فاستجاب الله له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإكمالاً لابتناء العباد وتمحيصهم وأخيراً انجاز ما وعده به «فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخط واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»، ولكن ليس على ضوء ما سأل، بل جعل لذلك أجلاً معيناً «فقال أنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم»^٢. أما ما المراد بيوم الوقت المعلوم فهناك كلام واختلاف بين مفسري القرآن ونهج البلاغة.

فذهب البعض إلى أن المراد بذلك انتهاء العالم وانقطاع مدة التكليف (وعلى ضوء هذا المعنى فقد كانت الموافقة على بعض سؤال ابليس، لأنه سأل النظرة إلى يوم القيامة بينما أجيب بالنظرة إلى ختام الدنيا). بينما ذهب البعض الآخر أن المراد بذلك زمان معين وهو انقطاع عمر ابليس؛ الأمر الذي لا يعلمه إلا الله؛ وإلا لو أعلنه آنذاك لكان إغراء لابليس بالتردد وارتكاب المعاصي. وأخيراً فقد احتل البعض أن المراد يوم القيامة؛ لأن الآية الخمسين من سورة الواقعة عبرت باليوم المعلوم عن يوم القيامة «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». إلا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنه وعلى ضوء هذا التفسير قد استجيب لجميع طلباته، في حين يفيد ظاهر الآيات القرآنية أنه لم يستجب إلا لبعض طلباته، أضف إلى ذلك فإن الآية التي وردت في البحث قالت «يوم الوقت المعلوم» بينما قالت الآية الواردة في سورة الواقعة «يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثاني. من جانب آخر فقد جاء في الحديث أن المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدي (عج) والذي ينهي بدوره عمر ابليس^٣. وبالطبع

١. سورة الحجر / ٣٦.

٢. إشارة إلى آية ٣٧ و٣٨ من سورة الحجر «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

٣. تفسير نور الثقلين ١٤/٣ ح ٤٦.

فان هذا لن يؤدي إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصية عن العالم بالمرّة وتنتفي قضية الطاعة والامتحان الإلهي؛ لأن العامل الأصلي إنّما يكمن في هوى النفس الذي يبقى سائداً في الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنّما يعزى إلى هوى نفسه.^١

تأمّلات

١ - عظمة مقام الإنسان

إنّ الآيات القرآنية التي تناولت قضية سجود الملائكة للإنسان في عدّة سور لتشكل أحد الأدلة المهمة على أن الإنسان يمثل أفضل موجود في عالم الخلق وأشرف مخلوقات الله سبحانه^٢، كما تشير هذه الآيات إلى سجود جميع الملائكة دون استثناء وخضوعها لآدم^{عليه السلام}، وهذا بدوره دليل واضح على أفضليته^{عليه السلام} حتى على الملائكة، ويبدو أنّ الهدف من هذه التأكيدات القرآنية المستمرة الفات انتباه الإنسان إلى عظم شخصيته الإلهية والمعنوية؛ الأمر الذي يلعب دوراً مهماً في تربية النفس البشرية وتهذيبها وهدايتها.

٢ - كيف كان السجود لآدم؟

هناك عدّة أبحاث لدى المفسرين بشأن كيفية السجود، وهل يجوز السجود لغير الله تعالى. يرى البعض أنّ ذلك السجود لم يكن إلّا لله تعالى، غير أنّه حصل أمام آدم بينما كان معلولاً لخلق هذا الكائن العجيب؛ في حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ السجود كان لآدم، إلّا أنّه لم يكن سجود العبادة المختص بالله تبارك وتعالى، بل كان سجود خضوع واکرام واحترام. وجاء في كتاب عيون الأخبار عن كتاب الإمام علي بن موسى الرضا^{عليه السلام} أنّه قال: «كان سجودهم لله تعالى عبودية ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه»^٣. فالذي يستفاد من هذا الحديث أن السجدة كانت تنطوي على بعدين؛ أحدهما عبادة الله والآخر تكريم آدم^{عليه السلام}. وشبيه ما ذكر

١. لقد تكفلت المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر للإمام علي بن الحسين^{عليه السلام} ببيان كيفية تأثير هوى النفس وكذلك تأثير الشيطان في انحراف الإنسان بصورة مفصلة.

٢. سورة البقرة / ٣٤ وسورة الاعراف / ١١ وسورة الاسراء / ٦١ وسورة الكهف / ٥٠ وسورة طه / ١١٦.

٣. نور الثقلين / ١ / ٥٨.

سابقاً هو ماورد في الآية ١٠٠ من سورة يوسف ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾. فقد جاء في الحديث الذي روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بشأن الآية السابقة أنه قال: «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم».

٣ - أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عدّة أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهية ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم، وبالطبع فإنّ المقام لا يسع الاسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطنا ب هذه المواضع.

سؤال:

هل ابليس من الملائكة؟ إن كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصية الخطيرة مع أن الملائكة معصومون، وإن كان الجواب بالنفي في أنه لم يكن من الملائكة، فما علة ذكره في عداد الملائكة على لسان الآيات القرآنية؟

جواب:

يقيناً لم يكن من الملائكة، فقد صرّح القرآن قائلاً: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^١، إلا أنه قد اصطف مع الملائكة أثر جهوده في الطاعة والعبودية ولذلك عد واحد منهم، ولهذا السبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغة بما فيها الخطبة رقم ١٩٢ المسماة بالقاصعة التي عبرت بالملك عن ابليس؛ وناهيك عن ذلك فقد صرّح نفسه قائلاً: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾^٢ ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكة، وهذا ما صرّحت به الآية الخامسة عشرة من سورة الرحمن ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى أيضاً^٣. أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذرية ابليس وولده

١. سورة الكهف / ٥٠.

٢. سورة ص / ٧٦.

٣. مجمع البيان ١ / ٨٢، ذيل الآية ٣٤ من سورة البقرة.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾^١ بينما ليست للملائكة من ذرية.

سؤال:

كيف جاز على الله سبحانه أن يسلط ابليس على الناس حتى أنهم سلبوا قدرة الدفاع؟ أضيف إلى ذلك فما الضرورة في الاغواء والضلال؟ ومنحه تلك المدة الطويلة من العمر والمهلة ليسعى سعيه في اغواء بني آدم وتوظيف كافة إمكاناته في سبيل تحقيق هذا الهدف؟

جواب:

أولاً: أن الشيطان قد خلق طاهراً عفيفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسيته وطهره حتى قادته طاعته وعبوديته لأن يكون في مصاف الملائكة، إلا أنه في نهاية الأمر وأثر حبه لذاته وكبره وغروره واستغلاله لحرите قد سلك سبيل الضلال فسقط إلى الحضيض.

ثانياً: من الضروري الالتفات إلى نقطة مهمة وهي أن نفوذ الوسواس الشيطانية إلى باطن الإنسان ليس نفوذاً عبثياً وإجبارياً؛ بل إن الإنسان هو الذي يفسح المجال بإرادته واختياره لهذا النفوذ سيجعله يستحوذ على نفسه، حيث يمنح الشيطان تأشيرة الدخول إلى حدود قلبه وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾^٢.

وقال في موضع آخر ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^٣.
ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام علي عليه السلام رداً لطيفاً رائعاً على السؤال المذكور حيث قال: «فأعطاه الله النظرة استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»؛ أي أن الله قد أجزل عقابه بمنحه هذه المهلة من جانب؛ لأن الآيات القرآنية تفيد التحذير الإلهي الشديد والمتكرر لأولئك الذين يسرون باتجاه الذنوب والمعاصي؛ فاذا فاد التحذير وأثر بهم ورجعوا عن غيهم كان ذلك خيراً وإلا أمهلهم ووكلمهم إلى أنفسهم ليكون عذابهم أشد: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُفِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُفِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

١. سورة الكهف / ٥٠.

٢. سورة الحجر / ٤٢.

٣. سورة الحجر / ١٠٠.

مُهينٌ»^١، ومن جانب آخر فإن وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس، وبعبارة أخرى فإنه يمثل جسر الأفراد المؤمنين نحو السمو والتكامل - لأن وجود هذا العدو المقتدر بالنسبة للمؤمنين الذين يرومون انتهاج سبيل الحق ليس فقط لا يستبطن أي ضرر فحسب، بل سيكون وسيلة للتسامي والتكامل؛ حيث إننا نعلم بأن السمو والتكامل إنما يتم عادة في ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فإنه سيوظف كافة طاقاته وقدراته ونبوغاته. وبعبارة أخرى فإن وجود هذا العدو القوي سيؤدي بالإنسان إلى ممارسة مزيد من الحركة والجهد؛ الأمر الذي يقوده بالتالي إلى السمو والرقى والتكامل. بينما لا يزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين سوى انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» فالهدف هو أن الله يختبر أولئك القاسية قلوبهم وفيها مرض باللقاءات الشيطان، «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ»^٢.

سؤال:

كيف كانت شبهة ابليس بالتعزز بخلقة النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالي

يعترض على حكمة الله؟

ونقول في الجواب أن حب الذات والغرور تعدّ من أضخم الحجب التي تحول دون رؤية الحقائق والواقعيات؛ وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمة الإلهية ليجعل ذلك حجة احتج بها في شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذي خلقته من طين بينما خلقتني من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضلية النار على التراب، بينما لا يخفى أن التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيوية والمهمة والوسيلة الرئيسية لمواصلة الحياة، كما يضم في طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أن النار والحرارة تعتبر من سائر الوسائل

١. سورة آل عمران / ١٧٨؛ سورة الروم / ٤١.

٢. سورة الحج / ٥٣ - ٥٤.

الحياتية الضرورية، لكن ممّا لا شك فيه أن الدور الأساسي إنّما تقوم به المواد الموجودة في التراب والنار ليست سوى وسيلة من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرّحت بعض الروايات^١ أنّ وحدة من أكاذيب إبليس هو زعمه بأنّ النار أفضل من التراب، والحال إنّنا نعلم بأنّ النار عادة ما تتولد من احتكاك الأشجار أو من المواد الدهنية وأنّ أصل الأشجار هو التراب، كما أنّ الدهون النباتية والحيوانية إنّما تستخرج بواسطة من الأرض. أضف إلى ذلك أنّ امتياز آدم لم يقتصر على أفضلية عنصر التراب؛ بل تكرمته إنّما استندت إلى عامل أصلي تمثل بتلك الروح العظيمة التي نفخت فيه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. ولنفترض جدلاً أنّ المادة الأولى في خلقة الشيطان كانت أفضل من مثيلتها لدى آدم، فإن هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلاً على تمرده وعدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم بفضل تلك الروح الإلهية التي حلت فيه واكسبته ذلك المقام العظيم، ولعل الشيطان كان يعلم بكل هذه الأمور إلّا أنّ الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الاذعان للحق.



٤ - تبريرات جوفاء

لقد حاول بعض الفلاسفة - كما نقل ذلك ابن ميثم البحراني^٢ في شرحه لنهج البلاغة - أن يبرروا ويأولوا كافة تفاصيل قصة خلق آدم وسجود الملائكة وتمرّد إبليس وعدم امتثاله لأمر الله ليحملوها على مفاهيم لا تنسجم وظواهر تلك القصة. ومن ذلك أنّهم قالوا أنّ المراد بالملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم هو القوى البدنية المأمورة بالخضوع أمام النفس العاقلة (الروح البشرية)، والمراد بإبليس القوة الوهمية وجنود إبليس هي القوى النابعة من الوهم وهوى النفس والتي تتعارض والقوى العقلية، أمّا المقصود بالجنة التي طرد منها آدم فأثما يراد بها المعارف الحقة وأنوار الكبرياء الإلهية وما إلى ذلك من التأويلات الجوفاء التي لا أساس لها من الصحة.^٢

١. تفسير نور الثقلين ٤/٤٧٢ ح ٩٣.

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١٩٠/١ فصاعداً.

هذا نموذج من التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه في الأحاديث والروايات على أنه سبب السقوط والابتعاد عن الله سبحانه.

فكلنا نعلم بأن التفسير بالرأي وتحميل الأحكام الذهنية المسبقة على الآيات والروايات يعدّ على الدوام من أهم الوسائل التي تمسك بها المحرفون والمتصنعون المتلبسون بالدين الذين لا يألون جهداً في توجيه الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما ينسجم ورغباتهم ونزعاتهم، كما نعلم بأن الباب لو فتح أمام تفسير الآيات والروايات بالرأي فسوف لن يبقى هناك من أصول مسلمة ومباني وأحكام قانونية ثابتة وسيصبح كل شيء تابع للأفكار الخاطئة والأهواء الضالة لهذا وذاك، بل سيهجر الكتاب والسنة ويصبحان طينة بيد المنحرفين والمعرضين يصنعون منها ما شاءت أهوائهم ورغباتهم. ومن هنا طالعنا إصرار كبار محققي الإسلام والباحثين بضرورة استخدام القواعد المسلمة لباب الألفاظ في فهم معاني الكتاب والسنة. فالألفاظ لا بد أن تحمل على معانيها الحقيقية، اللهم إلا أن تكون هناك قرائن جلية تدعو لحملها على المعاني المجازية؛ ويراد بها القرائن المقبولة لدى العرف والعقلاء الذين يستندون إليها في إقامة أدلتهم وبراهينهم^١.

وأخيراً فإن ذكر قصة ابليس وعاقبته كما وردت في عبارات الإمام علي عليه السلام لتتطوي على الدروس والعبر التي ينبغي أن تحتذيها البشرية في مسيرتها فينظروا بعين الاعتبار إلى نتائج الكبر والغرور وحب الذات والحمية والعاقبة المشؤومة لابليس وطرده من مقام القرب لتلاحقه اللعنات والشقاء الأبدي، فتكون على حذر من سلوك هذا الطريق الخطير. ونختتم الحديث بما أورده العالم الجليل المرحوم مغنية في شرحه لنهج البلاغة فقد خلص إلى عدّة دروس من قصة ابليس منها:

١- من حسد صاحب فضيلة أو عاды إنساناً لرياسته وعمله فإنه على دين ابليس ومن

رهطه يوم القيامة.

٢- ليس هنالك من سبيل لمعرفة الدين والأخلاق الحميدة سوى سبيل واحد وهو

١. راجع كتاب التفسير بالرأي لآية الله مكارم الشيرازي بشأن هذا الموضوع.

التسليم للحق والثبات عليه مهما كانت النتيجة.

٣- أن أغلب الناس يصرون على الباطل لا على أساس عدم معرفتهم به، بل بسبب العناد واللجاجة ضد مخالفهم، وهذا الاصرار الخاطئ إنما ينتهي بهم إلى أسوأ العواقب. فلو تاب ابليس ورجع عن خطأه لقبل الله توبته وقد كان له مثل هذا الاستعداد، إلا أنه كان يعتقد بشرط وهو ألا يأمره الله بالسجود لآدم ثانية بينما اشترط الله قبول توبته بذلك الشرط.^١

١. في ظلال نهج البلاغة ٥١/١.

القسم المادي عشر

«ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشُهُ وَأَمَّنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ وَحَدَّرَهُ
إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ فَأَغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ وَمُرَافَقَةِ الْأُبْرَارِ
فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ وَاسْتَبَدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًّا وَبِالْإِغْتِرَارِ
نَدْمًا ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ وَلِقَاءِ كَلِمَةِ رَحْمَتِهِ وَوَعْدَهُ الْمَرْدُ
إِلَى جَنَّتِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَتَنَاسَلَ الذُّرِّيَّةُ».

۸۵۶۸

الشرح والتفسير

عاقبة آدم

كان الحديث في ماضى عن اختبار الملائكة وتمرد ابليس، بينما تطرق الحديث هنا عن امتحان آدم والنتيجة التي تمخض عنها هذا الامتحان. ونقول هنا ما تفيده بعض الآيات القرآنية هو أن آدم قد خلق للعيش في الأرض. فقد قال سبحانه وتعالى في الآية ۳۰ من سورة البقرة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، كما أشارت الآية ۳۶ من نفس السورة إلى المراد بالأرض موضع غير الجنة (الجنة بأي معنى كانت): ﴿وَوَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

على كل حال كان لابد لآدم من دورة تدريبية وامتحان إلهي يمده بتجربة ليتعرف على المفاهيم من قبيل الأمر والنهي والتكليف والطاعة والمعصية والندم والتوبة ويتعرف عن قرب على عدوه، ومن هنا أسكنه الله الجنة وأباح له التمتع بنعيمها ولم يحظر عليه سوى الاقتراب من تلك الشجرة، إلا أن وساوس الشيطان ومكره وحيله قد أثرت في آدم ودفعته إلى ترك الاولى، فتناول من تلك الشجرة ويهبط من الجنة؛ الأمر الذي أدى بالتالي إلى يقظته وعودته

إلى الله في التوبة والإنابة، فاحفه الله بلطفه وعنايته فالفهم كيفية التوبة، فتاب الله عليه ووعدته بالعودة إلى الجنة، فكان من الآثار الوضعية لفعل آدم أن يحرم من تلك النعم والدة في الجنة لأن يهبط إلى الأرض فيمارس الحياة المليئة بالتعب والمشقة. ما مر معنا لحد الآن نظرة كلية عامة إلى خطبة الإمام بشأن قصة آدم عليه السلام، ونخوض الآن في شرح تفاصيل الخطبة.



قال عليه السلام: «ثم اسكن سبحانه آدم داراً أرغداً فيها عيشه» ثم قال عليه السلام: «وآمن فيها محلته» في إشارة واضحة إلى أن البارئ سبحانه قد أفاض عليه ركنين رئيسيين من الأركان المهمة للحياة وهما: الأمن ووفور النعمة. والواقع هو أن الإمام عليه السلام قد استوحى ذلك المعنى من الآية ٣٥ من سورة البقرة: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا». كما حذر الله سبحانه آدم عليه السلام من عدوه ابليس «وحذره ابليس عداوته» وبذلك فقد أرشده إلى سبيل السعادة والصلاح، كما أتم عليه الحجة بابانته لطرق البؤس والشقاء. وهذا ما صرحت به الآية ١٧ من سورة طه إذ قالت: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» واتماماً للحجة أكثر فقد دل على الشجرة التي لا ينبغي إليه الاقتراب منها، بينما أباح له التمتع بثمار كافة أشجار الجنة، غير أن آدم عليه السلام وبسبب عدم امتلاكه التجربة الكافية بشأن مكائد الشيطان وحبائله قد آل أمره إلى الوقوع في مصيدة الشيطان، فأشار الإمام عليه السلام إلى هذه المسألة بقوله: «فاغتره عدوه نفاسة^١ عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار». ويبدو أن هذه هي الوظيفة التي نهض بها الشيطان، حيث يسعى للاقتراب من الصالحين والخيرين ليوسوس لهم ويسلبهم النعم والإلهية ويقودهم نحو البؤس والشقاء. ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الرئيسي في خطأ آدم عليه السلام: «فباع اليقين بشكك» كما ضعف تجاه الوسوس

١. «أرغداً» من مادة «الرغد» بمعنى الحياة الرغيدة الوداعة، كما ترد بمعنى النعمة الواقعة بالنسبة للإنسان والحيوان أيضاً (المفردات ومقاييس اللغة).

٢. «نفاسة» من مادة «النفس» على وزن «حبس» بمعنى السعي من أجل الوصول إلى مكانة مهمة، لأن الإنسان يجهد نفسه في ذلك السعي، ومن هنا استعملت «النفاسة» بمعنى الحسد والبخل (المفردات ومقاييس اللغة ولسان العرب).

الشيطانية التي كان ينبغي له مجابته بعزمه الراسخ «والعزيمة بوهنه»^١ والعبارة إشارة للآية ١١٥ من سورة طه «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَيْهِ وَوَعَدْنَاهُ عِزْمًا»^٢. نعم صحيح أن الشيطان أقسم لها بأنه لا يريد بهما إلا النصيحة والخير «وَوَقَّاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ»^٣ ولكن هل كان على آدم أن يثق بوعد الله القائم على اليقين أم يصغي إلى كلام الشيطان القائم على أساس الشك والوهم؟ لاشك إن نسيان هذه الحقيقة وإغفالها جعلت آدم يقدم على تلك المعاملة التي لا تنطوي سوى على الغبن والضرر فضعف عزيمته في طاعة الله. وهذا مجد ذاته درس وعبرة لكافة بني آدم في ضرورة الاستناد إلى عوامل اليقين في جميع معاملاتهم واجتناب طرق الشك والغموض والابهام في مراعاة الاحتياط وعدم اقتحام أي ميدان دون دراسة ظروفه وملابساته، وذلك لأن الشياطين درجت على تنميق سبلها المفسدة بما يكسبها ظاهراً أنيقاً في حين لا تستبطن سوى النار المستعرة التي أوقدها لبني آدم. أجل هنالك الدروس والعبر القيمة في قصة آدم والتي لا بد للبشرية من وضعها نصب عينها في حياتها حتى قيام الساعة.



ثم تطرق عليه السلام إلى النتائج المريرة التي أفرزتها تلك المعاملة فقال: «واستبدل بالجدل»^٤ وجلاً وبالاعتزاز ندماً.

وهنا نسأل ماهي الحوادث التي دفعت بآدم للانتفات إلى خطئه وبالتالي حسرته وتدمه

١. هناك احتمالان حول رجوع الضمير في «شكه» و«وهنه»، فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغة بأن الضمير يعود إلى آدم؛ أي أن آدم عليه السلام باع يقينه بشكه وعزمه بوهنه وضعفه. بينما الاحتمال الآخر أن يكون الضمير عائداً إلى إبليس في المفردتين وذلك لأنه هو الذي أوجد هذا الشك والوهن، ففي الواقع هو إضافة إلى السبب لا مفعول. لكن يبدو الاحتمال الأول أصوب من الثاني.

٢. سورة طه / ١١٥.

٣. سورة الاعراف / ٢١.

٤. «الجدل» على وزن الجدل بمعنى الفرح والسرور كما وردت في صحاح اللغة، وقال صاحب المقاييس أن الجدل على وزن الجسم بمعنى جذر الشجرة الذي يقومها ويمنحها الاستقامة، ومن هنا كانت قامة الفرحان مستوية بينما كانت قامة المغمرم منحنية، كما تطلق أحياناً على الأرض للزجة، إلا أنها استعملت بمعنى الفرح.

٥. «وجل» على وزن أجل بمعنى الخوف والخشية.

على ما فرط منه؟ يبدو أن الإمام عليه السلام أجمل عبارته بهذا الشأن، بينما تصدى القرآن الكريم في أكثر من آية لشرح التفاصيل: فحين استسلم آدم لوساوس الشيطان وأكل من تلك الشجرة المحظورة، لم تمر عليه مدة حتى نزع عنه لباس الجنة وبدت سواته التي قدر لها أن تخفى، فشعر بالحنج من الملائكة وطفق يخصف عليها من ورق الجنة، ثم أعقب ذلك ما تلقاه من أمر بالهبوط من الجنة على أنه يمثل جزء كل من يولي ظهره لأوامر الله ويستجيب لوساوس الشيطان. إلا أن آدم عليه السلام وخلافاً لسلوك الشيطان وتجربته الخاطئة، لم يصر على خطأه ويركب رأسه ويواصل معصيته، فأقبل فوراً على الله سائله بلطفه ورحمته أن يتوب عليه، فعلمه كيفية التوبة ثم وعده العودة ثانية إلى الجنة «ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقاء كلمة رحمته ووعده المراد إلى جنته»^١.

على كل حال فإن قبول التوبة لم يبق على آدم في الجنة، حيث لم يعد هنالك من مبرر لمواصلة حياته فيها، فقد تعلم ما كان ينبغي عليه تعلمه وجرب ما كان لا بد له من تجربته. ولذلك أهبطه الله إلى دار الدنيا - الامتحان - دار التزواج والذرية «وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية». فالذي يستشف بوضوح من هذه العبارة أن الدنيا دار البلاء والامتحان، وما مر في الجنة كان تحضيراً لخوض هذا الامتحان، كما لا مكان في الجنة للتزواج والتناسل، بل ذلك من مختصات الدنيا.

تأملات

١- ما كانت جنة آدم؟

ذهب جماعة إلى أن الجنة التي سكنها آدم عليه السلام كانت جنة الخلد التي وعد الله عباده

١. هناك كلام في الضمير «جنته» هل يعود إلى الله أم إلى آدم. فلو كان عائداً إلى آدم، فإن ظاهر العبارة يفيد إرجاعه إلى الجنة التي كان فيها عليه السلام، وإن عاد الضمير إلى الله فلا لزوم أن تكون تلك الجنة التي كان فيها آدم، ويمكن أن تكون جنة آدم جنة دنيوية أو الجنة التي سيعود إليها وهي الجنة الأخروية كجنة الخلد، لكن الظاهر أن الضمير يرجع إلى لفظ الجلالة بقرينة الضمير في توبته ورحمته، رغم أن ظاهر كلمة (مرد) يفيد العودة تلك الجنة، ويمكن أن تكون مطلق الجنة، بعبارة أخرى ليس هنالك من منافاة بين نوع الجنة مع المفردة «مرد».

الصالحين، بينما ذهبت جماعة أخرى إلى أنها كانت جنة دنيوية غنية بمحادثتها وبساتينها، وقد استدللت هذه الجماعة ببعض الأدلة فيما اعتقدت:

بادئ ذي بدء أن الجنة الموعودة بعد القيامة هي جنة خالدة لا يعترها الخروج. وقد يقال فإذا كانت كذلك فأني لا بليس الذي يفيض كفراً وعناداً وطغياناً أن يدخل هذه الروضة المقدسة؟

فإذا قيل بأن إبليس لم يوسوس لآدم في الجنة قط، بل وسوس له وقد وقف خارجاً على بابها، قلنا بأن ذلك لا ينسجم وما صرحت به الآية ٣٦ من سورة البقرة التي قالت: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ التي تشمل آدم وحواء وإبليس معاً. أضف إلى ذلك فقد صرحت الروايات الكثيرة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن تلك الجنة كانت من جنان الدنيا.

فقد جاء عن حسين بن بشار أنه قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن جنة آدم، فقال عليه السلام: «جنة من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً»^١.

كما أورد المرحوم الكليني في الكافي عن حسين بن ميسر مثل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام^٢. أما الإشكال الوحيد الذي يرد على هذا الكلام فأنما يكمن في العبارة السابقة من هذه الخطبة «نفاسة عليه بدار المقام»، لكن من الممكن أن يكون معنى هذه العبارة هو أنه لو لم يرتكب هذه المخالفة لبقى مدة طويلة في هذه الجنة ثم يهبط إلى الأرض، إلا أنه تركه للاولى أسرع في إخراجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض، أو أن يقال أنه أراد سبحانه أن يحرم آدم من جنة الخلد، فلو كان آدم مطيعاً لأوامر الله لالتبس طريقه إلى تلك الجنة.

٢ - هل اقترف آدم معصية؟

يرى أولئك الذين يجوزون ارتكاب الذنب على الأنبياء - ولا سيما في مثل هذه الأمور - أن

١. بحار الانوار ١١/١٤٣، ح ١٢.

٢. الكافي ٣/٢٤٧، باب جنة الدنيا، ح ٢.

آدم ﷺ قد ارتكب المعصية، بينما لا يرى أتباع مدرسة أهل البيت ﷺ الذين يؤمنون بعصمة الأنبياء عن كل خطأ وزلل - سواء في باب العقائد وتبليغ الأحكام الشرعية أو في باب الأعمال والأفعال اليومية قبل النبوة وبعدها -^١.

أن آدم ﷺ قد قارف أية معصية وأن نهي الله لآدم ﷺ عن تلك الشجرة المحظورة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان فعلاً مكروهاً، ولما كان مقام الأنبياء ولاسيما آدم ﷺ الذي سجدت له الملائكة لمن العلو والرفعة بحيث لا يتوقع ارتكابهم للمكروه، فإن فعلوا ذلك أخذهم الحق سبحانه فحسنت الأبرار سيئات المقربين - وبعبارة أخرى الذنوب على قسمين: ذنوب مطلقة وذنوب نسبية. الذنوب المطلقة هي الذنوب لدى الجميع من قبيل الكذب والسرقة وشرب الخمر، أما الذنوب النسبية فهي ليست بذنوب لدى عامة الناس، بل قد تكون مستحبة لدى البعض من الناس، بينما نفس هذه الأعمال المستحبة والمباحة قد يطلق عليها اسم المعصية فيما إذا صدرت من المقربين الذين يستبعد أن يقوموا بمثل هذه الأفعال، إلا أنها ليست من قبيل الذنوب المطلقة بل الذنوب النسبية والمراد بها هنا «ترك الأولى». كما ذهبت جماعة إلى النهي عن تلك الشجرة المحظورة على آدم ﷺ كان نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً، على غرار نصائح الطبيب وإرشاداته حين ينصح مريضه بعدم تناول الطعام الفلاني خشية من استفحال المرض وازدياد مدته. فمن البديهي أن مخالفة نصائح الطبيب لا تعتبر اهانة له ولا تعدّ معصية لأوامره، بل ستجر تلك المخالفة على صاحبها مزيداً من الألم والمعاناة.

وهذا هو المعنى الذي أشارت إليه بعض الآيات القرآنية بشأن قصة آدم ﷺ: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى»^٢.

وقد ورد في بعض الروايات أن آدم ﷺ لم يتناول من تلك الشجرة المحظورة، بل أكل من شجرة مشابهة لها، ولذلك قال لها الشيطان في ضمن وساوسه إن الله لم ينهكما عن هذه الشجرة

١. قال ابن أبي الحديد: تعتقد الإمامية لا يجوز على الله أن يبعث نبياً وقد ارتكب المعاصي قبل نبوته سواء الكبيرة أو الصغيرة، عمداً أو سهواً؛ وتختص هذه العقيدة بالإمامية، أما أصحابنا فلا يرون امتناع الكبائر على النبي قبل نبوته. وأضاف ابن أبي الحديد وهذا ما يعتقده الإمامية بالنسبة لأنعتهم الاثني عشر حيث يرون لهم عصمة مطلقة كعصمة الأنبياء (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠/٧).

٢. سورة طه / ١١٧.

﴿وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾^١. أضف إلى ذلك فهناك نقطة مهمة لا بد من الالتفات لها والتي تكمن في قسم الشيطان لاثبات حسن نيته في دعوتها للأكل من تلك الشجرة ﴿وَقَا سَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^٢ ولم يكن آدم وحواء آنذاك سمعا من يقسم كاذباً؛ الأمر الذي جعلها يصغيان إلى وساوس الشيطان.

بالطبع لو تأملا قليلاً لاكتشفا كذب الشيطان؛ لأن الله سبحانه قد حذرهما سابقاً مكائده وأنه عدو لهما، ومن الواضح أنه لا يمكن الوثوق بكلام العدو وإن عززه بالإيمان المغلظة.

٣ - ما حقيقة الشجرة المحظورة؟

اختلفت أقوال المفسرين بشأن الشجرة المحظورة على آدم ﷺ هل كانت شجرة خارجية اعتيادية أم مسألة معنوية أخلاقية، وإن كانت مادية أو معنوية فما هي هذه الشجرة؟ نتناول هذه القضية بالبحث المقتضب رغم أن أمير المؤمنين ﷺ لم يتعرض في خطبته لتلك الشجرة حيث وردت الإشارات فيها إلى قصة إبليس ووساوسه لآدم ﷺ.

فقد أشار القرآن الكريم في ستة مواضع إلى تلك الشجرة المحظورة دون الخوض في ماهية تلك الشجرة، غير أن الأخبار والروايات الإسلامية وكلمات المفسرين قد تضمنت أبحاثاً مسهبة بهذا الخصوص - حيث فسرها البعض بشجرة الحنطة (وهنا لا بد من الالتفات إلى أن الشجرة تطلق على النبات أيضاً، وهذا ما صرحت به الآية ١٤٦ من سورة يونس: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾. في حين فسرها البعض الآخر بشجرة العنب والنخيل والكافور أيضاً.^٣

وأخيراً فسرها البعض معنوياً على أن تلك الشجرة كانت علم آل محمد ﷺ وقيل بل العلم بصورة مطلقة كما قيل كانت الحسد. وقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ حين سئل عن علة اختلاف الروايات بهذا الشأن أنه قال: «كله صحيح، لأن أشجار الجنان ليست من

١. تفسير نور الثقلين ١١ / ٢ ح ٣٤؛ سورة الاعراف / ٢٠.

٢. سورة الاعراف / ٢١.

٣. انظر تفسير نور الثقلين ١ / ٦٠؛ الدر المشور ١ / ٥٢ و ٥٣ وذيل الآية ٣٥ من سورة البقرة.

قبيل أشجار الدنيا. فشجرة الجنة تحمل أنواع الثمار. ولما كرم الله آدم ﷺ واسجد له الملائكة واسكنه الجنة حدث نفسه: هل خلق الله خلقاً أكرم مني؟ فأراه الله مقام محمد وآل محمد ﷺ فتمنى أن يبلغ مقامهم^١. جدير بالذكر أن التوراة صرحت بأن الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة (معرفة الحسن من القبيح) وشجرة الحياة الخالدة وقد نهى الله آدم وحواء من تناول من تلك الشجرة فيحصل على المعرفة ويصبحا خالدين كالله^٢. وتكفي هذه العبارة لوحدها في إثبات تحريف التوراة الفعلية عن التوراة الحقيقية، حيث تثبت أنها من وضع الأفراد والجهال الذين يرون العلم والمعرفة مثلية على آدم وأنه استحق الطرد من الجنة بسبب هذا الذنب. وكان الجنة لا تسع ذوي العلم والمعرفة، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض الروايات التي ذهبت إلى أن الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة إنما هي روايات موضوعة أخذت عن التوراة المحرفة.

٤ - الكلمات التي تاب الله بها على آدم ﷺ.

لقد تحدث الإمام ﷺ في الخطبة عن تلقي آدم ﷺ لكلمة الرحمة من الله سبحانه دون الدخول في تفاصيل هذه الكلمة. القرآن من جانبه أيضاً أشار من بعيد إلى هذه المسألة دون الحديث عن ماهيتها وكنهها. إلا أن الذي يفهم من هذه التعابير أن تلك الكلمات كانت تتضمن مسائل مهمة، فقد صرح البعض بأن المراد بالكلمات هو الاعتراف بالخطأ، وهذا ما أشارت إليه الآية ٢٣ من سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. كما استدل البعض الآخر على هذا الاعتراف بالتقصير وطلب المغفرة بالعبارة: «لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي أنك خير الغافرين»^٣ وقد ورد مثل هذا المعنى في بعض الروايات عن الإمام الباقر أو الصادق ﷺ^٤. بينما صرحت أغلب الروايات بأن تلك الكلمات كانت أسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن

١. نور الثقلين ١ / ٦٠ (بتلخيص).

٢. التوراة، سفر التكوين، الفصل الثاني، رقم ١٧.

٣. بحار الأنوار ١١ / ١٨١.

٤. تفسير نور الثقلين ١ / ٦٧.

والحسين عليه السلام. فقد جاء في كتاب الخصال أن ابن عباس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فقال صلى الله عليه وآله: «سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت عليه فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم»^١.

جدير ذكره أن هذا المعنى مع فارق طفيف قد ورد في «الدر المنثور» التفسير الروائي المشهور لدى العامة. ^٢ كما جاء في رواية أخرى عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن آدم عليه السلام حين ارتكب الخطيئة وطلب المغفرة من الله، سأله أن يقبل توبته بعد أن اعترف بذنبه. فقال له الحق سبحانه ألم أعلمك أن تدعوني بمحمد وآل محمد لكل شدة نزلت بك؟ فقال آدم عليه السلام: اللهم بلى. فقال الله: ادعني بهؤلاء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لأقبل عذرك وأعطيك ما تريد.^٣

وفي حديث آخر عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أن الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي: «اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي اللهم أني أسألك ايمانا يباشر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي وارضني بما قسمت لي»^٤

ونرى هنا أن ليس هناك من تضارب في هذه الروايات، فلعل آدم عليه السلام قد تضرع بهذا الدعاء إلى جانب توسله بالنبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وأخيراً فقد فسرها البعض بالحالة المعنوية لآدم عليه السلام ومدى انشداه لله سبحانه: الأمر الذي رافق توسله بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وبالطبع فليس هنالك من منافاة بين عدم علم آدم عليه السلام بهذه الكلمات قبل التعليم الإلهي مع علمه بالأسماء، لأن الاحتمال القوي هو أن العلم بالأسماء يعني العلم والالمام بأسرار الخليقة وهذا غير المقولة الأخرى التي تتناول سبل تركية النفس وتهذيبها وتدارك التقصير والسير إلى الله تبارك وتعالى.

١. كتاب الخصال نقلاً عن تفسير الثقلين ٦٨/١.

٢. تفسير الدر المنثور ٦٠/١ (ذيل الآية ٣٧ من سورة البقرة).

٣. شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ١١٨/٢.

٤. تفسير الدر المنثور ٥٩/١.

القسم الثاني عشر

«وَاضْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَّا بَدَلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْذِنُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرْوَهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِيرَةِ: مِنْ سَقْفِ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعَايِشَ تُخَيِّبُهُمْ وَأَجَالَ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ. رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةَ عَدَدِهِمْ وَلَا كَثْرَةَ الْمُكْذِبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقِ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غَابِرِ عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْأَبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ».

۵۰۰۸

الشرح والتفسير

بعثة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم

لقد تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته عن قضية بعث الأنبياء. وهي المرحلة التي أعقبت مرحلة خلق آدم وممارسة للحياة على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء إلى علة بعث الأنبياء وارسال الرسل، ثم أشار إلى ماهية مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسية لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشاكل والأطوار العام الذي كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفية

إرتباط بعضهم مع البعض الآخر. فقد استهل كلامه ﷺ بهذا الشأن قائلاً: «واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم^١ وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم». وعلى هذا الأساس فإنّ الأنبياء قد عاهدوا الله منذ بداية الوحي برعايته وإيصاله إلى الناس على أنه أمانة وعهد في أعناقهم.

نعم لقد تقبل الأنبياء ﷺ هذه المسؤولية العظيمة فجذبوا واجتهدوا في حملها وإيصالها إلى الناس كأمانة ووديعة الهية. أمّا الحديث بشأن بعض الأمور من قبيل: كيف اختار الله هذه الصفوة من الأنبياء، وما حقيقة الوحي، وكيف يوحى للبعض بينما لا يوحى للبعض الآخر منهم، فنوكله إلى موضعه^٢.

والواقع هو أنّ العبارة المذكورة إشارة للآية: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا»^٣. ثم أشار ﷺ إلى السبب الرئيسي لبعثة الأنبياء فقال: «لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد^٤ معه واجتالتهم^٥ الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته».

فالواقع لقد كانت إنعدام معرفة هؤلاء بالله سبحانه سبباً لأنّ يهووا في أودية الشرك الرهيبة ومن ثم تتلقفهم الشياطين فتصدهم عن طاعة الله وعبادته. أمّا بشأن المراد بهذه العدة وماهية العهد الإلهي، فقد أشار أغلب المفسرين وشراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد به ميثاق عالم الذر، ويمكن اعتبار ذلك إشارة إلى الفطرة^٦ التي تطرق لها الإمام ﷺ في عباراته اللاحقة.

١. «الميثاق» كما ورد في صحاح اللغة من مادة «الوثوق» بمعنى الاعتماد على أمانة الشخص. ومن هنا أطلق على الميثاق اسم العهد، لأنه يدعو إلى الاطمئنان والوثوق (طبعاً كان الأصل موثاق ثم بدلت الواو بالياء).

٢. انظر التفسير الموضوعي «نفحات القرآن» ٣١٧/٧.

٣. سورة الأحزاب ٧/.

٤. «أنداد» جمع «ند» على (وزن) ضد بمعنى المثل، وأراد هنا المعبودين من دونه سبحانه وتعالى، بينما قال صاحب العقاييس أنها تعني الانفصال والهروب والمخالفة. ولهذا قال اللغويون بأن الند لا يطلق على كل مثل، بل تطلق على المثل الذي يتخذ مساراً يخالف آخر في أعماله وأفعاله كالفرد الذي يماثل آخر إلا أنه يحاربه.

٥. «اجتال» من مادة «جولان» بمعنى العصر، إلا أنها اقترنت بالحرف (عن) في عبارة الإمام ﷺ فعنت الانصراف عن الشيء، ومعناها هنا صرفتهم عن قصدهم.

٦. لقد ذكر هذا الاحتمال في الأبحاث المتعلقة بعالم الذر، حيث يمكن أن يكون تفسيرها بالمسائل الفطرية

وبعبارة أخرى فان الله قد خلق الإنسان على هذه الفطرة الطاهرة التي تجعله يتعرف على حقيقة التوحيد في باطنه ويتطلع إلى الخير وينبذ الشر. ولو بقيت هذه الفطرة السليمة على حالها لحفت العناية الإلهية الإنسانية جمعاء وهدتها إلى السمو والكمال ولسهل لهم الأنبياء السبل إلى ذلك الكمال ولقل حجم المسؤولية التي نهض بعينها هؤلاء العظام، غير أن الانحراف عن الفطرة سواء على مستوى المعارف التوحيدية لينتهي بالزوع نحو الشرك والوثنية وعلى المستوى العملي ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين، قد أدى إلى موآرة بعث الله للأنبياء وتحملهم لتلك المسؤوليات الخطيرة بغية إعادة البشرية إلى فطرتها الأصلية، وهذا ما تطرق له الإمام عليه السلام في العبارات اللاحقة من الخطبة والتي أشار فيها إلى عظم مسؤوليات الأنبياء وما اتصفوا به من خصال عملية ومكارم أخلاقية. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى فلسفة بعثة الأنبياء فقال: «فبعث فيهم رسله وواقر^١ إليهم أنبيائه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفاثن العقول». فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة أهداف رئيسية تقف وراء بعث الأنبياء. أولها: طلب أداء ميثاق الفطرة فقد ذكرنا أن الله سبحانه قد أودع المعارف التوحيدية فطرة الإنسان التي تقوده بصورة طبيعية - مالم تـدنس وتلوث وتتعرف على الانحراف ودون نشأة صاحبها وولادته على الشرك بفعل انحداره من والدين مشركين - إلى عبادة الواحد الأحد وسوف يتطلع إلى الصالحات ويعشق الحق والعدل في ظل هذه الفطرة السليمة الموحدة، فقد جاء الأنبياء ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطرة التوحيدية المودعة لديهم.

الهدف الثاني: لتذكير الناس بنعم الله التي اعترتها الغفلة والنسيان، فالإنسان ينطوي على نعم مادية ومعنوية جمّة ولو استغلها كما ينبغي فإنه سيشتد صروح سعادته وفلاحه في حين سيفقد مثل هذه السعادة إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلاها. ومثله كمثل الفلاح

^١ والاستعدادات الإلهية التي أودعها الله الذات الإنسانية. وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، راجع تفسير

الأمثل ٤/٧.

١. «واتر» من مادة «وتر» بمعنى الفرد في مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد أي أن الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هداية الناس. وقال البعض معناها الموالاة مع الفاصلة، كأن يقال «واتر ما عليه من الصوم» أي صام يوماً وأفطر آخر، في قبال «متدارك» الذي يعني الموالاة دون تخلل الفاصلة.

الذي لا يستفيد من المياه لسقي أشجار حديقته ولا يقطف ثمار أشجاره حين الحصاد. فإذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسية فإنه يكون قد أسدى له أعظم خدمة، وهذا ما ينهض به الأنبياء.

الهدف الثالث: اتمام الحجّة على الناس من خلال الأدلة العقلية - إلى جانب المسائل الفطرية - وإرشادهم إلى الكمال في ظل التعاليم السماوية والأوامر والأحكام الشرعية.

الهدف الرابع: «يثيروا لهم دفائن العقول» ليكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنة في عقولهم، فقد أودع الله هذه العقول كنوزاً عظيمة قيمة لو ظهرت واستغلت لشهدت العلوم والمعارف نهضة عظيمة وجبارة، غير أن هذه الكنوز اختفت واستترت اثر هذه الغفلة والتعاليم الفاسدة والذنوب والمعاصي والتلوث الأخلاقي، ومن هنا فإن إحدى وظائف الأنبياء تكمن في ازالة هذه الحجب واثارة تلك الكنوز المفعمة بالعلوم والمعارف.



ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الهدف الخامس في استعراض الآيات الإلهية للناس في عالم الخلق فقال عليه السلام: «ويروهم آيات المقدر» ثم يشير عليه السلام إلى هذه الآيات فيقول: «من سقّف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب^١ تهرمهم^٢ وأحداث تقابح عليهم».

والواقع هي أنّ هذه الأمور تمثل سلسلة من أسرار الخلق في السماء والأرض وعوامل الحياة وأسباب الفناء والألم والعناء والتي تذكر كل واحدة منها الإنسان بالله سبحانه وتعالى إضافة إلى الحوادث والوقائع التي تدعو الإنسان إلى اليقظة والاعتبار، وعليه فإن الأنبياء يحملون إلى الناس تعاليم سامية ومفاهيم نبيلة من شأن كل منها رفع المستوى العلمي والمعرفي لدى الإنسان أو إيقاظه من غفلته وجعله يتحلى بالفطنة والذكاء. ثم قال عليه السلام: «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة». فالعبارة

١. «أوصاب» من مادة «وصب» بمعنى مرض مزمن، والواصب يطلق على الشيء الموجود دائماً حسب المفردات، وجاءت هنا بمعنى المتاعب والمشاكل والمعاناة.

٢. «تهرمهم» من مادة «هرم» على وزن حرم بمعنى الكهولة والعجز.

تشير إلى أربعة مواضع لا يعدم الوجود بعضها طرفة عين أبدا؛ الأمر الذي يتم الحججة على الناس.

١ - وجود الأنبياء - سواء من كان له كتاب سماوي أم لم يكن - الذي يتضمن هداية البشرية وانتشالها من غفلتها وإتمام الحججة عليها.

٢ - الكتب السماوية المتداولة بين الأمم رغم وفاة الأنبياء الذين أتوا بها.

٣ - الأوصياء وأئمة العصمة والذين عبر عنهم الإمام عليه السلام بقوله «حجة لازمة». وهناك من احتمل أن المراد بالحجة اللازمة دليل العقل، لكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً لأنه لا يكتفي في هداية الناس، ولا مانع من الجمع بينهما في هذه العبارة.

٤ - سنة الأنبياء والأوصياء والأئمة والتي عبر عنها بالمحجة القائمة، حيث عنوا المحجة بالطريق الواضح والمستقيم - سواء الظاهري أو الباطني - الذي يوصل الإنسان إلى هدفه المنشود^١ وبهذا فان الحق سبحانه قد أتم حجته على كافة الأمم والمجتمعات البشرية في جميع الأعصار والأمصار وأمدهم بأسباب الهداية، ثم تطرق عليه السلام لخصائص هؤلاء الأنبياء فقال: «رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم». أجل كانوا مثلاً في الرجولة والأقدام والشجاعة بحيث كان أحدهم يصمد بوجه الآلاف من خصوم الدعوة فيلقى بالنار فتشمله عناية الله ورحمته ليخرج منها سالماً مرفوع الرأس، ويحطم الآخر الاصنام ثم يحتج بالأدلة القاطعة التي تفند عقائدهم الباطلة وتثبت صحة دعواه. كما كان البعض يحاصر من قبل جموع الكفر والشرك بيد عزلاء وقد شهر خصومهم سيوفهم فلم يضعفوا ويهنوا ووقفوا بكل صمود وشموخ. والجدير بالذكر في خصائص الأنبياء التأكيد هنا على صمودهم وشهامتهم. ثم يواصل عليه السلام حديثه عن الأنبياء وكيفية ارتباط بعضهم البعض الآخر ووحدة رسالتهم وهدفهم فقال: «من سابق سمي له من بعده أو غابر^٢ عرفه من قبله». فقد حدد عليه السلام في هذه العبارة أسلوب من أساليب التعرف على الأنبياء في أن يقوم نبي ببشارة قومه

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة الحج.

٢. «غابر» من مادة «غبار» و«غبور» بمعنى الشيء المتبقي، ومن هنا يطلق على الحليب المتبقي في الثدي اسم الغبرة، كما يطلق الغبار على التراب المتبقي في الهواء، ويقال الغابر للأشخاص والأزمات الماضية (راجع المقاييس والمفردات ولسان العرب).

بالنبي الذي يأتي من بعده وبهذا يعرف النبي من خلال البشارة به.^١
ثم يشير ﷺ إلى ثبوت هذه السنة قائلاً: «على ذلك نسلت^٢ القرون ومضت الدهور
وسلفت الآباء وخلقت الأبناء».

تأملات

١ - الأنبياء بمثابة المزارعين

ما تفيدته عبارة أمير المؤمنين ﷺ أن القدرة الإلهية المطلقة قد أودعت الذات الإنسانية قابلية كافة أسباب الخير والصلاح والفلاح، وقد نشرت كافة البذور والرياحين العطرة ساحة قلب الإنسانية الخصبة. والأنبياء من جانبهم يقومون بري هذه البذور لتنتج أشجاراً محملة بالثمار والفاكهة فيستثيروا هذه الكنوز الكامنة في النفس البشرية «ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته... ويشيروا لهم دفائن العقول» واستناداً لهذا فان الأنبياء لا يمنحون الإنسان شيئاً خارجاً عن وجوده، بل ينمون ما لديه ويظهروا له مكنونه، حتى ذهب البعض إلى أن التعاليم والمفاهيم التي تلقى على الإنسان إنما تمثل تذكيراً له، فالعلوم والمعارف قد أودعت النفس البشرية وما وظيفة المعلمين - سواء الأنبياء أو امتداداتهم - سوى إثارة هذه المعارف من خلال تعاليمهم، وكأن هذه المعارف مصادر مياه جوفية تشق طريقها إلى سطح الأرض بعد الحفر والتنقيب ولعل التعبير بالتذكير الذي ورد على لسان الآيات القرآنية ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ و﴿وَتَذَكَّرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ شاهداً على صحة المعنى الذي أوردناه. والواقع أن هذا البحث متشعب وشامل لا يسعنا استيعابه في هذه العجالة.

٢ - حوادث الاعتبار واليقظة

لقد تضمنت العبارة المذكورة إشارة إلى حقيقة وهي أن الأنبياء وإلى جانب تعليمهم

١. لقد ورد الفعل «سمى» بصيغة المجهول في بعض نسخ نهج البلاغة وما ذكرناه سابقاً يتفق وهذه النسخة، أما إذا ذكر بصيغة المعلوم تصبح العبارة بهذا الشكل «من سابق سمي له من بعده» إلا أن الاحتمال الأول أنسب.
٢. «نسلت» القرون من مادة «نسل» بمعنى تكاثر الأولاد، والعبارة كناية رائعة عن توالي القرون وكأن كل قرن قد ولد من القرن السابق.

الناس المعارف الإلهية الحقّة وبيان آيات القدرة وعظمة خالق الوجود، فانهم يلفتون انتباه الناس إلى الحوادث ذات الدروس والعبر من قبيل حلول الأجل وانتهاء العمر وآجال النعم المادية واستعراض المحن والخطوب والوقائع الشديدة. فالعبارات الواردة في الخطبة إشارة أخرى لفلسفة الأحداث الخطيرة التي تنطوي عليها الحياة البشرية، بحيث لولا هذه الأحداث لغطت البشرية في سبات عميق وحجاب من الغفلة يتعذر معه صحوتها وافاقتها من سيادتها.^١

٣ - دور الدين في الحياة

الدرس الآخر الذي تعرضت له الخطبة هو دور الدين في حياة الإنسان ولولا الأنبياء لتاهت البشرية في غياهب الشرك والوثنية وعبادة الأصنام ولاستحوذت عليها الشياطين وحالت دون عبوديتها ومعرفتها بالله، وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعادة بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته.

صحيح أنّ العقل نور خالد إلا أنّ شعاعه باهت خافت مالم يستند إلى ضياء الوحي الذي يخترق المكان ولا يقف عند حدود فيهديه في اجتياز ظلمات الطريق. ومن هنا تتضح جسامة الخطأ الذي أصاب البراهمة الذين تنكروا للبعثة الأنبياء وارسال الرسل. ولو كان العقل يدرك كافة أسرار الإنسان الباطنية والظاهرية ويحيط بالعلاقة التي تحكم الماضي والحاضر والمستقبل ولا يخطئ في تشخيصه للأحداث لأمكن القول بالاكتماء بإدراكه وفهمه لكافة وقائع الحياة في هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدودية هذا الفهم والإدراك وضآلة المعالم مقارنة بالمجاهيل (وهي المعالم التي تتسم بالسعة والشمولية) لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها.

طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجة الله؛ الأمر الذي أكدّه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، بل تواترت الروايات التي صرّحت بأنّه «الرسول الباطني» حيث ورد في الحديث المروي عن الإمام

١. للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر كتاب نفحات القرآن ٤/٤٤٠ فصاعداً.

الكاظم عليه السلام أنه قال: «إنَّ الله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول»^١. مع ذلك فرسالة هذا الرسول الباطن محدودة، بينما ليست كذلك رسالة الرسول الظاهر الذي يستند إلى الوحي والعلم الإلهي المطلق. وبناءً على ما تقدم فقد اتضح الرد على البراهمة السوفسطائيين الذين يقولون: ما يأتي به الأنبياء لا يخرج عن حالتين: إما أن يدرك العقول ما يقوله أو لا يدرك، فإن أدركه العقل فلا حاجة للأنبياء، وإن لم يدركه فو ليس بعقول ولا يمكن قبوله لأن الإنسان لا يقبل قبط ما لا يعقل. والإشكال الذي يرد على هذا الاستدلال هو أن هؤلاء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنهم تصوروا أن العقل يدرك جميع الأشياء، والحال لدينا تصنيف ثلاثي بشأن المواضيع المطروحة. فالمواضيع التي تعرض علينا إما أن تكن موافقة لحكم العقل أو مخالفة له أو مجهولة. ولا يسعنا هنا إلا أن نقول بكل تأكيد أن أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث؛ أي هي من قبيل المجاهيل التي كرست رسالة الأنبياء وظيفتها في هذا المجال. أضف إلى ذلك فغالبننا ما يعترينا هاجس الخطأ والزلل في إدراكاتنا العقلية؛ ومن هنا برزت حاجتنا الملحة للأنبياء، وبعبارة أخرى إلى تأييد العقل بالنقل الذي يسعه منحنا السكينة والاطمئنان في إدراكاتنا العقلية ويزيل الوسوس والهواجس ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم.

٤ - لا تخلو الأرض من حجة

لقد أكد الإمام علي عليه السلام على حقيقة أخرى وهي عدم خلو الأرض من الحجة الإلهية الظاهرية أو الباطنية «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة» والطريف في كلام الإمام عليه السلام أنه قرن الكتب السماوية بالأنبياء والحجج الإلهية والسيرة المعتمدة. نعم وراء كل كتاب سماوي نبي من أنبياء الله يكشف أسراره ويوضح معالمه ويبين أحكامه إلى جانب إجراءه وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطة سنته

واستخلافه للوصي والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه. وهذه من أهم عقائدنا في هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال: «لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجة»^١. وهو الأمر الذي أكده أمير المؤمنين عليه السلام في قصار كلماته: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيئاته»^٢.

٥ - مميزات الأنبياء

إنّ الأنبياء الذين يبعثهم الله من أجل هداية الخلق ليسوا من قبيل الأفراد العاديين، بل يتصفون بجميع الخصال والمميزات اللازمة لقيامهم بوظيفتهم الرسالية الخطيرة ومنها اليسالة والشجاعة الفائقة في ابلاغ الرسالة والصمود بوجه خصوم الدعوة من الأقوام الجاهلة والمعاندة والذود عن هذه الرسالة إلى حد الاستتاتة والشهادة في سبيل تحقيق أهداف الرسالة. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في تصدي الأنبياء لخصومهم والمكذبين والمستهزئين من أعدائهم؛ الأمر الذي يشاهد بوضوح في تاريخ الأنبياء ولا سيما خاتمهم المصطفى عليه السلام: «رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم». كما أكد القرآن الكريم على تحلي الأنبياء بصفاتهم مبلغية الرسالات بهذه الصفة: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ»^٣.

والذي يفهم من عبارة الإمام عليه السلام - كما صرح بذلك صاحب منهاج البراعة - أن التقية لا تجوز على الأنبياء، ومن هنا يتضح بطلان ما نسبته الفخر الرازي للشيعة الإمامية من أنها لا تجوز على الأنبياء حتى إظهار الكفر تقية^٤. بل الأمر أبعد من ذلك لأنّ التقية حرام على الأئمة بل وحتى الأفراد العاديين في الحالات التي يتعرض فيها الدين للخطر، بعبارة أخرى قد تكون التقية واجباً وقد تكون حراماً. فإذا كان تركها يؤدي إلى سفك الدماء دون حلها فهي واجبة،

١. الكافي ١/ ١٧٩.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٤٧.

٣. سورة الأحزاب / ٣٩.

٤. منهاج البراعة ٢/ ١٦٠.

كأن تقع جماعة من المسلمين في يد الأعداء بحيث يراق دمهم إذا أظهروا إسلامهم، فهذا يجب عليهم إخفاء دينهم كي لا يتمكنوا العدو من قتلهم، في حين قد يؤدي إخفاء الدين والافصاح عن العقيدة أحياناً إلى ضعف المسلمين وذلتهم، ففي هذه الحالة يحرم على الأفراد كتم دينهم وعليهم أن يكشفوا عنها بكل شجاعة مهما كلف الأمر (وما واقعة كربلاء عنك بسعيد التي جسد فيها الإمام الحسين وصحبه الكرام حرمة التقية حفظاً للدين).

ولما كان كتم الأنبياء لمعتقداتهم يهدد أصل رسالتهم كانت وظيفتهم ترك التقية. جدير ذكره أن التقية ليست من المفاهيم التي تقتصر على الشيعة أو المسلمين فحسب، بل مفهوم من المفاهيم العقلانية الذي يدعو الإنسان إلى حفظ نفسه وعدم هدر دمه إذا لم يكن هناك من جدوى لابتداء عقيدته.^١



١. راجع كتاب القواعد الفقهية ١ / ٣٨٣، قاعدة التقية للوقوف بصورة أشمل على مفهوم التقية وتقسيمها إلى الأحكام الخمسة (الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح) والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن.

القسم الثالث عشر

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ مَاخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِهِ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْجِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَذَا هُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِقَاءَهُ وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا ﷺ وَخَلَفَ فِيكُمْ مَا خَلَفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَّهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ وَلَا عِلْمٍ قَائِمٍ».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير

بزوغ شمس الإسلام

أشار الإمام ﷺ في هذا القسم من الخطبة إلى أربعة أمور:

- ١ - قضية بعثة نبي الإسلام محمد ﷺ وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلامته نبوته.
- ٢ - الوضع الذي كانت تعيشه الأمة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية من حيث الانحرافات الدينية والعقائدية وانقاذها من تلك الظلمات بتور رسالة النبي ﷺ.

٣ - رحيل النبي ﷺ من الدنيا.

٤ - الارث الذي خلفه النبي ﷺ للأمة (القرآن الكريم).

فقد قال ﷺ: «إلى أن بعث الله سبحانه محمداً ﷺ لانجاز^١ عدته واطمام نبوته^٢». ثم أشار إلى شمة من فضائله والميثاق الذي أخذ من النبيين من قبله بالبشارة به «مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته^٣، كريماً ميلاده»، ولعل العبارة الأخيرة إشارة إلى كرامة آيائه وأجداده، أو بركات ولادته التي عمت أرجاء العالم، فقد صرّحت بعض السير التاريخية بتهاوي أوثان الكعبة وانطفاء نار الجوس وجفاف بحيرة ساوة التي كانت تحظى بعبادة بعض الناس وتهدم قصور بعض الجبابرة تزامناً مع الولادة الميمونة للنبي الأكرم ﷺ وكل هذه الأحداث دلالة واضحة على بداية عصر جديد بانطلاقة شرارة التوحيد والوقوف بوجه كافة مظاهر الشرك والالحاد. ثم قال ﷺ: «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائف متشتتة بين مشبهه الله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره».

«ملحد» من مادة «لحد» على وزن مهد بمعنى الحفرة الواقعة على جانب ومن هنا اطلق على مثل هذه الحفرة اسم اللحد، كما أطلق الالحاد على كل عمل يخرج عن حالة الاعتدال ويمنح نحو الإفراط والتفريط، ومن هنا نعتت الوثنية والشرك بالالحاد. وعليه فالمراد بقوله ﷺ: «ملحد في اسمه» هو ما أشرنا إليه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء الله، على سبيل المثال كانوا يسمون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزى والثالث بمناة، وهى الأسماء التي اشتقت على التوالي من أسماء الله والعزى والمنان، أو أن يكون المراد منها اضماء صفات الله على المخلوقين، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين. ثم قال ﷺ: «فهداهم به من الضلالة وانقذهم بمكانه من الجهالة، ثم اختار سبحانه لمحمد ﷺ لقائه، ورضى له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى»^٤.

١. «انجاز» من مادة «نجز» على وزن رجز بمعنى الانتهاء وتحقيق الشيء.

٢. الضمير في (نبوته) يعود إلى النبي، أما الضمير في (عدته) ففيه احتمالان: أن يكون عائداً على الله أو عائداً على النبي، إلا أن الأول أنسب، وذلك لأن بعثة النبي كانت وعداً إلهياً وعد بها نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ وسائر الأنبياء، كما يحتمل أن يكون الضميران عائدين لله سبحانه.

٣. «سماته» جمع «سمة» بمعنى العلامة.

٤. إذا تعدت رغب بحرف في عنت الرغبة في الشيء والاقبال عليه، بينما تعنى العزوف عن الشيء والانصراف عنه، حيث يكون معنى العبارة أن الله لم يرد لنبيه أن يعيش صعاب الدنيا أكثر من هذا الحد، فقبحه من هذا العالم الدني ليضعه إلى جواره في العالم العلوي.

أجل فقد قبضه إليه قبض اختيار وكرامة «فقبضه إليه كريماً ﷺ» وقد ورث أمته ما ورثت الأنبياء من قبله أممها «وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها» - فالأنبياء لم يتركوا أممهم من بعدهم سدى، بل أضاءوا له معالم الطريق ونصبوا عليهم الحجج «إذ لم يتركوهم هملاً»^١ بغير طريق واضح ولا علم قائم». من البدهاة أن يكون مراد الإمام ﷺ من هذه العبارة ما ورد في حديث الثقلين الذي تواترت الروايات بشأنه حيث قال رسول الله ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وقد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»^٢.

وبالطبع فإن الإمام ﷺ وأصل حديثه في بحث جامع عن كتاب الله (القرآن الكريم) إلا أنه لم يتطرق إلى العترة، حيث تعرض بصورة مفصلة - كما سنشير لاحقاً - إلى العترة في عدة خطب من نهج البلاغة. ولعل عبارته ﷺ: «علم قائم» في آخر كلامه إشارة إلى الأوصياء. على كل حال فإن حرص الأنبياء على أممهم لم يقتصر على حياتهم، بل كانوا قلقين على مستقبلهم إلى حد يفوق قلق الوالد الشفيق حال احتضاره على ولده الصغير؛ ومن هنا يتعذر تصور ترك الأنبياء لاممهم دون استخلافهم لأوصياءهم عليهم لكي لا تذهب مساعيهم في إرشاد الأمة وهدايتها أدراج الرياح.

تأملان

١ - الأديان قبل البعثة النبوية

لقد تضمنت عبارته ﷺ إشارات مقتضبة عميقة المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب في العصر الجاهلي وقبل البعثة النبوية. بحيث صرح المؤرخون والمحققون بأن العرب وعلى غرار سائر الأقوام كانت تعيش عدة أديان ومذاهب لا يحصى عددها إلى جانب الانحرافات والانحرافات الجمة. وقد قال ابن أبي الحديد - الشارح المعروف لنهج البلاغة - بشأن أديان

١. «هملاً» من مادة «همل» على وزن حمل بمعنى ترك الشيء إلى جانب اهماله وعدم الاهتمام به.

٢. راجع كتاب «نفحات القرآن» المجلد التاسع للوقوف على أسناد حديث الثقلين وتواتره عند علماء الفريقين.

العرب في الجاهلية: فأما الأمة التي بعث النبي محمد ﷺ فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطلة ومنهم غير معطلة، فأما المعطلة منهم، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والاعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^١ فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلك لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث. وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^٢. ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^٣. وكان في العرب مشبهة ومجسمة، منهم أمية بن الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالس قد حط رجليه إلى كرسيه منصوب وذهب بعض متكلمي المجسمة إلى أن الباري تعالى مركب من أعضاء على حروف المعجم. وقال بعضهم: إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرد، في رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير. وقال بعضهم: إنه في صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحف به.^٤

وأما الذين ليسوا بمعطلة من العرب؛ فالقليل منهم، وهم المتأهلون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح كعبد الله، وعبد المطلب وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الابدادي، وعامر بن الظرب العدواني وجماعة غير هؤلاء.^٥ أما البعض الآخر من شراح نهج البلاغة فقد صنفوا علماء العرب إلى عدة طوائف منهم العارفين بالانساب، ومفسري الأحلام ومتخصصين في علم الأنواء (نوع من التنجيم المشوب بالخرافات) والكهنة الذين يوحون إلى الناس بأنهم يخبرون عن مغيبات المستقبل. أما من غير العرب كان البراهمة الذين عاشوا في الهند ينكرون كافة الأديان ولا يؤمنون سوى بالأحكام العقلية. وطائفة أخرى من عبدة الكواكب والشمس والقمر التي تمثل أنواعاً من الوثنية.^٦

١. سورة الجاثية / ٢٤.

٢. سورة يس / ٧٨.

٣. سورة الزمر / ٣.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٢٧/٣.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١٧/١.

٦. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢٠٥/١.

وإلى جانب هذه الطائفة هناك اليهود والنصارى والمجوس. وقد شهدت كل طائفة منهم انحرافاً عقائدياً، فالمجوس قالت باله الخير والشر. وقد انطوت المجوسية - التي قد تكون في بدايتها منسوبة لبعض الأنبياء - على خرافات جمّة حتى ذهب بعض المحققين إلى أنهم يعتقدون باله الخير واله الشر الذين تقاتلا حتى تدخلت الملائكة فأصلحت ذات بينها بشرط تفويض العالم السفلي لاله الشر مدّة سبعة آلاف سنة (ويفوض العالم العلوي لاله الخير).^١

بينما ابتليت النصرانية بالتثليث (الأقانيم الثلاث) كما حرفت اليهود كتاب التوراة وشحنته بالانحرافات والخرافات التي لا يسعنا الخوض فيها في هذه الابحاث. فقد أوجز الإمام جميع هذه الطوائف في ثلاث: الاولى: المشبهة التي جعلت لله شريكاً، كالمجوس والنصارى، أو أولئك الذين يجعلون لله صفات المخلوقين كاليهود. الثانية: أولئك الذين عدلوا باسمه إلى غيره كأغلب الوثنيين الذين أسموا أو ثابتهم بأسماء الله سبحانه فجعلوهم شفعاثهم عند الله. الثالثة: أولئك الذين عبدوا غير الله كالدهرية التي تعتقد بأن الطبيعة هي خالقة الوجود، أو عبدة الأصنام والكواكب والشمس والقمر التي ترى الاصلة للكواكب والأصنام؛ أي تراها هي الله.

أجل لقد بعث رسول الله ﷺ في ظل هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهداية ويضيء الظلمات بنور القرآن. لقد أتى رسول الله ﷺ تلك الأمم بأسمى مفاهيم التوحيد وأعظم المعارف والعلوم وأرصن الصفات الإلهية، حيث جاءهم بالحنيفية السمحاء الخالية من الأساطير والخرافات والانحرافات التي سادت سائر الأديان، ولم تهدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حماية المحرومين والمستضعفين وبسط العدل والقسط وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته في انقاذ الأمة من الضلال المبين وتعليمها الحكمة وتهذيب نفوس أبناءها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٢.

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحق بظهور هذا النبي الكريم وانهارت الأساطير والخرافات

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ٢٠٦/١.

٢. سورة الجمعة / ٢.

لتشهد البشرية عصرها الجديد؛ الحقيقة التي أذعن لها الأعداء فضلاً عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء. فقد تناول الكاتب الانجليزي المعروف «برناردشو» هذا الأمر ليصف دين محمد بأنه الدين الوحيد الذي يصلح لقيادة البشرية ويتكيف مع حياتها على مدى التاريخ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمد منقذ البشرية جمعاء ولو قدر لزعيم على غراره أن ينهض بقيادة العالم اليوم لتغلب على كافة المشاكل التي تعاني منها الإنسانية ولقادها إلى السعادة والسلام، فحمد أكمل إنسان عرفه الماضي والحاضر ولا يتصور أن يجود الزمان بمثله في المستقبل.^١

٢ - آفاق الأنبياء المستقبلية

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أن تفكير الأنبياء والرسول لا يقتصر على عصرهم، بل يفكرون بمستقبل الأمة ومصيرها بعد وفاتهم، ومن هنا جاهدوا في تبيين كل مامن شأنه هدايتهم في المستقبل، فلم يألوا جهداً في إضاءة معالم الطريق وبيان سبل النجاة. ولا شك أن نبي الإسلام لم يكن بدعا من الرسل في هذا الشأن. أو يمكن تصور تركه للأمة بعد رحيلها عنها؟ أفكان يسعه وداع الأمة وإيكاها إلى نفسها دون دليل على الطريق؟ أو ليس حديث الثقلين المتواتر لدى الشيعة والسنة والذي قال فيه: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» نموذج من نماذج إضاءة الطريق للأمة من بعده وصونها من اللبس والانحراف؟



القسم الرابع عشر

«كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّنًا حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ وَقَرَائِصَهُ وَقَضَائِلَهُ وَنَاسِخَهُ
وَمَنْسُوخَهُ وَرُخْصَهُ وَعَزَائِمَهُ وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ وَعِبرَهُ وَأَمْثَالَهُ وَمُرْسَلَهُ
وَمَخْدُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، مُفَسِّرًا مُجْمَلَهُ وَمُبَيِّنًا غَوَامِصَهُ، بَيْنَ مَاخُودٍ
مِيثَاقٍ عِلْمِهِ وَمَوْسَعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثَبَّتٍ فِي الْكِتَابِ فَرَضَهُ
وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخَهُ وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذَهُ وَمُرْخَّصٍ فِي الْكِتَابِ
تَرْكُهُ وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبَايِنٍ بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ
أَوْ عَدَّ عَلَيْهِ نَيْرَانَهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ مُوسَعٍ
فِي أَقْصَاهُ».

٥٠٨

الشرح والتفسير

خصائص القرآن

لقد بحثت أهمية القرآن الكريم وعظمته كراراً ومراراً في خطب نهج البلاغة بحيث تناولت كل خطبة جانباً من الجوانب القرآنية. وقد أشار الإمام عليه السلام بشكل جامع إلى شمولية القرآن وخطوطه العريضة في هذه العبارات، فقد هدف الإمام عليه السلام لبيان حقيقة مهمة وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله رحل عن الأمة بعد أن ورثها كتاب الله الذي نظم جميع شؤون حياة الأمة المادية والمعنوية؛ الفردية والاجتماعية في كافة الميادين والمجالات؛ فقد قال عليه السلام: «كتاب ربكم فيكم»^١ ثم أشار عليه السلام إلى أربعة عشر نقطة بشأن شمولية القرآن وخصائصه:

١. كتاب منصوب بصفته عطف بيان للحرف مافي الجملة (خلف فيكم ما خلفت الأنبياء) أو أنه مفعول لفعل تقديره (خلف) أو (أعنى).

١- اتضاح الحلال والحرام والواجب والمستحب «مبيناً حلاله وحرامه وقرائضه وفضائله». والعبارة إشارة إلى الأحكام الإسلامية الخمس المعروفة، فالفرائض إلى تشير الواجبات، والفضائل إلى المستحبات، والحرام إلى المحرمات وأخيراً الحلال الذي يشمل المباحة والمكروهات.^١

٢- بيان الناسخ والمنسوخ «وناسخه ومنسوخه».

المراد بالناسخ والمنسوخ الأحكام الجديدة التي تزيل الأحكام القديمة والتي تقتصر على عصر الرسالة حين نزول الوحي الذي كان يعني إمكانية تغيير الأحكام. فبعض الأحكام وإن كانت مطلقة في ظاهرها، غير أنها مقيدة باطنياً ومختصة بزمان معين، فإذا انتهى ذلك الزمان نفذ حكمها بحكم جديد آخر يطلق عليه اسم الناسخ من قبيل التصديق قبل مناجاة النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ»^٢. فقد كان هذا الأمر امتحاناً للمسلمين لم يعمل به سوى أمير المؤمنين عليه السلام حتى نسخ بقوله تعالى: «أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^٣.

٣- «ورخصه وعزائمه». فلعل هذه العبارة إشارة إلى ما تعارف اليوم في علم الفقه والأصول بأن حكم الواجب أو الحرام إذا رفع قد يستبدل بحكم الإباحة كقوله: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا»^٤. فمن المسلم به أن الصيد ليس واجباً بعد الخروج من الاحرام، بل مباح، وأحياناً يستبدل بحكم ضده، كقوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ»^٥ ومعلوم أن صلاة القصر في السفر واجبة ليست مباحة، فيقال للاولى

١. وردت كلمة «مبيناً» بصيغة اسم الفاعل وهي حال لفاعل خلق (أي الرسول الأكرم ﷺ) والضمير في حلاله وحرامه .. يعود على القرآن بينما ذهب بعض شراح النهج إلى أن مبيناً وسائر الأوصاف التي وردت لاحقاً من قبيل مفسراً هي حال لكتاب الله، والضمائر في حلاله وحرامه و... تعود إلى كتاب الله أو ربكم، إلا أن القول الأول أنسب.

٢. سورة المجادلة / ١٢.

٣. سورة المجادلة / ١٣.

٤. سورة المائدة / ٢.

٥. سورة النساء / ١٠١.

رخصة وذلك لجواز طرفي العمل ويقال للثانية عزيمة حيث يجب على المكلف جزم عزمه بالعمل. وهناك احتمال آخر في تفسير هاتين المفردتين، كأن يكون المراد بالرخص الأحكام الواجبة أو المحرمة التي استثنيت في بعض الموارد من قبيل قوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»^١. أما العزائم فهي الأحكام التي لا سبيل إلى الاستثناء اليها، كقوله: «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^٢.

٤ - «وخاصه وعامه»، فالخاص هو الحكم الذي لا يشمل كافة المسلمين كحكم الحج الذي يختص بمن له الاستطاعة «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»^٣ والعام هو الحكم الذي يشمل جميع المسلمين كاقامة الصلاة «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». وقيل أيضاً بأ المراد بالخاص الآيات التي لها ظاهر عام غير أن المراد بها حالة خاصة كآية الولاية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاغِبُونَ»^٤. حيث نعلم بوجود مصداق واحد لهذه الآية فقط وهو أمير المؤمنين علي عليه السلام.

أما العام فيراد به الآيات ذات العموم والتي تشمل الجميع كقوله عز وجل: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»^٥.

٥ - «وعبره وأمثاله»، عبر من مادة عبرة وقد اشتقت من العبور، ولذلك يصطلح بالعبرة على الحادثة التي تعرض للإنسان ويتخطاها، والقرآن الكريم مليء بالدروس والعبر بشأن تواريخ الأنبياء والأمم السالفة حيث تتضمن كل حادثة من تلك الحوادث المعاني والدروس للقيمة التي تستفيدها البشرية في مسيرتها الحياتية.

أما الأمثال فقد تكون إشارة إلى الأمثال التي وردت في القرآن الكريم بتلك الكثرة من قبيل: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ»^٦، كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض

١. سورة البقرة / ١٧٣.

٢. سورة النساء / ٣٦.

٣. سورة آل عمران / ٩٧.

٤. سورة المائدة / ٥٥.

٥. سورة المائدة / ٣٨.

٦. سورة إبراهيم / ٢٤.

الأفراد الذين أصبحت سيرتهم وحياتهم مثلاً يحتذى به كقوله عز من قائل: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^١.

٦ - كما بين القرآن أحكام المطلق والمقيّد «ومرسله ومحدوده» فالمطلق الأحكام التي بينت دون قيد أو شرط كقوله سبحانه: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ»^٢ وأما المقيّد فهو الحكم الذي وضعت له بعض القيود والحدود كقوله: «تِجَارَةٌ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ»^٣.

ومن الواضح أنّ الجمع بين المطلق والمقيّد يتطلب منا تقييد المطلق بواسطة المقيّد، ففي المثال المذكور لا تصح المعاملة إلا بتراضي الطرفين. ويمكن أن يكون المراد بالمطلق الأحكام الخالية من القيود والشروط، في حين الأحكام المقيّدة هي الأحكام المحدّدة بالقيود والشروط من قبيل كفارة القسم التي جاء فيها «أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ»^٤، بينما جاء في كفارة القتل الخطأ «فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ»^٥.

٧ - «ومحكمه ومتشابهه». فالمراد بالمحكم الآيات الواضحة الدلالة التي لا تحمل سوى وجه واحد كقوله سبحانه: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» بينما تحمل الآيات المتشابهة عدّة وجوه، وإن أمكن بيانها من خلال سائر الآيات القرآنية كقوله: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»^٦ حيث يزال ابهام هذه الآية وغموضها من خلال الآيات التي نزهت الله عن المكان والزمان والجهة والجسم والرؤية وما إلى ذلك كقوله: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»^٧.

٨ - من الخصائص الأخرى هي بيان لمجمل القرآن وغوامضه من خلال السنّة النبوية «مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه». فالمجمل الآيات التي تأمر بإقامة الصلاة ولم تشر إلى أركانها وعدد ركعاتها فيقوم النبي ﷺ بشرحها، أمّا المراد بالغوامض الحروف القرآنية المقطعة

١. سورة التحريم / ١١.

٢. سورة البقرة / ٢٧٥.

٣. سورة النساء / ٢٩.

٤. سورة المائدة / ٨٩.

٥. سورة النساء / ٩٢.

٦. سورة القيامة / ٢٣.

٧. سورة الانعام / ١٠٣.

والتي بيّنت بواسطة الأحاديث النبوية. ولعل الفارق بين الغوامض والمتشابهات هو أن المتشابهات تنطوي على معان ومفاهيم للوهلة الاولى بينما يكتنف الاولى الابهام كالمثال السابق.

٩ - هناك بعض الحقائق القرآنية التي أخذ الميثاق على معرفتها ولا يعذر أحد بجهلها في حين يعذر في بعضها الآخر: «بين مأخوذ ميثاق علمه وموسع على العباد في جهله» فالحقائق التي لا يعذر أحد بجهلها من قبيل آيات التوحيد والصفات الإلهية التي تجب معرفتها على جميع المؤمنين، والثانية من قبيل الذات الإلهية التي ليس لأحد من سبيل إلى معرفتها وكذلك مسألة المعاد والقيامة التي ينبغي الإيمان بها، في حين ليست هنالك من ضرورة للإمام بالتفاصيل المتعلقة بالجنة والنار.

١٠ - وهناك بعض الأحكام القرآنية المختصة بزمان معين والتي نسختها السنة النبوية «وبين مثبت في الكتاب فرضه ومعلوم في السنة نسخه» من قبيل عقاب المرأة المحصنة بالحبس المؤبد إذا ارتكبت فاحشة الزنا «وَالسَّالِطِي يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا»^١ ثم نسخت السنة النبوية هذا الحكم بالأحاديث التي وردت في باب رجم المحصنة.

١١ - الآيات الناسخة للسنة بشأن بعض الأحكام التي صرّحت السنة بالعمل بها بينما أجازت الآيات القرآنية تركها «وواجب في السنة أخذه ومرخص في الكتاب تركه» من قبيل حكم الصوم في بداية التشريع حيث لم يكن يسع الصائم الافطار سوى أوائل الليل، فاذا نام وأفاق لم يجز له تناول شيء من المفطرات، غير أن هذه السنة النبوية نسخت فيها بعد بالآية القرآنية الشريفة: «... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ»^٢.

١٢ - الأحكام الواجبة لبعض الأوقات «وبين واجب بوقته وزائل في مستقبله»

١. سورة النساء / ١٥.

٢. سورة البقرة / ١٧٨.

فالعبرة تشير إلى الواجب المؤقت وغير المؤقت؛ الواجب المؤقت من قبيل صوم شهر رمضان وارتفاعه في غير هذا الشهر، خلافاً للتكاليف الدائمة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحق والعدل الواجبة على الدوام^١. وذهب البعض إلى أن العبارة تشير إلى بعض الواجبات كالحج الذي يجب على المكلف لمرة واحدة في العمر ثم يزول، واستدلوا على ذلك بالهجرة التي وجبت على المسلمين في بداية انبثاق الدعوة الإسلامية - حيث كان المسلمون يعيشون حالة من المحدودية - ثم زال هذا الوجوب بعد فتح مكة، وإن كانت الهجرة على حالها إلى يومنا هذا في المناطق التي تشهد الحالة المكية قبل الهجرة.

١٣- فرز أنواع المحرمات عن بعضها وبيان كل واحدة منها في إشارة إلى الكبائر التي توعدها الله مرتكبيها والصغائر التي وعد بمغفرتها «ومباين^٢ بين محارمه من كبير أو عد عليه نيرانه أو صغير أرصد له غفرانه» فالكبائر من قبيل الشرك وقتل النفس التي صرحت الآيات القرآنية بتوعد مرتكبيها بالعذاب، فقد ورد في الآية ٧٢ من سورة المائدة بخصوص الشرك «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ» وفي الآية ٩٣ من سورة النساء بشأن قتل النفس «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» وأما الصغائر فمن قبيل اللطم الواردة في الآية ٣٢ من سورة النجم «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّطَمَ» حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد باللطم انعقاد النية على المعصية دون الإتيان بها أو المعاصي عديمة الأهمية.

١٤- الأعمال التي يقبل القليل منها وورد الحث على كثيرها «وبين مقبول في أدناه، موسع في أقصاه». فالعبرة تشير إلى الأعمال التي ورد التأكيد على الإتيان بقليلها وللأمة الإتيان بالمزيد.

وقد استدل بعض شراح نهج البلاغة على ذلك بتلاوة القرآن «فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ»^٣. فقراءة اليسير من القرآن مؤكدة وترك للناس قراءة الكثير (وهذا ما نلمسه

١. هناك محذوف في هذه العبارة، ففي الحالة الثانية يكون تقدير العبارة كالآتي: «وبين ما يكون واجبا دائما».

٢. مباين خير لمبتدأ محذوف تغير الجملة هو مباين، والضمير هو يعود إلى الكتاب، وهناك احتمال آخر إلا أن الذي أوردناه هو الأنسب.

٣. سورة المزمل / ٢٠.

بوضوح في أواخر سورة المزمل). وبالمقابل هنالك الأحكام الإلزامية التي لا يسير ولا كثير فيها من قبيل صوم شهر رمضان، حيث يلزم المكلف بصوم شهر معين دون زيادة أو نقصان (الآيات ١٨٢ إلى ١٨٥ من سورة البقرة).

تأملات

١ - شمولية القرآن

المسألة الاولى التي تطالعنا في كلام الإمام عليه السلام شمولية القرآن الكريم، أو بعبارة أخرى اعجاز القرآن من حيث المضمون؛ لأن خاض من خلال النقاط الأربعة عشر بشأن القرآن في تفاصيله الدقيقة وتنوع مضامينه على جميع المستويات في إطار تلبية متطلبات الإنسان و احتياجاته من حيث الأمور العقائدية والقضايا العلمية والأخلاقية والأحكام الواجبة والمحرمة والعلاقة القائمة بين القرآن والسنة والأحكام الثابتة والمؤقتة والعام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ، حيث يفيد تأمل هذه الأمور مدى حساسية المضامين القرآنية المدروسة والتي تتسجم ومتطلبات الإنسانية. فالمضامين الرصينة الدقيقة والعميقة المتنوعة والشاملة - كما أشرنا إلى ذلك في بحث اعجاز القرآن - تمثل أحد أبعاد اعجاز القرآن فأدنى لإنسان أمي تربي في وسط الجهل والظلام أن يأتي بمثل هذا الكتاب مكتفياً بما يمليه عليه فكره دون الاستناد إلى فيوضات الغيب والوحي؛ الكتاب الذي غص بالدروس والعبر والأمثال الرائعة البليغة والأحكام الجامعة والمعارف الجمّة العميقة. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام بهذا البيان القصير قد استعرض دورة جامعة في الأصول الفقهية وأشار إلى موضوعات واسعة لم تتكامل في علم الأصول إلا بعد قرون طويلة، ثم فصل الأحكام عن بعضها البعض ليميط اللثام عن القواعد المتعلقة بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والرخصة والعزيمة والخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين والمؤقت وغير المؤقت والواجب والمستحب المؤكد والمستحب غير المؤكد.

٢ - من عنده علم الكتاب؟

يفهم من عباراته عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله موظف بتبيين بعض مجملات القرآن الكريم وإزالة

غوامضه بما لا يدع لأحد من مجال للشك، ولهذا قال القرآن المجيد: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^١. قد يقتدح في الأذهان سؤالاً: كيف يحتاج القرآن إلى تفسير مجمله وإزالة غوامضه وتبيين مبهمه وقد نزل هداية للناس ولا بدّ للعامّة من فهمه وإدراكه؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بدّ من الالتفات إلى أمرين:

الأول: إن القرآن بفضلته يتضمن سلسلة من القوانين والأحكام الإسلامية لا يسعه أن يخوض في التفاصيل، فهو يشير إلى هذه القوانين على نحو العموم بينما يفوض شرحها والخوض في تفاصيلها إلى النبي ﷺ. على سبيل المثال فقد وردت أحكام الصلاة والحج والصوم وبعض كلياتها في القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أنّ هذه العبادات تشتمل على شرائط واركاب وفروع كثيرة يحتاج شرح كل ركن منها إلى كتاب مستقل، بل هناك الأمور التي تتطلب عدّة مجلدات من قبيل الأمور المرتبطة بالمعاملات والقضاء والحدود والشهادات والسياسات الإسلامية بصورة عامة.

الثاني: أنّ حاجة الأمة للنبي ﷺ في تبين المبهمات وتفسير الجملات تؤدّي إلى تعزيز إرتباطها بالسنة النبوية؛ الارتباط الذي يهديها وينير معالم طريقها في جميع الميادين، وبعبارة أخرى فإن القرآن ليس بدعاً من الكتب التي يتطلب فهم بعض مواضعها من قبل الطلاب وجود المعلم، الذي يسعه ايضاح الحقائق لتلامذته من خلال الرابطة السائدة بينهما. وهنا يبدو هذا السؤال: هل يوجد مثل هذا المعلم الإلهي في الوسط الإسلامي بعد رحيل النبي ﷺ أم لا؟ لا شك. لا بدّ أن يستمر وجود مثل هذا المعلم وإلا بقيت المشاكل على حالها دون حل وبيان. ومن هنا اعتقدت الشيعة بوجود الإمام المعصوم في كل عصر والذي لديه علم الكتاب، وهذا ما يراد بالعترة الواردة في حديث الثقلين المتواتر المروي عن رسول الله ﷺ، والتي أشار إلى امتناع مفارقتها للكتاب إلى يوم القيامة، فقال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^٢.

١. سورة الحشر / ٧.

٢. لقد ورد هذا الحديث بعدة تعابير في مصادر الشيعة والسنة، فراجع احقاق الحق، ٩ / ٣٠٩ - ٣٧٥؛ بحار الانوار ١١٨ / ٢٣، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٥؛ رسالة الثقلين ٩.

٣ - معيار التمييز بين الكبائر والصغائر

هناك اختلاف بين العلماء بشأن الكبائر والصغائر. فقد اعتبرهما البعض من قبيل الأمور النسبية التي تخضع للمقارنة في أهميتها، فما كانت أهميتها كبيرة فهي من الكبائر وما كانت أهميتها صغيرة فهي من الصغائر (وقد نسب المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذا القول إلى الشيعة، ويبدو أنه أراد بعض علماء الشيعة، لأن أغلبهم يرى غير ذلك كما سنشير لاحقاً). وقال البعض الآخر أن الكبيرة كما يتضح من اسمها هي المعصية الكبيرة حقاً والتي تحظى بأهمية لدى الشرع والعقل كقتل النفس وغصب حقوق الآخرين والربا والزنا - ولعل هذا هو الدليل الذي جعل الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تصرح بأن المعيار في الكبائر هو الوعيد بالعذاب الإلهي على ارتكابها، فقد جاء في الحديث المعروف الذي روي عن الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا عليهم السلام أنه قال: «الكبائر التي أوجب الله عز وجل عليها النار»^١ ويتضح ممّا مر معنا أن الصغائر ما ليست لها مثل هذه الأهمية. وقد وردت بعض الأحاديث التي أشارت إلى أن الكبائر سبع وقيل عشرون.

٤ - الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما

لعل هذين الحكيمين يثيران الجدل والذهول لدى أغلب الناس وتعجبهم من كيفية اشتغال القرآن على الآيات الناسخة والمنسوخة (فالمراد بالناسخ والمنسوخ هو الحكم الذي يلغي حكماً آخر من قبيل استقبال الكعبة في الصلاة التي نسخت حكم استقبال بيت المقدس في الصلاة). وقد تزول هذه الدهشة والذهول بالنسبة للناسخ والمنسوخ في القوانين الوضعية التي يشرعها أفراد البشر؛ لأهم قد يسنون اليوم قانوناً ويكتشفون غداً بعض أخطائه فيعمدون إلى نسخه، ولكن ما بال القوانين التي يشرعها الحكيم سبحانه؟
يمكن خلاصة الإجابة على السؤال المذكور في جملة واحدة وهي أن علم الله المطلق لا يعتره التغيير قط، غير أن بعض الموضوعات تتغير بمرور الزمان. على سبيل المثال قد يكون

هناك دواء هو شفاء لمرض اليوم، إلا أنه قد يصبح خطراً ومضاعفاً لذلك المرض بعيد مدّة من الزمان. فالطبيب ينصح المريض باستعمال ذلك الدواء إلا أنه ينسخه فيما بعد ويحظر استعماله على المريض. ويصدق هذا الكلام في الأمور الدينية على القبلة مثلاً. فقد تنطوي الصلاة إلى بيت المقدس يوماً على منافع ومصالح معينة إذا كانت الكعبة بؤرة للأصنام والأوثان واتخذت لنفسها بعداً قومياً بحيث يدعو استقبالها في الصلاة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية إلى بعض المشاكل، في حين تنتفي هذه المشاكل بالصلاة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس. بينما تتحول الكعبة إلى مركز للتوحيد بعيد الهجرة إلى المدينة فتنطوي الصلاة إلى جانبها على مصالح جمّة وتندم الأضرار.

فالواقع هو أن أغلب أحكام النسخ من هذا القبيل؛ وبالطبع فإن مباحث النسخ واسعة جداً لا يسعها المقام ولذلك نكتفي بهذه الإشارة العابرة إلى فلسفة النسخ.^١

٥ - تأريخ الأمم الماضية والأمثال القرآنية

يشغل تأريخ الأمم السابقة ولا سيما أنبياء الله حيزاً مهماً من القرآن الكريم المفعم بالدروس والعبر والتجارب القيّمة التي تحتذيها البشرية في كل عصر ومصر؛ الأمر الذي جعل القرآن يتابع حركة الأنبياء في مختلف السور ويسلط الضوء على تأريخ أحدهم أحياناً (كسرده لوقائع النبي إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليه السلام) ويكرر قصته في أكثر من سورة، وبالطبع لا نرى كلمة التكرار مناسبة هنا حيث إن القرآن يعرض لزاوية من زوايا هذه القصص في كل مرة، فقد قال عز من قائل: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ»^٢. وأحياناً أبعد من ذلك وإضافة إلى التأريخ يدعو البشرية لتأمل آثار الأقوام السابقة والذي يعتبر بجد ذاته نوعاً من أنواع التأريخ التكويني والحي «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ»^٣.

١. راجع تفسير الأمثل ١/ ٣٩٠ ذيل الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

٢. سورة يوسف / ١١١.

٣. سورة الروم / ٤٢.

وإلى جانب القصص والتأريخ فقد درج القرآن على استعمال الأمثال بغية هداية الناس؛ وقد تكون هذه الأمثال نماذج حية واقعية مستقاة من حياة بعض الأفراد تارة، وتارة أخرى تشبيهات بالأمور الطبيعية في عالم النبات والحيوان وما شاكل ذلك. وقد انطوت هذه الأمثال على جمالية وروعة في الدقة والتصوير بحيث غدت من معاجز القرآن التي يقود التأمل فيها والتدبر إلى العودة إلى العقل والرشد ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^١.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى شمولية القرآن الكريم مؤكداً على تدبير قصصه وأمثاله.



القسم الخامس عشر

«وَفَرَضَ عَلَيْنَا حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ يَرُدُّونَهُ وُرُودَ الأَنْعَامِ وَيَأْتِيهِونَ إِلَيْهِ وُلُوءَ الْحَمَامِ وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعِظَمَتِهِ وَإِدْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحَرِّزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتَجَرِّ عِبَادَتِهِ وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلَامِ عِلْماً وَلِلْعَائِدِينَ حَرَمًا فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْنَا وَفَادَتَهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾».

۸۵۰۳

الشرح والتفسير

أهمية فريضة الحج

لا يعلم أي الأحكام الدينية أشار إليها الإمام عليه السلام بعد بيانه لخصائص القرآن، لأننا نعلم بأن السيد الرضي - جامع نهج البلاغة - لم يروم ذكر خطبه عليه السلام بصورة كاملة بقدر ما كان يختار منها بعض القطوف، مع ذلك فإن التأكيد على فريضة الحج من بين سائر الفرائض الإسلامية المختلفة والفردية وفي خطبة تكفلت بالحديث عن بداية نشوء الخليقة والمراحل المختلفة لسير الإنسان منذ انطلاقة حتى انبثاق الدعوة الإسلامية بظهور خاتم الأنبياء محمد المصطفى عليه السلام إنما يتضمن معناً ومفهوماً خاصاً، كما يفيد أن حج بيت الله الحرام يمثل عصارة الفكر الإسلامي وشموليته للمسائل المهمة الفردية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والسياسية، وهذا ما سنتطرق إليه في آخر البحث، ونحوض الآن في تفسير هذا القسم من الخطبة:

فقد أشار الإمام عليه السلام في البداية إلى مسألة وجوب الحج، حيث اعتمد عبارات في غاية الروعة واللطافة بغية حث المسلمين على أداء هذه الفريضة الإلهية العظيمة، فقال عليه السلام: «وفرض عليكم حج بيته الحرام» ثم كشف عن صفة هذا البيت بقوله «الذي جعله قبلة للأنام»^١ فهي القبلة التي يتجه إليها المسلمون في صلواتهم اليومية على أنها رمز وحدة جميع المسلمين الذين ينظمون صفوفهم في الاتجاه إليها. ثم يتطرق عليه السلام إلى وصف الشعائر والمراسم التي يؤديها عشاق الحق فيشبههم عليه السلام بالعطاش الذين يردون على الماء العذب والطيور التي تبحث عن الملاذ «يردونه^٢ وورود الانعام ويألّهون^٣ إليه ولوه الحمام^٤».

حقاً أن من أدرك معنى الحج فإنه يرد البيت على هذه الشاكلة فتكاد روحه وقلبه تسبقه إلى البيت فيعيش الوفادة عليه بكل كيانه ويستعيد به من شر الشياطين وأهواء النفس وتبعات الذنوب فيلبي دعوة الحبيب ويسعى بين الصفا والمروة ويخلق في أجواء الكعبة التي تفيض بالمعنويات. أمّا التشبيه بالانعام فلعله إشارة إلى التواضع المطلق الذي يستشعره الحجاج تجاه بيت الله أو حالة الاضطراب حين الاقبال على الكعبة والطواف، أمّا التعبير بالحمام فذلك لأنه يرمز إلى الحب والسلام والوئام.

جدير بالذكر أن مراسم الحج تستهل بالاحرام والتلبية التي تفيد اجابة الدعوة الإلهية، فالله سبحانه قد دعى زوار بيته الحرام للضيافة وقد تقاطر عليه الضيوف بقلوب مفعمة بالعشق لتعيش القرب الإلهي وهم يلمسون معاني الورع والتقوى والانس بالمحبوب. ثم

١. «أنام» فسرها البعض بالناس، والبعض الآخر بالموجودات العاقلة التي تعيش على الأرض من الإنس والجن. وعلى ضوء التفسير الأول يصبح مفهوم العبارة اختصاص القبلة بالناس، بينما تكون قبلة الانس والجن حسب التفسير الثاني. وقيل هي مشتقة من مادة ونام بمعنى الصوت ثم اطلقت فيما بعد على جميع الكائنات الحية ولا سيما الانس والجن (تاج العروس، مادة أنم).

٢. «يردون» من مادة «ورود» بمعنى دخول الحيوانات على حياضها عند عطشها ثم اطلق على كل دخول لمكان.

٣. «يألّهون» من مادة «ألّه» ألوهياً بمعنى العبادة. بناء على هذا يألّهون بمعنى يعبدون، كما قيل إن مادته تعني الحيرة؛ لأن الإنسان يتحير حين يفكر في ذات الله وصفاته. وقيل أصله (وله) وقد استدلّت واوه بالهمزة (ويؤيد هذا المعنى ورود كلمة الولوه في العبارة بصيغة المفعول المطلق) والوله بمعنى التضرع بلهفة.

٤. «الحمام» بالفتح بمعنى الطيور والحمام بالكسر بمعنى الموت، وقد أريد المعنى الأول في العبارة (أي الحمام بالفتح).

خاض ﷺ في جانب من الجوانب الفلسفية لشعيرة الحج فقال: «وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته». فأعمال الحج من مناسك ومراسم إنما تشتمل على أفعال غاية في التواضع لعظمة الله قلما نجد نظيرها في سائر الشعائر العبادية. وهذا ما يتجسد بوضوح في الاحرام والتخلي عن اللباس الفاخر والاكتفاء بشياب الاحرام البيضاء غير الموصولة والطواف في الكعبة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف على جبل عرفة والتوقف في منى والمشعر الحرام ورمي الجمرات والتقصير ما إلى ذلك من الأعمال التي تحطم ما تعيشه النفس البشرية من غرور وكبر. ثم يشير ﷺ إلى أن الوقوف في تلك المشاهد المشرفة والوفادة على البيت لمن المفاخر الكبرى والنعم الجزيلة التي يمن الله بها على بعض عباده فيقول ﷺ: «واختار من خلقه سماعاً^١ أجابوا إليه^٢ دعوته وصدقوا كلمته».

فقد ورد في بعض الأحاديث الإسلامية أن الله أمر خليله إبراهيم ﷺ لما فرغ من بناء الكعبة بدعوة الناس إلى الحج.

فقال ﷺ: إن صوتي لا يبلغهم. فجاءه الخطاب: إنما عليك دعوتهم وعلينا الابلاغ. فارتقى الخليل ﷺ المقام الذي كان ملاصقاً للكعبة آنذاك فجعل اصبعيه في أذنيه وقد استقبل الشرق والغرب فنادى بأعلى صوته: «أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم» فناداه من خلف البحار السبع ما بين المشرق والمغرب بل حتى النطف في قرارات النساء وأصلاب الرجال ممن سمع صوته «ولبيك اللهم لبيك»^٣. كما ورد في الروايات أن من لبي حج بعدد تليبيته ومن لم يلب لم يحج^٤ ثم يواصل الإمام ﷺ حديثه عن فلسفة الحج وآثاره وبركاته فيقول: «ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه».

ولعل التعبير بمواقف الأنبياء يشير إلى كثرة الأنبياء من بعد إبراهيم بل حتى قبله طبقاً لبعض الروايات ممن حجوا البيت^٥ أمّا العبارة التي صرّحت بتشبههم بالملائكة المطيفين

١. «سماع» على وزن طلاب جمع «سامع» كطلاب جمع طالب.

٢. ليس هنالك من فارق يذكر بشأن الضمير في (إليه) إن كان عائداً لبيت الله أو إلى لفظ الجلالة.

٣. نور الثقلين ٤٨٨/٣، ح ٧٤.

٤. شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ٢٤٩/٢ نقلاً عن الكافي؛ بحار الأنوار ١٨٧/٩٦.

٥. ورد في الأحاديث أن من الأنبياء الذين حجوا البيت هم آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويونس وعيسى.

بعرشه، فقد جاء في الخبر الصحيح أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت. ^١ ثم قال عليه السلام: «يحرزون^٢ الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته» ويألها من تجارة عظيمة مرجحة تلك التي يتطهر فيها الإنسان من جميع ذنوبه إذا أتى بالعمل على وجه الصحة؛ بل ورد أنه يعود كيوم ولدته أمه ولا ذنب عليه كما صرحت بذلك بعض الأحاديث الإسلامية.

ثم قال عليه السلام: «جعلته سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائدين حرماً».

فالواقع هو أن الكعبة تمثل الراية الإسلامية الخفاقة على الدوام؛ الراية التي يتمحور حولها المسلمون من أجل تحقيق استقلالهم ومجددهم وعزتهم. وكل عام تنفخ روح جديدة بمشاهدتها في جسد المسلمين ويجري دم جديد في عروقهم. وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من ذكر هذه الفضائل حتى يشير إلى وجوب حج البيت فيقول: «فرض حقه وأوجب حجه وكتب عليكم وفادته^٣ فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

تأملان

هنالك عدّة مسائل ومباحث متعلقة بالحج لا يمكن استيعابها في هذا البحث، وعليه سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمور التي تتمتع بأهمية كبيرة:

١ - نبذة تاريخية عن الكعبة

للكعبة - التي يطلق عليها اسم بيت الله الحرام أيضاً - تأريخ عريق يعود إلى زمان آدم عليه السلام

^١ وسليمان ونبى الإسلام عليه السلام (شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي ٢٥٢/٢).

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٤/١.

٢. «يحرزون» من مادة «الاحراز» بمعنى الحفظ والادخار والخزن. ومن هنا يطلق الحرز على الموضوع المحفوظ كالصندوق والمخزن وما شابه ذلك.

٣. «وفادة» بمعنى البزوغ والطلوع، ثم أصبحت بمعنى النزول والدخول، كما يصطلح بالوفد على الهيئة والجماعة التي ترد على دولة أو زعيم أو فئة ذات مكانة.

حسب ما أشارت الروايات^١ فأدم عليه السلام هو أول من بناها وطاف حولها، ثم اندرست في الطوفان الذي عم الأرض زمان نبي الله نوح عليه السلام، ثم أعاد بنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل - على ضوء صريح الآيات القرآنية كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...﴾^٢ - فأديا مراسم الحج حيث أصبحت الكعبة أول مركز للتوحيد للإنسانية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^٣. وكما أشرنا سابقاً وعلى ضوء بعض الروايات الصحيحة أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت، وإن البيت أول من عتق من الماء^٤ كما ورد هذا المعنى في قصة دحو الأرض. وقد تظافرت الروايات - في نهج البلاغة وغيره من المصادر الإسلامية - التي كشفت عن عظمة الكعبة ومدى أهميتها، ومنها ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها - ثم أوما بيده نحو الكعبة - ولا أكرم على الله عز وجل منها» بل ورد في مقدمة هذا الحديث أن النظر إليها عبادة^٥ فالكعبة هي رمز الوحدة الإسلامية التي تتطلع إليها الجماعة الإسلامية في العالم أجمع. جدير ذكره بشأن أهمية البيت أن زرارة - من كبار صحابة الإمام الباقر والصادق عليه السلام - دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال: (جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتينني). فرد الإمام قائلاً: «يا زرارة بيت يحج إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفتي مسأله في أربعين عاماً»^٦. فالذي يستفاد من هذا الحديث أن الملائكة والمخلوقات التي عاشت على الأرض قبل آدم عليه السلام كانت تحج البيت. ففي الحديث أن آدم لما قضى مناسكه وطاف بالبيت لقينه الملائكة، فقالت: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

١. بحار الأنوار ١٢/٨٦.

٢. سورة البقرة ١٢٧.

٣. سورة آل عمران ٩٦.

٤. شرح نهج البلاغة للخوئي ٢/٢٣٥.

٥. فروع الكافي ٤/٢٤٠ (باب فضل النظر إلى الكعبة).

٦. وسائل الشيعة ٧/٨ (باب وجوبه على كل مكلف مستطيع).

٢ - فلسفة الحج

لقد تضمنت عبارات الإمام عليه السلام إشارات عميقة لفلسفة الحج وما ينطوي عليه من أسرار. إلى جانب ذلك فقد وردت الروايات التي صرّحت بمثل هذا المعنى، والذي يخلص إليه من مجموعها أنّ هذه المناسك العظيمة تشتمل على أربعة جوانب هي:

الجانب الأخلاقي والعبادي، الجانب السياسي والاجتماعي، الجانب الثقافي والجانب الاقتصادي.

أما الجانب الأخلاقي والعبادي الذي يمثل أهم جوانب فلسفة الحج بفضل تنبيهه لتربية النفس وتهذب الأخلاق والتحلي بالورع والتقوى والاخلاص. حيث صرّحت الروايات الإسلامية بشأن من يحج البيت «يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»^١. والرواية بدورها دليل واضح على مدى التأثير الذي يلعبه الحج في النفس الإنسانية وتنقيتها من الذنوب والمعاصي التي دنست عفتها طيلة العمر وهذه أعظم فائدة يصيبها الوافد على بيت الله. ولو التفت الحاج إلى أسرار المناسك التي يؤديها والشعائر التي يؤتي بها فان كل خطوة ستجعله أكثر قرباً من الله ليرى مولاه حاضراً في كل مكان فهو معبوده الحق الذي لا يفارقه طرفة عين. أجل سيعود إلى الحياة من جديد كيوم ولدته أمه.

ولا غرو فن أدرك الحج بمعناه الحقيقي سيشعر بآثاره الروحية والمعنوية إلى آخر عمره، ولعل هذا هو السبب في وجوب الحج مرة واحدة طيلة العمر.

وأما على صعيد الجانب السياسي والاجتماعي فإنّ الإتيان بمراسم الحج على ضوء التعاليم الإسلامية والحج الإبراهيمي الذي دعي الناس لامتثاله إنّما يؤدي إلى عزة المسلمين وتحكيم دعائم الدين وارساء أسس الأخاء والوحدة وتنامي شوكة الدين وصلابته والوقوف بوجه الأعداء والمستكبرين وعلان البراءة من المشركين والملحدّين. كما يمنح هذا المؤتمر الإلهي العظيم الذي يعقد كل عام في البيت العتيق المسلمين الفرصة الذهبية في إعادة بناء أنفسهم وتقوية أواصر الاخوة فيما بينهم وحرص صفوفهم بما يحبط مؤامرات أعداء الدين وافشال

خطط الشياطين، وما يؤسف له أن المسلمين لم يقفوا لحد الآن على عظمة الحج ويدركوا كنهه وإلا لتمكنوا - في ظل هذه الشعيرة - من إسداء أعظم الخدمات للإسلام وتسييد أوجع الضربات إلى ركائز الشرك والكفر؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في الروايات الإسلامية ولا سيما تلك التي وصفته: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»^١. وكان أعداء الإسلام أدركوا الدور العظيم الذي يلعبه الحج على صعيد المسائل السياسية فارسوا أقصى ردود الفعل تجاهه بغية الحؤول دون تحقيق أهدافه. فهذا «غلاستون» - رئيس وزراء بريطانيا - يخاطب مجلس العموم بأن المسيحية مهددة بالخطر وسنعجز عن إصلاح العالم (طبعاً ليس الإصلاح من وجهة نظرهم سوى الاستعمار) مادام اسم محمد يذكر صباح مساء من على المآذن والقرآن هو دستور حياة المسلمين، الذين يقيمون مراسم الحج كل عام بهذا الشكل^٢. بل قيل أن غلاستون اختتم خطابه لمجلس العموم بقوله: يجب عليكم يا ساسة المسيحية أن تزيلوا اسم محمد من آذان المسلمين فتنسونهم ذكره وتحرقون القرآن وتخربون الكعبة. وهناك جملة أخرى معروفة أطلقها أحد زعماء النصرانية في الغرب قائلاً: «الويل للمسلمين إن غفلوا عن معنى الحج، الويل لمن سواهم إن فهموا معناه». وبالبداهة أنهم لا ينوون من هذا الاحراق ظاهر القرآن، كما أنهم لن ينجحوا في تخريب الكعبة، غير أنهم يستطيعون وفي ظل غفلة المسلمين من تحقيق مآربهم بالقضاء على أحكام الدين وافراغ الحج من محتواه الأصيل.

وأما بالنسبة للجانب الثقافي وعلى ضوء الأخبار الإسلامية فإن هذه المراسم سوف تؤدي إلى التعريف بالثراء الجم لرسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام وستكون الفرصة مؤاتية بفضل حضور علماء المسلمين ومفكريهم ومن كافة الاصقاع - بما فيهم كبار علماء الدين وكبار الأدباء والفنانين والمتقنين والكتاب الذين يتوافدون على البيت كل عام - لتبادل الأفكار والثقافات والانفتاح على تجارب الآخرين بما يسهم في إحياء مفاهيم الدين ونشر تعاليم الرسول الكريم ﷺ والهداء الميامين من آله الطيبين الطاهرين.

وأخيراً الجانب الرابع الذي يشير إلى الفلسفة الاقتصادية للحج. فقد وردت الروايات

١. فروع الكافي ٤ / ٢٧١ (باب أنه لو ترك الناس الحج لجاءهم العذاب).

٢. دليل الحرمين الشريفين ١ / ٥٤ (نقلاً عن قول القمر).

والأخبار التي تفيد أن من معطيات الحج تفعيل القدرة الاقتصادية للمسلمين وانقاذهم من الأزمات المالية التي تعصف بحياتهم وحياة مجتمعاتهم. ولعل البعض لا يرى من رابطة من قريب أو بعيد بالجانب الاقتصادي، إلا أن أدنى تأمل لهذه القضية سيكشف بوضوح بأن الخطر العظيم الذي يهدد كيان المسلمين إنما يتمثل اليوم بالتبعية الاقتصادية للأجانب، فما الضير في إقامة المؤتمرات والندوات الاقتصادية من قبل المعنيين والمتخصصين في تلك الديار المقدسة بصفتها مراسم عبادية تهدف إلى انتشار المسلمين من محالب الفقر والتبعية وطرح المشاريع والبرامج الاقتصادية التي من شأنها معالجة الأوضاع المزرية؟ ولا نرى هذه القضية من طابع فردي لتعالى الأصوات بالانشغال بزخارف الدنيا وحطامها الزائل، بل الهدف أنبل وأسمى حيث يكمن في خدمة الإسلام والمسلمين في هذا الجانب الحيوي.^١ ويتضح من قوله ﷺ: «ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته» مدى الأهمية التي أولاها الإمام ﷺ للحج بيت الله الحرام؛ ولا عجب فهي عبادة اجتماعية عامة تقسم في طياتها الدنيا والآخرة والأخلاق والمعنويات وعزة المسلمين وتنامي شوكتهم.

طبعاً واسع وشامل البحث المتعلق بالحج وأبعد مما ذكرنا إلا أننا سنستغرق أكثر في هذا الموضوع حين شرحنا لسائر خطب الإمام ﷺ الواردة بهذا الشأن، ونكتفي هنا بهذا المقدار المتواضع.



١. لقد أشارت الرواية التي نقلها هشام بن الحكم عن الإمام الصادق ﷺ بصورة إجمالية إلى فلسفة هذه الجوانب الأربعة للحج (وسائل الشيعة ٩/٨) كما يمكن لمن أراد المزيد أن يراجع التفسير الأمثل / ١٤ بشأن فلسفة الحج.



الخطبة



بعد انصرافه من صفين وفيها حال الناس قبل البعثة وصفة آل النبي ﷺ ثم صفة قوم آخرين.

القسم الأول

«أَحْمَدُهُ اسْتِثْمَامًا لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِسْلَامًا لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصَامًا مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَاسْتَعِينُهُ فَاقَّةً إِلَى كِفَايَتِهِ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ وَلَا يَبُلُّ مَنْ عَادَاهُ وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وَزَنَ وَأَفْضَلُ مَا خَزَنَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُمْتَحَنًا إِخْلَاصُهَا مُعْتَقَدًا مُضَاصُّهَا نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَدًا مَا أَبْقَانَا، وَنَدَخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالذِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعِلْمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ وَاخْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفًا بِالْمَثَلَاتِ».

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على خمسة مضامين (تبحث في أربعة أقسام):

المضمون الأول في حمد الله والثناء عليه والملاذ بفضلله وكرمه ورحمته، والثاني في الشهادة لله بالوحدانية ومعطيات الإيمان بالتوحيد، والثالث في الشهادة بالنبوة والعبودية إلى جانب التذكير بفضائل النبي ﷺ واطّلاع العصر الجاهلي والملات والخطوب التي شهدتها المجتمع الإسلامي آنذاك والجهود التي بذها الرسول الكريم ﷺ من أجل مجابهة تلك الخطوب وتحمل المصاعب والويلات بهذا الشأن، والرابع في منزلة أهل البيت وعلو مقامهم وسمو مكاتبتهم واللجوء إليهم في أمور الدين، والمضمون الأخير الذي يواصل فيه المعنى المذكور بصيغة أخرى محذراً الأمة من مقارنة أنفسها بهم، متطرقاً إلى عدم إمكانية تشبه أي من الأفراد بهم ومستعرضاً لفضائلهم والاعراب عن الارتياح لعودة الحق السليب لأهله.

ظروف وملابسات الخطبة

كما مر علينا سابقاً فقد صرّح المرحوم السيد الشريف الرضي أنّ الإمام ﷺ أورد هذه الخطبة بعد انصرافه من صفين.

ومضامين الخطبة ومعانيها تبدو منسجمة والمعنى المذكور؛ الحقيقة التي تجسدت في استعراض حياة الأمة في العصر الجاهلي حيث يحذرنا من مغبة تكرار الجاهلية الأولى والحؤول دون تمكن من تبقى من رواد تلك الجاهلية الذين كانوا يشكلون غالبية معسكر الشام في صفين من تحقيق أطماعهم ومآربهم. كما يؤكد ﷺ على ضرورة تمسك الأمة بأهل بيت النبي ﷺ بغية التحصن من الأخطار التي كانت تهدد الإسلام آنذاك، فهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردها علي الحوض» فالنجاه بالتمسك بالكتاب والعتره معاً.

ومن هنا يتضح بطلان ماذهب إليه ابن أبي الحديد بشأن صدور الخطبة حيث قال: واعلم أنّ هذه الكلمات وهي قوله ﷺ: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله» إلى آخرها يبعد عندي أن

تكون مقولة عقيب انصرافه ﷺ من صفين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وما تم لمعاوية عليه من الاستظهار، وما شاهد في عسكره من الخذلان، وهذه الكلمات لا تقال في مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكون قيلت في ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأن الرضي رحمه الله تعالى نقل ما وجد، وحكى ماسم والغلط من غيره، والوهم سابق له، وما ذكرناه واضح.^١

وقد صرح بعض العلماء بأن هذا الكلام ينبغي ألا يقال بشأن فرد يعتبر علماً في العلم وبحراً من الوقار واسطورة في الجهاد والمقاومة. فإن فرداً مثل علي ﷺ لا تهزه هذه الحادثة وأنى للاضطراب والقلق من سبيل إلى هذه الروح الملحمية والأفكار الربانية التي كان يتحلى بها علي ﷺ. بل بالعكس وكما أوردنا سابقاً فإن الإمام ﷺ يحذر - في هذه الخطبة - الأمة من الاستسلام إلى الدعايات السامة والمشاريع الشيطانية التي كان يمارسها ولاية الشام ومن مغبة العودة القهقري إلى العصر الجاهلي والصمود في الذود عن الحق بعد أن عاد إلى أهله، وعليه فلا يبدو رأي ابن أبي الحديد صائباً في أن معاوية هو الذي انتصر في الميدان ولا سيما قول الإمام ﷺ: «الآن إذا راجع الحق إلى أهله» وذلك للأسباب التالية:

أولاً: أن معاوية لم يكسب تلك المعركة قط، غاية ما في الأمر أنه نجى من هزيمة منكرة بفعل خدعة عمرو بن العاص فما زال الإمام ﷺ يرى الحق (هو وأهل بيته) ويحذر الأمة من التغابي عنه إلى جانب الذود عنه وعدم زحزحته عن أهله.

ثانياً: إن التحكيم الغادر لعمرو بن العاص - وخلافاً لما يراه الكثيرون - لم يحصل في صفين بحضور الإمام ﷺ بل وقع بعيد بضعة أشهر، والطريف أن ابن أبي الحديد قد صرح بهذا المعنى في موضع آخر من شرحه. ونخلص مما سبق إلى أن الدليل الذي حاول أن يتمسك به ابن أبي الحديد والذي تمثل بالجملة الأخيرة في الخطبة لإثبات صحة مدعاه في أن الخطبة صدرت بعد موقعة صفين، هو دليل باطل وشاهد عاري من الصحة.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/١٤٣.

الشرح والتفسير

الركنان الأساسيان في الإسلام

استهل الإمام عليه السلام الخطبة - كسائر خطبه - بحمد الله والثناء عليه، إلا أنه يكشف عن الدوافع الثلاث لهذا الحمد والثناء:

الأول الاستزادة من النعم الإلهية، واطهار الاستسلام والخضوع للعزة الإلهية والقدرة المطلقة، وأخيراً الاعتصام بالطافه من المعاصي. فقد قال عليه السلام: «أحمده استتماماً^١ لنعمته واستسلاماً^٢ لعزته واستعصاماً^٣ من معصيته». لا بد من الالتفات هنا إلى أن مفهوم الحمد أشمل من الشكر، وبعبارة أخرى فإن الشكر ممزوج بالمدح وهذا يدعو من جانب لاستزادة النعم الإلهية كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^٤ ويشكل القيام بوظيفة العبودية من جانب آخر وهذا هو التسليم مقابل عزة الله وأخيراً يوجب عنايات الله وألطافه الغيبية في حفظ الإنسان وعصمته من الذنوب والمعاصي. ثم يستعين عليه السلام بالله بعد حمده والثناء عليه موعزاً ذلك إلى حاجته إليه سبحانه وعدم غناه عنه «واستعينه فاقه إلى كفايته». أجل إذا رأى العبد نفسه محتاجاً لتلك الذات الغنية وصاحب الكمال المطلق فإنه يلجأ إلى الحق سبحانه ليشمله بفضله ورحمته ويعينه في كافة شؤون حياته. آنذاك يشير إلى دليل آخر لهذه الاستعانة فيقول: «أنه لا يضل من هداه ولا يئث^٥ من عاداه ولا يفتقر من كفاه». نعم فقدرتة على درجة من القوة والعظمة بحيث لا يسع أحد الوقوف أمامها، وإن علمه ثاقب ليس للخطأ من سبيل إليه. وهناك احتمال أيضاً أن الدوافع الثلاث دليل آخر على الحمد والثناء ودليل على الاستعانة أيضاً.

ثم يشير في آخر العبارة إلى دليل آخر يوجب الحمد لله والثناء عليه «فانه أرجح ما وزن

١. «استتمام» قد تعني الاتمام أو المطالبة بالاتمام، وقد أريد بها هنا المعنى الثاني ويؤيد ذلك الجملة اللاحقة.

٢. «استسلام» بمعنى الانقياد والتسليم، وعناها بعض اللغويين بموافقة الظاهر للباطن بالنسبة للشيء والانقياد من لوازمها.

٣. «استعصام» بمعنى المطالبة والحفظ ودفع الأمور المكروهة.

٤. سورة إبراهيم / ٧.

٥. «يئث» من مادة «وأل» على وزن وعد بمعنى النجاة واللجوء والعودة.

وأفضل ما خزن». والواقع هو أن الفوائد والآثار التي وردت في العبارات السابقة إنما تتعلق بهذا العالم، بينما ترتبط الفوائد الواردة في العبارتين الأخيرتين بالعالم الآخر وزاد المعاد يوم القيامة، وهكذا يكون حمد الله والثناء عليه سبب النجاة في الدنيا والآخرة، وما أروع عبارات الإمام عليه السلام المقتضية التي تضمنت تلك المعاني العميقة. فلا يبدو من العبث أن يصرح ابن أبي الحديد حين يتناول بالشرح هذه الخطبة فيذهل للكنايات والبديع وعذوبة التعبير الذي تضمنته عبارات الإمام عليه السلام قائلاً: «فسبحان من خصه بالفضائل التي لا تنتهي السنة الفقهاء إلى وصفها وجعله إمام كل ذي علم وقدوة كل صاحب خصية».

ثم يتطرق عليه السلام إلى الشهادة بالوحدانية بصفاتها تشكل مصدر جميع الفضائل والكلمات: «واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وتمسك الإمام عليه السلام بالتوحيد على أنه دعامة كافة العقائد والأفكار الطاهرة والأعمال الصالحة من جانب، ومن جانب آخر ليلتفت من يرى الوهيته عليه السلام إلى خطأ اعتقاده. ثم يضيف الإمام عليه السلام بأن شهادته هذه شهادة حقيقية تستند إلى الاخلاص والتقوى وليست لقلقة لسان «شهادة ممتحننا^١ اخلاصها معتقداً ومصاصها^٢». فهي شهادة حقة دائمة مادامت الحياة مدخرة حيث الأهوال والخطوب «فتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لاهاويل^٣ ما يلقانا».

فالإمام عليه السلام يعلن عن عمق إيمانه وإذعانه بحقيقة التوحيد في كافة شؤون الحياة وعلى جميع المستويات؛ الحقيقة التي تجسدت في سيرته عليه السلام والمشهودة في كافة جوانب حياته حتى لم يتطرق الشرك إليه طرفة عين، فلم يسجد لصنم قط وكانت سكناته وحركاته في ظل التوحيد البعيد عن أدنى شرك خفي. ثم يذكر عليه السلام أربعة دعائم لهذا الركن الركين في الإسلام «فانها عزيمة الإيمان وفاتحة الاحسان ومرضاة الرحمن ومدخرة^٤ الشيطان».

١. «ممتحن» من مادة «محن» على وزن وهن بمعنى الاختبار والامتحان، إلا أن بعض أرباب اللغة قالوا أصلها استخراج التراب حين حفر البشر.

٢. «مصاص» من مادة «مص» على وزن نص بمعنى التدوق والامتصاص ومن هنا اصطلاح بالمصاص على عصاره الشيء الممتص حين وروده بدن الإنسان.

٣. «الاهاويل» جمع أهوال «وهول» بمعنى الخشية والخوف.

٤. «مدخرة» من مادة «دخر» بمعنى الطرد والابتعاد.

سنرى في الأبحاث القادمة أن الإيمان بأي من أصول الدين إنما هو إيمان أجوف مالم يستند إلى التوحيد، كما أن الصالحات بأجمعها إنما تستقي من حقيقة التوحيد، ومن هنا كان مرضاة الله ومدحرة للشيطان، لأن الوسيلة المهمة الهدامة للشيطان إنما تتمثل بالشرك سواء كان جلياً واضحاً أم مخفياً مستتراً.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بفاثحة الاحسان هو الأجر والثواب الإلهي الذي التوحيد مفتاحه، غير أن التفسير الذي ذكرناه يبدو أكثر صحة من هذا. وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذه الشهادة الخالصة الحققة حتى يردفها بتمتمتها التي تتمثل بالشهادة بالنبوة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». نعم فهو عبد الله قبل أن يكون رسوله، فليس من مجال لبلوغ مقام النبوة دون العبودية، وفي هذا رد على أولئك الذين قد يبالغون في مقام الرسول ليلبغوا درجة الإلهوية. آنذاك يصف رسالة ووظيفة النبي فيقول:

«أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور^١ والكتاب المسطور والنور الساطع^٢ والضياء اللامع والأمر الصادع^٣». والواقع هنالك عدّة تفاسير بشأن هذه العبارات الست العميقة المعاني والأمور التي تشير إليها. منها أن المراد بالدين المشهور هو الإسلام الحنيف والعلم المأثور المعجزات والكتاب المسطور القرآن الكريم والنور الساطع علوم النبي صلى الله عليه وآله والضياء اللامع سنته صلى الله عليه وآله والأمر الصادع - بقريظة الآية الشريفة ٩٤ من سورة الحجر ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^٤ - ترك التقية وازهار التوحيد في مقابل المشركين والكافرين. كما يحتمل أن يكون المراد بالضياء اللامع والنور الساطع تبين القرآن الكريم، فالقرآن مصدر اشعاع أفكار المجتمعات الإنسانية. ثم يخوض الإمام عليه السلام في الهدف النهائي لرسالة النبي صلى الله عليه وآله والقرآن والمعجزات والقوانين والأحكام الشرعية، فيوضح أهداف النبي صلى الله عليه وآله في ثلاث محاور: ازالة

١. «المأثور» من مادة «أثر» بمعنى العلامة الباقية من الشيء ولذلك يطلق على العلوم المتبقية من الماضين «علم المأثور».

٢. «الساطع» من مادة «سطوع» بمعنى الانتشار، فالنور الساطع هو النور الواسع المنتشر كما ورد بمعنى المرتفع.

٣. «صادع» من مادة «صدع» بمعنى الشق في الجسم الصلب والمعكم ثم أطلق على كل شيء قاطع.

٤. سورة حجر / ٩٤.

الشبهات بالأدلة والبراهين واستقطاب الخصوم من خلال إرشادها بالآيات البيّنات وتحذيرهم من العقاب الأليم ان هم تمادوا في غيهم وعصيانهم «إزاحة^١ للشبهات واحتجاجاً بالبيّنات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلات^٢».

يمكن أن يكون المراد من قوله «إزاحة الشبهات» الحقائق التي تعززها البراهين والأدلة الربانيّة والتي لا تدع مجالاً لشك أو شبهة، «واحتجاجاً بالبيّنات» المعجزات الحسية بالنسبة لأولئك الذين لا يسلمون سوى للاستدلالات العقلية والتي من شأنها سوقهم نحو الإيمان واليقين، «تحذيراً بالآيات» الوعيد بالعذاب الأخروي «تخويف بالمثلات» الوعيد بالعذاب الدنيوي كما ورد ذلك في بعض الآيات القرآنية كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ»^٣.

تأملان

١- التوحيد ركيزة الصالحات

تعتبر الشهادة لله بالواحدانية من الأصول العقائدية المسلمة بالنسبة لسائر الاصول؛ إلا أنّ هذا استنتاج ساذج لهذا الأصل الإسلامي المهم. فالتعمق في المصادر الإسلامية والتحليلات العقلية يدل على أن التوحيد أصل جار على سائر الأصول والفروع، بعبارة أخرى فإن كافة أصول الإسلام وفروعه تشكل بلورة لمفهوم التوحيد؛ ولا يقتصر هذا الأمر على المباحث العقائدية والعبادية في المسائل الاجتماعية والسياسية والأخلاقية بل تسري روح التوحيد لتحكم جميع المجالات.

فالتوحيد على مستوى الذات والصفات والافعال والعبودية لمن الأمور المسلمة الواضحة ولا تقتصر به على نبيّنا دون سائر الأنبياء بحكم الآية الشريفة «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ

١. «إزاحة» من مادة «زيع» على وزن زيد بمعنى الأبعاد والاقصاء.

٢. «مثلات» جمع «مثله» على وزن عضلة بمعنى البلاء والمصاب الذي يحل بالإنسان فيصبح مثلاً وعبرة للأخرين (مفردات الراغب، تحقيق، الصحاح ومجمع البحرين).

٣. سورة الرعد ٦٧.

رُسُلِهِ^١ وعليه فاننا نؤمن بأن جميع الأنبياء والمرسلين إنما يتفقون في أهدافهم ووحدة رسالتهم وبرامجهم رغم أن بعض الأحكام والمشاريع والبرامج التي تلبس حلا جديدة وتتخذ طابعا حديثا بفعل تطور المجتمعات البشرية وتقدم مسيرتها.

أما بالنسبة للمعاد وعلى ضوء الآية الشريفة «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا»^٢ فإن الجميع سيقف بمفرده يوماً في محكمة العدل الإلهي لينالوا جزائهم من ثواب أو عقاب يتناسب مع طبيعة أعمالهم وفقاً لمعايير إلهية واحدة.

فالمجتمعات البشرية تنتمي إلى جذور واحدة تحكمها أصول ثابتة ومعينة، بل تحكم جميع عالم الوجود. والواقع صحيح أن هنالك تفاوتاً في القوانين الإلهية في الأديان السماوية من حيث آلياتها وتفرعاتها، إلا أن مستقاهها واحد، ومن هنا فاننا نؤمن بوحدة دعوة الأنبياء للمجتمع العالمي الموحد، وأن العالم برمته سيشهد في خاتمة المطاف حكومة العدل الإلهي.

أما على صعيد المسائل الأخلاقية فليس هنالك من يتردد في أن الفضائل الأخلاقية إنما تتبع من التوحيد بينما تتبع الرذائل من الشرك.

وعادة ما يتورط بالشرك الأفراد المرائين وأولئك الذين يصابون بأمراض الحسد والبخل والحرص والتكبر، وإلا فالفرد الذي يعيش توحيد الأفعال بكل كيانه وفي أعماقه ويؤمن بأن العزة والذلة والرزق والحياة والمات والنصر والغلبة لله بيده وحده لا يرى من مسوغ لان يستشعر قلبه معاني الرياء والحرص والبخل والحسد.

وزبدة الكلام فإن التوحيد ليس بمثابة حبة مسبحة بالنسبة لسائر الحبات، بل هو بمثابة الخيط الذي يشد الحبات إلى بعضها البعض الآخر.

ومن هنا يتضح عمق كلمات الإمام عليه السلام بالنسبة لمفهوم التوحيد - في الخطبة - فالتوحيد هو الدعامة الرئيسية للإيمان وانطلاقة الأعمال الصالحة ويستبطن رضى الرحمن وطرده الشيطان، وإذا ما أشرقت شمس التوحيد على جسم المجتمع البشري وروحه فإنه سيتخذ طابعا متبلورا في ظل أشعته الزاهرة. وإذا رأينا أمير المؤمنين ومولى المتقين عليه السلام الذي يمثل

١. سورة البقرة / ٢٨٥.

٢. سورة مريم / ٩٥.

بدوره روح التوحيد لا ينفك عن تكرار التعرض للتوحيد - في خطب نهج البلاغة - وتعليم أتباع مدرسة أهل البيت الاخلاص في التوحيد فأثما يعزى ذلك إلى ضرورة الابقاء على جذوة هذه الشعلة الخالدة متقدة في القلوب وري أرض الحياة بهذه المياه العذبة لتورق ثمار أشجارها وتنضج في ظل صبغة التوحيد الإلهية.

و مما لا شك فيه أن الشهادة بالنبوة والالتفات إلى وظائفها ومسؤولياتها وكتبتها السماوية إنما يعدّ أفضل أرضية خصبة لبلورة حقيقة التوحيد في أعماق كيان الإنسانية.

٢- التوحيد الخالص الذي طبع حياة أمير المؤمنين عليه السلام

كان علي عليه السلام مجسمة التوحيد ومظهره التام قبل أن يدعو الآخرين لهذه الحقيقة الخالصة. لم يسجد لصنم طرفه عين طيلة حياته قط ليلوث صفو روحه غبار الشرك. كان لا يفعل شيئاً إلا ويرى الله فيه وقبله ومعه لا يروم سوى رضاه.

كما وقف كالطود الشامخ يشد أزره ويزود عنه بغية استتباب التوحيد والعبودية. ولا يخفى على أحد موقفه في الخندق ومبارزته لعمر بن العاص، فقد صرعه الإمام عليه السلام وأوشك أن يقتله؛ وقد أصيب جيش الإسلام بالذهول حين رأى الإمام عليه السلام قد انصرف عن قتله (و لعله نهض من عنده وتركه لمدة بعد أن تجول في الميدان) ثم عاد إليه وقتله.

فلما سئل عن علة ذلك قال عليه السلام: «قد كان شتم أمي وتفل في وجهي فخشيت أن أضربه لحظ نفسي فتركته حتى سكن ما بي ثم قتله في الله»^١ وقد وقف بكل قوة تجاه بعض أصحابه الذين اعترضوا عليه بالتسوية في العطاء من بيت المال قال: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله»^٢ ولما كان يقف للصلاة كان يستغرق في صفات الله وجلاله وجماله بحيث لم يكن يرى سوى الله ولا يفكر في سواه، حتى ورد في الأخبار أن سهما أصاب رجله في موقعة أحد وكان يصعب سله من رجله فأمر

١. مناقب ابن شهر آشوب، ١١٥/٢ (مستدرک الوسائل؛ ٢٨/١٨ وبحار الأنوار، ٥١/٤١).

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

رسول الله ﷺ سسله حين يقف للصلاة. فلما فرغ ﷺ من صلاته قال لم أشعر بالسهم حين الصلاة.^١ وما أكثر هذه التماذج التوحيدية في حياة الإمام ﷺ.

❦❦❦

١. كتاب «المناقب المرتضوية» تأليف المولى محمد صالح الكشفي الحنفي / ٣٦٤، طبعة بومباي (مطابق نقل احقاق الحق ٨/٦٠٢).

القسم الثاني

«وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ انْجَدَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ،
وَاحْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ فَالْهُدَى خَامِلٌ
وَالْعَمَى شَامِلٌ عَصِي الرَّحْمَنُ وَنَصِرَ الشَّيْطَانُ وَخَذِلَ الْإِيمَانُ فَانْهَارَتْ
دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَقَّتْ شُرُكُهُ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ
فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لِوَاوِهِ، فِي فِتْنٍ
دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِنَتْهُمْ بِأَضْلَافِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهَمَّ فِيهَا
تَائِهُونَ خَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ نَوْمُهُمْ سُهْوَةٌ،
وَكَحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ».

۸۰۰۸

الشرح والتفسير

العصر الجاهلي

يصور الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة والبليغة أوضاع العصر الجاهلي وكأن السامع يشهد عن قرب تلك الأوضاع ويرى نفسه في خضم ذلك العصر ليلمس الفوضى والبؤس والشقاء الذي كان عليه الناس. ولا نرى أنفسنا نبالغ إذا ما قلنا بأن الإمام عليه السلام قد اختصر كتاباً ضخماً بهذه العبارات الموجزة؛ الأمر الذي يعدّ دلالة أخرى على مدى رصانة بيانه وعمق الفصاحة والبلاغة والروعة في التصوير والدقة في التعبير التي تشتمل عليها كلماته وخطبه عليه السلام.^١

١. طبقاً لما ورد آنفاً فإن الراوي في قوله «و الناس في فتن...» حالية أي أن الله سبحانه بعث النبي عليه السلام حين كان

ومن البديهي ألا تتضح عظمة رسالة النبي ﷺ وسمو الخدمات التي أسداها إلى البشرية وحلاوة الإيمان التي حملها الدين الحنيف ما لم تكن هناك صورة واضحة عن الأوضاع السائدة لدى الأقوام السابقة التي سبقت عصر الرسالة وانبثاق الدعوة الإسلامية.

فمن شأن هذه المقارنة أن تميز عظمة مشاريع الأنبياء وبرامج الأوكياء والعباقرة على مدى التاريخ. فقد أشار ﷺ إلى الفتن التي كانت تعصف بالأمة آنذاك بحيث تصدعت عرى الدين وترزعزت أعمدة الإيمان وتلوثت الفطرة وتغيرت القيم وسادت الفرقة بين الناس، فغدوا حيارى قد ضلوا المخرج «والناس في فتن إنجذم^١ فيها حبل الدين وترزعزت^٢ سواري^٣ اليقين واختلف النجر^٤ وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمي المصدر».

فقد تقطعت حبال الدين وغيبت المعارف الدينية الحقة إثر فتن الشياطين ووساوس عبدة الأهواء من جانب، ومن جانب آخر فان الفوضى عمت الأمة وتصادت بين أوساطها حدة الفرقة والاختلاف؛ والانكى من ذلك وفي ظل هذه الظروف لم يكن هناك من سبيل للخروج من المأزق ولا من كهف يؤى إليه؛ الأمر الذي اضطر الناس للبقاء على الانحراف والدنس الذي ساد ذلك المحيط والعموم في مستنقع العفن. والعبارة «حبل الدين» - التي وردت بصيغة المفرد - إشارة إلى وحدة الدين الحق ووحدة المصدر الذي تستقى منه كافة أصول وتعاليم الأنبياء وإن شهدت هذه الأصول والتعاليم بعض الفوارق التي تفرزها طبيعة تقادم الزمان، وهذا ما يجوزه القرآن الكريم على لسان المؤمنين الصادقين بقوله: «لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»^٥ وقوله ﷺ «اختلف النجر» لا يشير إلى الاختلافات التي شهدها العصر

ﷺ الناس على هذه الحالة، إلا أن بعض شراح نهج البلاغة احتملوا أن الواو ابتدائية والعبارة رسمت صورة عن أوضاع الناس في عصر الإمام ﷺ، غير أن هذا الاحتمال لا يبدو صحيحاً والحق هو الاحتمال الأول، رغم أن هذه العبارات يمكن أن تكون تحذيراً للأمة في عصره من العودة إلى عصر الجاهلية بفعل أمراض حب الذات واطاعة الأهواء.

١. «إنجذم» من مادة «الانجذام» بمعنى إنقطع وإنفصل ومن هنا يطلق إسم الجذام على ذلك المرض الذي يصيب الجسم فيؤدي إلى انفصال الأعضاء.

٢. «ترزعزت» من مادة «زعزع» بمعنى تحركت واضطربت، فيقال على سبيل المثال: زعزع الريح الشجرة.

٣. «سواري» جمع سارية العمود والدعامة.

٤. «نجر» على وزن فجر يعني الأصل، كما يعني الإصلاح والشكل والهيئة ومنه اطلق اسم النجار. وقد وردت هذه المفردة في العبارة بالمعنى الأول.

٥. سورة البقرة / ٢٨٥

الجاهلي على أنها إختلافات صورية في تفرعاتها واطيافها فحسب، بل كانت إختلافات أصولية وأساسية جذرية.

بل يمكن القول إن العبارة إشارة إلى معنى يتضمن تزلزل حتى أركان الفطرة الإنسانية والأصول الفطرية التي جبل عليها الإنسان من قبيل التوحيد وعشق الأعمال الصالحة والخيرة؛ أو تغير قيم المجتمع الإنساني وتنكرها حتى عاد لكل معاييرها الخاصة للتعامل مع القضايا؛ الأمر الذي أدى إلى تلك الحالة من الفرقة والتشتت و«تشقت الأمر» يمكن أن تكون إشارة إلى شدة الخلافات الدينية القسوى آنذاك (على أساس أن المراد بهذا الأمر هو أمر الدين) أو إشارة إلى الفرقة والشقاق في كافة الأمور الاجتماعية، سواء الأمور الدينية والدينية والمسائل المرتبطة بالمجتمع والأسرة أو القضايا الاقتصادية أو الأخلاقية.

ويبدو أن المعنى الثاني أكثر إنسجاما والعصر الجاهلي؛ وهنا تكمن الطامة الكبرى حيث يغط الإنسان في هالة من الشك والترديد وإنعدام الإيمان وأنواع الاختلافات والشقاق والفساد والانحراف وليس هنالك من سبيل أمامه للخروج من هذا المأزق حتى يعيش اليأس والقنوط من رأسه إلى أخمص قدمه. وهذه هي الصورة الحقيقية التي رسمها الإمام ﷺ لذلك العصر.

ثم يتطرق ﷺ إلى المعطيات السلبية التي أفرزتها تلك الأوضاع المزرية آنذاك فوصفها ﷺ قائلاً: «فالهدى خامل^١ والعمى شامل، عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان».

من الطبيعي أن يتطلب سبيل طاعة الله نور الهداية من جانب والبصيرة التي تهتدي إلى ذلك النور من جانب آخر؛ فالأمة تتحول إلى رعييل شيطاني تتكالب على الفواحش والردائل شاءت أم أبت إذا إنعدم في وسطها ذلك النور وفقدت تلك البصيرة.

والجدير بالذكر في العبارة «عصي الرحمن» أن الإمام ﷺ قد إختار هنا اسم الرحمن من بين أسماء الله الحسنى في إشارة إلى أنه ورغم الرحمة الإلهية التي عمت الجميع دون إستثناء وأن طاعته أمر فطري وبديهي جبلت عليه النفس البشرية إلا أن هؤلاء العمى البصائر في العصر

١. «خامل» بمعنى الشيء المنسي الذي لا قيمة له.

الجاهلي قد صموا أبصارهم حتى عن رؤية هذه الحقيقة القائمة. ثم يؤكد هذه النتائج المرة التي أصيبوا بها آنذاك فيلخصها عليه السلام قائلاً: «فانهارت دعائمه وتنكرت معالمه ودرست أسبله و عفت شركه^٣» ولعل التعبير بالدعائم إشارة إلى أولياء الله ورواد سبيل الحق أو التعليقات الاصولية للأنبياء.

وقوله إنهارت تعود إلى القضاء على هذه الدعائم أو التعليقات؛ والمعالم ممكن أن تكون إشارة إلى الكتب السماوية السابقة أو التعاليم النبوية، كما أن المراد بالسبل والشرك طرق المعرفة سواء الطرق العقلائية والفطرية أو طريق الوحي والتعاليم السماوية. النقطة الجديرة بالذكر هنا هي أن «الشرك» كما أشرنا سابقاً بمعنى الطريق الرئيسي. فالطرق الصغيرة قد تكون عرضة للاهمال والنسيان في حين ليس الطريق الرئيسي كذلك، مع ذلك ففي مثل هذا المجتمع وحتى الطرق الرئيسية قد فقدت وزالت غايتها في إرشاد المارة. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى أن الأمة وفي ظل هذه الشرائط والأوضاع قد وقعت في حبال الشيطان واسلست له قيادها «أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله^٤».

ولم تكن نتيجة ذلك سوى ما قاله الإمام عليه السلام: «بهم سارت^٥ اعلامه، وقام لواؤه». ثم قال عليه السلام: «في فتن داستهم^٦ باخفاقها^٧ ووطنتهم باظلافها^٨ وقامت على سنابكها^٩». ^{١٠}

والسؤال المطروح هنا: هل هذه الفتن هي تلك التي أشير لها سابقاً أم هي فتن أخرى؛ يبدو أنها الفتن المذكورة آنفاً، غير أن الإمام عليه السلام أشار إلى تفاصيلها الأخرى، حيث يشبه الإمام عليه السلام

١. «انهارت» من مادة «الانهيار» بمعنى الاندساس والزوال.

٢. «درست» من مادة «دروس» بمعنى إندثار آثار الشيء وزوالها.

٣. «شرك» جمع «شركة» على وزن حسنه، وقال البعض جمع أشراك بمعنى الطرق العامة.

٤. «مناهل» جمع «منهل» بمعنى مورد النهي.

٥. «سارت» من مادة «سور» بمعنى الرفع والاعلاء.

٦. «داست» من مادة «دوس» و«دياس» بمعنى الهضم.

٧. «أخفاف» جمع «خف» وهو للبعير كالتقدم للإنسان.

٨. «اظلاف» جمع «ظلف» بالكسر للبقر والشاء وشبههما كالخف للبعير والقدم للإنسان.

٩. «سنابك» جمع «سنبك» على وزن قنفذ بمعنى طرف الحافر.

١٠. يمكن أن تكون جملة «في فتن داستهم» متعلقة بمحذوف تقديره لا والناس في فتن داستهم، كما إحتمل البعض أن الجار والمجرور متعلق بسارت في الجملة السابقة ويبدو الاحتمال الأول أقوى.

فتن الجاهلية بالحيوان الوحشي الذي يركل صاحبه بحافره. والذي يقف على رجله ليدوس بها أدنى حركة تبدو أمامه.

أما تعبيره ﷺ بالسنايك التي تعني طرف الحافر فهي إشارة لطيفة إلى حقيقة مفادها أن هذه الفتن لا تعرف الانكسار وهي باقية في إلقاء ضلالها الوخيمة على الناس (لأن مثل هذه الحيوانات حين تقف على أطراف حوافرها إنما تعلن عن تأهبها لابتداء ردود الفعل العنيفة تجاه كل من يقف أمامها).

و عليه فقد كانت الأوضاع في ذلك الزمان على درجة من التعقيد والوخامة بحيث لم يعد هنالك من أمل في التغلب عليها. وهذا بالذات ما جعل الإمام ﷺ يخلص إلى هذه النتيجة بالنسبة لما عليه الناس في ظل تلك الفتن «فهم فيها تائهون^١ حائرون جاهلون مفتونون». تائهون إشارة إلى أنهم قد ضلوا سبيل الحق بالمرّة حتى نسوا أنفسهم وخسروا ذاتهم. حائرون إشارة إلى الحيرة التي سيطرت عليهم فسلبتهم حتى القدرة على اتخاذ القرار الذي من شأنه إنقاذهم من تلك الفتنة. جاهلون أي أنهم وعلى فرض عزمهم على اتخاذ القرار لنجاتهم فإنّ الجهل والتخبط سوف لن يدعهم يبلغون السبيل السليم.

مفتونون إشارة إلى الأوهام والخيالات وإلّا لا عيب والحيل التي استهوتهم فجعلتهم يرون السراب ماءً والمجاز حقيقة. وقد حصل كل هذا حين كان الناس في خير أرض (في جوار بيت الله الحرام وديار الأنبياء العظام) واسوأ جيران «في خير دار وشر جيران»^٢ وأثر ذلك فقد أصبح «نومهم سهود^٣ وكحلهم دموع». والأدهى من ذلك أنهم يعيشون في مجتمع لا يقيم زنا للعالم بما جعله يفقد قدرته على هدايتهم وإرشادهم بينما يخطئ الجاهل في ذلك المجتمع بمكانة لا يحلم بها «بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم» هنالك أربعة تفاسير أوردتها شراح نهج البلاغة بشأنه قوله ﷺ «في خير دار» فقد ذهب البعض إلى أن المراد بها مكة (بيت الله

١. تائهون جمع تائه بمعنى الضائع.

٢. ذهب البعض إلى أن الجار والمجرور في قوله «في خير دار» يتعلق بمفتونين، والحال أن الانسب أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره «و الناس في خير دار» والجملة حال لعصر الجاهلية والواو في قوله وشر جيران هي واو المعية.

٣. سهود مصدر بمعنى الارق وقلة النوم (الصحاح، المفردات، لسان العرب والمقاييس).

الحرام) (و على هذا الضوء فان العبارات المذكورة وصف لعصر الجاهلية) بينما قال البعض الآخر أريد بها الشام حيث كانت من الأراضي المقدسة ومهبط الأنبياء وأهلها شر جيران؛ أي أصحاب معاوية (إذا اعتبرنا عبارات الإمام عليه السلام واردة بشأن عصره).

الاحتمال الثالث أن يراد بقوله خير دار الكوفة التي كان يقيم فيها الإمام عليه السلام بينما كان أهلها ومن يحيط بها من شر الجيران من قبيل المنافقين والتاكتين الذين لا يلتزمون بالعهود. وأخيراً الاحتمال الرابع أن يكون المراد بها دار الدنيا التي يسكنها أغلب الطالحين والاثمين ويسبوا التفسير الأول هو الأنسب والأصوب حيث ينسجم والعبارات المذكورة سابقاً.

و على ضوء هذا التفسير فان قوله عليه السلام «نومهم سهود» إشارة إلى الفوضى والاضطراب وإنعدام الأمن والمصائب التي عمت عصر الجاهلية، والعلماء أولئك الصلحاء الذين تمحوروا حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والجهال أولئك المفسدون من قريش ومن لف لفهم؛ أمّا على ضوء سائر التفاسير فان المراد الفوضى وإنعدام الأمن في زمان معاوية والمشاكل التي برزت بين العراق والشام آنذاك، وقد ألمحنا سابقاً إلى عدم انسجام هذه التفاسير وروح الخطبة.

والشاهد على ذلك إضافة لما ذكر، ما أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة حيث قال: أنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية وقوله «في خير دار» يعني مكة و«شر جيران» يعني قريشا، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين حكى بالمدينة حالة كانت في مبدأ البعثة فقال «كفنت في خير دار وشر جيران»^١.

أمّا قوله عليه السلام «نومهم سهود وكحلهم دموع» فهو إشارة لطيفة إلى تفاقم الفوضى والاضطراب ومصائب ذلك الزمان بحيث إذا خلدوا ليلاً إلى النوم كان نومهم مضطرباً مشوباً بالخوف والرعب والسهاد، وقد إتسعت هوة الفتن بحيث إكتحلت عيونهم بالدموع التي تحرق أجفانها بدلاً من تزيينها بالكحل.

ومن الطبيعي وفي ظل هذه الاجواء وفي تلك الديار والمجتمعات أن يغيب دور العلماء وتهمل مكانتهم وبالمقابل يبرز الجهال الذين كانوا يمثلون زعماء قريش وكبرائها ليحظوا

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١٣٧.

باحترام الآخرين وتقديرهم بعد أن قلبت الموازين وضاعت القيم.
وأخيراً فهناك احتمال آخر أن يكون المراد بالعلماء هم ذلك النفر القليل من الموحدين قبل بعثة النبي محمد ﷺ من قبيل عبدالمطلب وأبو طالب وقس بن ساعدة ولبيد بن ربيعة وأمثالهم.

صورة الحياة الميتة في العصر الجاهلي

لقد قدم الإمام ﷺ بهذه العبارات القصيرة والعميقة المضامين صورة دقيقة حية عن الأوضاع التي عاشها العرب في العصر الجاهلي بحيث يجد كل من تأملها نفسه في خضم ذلك العصر ليرى بأمر عينه كل تلك الفوضى والقبايح والردائل.

فقد عكس الإمام ﷺ عظمة مقام النبي ﷺ وسمو منزلته من جانب حيث تتضح شدة النور وعمق خطفه للابصار كلما كان الظلام دامسا والعنمة شديدة، الأمر الذي يكشف عن عظمة خدمات نبي الإسلام ﷺ ونجاعة دينه في خلق المجتمع. ولا غرو فان استبدال ذلك المجتمع - بالمواصفات المذكورة - إلى ذلك المجتمع الذي إلتف حول الرسول لم يكن يبدو أمراً ممكناً، وليس ذلك سوى للاعجاز والوحي وعظمة التعاليم الإسلامية التي تمكنت من انتشار ذلك المجتمع وطبعه بهذه الصفات العالية.

من جانب آخر فهي إشارة إلى تجديد الأفكار والأداب والسنن الجاهلية في عصر النبي ﷺ والتي ظهرت في عصر الخلافة الراشدة إثر انحراف الأمة عن تعاليم النبي ﷺ. فالإمام ﷺ يحذر الأمة في زمانه من الأخطار التي تتهددها من جراء إحياء سنن الجاهلية والعادات والتقاليد البالية التي تفتك بالمجتمع. الجدير بالذكر هنا هو أن الإمام ﷺ قد أورد هذه الخطبة بعد إنصرافه من صفين حيث أراد الفات نظر أصحابه إلى العناصر التي أدت إلى تلك النتيجة بأسلوب بليغ يعرف بـ «إياك أعني واسمعي يا جارة».

لاشك أن عبارات الإمام ﷺ تستبطن الدروس والعبر التي ينبغي أن نحذرها نحن المسلمون في العصر الحاضر الذي يتصف بالمدينة والتطور والتقدم، فهي تحذير جدي لنا؛ فعباراته تنطبق تماما على الأوضاع التي يشهدها عصرنا الراهن حيث غاصت الأمة اليوم في هالة من الفتن وتزعزعت عرى الإيمان واليقين واندرست سبل معرفة الحق بفعل تفاهم سعة

حجم الدعايات المسمومة وانتشار الرذيلة والفساد وتفرق الناس أيادي سباً وكثرت الأهواء وتعذرت طرق النجاة وقد استفحل الضلال وإنعدام الهدى واستشرت الذنوب والمعاصي وخلي الميدان للشياطين والمستكرين.

نعم لقد شهد عصر الإمام عليه السلام تلك الغفلة فعادت الأمة وأقبلت على سنن الجاهلية، والعجيب أن الأمة آنذاك قد خلدت إلى السبات والكسل بحيث لم يعد يؤثر فيها صراخ حتى هذا الولي الرباني وأخذوا يتهافتون على أحياء سنن الجاهلية حتى آل الأمر إلى تحول الحكومة الإسلامية إلى حكومة وراثية تلاقها بنو أمية وبنو العباس، فلم تتعثر المسيرة الإسلامية آنذاك فحسيت، بل وجهت إليها ضربات موجعة جعلتها تلعق جراحها لحد الآن! ونرى هنا ضرورة تسليط الضوء على أوضاع الناس في العصر الجاهلي من مختلف الجوانب ودراسة ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الشأن لنقف بوضوح على تفاصيل هذا الموضوع.

فجاهلية العرب - وهكذا الجاهلية التي كانت تعيشها سائر الأقوام - إنما تشير إلى سلسلة من العقائد الباطلة والخرافات والأساطير والسنن الخاطئة والقبیحة المنجولة إلى أحيانا، جانب الأفعال العبثية والسلوكية العنيفة القائمة على الظلم والاضطهاد والانحرافات الفكرية من قبيل نحت الأوثان من الخشب والحجر والاعتكاف على عبادتها واللجوء إليها عند حدوث الخطوب والمصائب حيث جعلوها شفعاثهم إلى الله بعد أن اعتقدوا بقدرتها المطلقة وأن الخير والشر بيدها.

ولم تقتصر أفعالهم الطائشة على وأد البنات كدفاع عن العرض والشرف أو أمهن يجلبن عليهم الخزي والعار فحسب، بل كانوا يعمدون لقتل أولادهم تحت ذرائع شتى منها تقديمهم إياهم كقرايين إلى آلهتهم أو بدافع الفقر «وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلُوا أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ»^١ و«وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ»^٢ و«وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»^٣.

١. سورة الانعام / ١٣٧.

٢. سورة الاسراء / ٣١.

٣. سورة التكوير / ٨١.

ولم يعيشوا أي هاجس من قلق لفظاعة هذه الجرائم، بل أبعد من ذلك كانوا يتفاخرون بها على أنها من العناصر المشرفة في حياة الاسرة التي كانت تعمد لارتكاب مثل تلك الجنايات المهولة.

أما المراسم العبادية في البيت فلم تكن سوى المكاء والتصديّة والعري التي كانت عليه النساء حين العبادة وهن يظفن حول الكعبة «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً»^١ كانوا يتفاخرون بالحروب وسفك الدماء والسلب والنهب، كما لم يكونوا يقيموا أدنى وزن للمرأة فهي ليست سوى سلعة رخيصة فلا تتمتع بأدنى حقوق بل كانوا أحياناً يقامرون بها.

كانوا يرون الملائكة بنات الله - وكما أشرنا سابقاً فاتهم كانوا يرون في البنت العار والفضيحة - «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ»^٢ و«أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ»^٣ أما على مستوى الخرافات والاساطير التي كانت سائدة لديهم فقد كانت عجيبة مذهلة ومنها ما وصفه القرآن الكريم «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ»^٤.

إذا غضب أحدهم على امرأته وأراد أن يوبخها كفاه وأن يخاطبها «أنت علي كظهر أمي» فهم يعتقدون أنّ هذا القول يكفي أن تحرم عليه لأنها عادت كامه دون إجراء حكم الطلاق عليها، الأمر الذي شجبه القرآن ولم يقره: «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ»^٥، «إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا»^٦ أما الطابع السائد الذي كان يميز العصر الجاهلي فانما يكمن في شن الحروب والغارات التي

١. سورة الانفال / ٣٥. أما المشهور بالنسبة لسبب نزول سورة التوبة ومن الأمور التي أمر أمير المؤمنين عليه السلام بإبلاغها المشركين «ولا يطوفن يا لبيت عربانا». نور البقيلين، ٢/ ١٧٩-١٨١ ح ١٤ و١٧ و١٨ و٢٠ ومجمع البيان، ٣/ ٥.

٢. سورة النحل / ٥٧.

٣. سورة الصافات / ١٥٠.

٤. سورة الانعام / ١٣٩.

٥. سورة الاحزاب / ٤.

٦. سورة المجادلة / ٢.

تستبطن سفك الدماء وتأجيج الأحقاد والأضغان التي توارثتها الأقوام أبا عن جد، الأمر الذي شبهه القرآن بشفا حفرة من النار، فقال ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ﴾^١.

الخرافة الأخرى التي كانت تسود في الأذهان هو الاعتقاد بالرابطه القائمة بين نزول المطر وبزوغ واختفاء بعض الكواكب، والتفؤل بالطيور والإيمان بالنعول الصحراوي والقفاريت وما شابه ذلك؛ الأمر الذي عبر عنه القرآن الكريم في أكثر من آية بالضلال المبين. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^٢.

نعم هذه صورة مقتضبة من الحالة التي كانت عليها العرب في الجاهلية - بل هذه مميزات سائر الأقوام في الجاهلية التي تعددت أشكالها واتفقت مضامينها.

ومن هنا يمكن الوقوف على عظمة الإسلام والقرآن وحامل رسالتها النبي الأكرم ﷺ، الأمر الذي توصل إليه أحد أعلام الغرب ويدعى توماس كارل في أن الله هدى العرب من الظلمات إلى النور بالإسلام ومن أمة راكدة متعاسة لاصوت فيها ولا حركة إلى أمة ذات شهرة ومن الضعف والوهن إلى اليقظة والقوة، ومن الضعة إلى العزة ومن العجز إلى القدرة. فقد شاع نور الإسلام على العالم من جهاته الأربع ولم يمضى عليه أكثر من قرن فبلغ المسلمون الهند الأندلس، بل استطاع الإسلام أن يبسط نوره على تصف المعمورة بهذه المدّة القصيرة.^٣



١. سورة آل عمران / ١٠٣.

٢. سورة الجمعة / ٢.

٣. عذر التصدير لدئي محمد والقرآن، ص ٧٧ (نقلا عن تفسير الامثل، ٣ / ٣١).

القسم الثالث

ومنها يعني آل النبي عليه الصلاة والسلام
«هُم مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَاءُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ،
وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ قَرَائِنِهِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

المنزلة السامية لآل محمد ﷺ

يصف الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة الأئمة من أهل بيت النبي ﷺ بعبارات قصيرة عميقة المعاني، حيث يتطرق إلى مكانتهم بعد رسول الله ﷺ على ضوء ماورد في الأحاديث النبوية الشريفة من قبيل حديث الثقلين وسفينة نوح والنجوم.^١
فقد وصفهم في عباراته الست الأولى بقوله ﷺ: «هم موضع سره، ولجأ أمره، وعيبة^٢ علمه، وموئل^٣ حكمه، وكهوف^٤ كتبه وجبال دينه»^٦ أن كل عبارة من هذه العبارات تشير

١. فقد تصدت هذه الأحاديث التي روتها مصادر الفريقين لبيان مكانة أهل البيت ﷺ.
فقد صرح حديث الثقلين بأن أهل البيت ﷺ هم عدل القرآن الذين لا يفترقون عنه حتى يرثوا على النبي ﷺ حوضه. أما الحديث الثاني فقد شبههم بسفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق. وأخيراً حديث ﷺ الذي قال فيه: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل النجوم باي إقتديتم إهتديتم وإن النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض».
٢. «لجأ» و«ملجأ» بمعنى الملاذ.
٣. «عيبة» بمعنى الوعاء و الصندوق أو الشئ الذي تحفظ فيه الأشياء وقد أشتق في الواقع من العيب وقد استعمل بالمعنى المذكور لأن العيوب عادة ما تستر.
٤. «موئل» من مادة «وأل» على وزن سهل بمعنى المرجع والملاذ وموضع النجاة.
٥. «كهوف» جمع «كهف» بمعنى الغار، إلا أن البعض قال الكهف هو الغار الواسع، ولما كان الناس يلجأون إلى الغيران في أغلب الأوقات فقد احتمل أن يكون بمعنى الملاذ والموضع الذي يحفظ الأشياء.
٦. اعلم ان هنالك اختلافا بين الشراح بشأن الضمير في هذه العبارات الست. فقد ذهب البعض إلى أنها

إلى أمر معين رغم ما ذهب إليه بعض العلماء والشراح من ترادف العبارات وأنها شبيهة لبعضها البعض الآخر.

فقد أشارت العبارة الأولى إلى حقيقة مؤاذاها أن الاسرار الإلهية مودعة لديهم. وبالبداهة أن يلم بجميع الأسرار من ينهض بمسؤولية زعامة الدين؛ حيث لا ينتظم أمرهم في هداية الناس وتدبير شؤون حياتهم دون الانطواء على ذلك العلم، ولا سيما أن زعامتهم لا تختص بزمان دون آخر بل تتعلق بجميع البشرية على مدى العصور والدهور (وقد ذكرنا في مبحث علم غيب الأنبياء والأوصياء المعصومين أن إحدى مقومات زعامتهم تستند إلى علمهم بالغيب وإلا لانطوت زعامتهم على العيب والنقص).

ثم أشار في العبارة الثانية إلى أنهم ملجأ أمر الله. والسؤال الذي يبرز هنا هل يقتصر هذا الأمر على الأوامر التشريعية أم يشمل الأوامر التكوينية أيضاً؟ يبدو من ظاهر العبارات السابقة واللاحقة أن الأوامر تقتصر على التشريعية منها حيث يجب على الأمة أن ترجع إلى أئمة العصمة في تلقي أوامرهم وإمتثال تعاليمهم.

أما العبارة الثالثة فقد اعتبرتهم ﷺ عيبة علوم الله سبحانه، ولا يقتصر ذلك على الأسرار والأوامر، بل يشمل جميع العلوم اللازمة لهداية الناس أو ذات الصلة بهذه الهداية فهي مودعة لديهم مخزونة عندهم. وفي العبارة الرابعة يتضح أنهم المرجع في الأحكام الإلهية التي يجب على الأمة الرجوع إليهم في الاختلافات على المستوى الفكري أو القضائي ليزيلوا عنهم الفرقة والاختلاف ويهدوهم سواء الصراط.

وإذا اعتبرنا «موقل حكمه» على وزن إرم جمع حكمة فإن فارق هذه العبارة مع العبارات السابقة سيتضح تماماً، لأن الكلام هنا سيكون في فلسفة وحكمة الأحكام الإلهية التي تؤلف جزءاً من علوم الأنبياء والأئمة المعصومين ﷺ.

أما قوله ﷺ «و كهوف كتبه» فيكشف اللثام عن هذه الحقيقة وهي أن مضامين جميع الكتب السماوية موجودة عندهم. وهذا يشبه إلى حد بعيد ما قاله علي ﷺ: «أما والله لو ثنيت

﴿﴾ ترجع جميعاً إلى النبي ﷺ بينما تفيد القران أن الضمير فيها يعود إلى الله سبحانه (و لا يسما بالالتفات إلى قوله وكهوف كتبه) بينما يعود الضمير في العبارة الأخيرة إلى الدين كما سيأتي توضيح ذلك لاحقاً.

لي الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم... وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم...»^١.

وأخيراً فقد وصفهم ﷺ بأنهم جبال دينه، ولعل العبارة إشارة واضحة إلى ما أورده القرآن الكريم في عدد من آياته الشريفة بشأن خصائص الجبال ودورها في حفظ استقرار ونزول البركات والخيرات فقد صرّحت الآية ١٥ من سورة النحل قائلة «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلّاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» فالواقع أن الجبال - كما ورد في تفسير هذه الآية وسائر الآيات المشابهة - تقوم من جانب باحتواء الضغوط المسلطة على الأرض من باطنها وظاهرها، ومن جانب آخر فهي مصادر عظيمة للأنهار والأبار وعيون الماء.

و بالتالي فهي معين لا ينضب من المعادن النفيسة القيمة. ووجه الشبه هو أن أئمة العصمة ﷺ مصدر لسكينة الأفكار وري القلوب واغناء الأمة بما يختزنونه من معادن نفيسة.^٢ ثم يواصل الإمام ﷺ كلامه إثر ذكره لهذه الصفات فيقول «بهم أقام انحناء ظهره وأذهب إرتعاداً فرائضه»^٣.

أما انحناء الظهر فهي كناية رائعة لشدة العضلات التي طالت الدين من من قبل الأعداء العلماء والأصدقاء الجهلاء فانبرى لها هؤلاء الكرام ليبقوا على الدين شامخاً لا يناله تحريف المحرفين ولا فتن المبطلين. والتعبير «ارتعاد الفرائض» ارتعاد اللحمة التي تغطي القلب بين الجنب والكتف وهي كناية لطيفة عن الاضطراب والاختلال الذي يطيل الدين من قبل المدارس الالحادية والانحرافات الدينية والتي يقف بوجهها أئمة الهدى فيقضوا عليها فيعيدوا للدين صبغته الحقيقة الناصعة.

١. بحار الانوار ١٠/١٨١، ح ١.

٢. راجع التفسير الامثل، ذيل آية ١٥ من سورة النحل.

٣. «إرتعاد» من مادة «رعد» بمعنى الاهتزاز، ومن هنا يطلق الرعد على الصوت العظيم الذي تحدثه السحب والغيوم.

٤. «فرائض» جمع «فريضة» هي اللحمة بين الجنب والكتف التي ترعد حين الخوف ولذلك كانت (ارتعاد الفرائض) كناية عن الخشية والاضطراب، ومن هنا كانت الفرصة تطلق على المدة الزمانية للقيام بعمل (المقاييس، المفردات ولسان العرب).

تأملان

١- آل النبي ﷺ كهف الأمة الإسلامية

ما ورد في عباراته ﷺ يمثل الحقائق البعيدة عن أية مبالغة والتي تشهد عليها سيرة أئمة العصمة ﷺ ولا سيما عصر أمير المؤمنين والإمام الباقر والصادق والرضا ﷺ وكيف وقف هؤلاء العظام بوجه المدارس المنحرفة التي ظهرت إثر إتساع رقعة الإسلام وورود الأفكار المنحرفة للمناطق الإسلامية إلى جانب الخرافات والأساطير والعقائد الفاسدة والتفاسير الخاطئة المشبوهة التي أوردتها الغلاة والقلالة للنيل من الإسلام المحمدي الأصيل.

فقد أفاد التاريخ أنهم لم يعجزوا عن جواب أي سؤال، بل كانوا يجيبون بما يثلج صدر الصديق ويغيظ العدو. من جانب آخر فقد شهد رحيل النبي الأكرم ﷺ العواصف الهوجاء التي تكاد تغرق السفينة الإسلامية لولا هذه الصفوة الطاهرة، وقد تنوعت أدوارهم واتحدت أهدافهم فتارة يذود عن الدين بما يظهر من علمه ومعرفته وتبيينه لحقائق الإسلام، وأخرى بدمه الشريف إن تطلب حفظ الدين ذلك وهذا ما تمثل بحركة الإمام الحسين ﷺ وصحبه الميامين الذين زادوا بمهجم دون حياض الدين وبيضة الإسلام.

ولو تأملنا الانحرافات العقائدية والأفكار العجيبة التي سطرتها كتب الملل والنحل وقارناها مع المعارف والعقائد التي حمل رايتها أئمة أهل البيت ﷺ - ونموذج ذلك نهج البلاغة والصحيفة السجادية «زبور آل محمد» - والروايات الواردة عنهم ﷺ في الكتب من قبيل توحيد الصدوق والمصادر المشابهة لاتضح لنا الحقيقة التي ذكرت سابقاً في صفاتهم ﷺ.

وأخيراً هؤلاء هم الذين وصفهم الإمام ﷺ في موضع آخر من نهج البلاغة لكميل بن زياد فقال: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبياناته... يحفظ الله بهم حججه وبياناته حتى يودعوها نظرائهم يزرعوها في قلوب أشباههم»^١.

وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «بني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل

بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^١.

٢- من هم آل النبي ﷺ؟

ما يفهم مما مر معنا سابقاً أنّ المراد بأهل البيت الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ لا ما ذهب إليه بعض المفسرين لنهج البلاغة من أنّ المراد بأهل البيت أولئك الذين حفظوا الإسلام على عهد رسول الله ﷺ مثل حمزة والعباس وجعفر. طبعاً لا يخفى الدور الذي لعبه هؤلاء في الذود عن بيضة الإسلام، غير أن مضمون العبارات السابقة يبدو أبعد من ذلك ولا يراد بهؤلاء سوى أئمة العصمة عليهم السلام.



١. راجع الى تفسير نفحات القرآن، ج ٩.

القسم الرابع

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْعَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ: الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!».

۳۰۳

الشرح والتفسير

لا يقاس بآل محمد أحد من الناس

يبدو أنّ الضمائر في العبارات الثلاث الاولى - بالاستناد إلى أنّ الإمام ﷺ أورد هذه الخطبة حين إنصرافه من صفين - تعود إلى القاسطين (أصحاب معاوية) والخوارج المارقين؛ كما ذهب البعض إلى أنّها تعود إلى المنافقين، أو جميع أولئك الذين خالفوا الإمام ﷺ هبوا لقتاله. على كل حال فقد شبههم ﷺ تشبيه دقيق فقال ﷺ: «زرعوا الفجور^١ وسقوه الغرور^٢ وحصدوا الثبور^٣».

ثم يعود ﷺ لبيان أوصاف آل محمد ﷺ بعبارات أكثر صراحة ووضوح ضمن إشارته - كعادته في قلة الألفاظ وسعة المعاني - إلى منزلتهم الرفيعة وحقوقهم السليبة فيقول: «لا يقاس

١. «فجور» من مادة «فجر» بمعنى الشق في الشي ومن هنا يطلق الفجر على طلوع الصبح وكان ضياء الصبح يشق حجاب الليل المظلم، كما يصطلح على الأعمال غير المشروعة بالفجور لأنها تخترق حجب الدين.
٢. «الغرور» بمعنى الغفلة في اليقظة، ووردت بمعنى المكر والحيلة، والغرور بفتح الغين بمعنى الشيء الذي يخدع الإنسان ويستغفله، كما فسر بمعنى الشيطان، لأنه يخدع الناس بوعوده الكاذبة.
٣. «الثبور» من مادة «ثبر» على وزن صبر بمعنى الحبس والهلاك والفساد الذي يصد الإنسان عن بلوغ الهدف.

بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد» ودليل ذلك لا نقاش فيه، لأنهم وعلى ضوء صريح الحديث النبوي الشريف حديث الثقلين الذي نقلته جميع مصادر الفريقين عدل القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أن ليس هنالك من الأمة أحد من قرن بالقرآن، أضف إلى ذلك فهناك الآيات القرآنية التي تؤيد هذا المعنى من قبيل آية التطهير التي تصرح بعصمتهم وآية المباهلة التي عدت البعض منهم كنفس رسول الله ﷺ وسائر الآيات والروايات.

و بغض النظر عمّا تقدم فإن علومهم ومعارفهم التي رويت عنهم هي الأخرى لا يمكن مقارنتها بعلوم الناس ومعارفهم.

فهل روى الآخرون عشر معشار ما ورد في نهج البلاغة؟ وهل هناك من يقوى على الإتيان بدعاء من أدعية الصحيفة السجادية. وما بالك في الأحكام الشاملة الواسعة التي رويت عن الإمام الباقر والصادق ﷺ بشأن جزئيات المسائل الدينية، والمناظرات التي عقدها الإمام الرضا ﷺ مع سائر زعماء الأديان حول مختلف المسائل العقائدية والأبواب الفقهية؟ آنذاك يتحدث عن دليل العبارة السابقة: «و لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» وأي نعمة أعظم من تلك النعمة!

فلو لا تضحيات علي ﷺ لما ذاق الآخرون طعم الإسلام. فسيرة علي ﷺ منذ ليلة المبيت ومرورا بموقعة بدر وأحد والخندق وخيبر وغزوات الإسلام كلها شواهد على المعنى المذكور وقد بلغت منزلته من السمو والرفعة بحيث قال رسول الله ﷺ «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» وفي عبارة أخرى «لمبارزة علي ﷺ لعمر بن عبدود أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»^١.

لقد فدى رسول الله ﷺ بنفسه حين بات على فراشه، وهو الذي قلع باب خيبر ودك حصونها حين عجز من سواه. وهو الذي وقف صامدا في المواقف التي تنكص فيها الأبطال وفي مقدمتها موقعة أحد حين إنفرج المسلمون عن رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا علي بن أبي طالب ﷺ حيث كان رسول الله ﷺ كلما حمل عليه العدو ناداه ردها يا بن أبي طالب.

١. انظر إحقاق الحق ٦ / ٤ : ١٦ / ٤٠٢ و اعيان الشيعة ١ / ٢٦٤.

أضف إلى ذلك سائر مواقف المشهورة في تاريخ الإسلام سواء في عصر النبي ﷺ أو ما تلاه من العصور ودافع فيها بعلمه وعمله عن الإسلام. أمّا في عصر الخلافة الراشدة والعصر المظلم لبني أمية وبني العباس لم يكن سوى هولاء الأطهار من أهل البيت ﷺ الذين أضاءوا تلك الظلمات بنور علمهم ومعرفتهم حتى أنقذوا المسلمين من تلك الحملات الثقافية المسعورة التي تبنت إحياء سنن الجاهلية وإطفاء السنن الإلهية ولا نرى هذا الدور خافيا على أحد رغم الجهود المضنية التي، بذلها أعدائهم لاطفاء نورهم وطمس فضائلهم.

و الطريف في الأمر أن الإمام ﷺ يتحدث عن نعمة وجود أهل البيت بشكل دائم مستمر و خالد دون اقتصارهم على عصر دون آخر، ولا غرو فثمار الشجرة الإسلامية المباركة التي نقطضها إنما زرعها الرسول الكريم ﷺ وأهل بيته ﷺ: «لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا». ثم يتعرض ﷺ إلى أمرين آخرين ينبعان من الأمر السابق فيقول: «هم أساس الدين وعماد اليقين». نعم فقد نزل الوحي في بيتهم وتربوا في أحضانه وما عندهم من علوم ومعارف إنما أخذوها عن رسول الله ﷺ ولما كانت العلوم والأسرار الإلهية مودعة لديهم فهم أئمة الإيمان ودعاة اليقين. ثم يخلص الإمام ﷺ إلى هذه النتيجة: «إليهم يقبىء الغالي، وبهم يلحق التالي» وكيف لا يكونوا كذلك وهم الصراط المستقيم^١ والأمة الوسطى^٢ وعندهم المعارف الإلهية الحقّة والعقائد الإسلامية الأصيلة البعيدة عن كل إفراط وتفريط.

ولو تصفحنا تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية البعيدة عن مدرسة أهل البيت ﷺ لرأينا الانحراف العقائدي الخطير من قبيل السقوط في حبال الجبر والتفويض والتشبيه والاحاد في أسماء الله وصفاته، بل غالى البعض في أساء الله وصفاته حتى قالوا بتعطيل الصفات الإلهية أن ليس هناك من سبيل لمعرفة سبحانه (سواء المعرفة الإجمالية أو المعرفة التفصيلية)، وبالمقابل هناك الفرق التي هبطت بالذات الإلهية المقدسة إلى الحضيض فوصفته سبحانه بأنه رجل أمرد صبيح الوجه عليه كساء أسود ملتحف به.

١. تفسير نور الثقلين ١/ ٢٠-٢١.

٢. تفسير نور الثقلين ١/ ١٣٤.

أما بشأن مسألة الجبر والتفويض، فقد ذهبت الجبرية - فرقة من الفرق الضالة - إلى أن الإنسان كائن مسلوب الإرادة والاختيار وأنه مجبر على أفعاله المقدره عليه على ضوء القضاء والقدر الإلهي فإن قدر له الكفر كفر وإن قدر له الإيمان آمن.

بينما وقفت المفوضة التي رأت للإنسان استقلالاً تاماً إزاء الذات الإلهية المقدسة، فاعتقدت بأن جميع الأفعال مفوضة للإنسان، وهكذا هوت في وادي الشرك.

بينما تبنت مدرسة أهل البيت عليهم السلام إطروحة «الأمر بين الأمرين» لتسفي مسألة الجبر والتفويض وتحذر المسلمين من الإفراط والتفريط الذي يقود إلى الكفر والشرك، ومن هنا يتضح معنى كلام الإمام عليه السلام: «إليهم يفيئ الغالي، وبهم يلحق التالي» فالعبارة تشبيه لطيف كأن هنالك قافلة يقودها عدد من الرواد الماهرين، تقسم بعض الأفراد الذين يندفعون أكثر من غيرهم قدما فيضلون في الصحراء، بينما يهين الآخرون ويتخلفون عن الركب فيصبحوا طعمة لذئاب الصحراء.

ثم يقول عليه السلام: «و لهم خصائص الولاية». وتصدر الجملة بلهم تفيد إقتصار هذه المزية عليهم عليهم السلام. وكيف لا يكونوا أصلح من الجميع وهم دعائم الدين واركان اليقين الذين يمثلون الإسلام الأصل الذي لا يعرف الإفراط والتفريط، وهم النعمة الجارية على أفراد الأمة إلى يوم القيامة. ولذلك قال عليه السلام: «و فيهم الوصية والوراثة».

نستنتج مما سبق أن وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهم واستخلافهم من بعده إنما تستند لما مر معنا سابقاً، لا على أساس القرابة والنسب. ولا يخفى أن المراد بالوصية والوراثة هنا الخلافة والنبوة، بل حتى لو افترضنا أن الوراثة هنا هي وراثة علوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم - كما ذهب إلى ذلك البعض - فإن الأمر سيقود بالتالي إلى جدارتهم باحراز هذا المقام؛ لأن خليفة النبي وإمام الخلق لا بد أن يكون وارثاً لعلوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن خليفته هو وصيه؛ فوراثة الأموال - كما نعلم - ليست بذات قيمة والوصية في الأمور الشخصية والاعتيادية لا تحظى بأية أهمية، ولا شك أن أولئك الذين سعوا جاهدين لتفسير الوصية والوراثة بمثل هذه المعاني إنما يكشفون عن مدى تعصبهم استنادهم إلى العناد والأفكار المسبقة.

فليس هنالك من مسألة مهمة تنسجم وقوله عليه السلام: «أساس الدين وعماد اليقين

وخصائص حق الولاية» سوى مسألة خلافة رسول الله ﷺ. وأخيراً يخاطب ﷺ الأمة في زمانه وكأنتهم قد تنكروا لبعض النعم ولا يسما عودة الحق السليب «الآن إذا رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منقله»^١.

يتضح مما قيل بشأن الوصية والوارثة أن المراد بالحق هنا هو الولاية والخلافة التي لا تليق سوى بأهل البيت ﷺ وأن محلهم من الخلافة محل القطب من الرحن.

تأملان

١. مكانة أهل البيت في القرآن والرويات

لقد صرّحت أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بفضل أهل البيت ﷺ بما لا يبقى معه مجال للشك في سمو مكانتهم وعلو منزلتهم. فأية التطهير واضحة في طهارة أهل البيت ﷺ من كل رين وعصمتهم من كل رجس «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»^٢.

وآية المباهلة التي وصفت نفس علي ﷺ بأنها نفس النبي ﷺ وأن أقرب المقربين لله ورسوله ﷺ والمجاين الدعوة لديه هم الزهراء والحسن والحسين ﷺ: «قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...»^٣.

وآية التبليغ التي اعتبرت وظيفة النبي ﷺ في إبلاغ ولاية علي ﷺ من أخطر الوظائف وأن عدم الإبلاغ بمثابة عدم إبلاغ الرسالة: «يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...»^٤. إلى جانب ما لا يحصى من الآيات التي لا يسعنا الخوض فيها في هذه العجالة، ويضاف إلى ذلك مصادر الفريقين والتي صرّحت بتواتر وصحة الأخبار الواردة في فضائل أهل البيت ﷺ.^٥

١. هنالك محذوف في الجملة تقديره: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله لم لا تؤدون حقه». وقد ورد تقدير ذلك في مصادر نهج البلاغة: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله من أهل بيت النبوة يجري ما يجري من الحوادث ويقع ما يقع من الاختلاف؟» (مصادر نهج البلاغة، ١/ ٣٠٢) وكلا التجتين واحدة.

٢. سورة الاحزاب / ٣٣.

٣. سورة آل عمران / ٦١.

٤. سورة المائدة / ٦٧.

٥. لقد أشرنا في ذيل كل آية واردة بهذا الشأن في التفسير الأمثل إلى المصادر؛ ومن أراد الوقوف على

أما الروايات الإسلامية الواردة في الصحاح الستة فقد نقلت من فضائل أهل البيت ومناقبهم بما لا يمكن تصوره، بل أوجز بعض علماء العامة تلك الفضائل في عدة مجلدات^١، بينما ألفت عشرات المجلدات من علماء العامة في جمع الروايات والأخبار الواردة بشأن فضائل أهل البيت^٢.

غير أن الموسف ما قامت به الأيدي الآثيمة إبان الحكومات الظالمة بعد رحيل رسول الله ﷺ والتي جهدت على طمس فضائلهم ومناقبهم لينأوا بالأمة بعيداً عن الخط الرسالي الأصيل المتمثل بأهل البيت ﷺ أمناء الوحي وحماة العقيدة. فاونلك الذين صدوا أهل البيت ﷺ عن حقهم بعد رحيل رسول الله ﷺ هم الذين سعوا جاهدين لطمس فضائلهم، وأدهى من ذلك ما مارسه خلفاء بني أمية والعباس الذين كموا الأفواه عن التحدث بفضائلهم حتى عد ذلك جرماً يعاقب عليه بالسجن أو الأعدام.

ولولا لطف الله وعنايته لما بقيت من آثارهم شيئاً ولا ختفت فضائلهم ومناقبهم ولا يسعنا هنا إلا أن نورد ما ذكره شارح نهج البلاغه ابن أبي الحديد المعتزلي بهذا الشأن فقد قال: فأما فضائله ﷺ؛ فأنها قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمح معه التعرض لذكرها، والتصدي لتفصيلها؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل: رأيتني فيما أتعاط من وصف فضلك، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، الذي لا يخفى على الناظر، فأيقنت أني حيث إنتهى بي القول منسوب إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وما أقول في رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يكنهم جحد مناقبه، ولا كتان فضائله، فقد علمت أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، وإجتهدوا بكل حيلة في اطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعاييب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا ماد حيه، بل حبسوهم قتلوههم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة، أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا

التفاصيل فليراجع احقاق الحق، ج ٣ ورسالة القرآن، ج ٩.

١. كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للمرحوم المحقق الفيروز آبادي.

٢. عبقات الأنوار للسيد حامد حسين الهندي.

أن يسمى أحد باسمه؛ فما زاده ذلك إلا رفعة وسموا؛ وكان كالمسك كلما ستر إنتشر عرفه، وكلما كتم تضوع نشره؛ وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة، أدركته عيون كثيرة.^١

وقد نقل مثل هذا المعنى في بعض المصادر، حيث صرح الشافعي: عجباً لرجل أخنى أعداؤه فضائله حسداً وأولياؤه خوفاً فظهر بين هذا وذلك ما ملئ الخافقين.^٢
وقد روي مثل هذا المضمون أيضاً عن عامر بن عبدالله بن الزبير.^٣

٢- تبريرات واهية

جدير ذكره أن ابن أبي الحديد حين يصل عبارة الإمام عليه السلام «الآن إذا رجع الحق إلى أهله...» في شرحه لنهج البلاغة يقول: لقد ذكر الإمام عليه السلام أن الحق رجع الآن إلى أهله؛ وهذا يقتضي أن يكون فيما قبل في غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الامامية، ونقول: إنه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضلية، فإنه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحق بالخلافة من جميع المسلمين، لكنه ترك حقه لما علمه من المصلحة، وما تفرس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له وضعفهم عليه وجائز لمن كان أولى بشي فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله.^٤

حقاً أن الأحكام المسبقة هي التي تحول دون الاقرار بمفهوم هذه العبارة الواضحة، فلو أراد الإمام عليه السلام أن يقول: لم يودع الحق أهله قبل هذا والآن رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله فله أن يذهب إلى ما ذهب إليه، هذا من جانب ومن جانب آخر فانتنا نعلم بأن القول: ان العرب تحسده وتكن له البغض والعداء إنما هو قول أجوف لا أساس له. نعم كانت هذه الحالة تسود فئة قليلة ممن تبق من أعقاب المشركين والكافرين، وبعبارة أخرى فإن العداء كان يعيش في

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/١٧٧.

٢. علي في الكتاب والسنة ١/١٠٠.

٣. الغدير ١٠/٢٧١.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/١٤٠.

قلوب زعماء قريش وأحبار اليهود وكبار المنافقين الذين تلقوا من الإمام عليه السلام الضربات المهلكة والموجعة في المعارك من قبيل بدر وخيبر وحنين، بينما كانت الأئمة بابنائها تحب علياً عليه السلام ولذلك ورد في الحديث النبوي المعروف الذي نقلته المصادر الإسلامية المعتمدة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: «لا يبغضك إلا منافق»^١.

وجاء في صحيح الترمذي - أحد الصحاح الستة المعتمدة لدى أبناء العامة - عن أبي سعيد الخدري قال: «إننا كنا لنعرف المنافقين ببغضهم علي بن أبي طالب»^٢.

فهل يرضى ابن أبي الحديد أن تكون الأكثرية الساحقة من المسلمين آنذاك منافقة؟ ومن هنا نرى مدى الفرح والسرور الذي عم أوساط المسلمين حين توليه الخلافة بما لا يمكن مقارنته وسائر الخلفاء، والحال أن أغلب معاصريه وممن مد له يد البيعة هم من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أبنائهم.

و عليه فتبريره واهي لا يصمد إمام الحقائق والواقعيات. وأما قوله: إنه كان أولى بالأمر وأحق لأعلى وجه النص، فهو الآخر كلام أجوف يجانب الحق وسنثيت بطلانه في محله^٣.

❦❦❦

١. شواهد التنزيل ١/ ٣٢٩.

٢. صحيح الترمذي، ١٣/ ١٦٨، طبع الصاوي مصر (٦٣٥/٥ طبع دار احياء التراث العربي).

٣. انظر «رسالة القرآن» ٩/ ٩.



الخطبة



وهي المعروفة بالشقشقية وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافة ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعة الناس له.

القسم الأول

«أما وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فَلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنْ الرَّحَى. يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثُوبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا. وَطَفِقْتُ أَرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَذَاءٍ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَّةِ عَمِيَاءٍ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشْيِبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجَى، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدِّي، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى تَرَاتِي نَهْبًا».

٨٧٠٨

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة حيث تتكفل بشرح مسألة الخلافة بعد رحيل رسول الله ﷺ. وهناك بعض الأمور التي تضمنتها هذه الخطبة بما لم يرد شبيهها في سائر خطب نهج البلاغة، ورغم قلة عباراتها، إلا أنها أوجزت عصر الخلافة الراشدة التي

نهضت بالأمر بعيد وفاة رسول الله ﷺ. إلى جانب ذلك هناك التحليلات الدقيقة والرائعة التي تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين. ونرى هنا أن نشير إلى بعض الأمور قبل أن نخوض في شرح وتفسير هذه الخطبة:

١- اسم الخطبة: لقد أقتبس اسم الخطبة من عبارتها الأخيرة التي أطلقها الإمام عليه السلام حين قاطع أحدهم الإمام عليه السلام فتوقف، فناشده ابن عباس مواصلة الخطبة فقال له عليه السلام: «تلك شقشقة هدرت ثم قررت» وهكذا رفض عليه السلام طلب ابن عباس، حيث تغير الجو الذي كان سائداً لاطلاق الإمام عليه السلام تلك العبارات الحماسية الخطيرة، فقد قام أحد الأفراد من بين الناس وسلم الإمام عليه السلام كتاباً (قيل ان فيه مسائل كان يريد الاجابة عنها) فانصرف ذهن الإمام عليه السلام إلى أمور أخرى.

٢- زمان صدور الخطبة: هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن زمان صدور هذه الخطبة. فيعتقد البعض - كالمحقق الخوئي - أن الإمام عليه السلام وبالاستناد إلى مضامين الخطبة وطرق أسنادها وروايتها إنه أوردتها أواخر عمره الشريف بعيد موقعة الجمل وصفين والنهروان حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين^١. والحق أن مضمون الخطبة يؤيد هذا الرأي.

٣- مكان الخطبة: لقد سكت جمع من شراح نهج البلاغة عن مكان صدور الخطبة، بينما يعتقد البعض أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين ارتقى المنبر في مسجد الكوفة، وقال ابن عباس:

لقد ألقى الإمام عليه السلام هذه الخطبة في الرحبة^٢ حين وقع الكلام عن الخلافة.

٤- سند الخطبة: هناك بحث في سند الخطبة أيضاً. قال البعض: هذه الخطبة من الخطب المتواترة بينما صرح البعض الآخر بعكس ذلك ولم ينسب هذه الخطبة لعلي عليه السلام وإنه لم يشكو قط من الخلافة وإنما ذلك من وضع الشريف الرضي. أمّا الشارح المعروف ابن ميثم البحراني فقد قال: الادعاء أن المذكوران باطلان وفيها إفراط وتفريط. فسند الخطبة لم يبلغ حد

١. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٢.

٢. «الرحبة» بمعنى المكان الواسع، ويعتقد البعض أنها اسم موضع في الكوفة، بينما يرى البعض الآخر هي موضع يبعد ثمانية فراسخ عن الكوفة (مجمع البحرين ومراصد الاطلاع).

التواتر، ولا أساس للزعم القائل أنّها من وضع الشريف الرضي، والحق أنها صدرت من الإمام عليه السلام!

ويبدو أنّ الإشكالات الواردة على الخطبة لم تتأتى من ضعفها أو ركاكتها أو تفاوتها من حيث الاعتبار مع سائر خطب نهج البلاغة، بل بالعكس وكما سيأتي خلال البحث أنّ الخطبة تشتمل على عدّة أسناد يتعذر وجود مثلها في سائر بعض خطب نهج البلاغة.

أمّا السبب الوحيد الذي يمكن إسناد الإشكال إليه إنّما يكمن في عدم إنسجام مضامين الخطبة والذهنية السائدة لبعض الأفراد الذين ينتمون إلى عدد من الفرق والمذاهب. فهؤلاء وبدلاً من اتهام ذهنيّتهم وبلورتها على أساس مضمون الخطبة جهدوا في القدح بإسنادها بغية الإبقاء على ما يسود أذهانهم من أفكار منحرفة وعقائد باطلة. أمّا الاسناد التي ذكرت للخطبة من غير نهج البلاغة فهي كالآتي:

أ - قال ابن الجوزي في تذكرة الخواص: لقد أورد الإمام علي عليه السلام هذه الخطبة حين صعد المنبر جواباً لمن سأله: «ما الذي أبطأ بك إلى الآن»^١. وهذا يدل على أن ابن الجوزي كان يملك سندا آخر لهذه الخطبة؛ لأن هذا السؤال لم يرد في نهج البلاغة، وعليه فقد كان له طريقاً آخر.

ب - قال الشارح المعروف ابن ميثم البحراني: لقد عثرت على هذه الخطبة في كتابين ألفا قبل ولادة الشريف الرضي:

الأول كتاب الانصاف لأبي جعفر ابن قبة تلميذ الكعبي أحد كبار المعتزلة الذي توفي قبل ولادة الشريف الرضي. والثاني النسخة التي كتب عليها بخط أبو الحسن علي بن محمد بن فرات وزير المقتدر بالله، وقد توفي لستين سنة ونيف قبل ولادة الشريف الرضي، ثم يضيف: يقوى ظني أنّ تلك النسخة كتبت منذمدة قبل ولادة ابن فرات^٢.

وقال ابن أبي الحديد: قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحولة! فقال: لا والله، وإنّي لأعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق.

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢٥١/١.

٢. تذكرة الخواص / ١٢٤.

٣. شرح ابن ميثم بحراني ٢٥٢/١.

قال: فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون أنها من كلام الرضي رحمه الله تعالى. فقال: أنى للرضي ولغير الرضي هذا النفس وهذا الأسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضي، وعرفنا طريقته وفته في الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام في خل ولاخر: ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدت مسطورة بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي. قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المتعزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدة طويلة. ووجدت كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور والمعروف بكتاب «الانصاف» وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البخلي رحمه الله تعالى، ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضي رحمه الله تعالى موجوداً.

أمّا العلامة الأميني فقد نقل هذه الخطبة في المجلد السابع من كتابه الغدير على أنها نقلت في ثمانية وعشرين كتاباً.

مضمون الخطبة

ذكرنا سابقاً أن الخطبة تتعرض بجميع نصوصها إلى مسألة الخلافة بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ والمشاكل التي أفرزها عصر الخلفاء ممن سبقوه ثم يتطرق صراحة إلى أحقيته بالخلافة من الجميع معرباً عن أسفه وابتئاسه لخروج الخلافة عن محورها الأصلي الذي خطط له الإسلام والنبي. وأخيراً يتحدث عن قضية مبايعة الأمة والأهداف الكامنة وراء قبول البيعة بعبارات قصيرة غاية الروعة والبيان.

الشرح والتفسير

تحليل مهم لمسألة الخلافة

تشير الخطبة - كما ذكرنا سابقاً - إلى العواصف العنيفة والخطيرة التي هزت الأمة الإسلامية وحرفت خلافة رسول الله ﷺ بعيد وفاته عن مسارها السليم، كما تتعرض لأصحاء الأفراد وأجدرهم بالأخذ بزمام شؤون الأمة وزعامتها على ضوء المنطق والدليل والبرهان، كما تعرج الخطبة على وخامة المعضلات التي أفرزها تقاعس المسلمين عن الالتزام بنصوص النبي ﷺ الواردة بشأن زعامة المسلمين.

فقد إستهل الإمام ﷺ الخطبة بشكواه بما آلت إليه الخلافة فقال: «أما والله لقد تقمصها^١ فلان وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا^٢».

لا شك ولا إشكال في أن الضمير في «تقمصها» يعود إلى الخلافة، ولعل التعبير بالقميص إشارة إلى أمر وهو أن فلاناً قد استغل مسألة الخلافة كقميص يزين به نفسه، والحال أن هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها في الحركة ويحول دون انحراف مسارها وتعتثر بفعل المطبات التي تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين. أجل فالخلافة ليست قميصاً، بل هي رحي الجامعة، وليس للخلافة من غنى عن المحور.

هي ليست ثوباً يرتدى، ثم يستدل ﷺ بدليل واضح على المعنى المذكور ليكشف عن مدى علمه وسمو مقامه «ينحدر^٣ عنى السيل ولا يرقى إلى الطير». فقوله ﷺ «ينحدر عنى السيل» يعني رفعة منزلته ﷺ كأنه في ذروة جبل أو يقاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، وقوله ﷺ «و لا يرقى إلى الطير» هذه أعظم في الرفعة والعلو من التي قبلها، لان السيل ينحدر عن الراية والهضبة، وأما تعذر رقى الطير فر بما يكون للقلال الشاهقة جداً، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إنِّي لعلو منزلتي كمن في السماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها.

١. «تقمص» من مادة قميص بمعنى لبسها كالتقميص.

٢. «الرحا» بمعنى الطاحونة، وقد استعملت مادتها بصورة ناقص واوي وناقص يائي.

٣. «ينحدر» من مادة إنحدر بمعنى الانهمار والسقوط على وجه الكثرة.

والتشبيه المذكور ينسجم وما ورد في القرآن الكريم بشأن دور الجبال في إستقرار الأرض ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلأً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^١. أجل لولا هذه السلسلة العظيمة من الجبال لسلبت السكينة والاستقرار من الناس بفعل الضغوط الجوفية لباطن الأرض من جانب وتأثير جاذبية الشمس والقمر وجزر ومد القشرة الأرضية من جانب آخر وأخيراً هبوب العواصف، ولا نعدمت المياه التي تنهمر من السماء فتصب في البحار والمحيطات وتشكل مصادر الأنهار والأبار والعيون. فوجود الإمام المعصوم والعالم العارف يشكل معين الخير البركة والسكينة لكل أمة.

إلى جانب كون تعبير الإمام عليه السلام يشير إلى تعذر سبر أغوار أفكار الإمام عليه السلام والوقوف على كنه شخصيته وذروة علمه ومعرفته، ولا يتيسر ذلك إلا لمعلم الإمام نبي الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه وآله. حتى صحابة الإمام عليه السلام كانوا ينتهلون حسب إستعدادهم من منهله العذب ويحيطوا بظاهره على قدر معرفتهم وعلمهم^٢.

النقطة الأخرى الجديرة بالذكر تكمن في الاستفادة من الأنهار في حركة الرحي وتنبع هذه الأنهار من الجبال كما أنها تفصل هذه الرحي عن الجبال. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذا المعنى، أي أنا المحور والرحي والقوة المحركة المليئة بالعلم والمعرفة. وكما أشرنا آنفاً فإن قم الجبال تحتزن بركات السماء كحبات ثلج ثم تفيض بها على الأرض الهامدة المتعطشة للماء، ويمكن أن تكون العبارة إشارة إلى قرب الإمام عليه السلام من الوحي والاعتراف من كوثر النبي صلى الله عليه وآله.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالسيل في العبارة هو علم الإمام عليه السلام الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^٣ كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه فسر «ماء معين» الواردة في الآية ٣٠ من سورة الملك ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرأً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ بعلم الإمام عليه السلام^٤.

١. سورة النحل / ١١٧.

٢. للوقوف على حقيقة التعبيرات الواردة بشأن أمير المؤمنين علي عليه السلام وأفضليته المطلقة على من سواه من أفراد الأمة، نكتفي بالإيضاحات التي وردت في مقدمة الكتاب بشأن فضائله ومناقبه عليه السلام.

٣. للوقوف على إسناد هذا الحديث المعروف في مصادر العامة، انظر إحقاق الحق ٥/ ٤٦٨-٥٠١.

٤. تفسير نور الثقلين ٥/ ٣٨٦ وليس هنالك من منافاة بين هذا التفسير وذلك الذي فسره بالماء الجاري، عليه السلام.

وهنا تطرح بعض الأسئلة نفسها من قبيل:

الأول: لم مدح الإمام عليه السلام نفسه والحال ورد الذم على ذلك كقوله «تزكية المرء لنفسه قبيح». وللإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك فارق بين مدح النفس والتعريف بها. فقد تكون الأمة أحياناً جاهلة بشخصية فرد؛ الأمر الذي لا يجعلها تستفيد منه ومن طاقاته كما ينبغي فالتعريف بالشخص هنا سواء من قبله أو من قبل الآخرين ليس فقط لا ضير فيه فحسب، بل هو عين الصواب والسبيل الصحيح للنجاة وهو بالضبط من قبيل تعريف الطبيب بمجال تخصصه الذي يضعه على الوصفة الطبية، الأمر الذي يهدف إلى إرشاد المرضى في مراجعته ولا ينطوي على أي مديح للشخص.

السؤال الثاني: قوله عليه السلام: «ينحدر عني السبيل ولا يرقى إلي الطير» هو زعم منه عليه السلام ليس

أكثر فهل قام الدليل عليه؟

يبدو أنّ الإجابة على هذا هي أوضح منها على السؤال الأول؟ لأن المقام العلمي الذي أختص به أمير المؤمنين عليه السلام ليس بخاف على من له أدنى إطلاع بتاريخ الإسلام والمسلمين. فنا هيك عن تواتر الأحاديث النبوية الجمّة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل علمه وتصريحات العلماء الأعلام في أنّه مصدر كافة العلوم والمعارف الإسلامية وزعيمها، إلى جانب تصديه لأعقد المسائل التي كان يعجز عنها من سبقه من الخلفاء فان أدنى مطالعة لرسائله خطبه وقصار كلماته التي جمعت في نهج البلاغة لكافية في الوقوف على هذه الحقيقة. فلو تصفح كل إنسان منصف - مسلماً كان أم غير مسلم - نهج البلاغة لخضع متواضعا لعظمة الإمام ولعاش عملياً مفهوم قوله عليه السلام: «ينحدر عني السبيل ولا يرقى إلي الطير».

السؤال الثالث: كيف يشكوك عليه السلام الحوادث المرتبطة بالخلافة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، ألا

يتنافى ذلك ومفهوم الصبر والرضا والتسليم؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة. فالصبر والرضا والتسليم موضوع، وتبيين

ولا التفسير الذي ورد في بعض الروايات من أنّ المراد بالماء المعين أصل وجود الإمام عليه السلام، وذلك لإمكانية جمع هذه المعاني في مفهوم الآية.

١. لقد ذكر ابن أبي الحديد بحثاً مفصلاً بهذا الشأن في شرحه لنهج البلاغة، ثم تطرق إلى العلوم الإسلامية وشرح كيفية إرتباطها بعلم الإمام عليه السلام من الناحية التاريخية (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧/١-٢٠).

الحقائق ليدونها التاريخ ويلم بها أبناء الأمة في الحاضر والمستقبل موضوع آخر، بحيث لا يتضمن الأمر أية منافاة فحسب، بل هو من أوجب الواجبات، وما القضايا المتعلقة بالخلافة إلا نموذج حي من هذه النماذج. ففي الحقيقة والواقع أن مصالح المجتمع الإسلامي والاجيال الإسلامية القادمة هي التي تحتم تبين هذه الحقائق كي لا تودع بوتقة النسيان. ثم قال ﷺ: «فسدلت^١ دونها ثوبياً، وطويت عنها كشحاً^٢».

تفيد هذه العبارة بوضوح أن رد فعل الإمام ﷺ حيال تلك الحادثة لم يكن يتضمن الاستعداد والتأهب لخوض الصراع والاشتباك مع الآخرين، بل تجاهل بكل بسالة وزهد ذلك الأمر لاسباب سنتطرق إلى ذكرها.

ولكن من جانب آخر فان بعض الأفكار كانت تمارس ضغطها عليه لتجعله يتساءل: ما الذي ينبغي فعله تجاه هذا الانحراف الخطير وكيف ينهض بمسئوليته التاريخية بالنسبة لهذا الأمر؟ ومن هنا أردف قائلاً: «وظفقت أرتثي بين أن أصول بيد جذاء^٣، أو أصبر على طخية^٤ عمياء».

فالإمام ﷺ يكشف في هذه العبارة عن حقيقة وهي: أنني لم أنس طرفة عين مسئوليتي تجاه الأمة والوظيفة التي وضعها الله ورسوله ﷺ على عاتقي، ولكن ليت شعري ما أنا فاعل وهناك محذوران: المحذور الأول: هل أنهض بالأمر وأخوض الصراع مع الغاصبين، والحال لا أملك العدة والعدد من جانب، ومن جانب آخر فان من شأن هذه النهضة أن تشق عصا المسلمين وتفرق صفوفهم وتتلج صدور الأعداء والمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين مثل هذه الفرصة ليجهزوا على الإسلام.

المحذور الثاني: أن ألزم الصبر والصمت حيال هذه الحادثة في ظل هذه الأجواء الدامسة الظلام. والتعبير بالطخية العمياء ينطوي على روعة في الدقة والبيان فالطخية تعني الظلام.

١. «سدلت» من مادة «سدل» على وزن عدل بمعنى نزول الشيء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يغطي، وعليه فان مفهوم سدلت هنا تركتها وارهيت عليها شيئاً.

٢. «كشح» على وزن فتح بمعنى الضلع و«طوى عنه كشحه» كناية عن عدم الاهتمام بشيء والانصراف عنه.

٣. «جذاء» بمعنى القطع والكسر.

٤. «طخية» بمعنى الظلمة وتأتي بمعنى السحب الخفيفة و«الطخياء» بمعنى الليلة الظلماء.

وأحيانا يمكن إختراق الظلمة - إذا لم تكن شديدة - لمشاهدة شبح ما خلالها، غير أن هذه الظلمة من الشدة والعتمة بحيث أطلق عليها العمياء لتعذر رؤية أي شيء من خلالها. ثم يتحدث الإمام عليه السلام عن خصائص تلك الظلمة والفتنة ليجزها في عبارات ثلاث عميقة المعنى فيقول: «يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدر^١ فيها مومن حتى يلقي ربه».

و يفهم من هذه العبارة أن المعاناة ستعم الجميع. فهي تشيب الصغير وتهرم الكبير بينما ستتضاعف معاناة المؤمنين بفعل تصاعد حدة المشاكل التي سيشهدها المجتمع الإسلامي والاطار التي تهدد كيانه بما يجعلهم يعيشون هالة من الغم والحزن على مصير الإسلام. فلم تمض مدة حتى تبلورت تلك الاخطار لتشهد ولادة العصر الاموي الذي تمكن خلال مدة قياسية من القضاء على الصرح الإسلامي الذي شيده رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه بجهودهم المضنية ومساعدتهم العظيمة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ليعلم عن موقفه تجاه القضية وعزمه على التحلي بالصبر: «فرايت أن الصبر على هاتا^٢ أحجى^٣». ثم يصف عليه السلام طبيعة ذلك الصبر فيقول: «فصبرت وفي العين قذى^٤ وفي الحلق شجا^٥».

فالعبارة صورة واضحة عن ذروة إستياء الإمام عليه السلام وتذمره في تلك السنوات من المحنة والمصيبة، بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها، كما لم يكن يسعه أن يرفع صوته ويعلن عن مدى حرقتة، وكيف لا يكون كذلك «أرى تراشي نهبا».

تأملات

١- لم آثر الإمام عليه السلام الصبر؟

يشهد التاريخ أن المنافقين وخصوم الدعوة كانوا يتربصون بالنبي صلى الله عليه وسلم ورحيله عن دار

١. «يكدر» من مادة «كدر» بمعنى السعي المصحوب بالتعب.

٢. الهاء في هاتا علامة تنبيه والتاء إسم إشارة مونث، إشارة إلى «طنخبة» «الظلمة» التي وردت في العبارة السابقة. واعتبر البعض أن المشار إليه الحالة المستفادة من العبارة فيكون المعنى «فرايت أن الصبر على هذه الحالة أحجى».

٣. «أحجى» من مادة «حجا» بمعنى العقل، وعليه أحجى تعني الاعقل.

٤. «قذى» بمعنى التلوث.

٥. «الشجي» بمعنى الهم والغم والشدة والألم، وتعني أيضا ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه.

الدنيا لتفتت وحدة المسلمين ويتصدع كيانهم ليطمهد أمامهم السبيل من الانقضاء على الدين وأهله وبالتالي كسر شوكته والقضاء عليه؛ فلو نهض الإمام عليه السلام بالأمر في ظل هذه الظروف من أجل نيل حقه أو بعبارة أخرى بغية إعادة المسلمين إلى المسار الإسلامي الصحيح لعصر النبي صلى الله عليه وآله وبالالتفات إلى القرارات التي أتخذت سلفاً باقضاء الإمام عليه السلام عن الخلافة فإن قتالاً سينشب لتعم الفوضى والاضطراب في صفوف المجتمع الإسلامي بما يمهّد السبيل أمام المنافقين والمتربصين لنيل أطماعهم ومآربهم، والشاهد الحي على ذلك تمرد المرتدين عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله الذين هبوا للوقوف بوجه الحكومة الإسلامية، ولم يكتب لهم النجاح بفعل المقاومة التي أبدتها الأمة تجاههم.

فقد صرّحت بعض السير التاريخية بهذا المجال: «لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله إرقدت العرب واشترأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية»^١.

هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فإن نهوض الإمام عليه السلام بالأمر قد لا تبدو فيه بارقة أمل بالنصر بفعل غياب العدة والعدد من أنصار الحق، ولعل قيام الإمام عليه السلام بالأمر لا يفسر من أغلب الجهال كانتصار للدين والعقيدة بل يعزوه إلى قضايا شخصية محضة.

غير أن الخسائر التي تكبدها المسلمون على مرور الزمان إثر انحراف مسار الخلافة عن محورها قد صورها الإمام عليه السلام بمثابة القذى في العين والشجا في الحلق. وهذا درس كبير لكافة المسلمين على مدى التاريخ وهو أن إحقاق الحق إذا استلزم توجيه ضربة إلى دعائم الدين وجب التحفظ عنه وعدم المبادرة إليه، لأن حفظ الدين مقدم على كل ما سواه، وليس هنالك من سبيل في مثل هذه الحالة سوى التحلي بالصبر والتحمل. وقد ورد شبيه هذا المعنى في الخطبة رقم ٦٠ حيث قال عليه السلام: «فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي... وأغضيت على القذى وشربت على الشجى».

٢- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟

لقد قال الإمام عليه السلام: «أرى تراثي نهبا» وهنا يبرز هذا السؤال: لم عبر الإمام عليه السلام عن الخلافة بالارث؟

و تتضح الإجابة على هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن الخلافة إرث معنوي وإلهي ينتقل من النبي صلى الله عليه وآله إلى أوصيائه المعصومين عليهم السلام فهو ليس من قبيل الارث الشخصي والمادي والحكومة الظاهرية. وقد ورد شبيه هذا المعنى في الآيات القرآنية بشأن «زكريا» الذي سأل الله من يرثه ويرث آل يعقوب ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^١.

والحق أن هذا الارث يتعلق بجميع الأمة إلا أن الإمام خليفة النبي صلى الله عليه وآله هو الذي ينهض به. ونقرأ بشأن وراثة الكتاب السماوي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^٢. وعلى غرار ذلك ورد الحديث النبوي المشهور «العلماء ورثة الأنبياء»^٣.

وشاهدنا على مامرّ معنا سيرة الإمام عليه السلام وحياته التي أفادت عدم تعلقه من قريب أو بعيد بمال الدنيا وحطامها والخلافة - إلا أن ينهض بوظيفته في إحقاق حق أو ازهاق باطل - التي لم تكن تعدل عنده عطفة عنز أو قيمة نعليه. لكن والحال هذه كيف يصف صبره على فقدان الخلافة بالقذو في العين والشجى في الحلق؟ لقد ذهب البعض إلى أن مراده بالتراث المنهوب هو فذك التي ورثها رسول الله صلى الله عليه وآله بنته الزهراء عليها السلام، وقد اعتبر ذلك أرثه لمال الزوجة بحكم مال الزوج^٤، غير أن هذا الاحتمال يبدو مستبعدا لأن الخطبة بجميع مضامينها تعالج قضية الخلافة.

٣- الإمام عليه السلام جليس البيت

لا أحد يسعه إنكار الخسائر الفادحة التي تكبدها العالم الإسلامي إثر إقصاء علي عليه السلام

١. سورة مريم / ٥-٦.

٢. سورة فاطر / ٣٢.

٣. اصول الكافي ١ / ٣٢-٣٤.

٤. منهاج البراعة ٣ / ٤٥.

وجلسه في داره، فلو قصرنا نظرنا على البعد العلمي حين تصفحنا لنهج البلاغة الذي يمثل جزءاً من خطبه ورسائله وكلماته القصار التي أوردتها خلال تلك المدة القصيرة من حكومته رغم ما انطوت عليه من أحداث مريرة وحروب دامية، لاكتشفنا بيسر مدى العلوم والمعارف والخيرات والبركات التي كانت ستعم العالم الإسلامي بل الدنيا برمتها لولا تلك المدة المديدة - ٢٥ سنة - التي اضطر فيها الإمام عليه السلام للجلوس في بيته. لا شك أن حرمان المجتمع من فيوض الإمام عليه السلام قد جر عليها الويلات والدمار. ولكن ما العمل يا ترى وقد سلبت الأمة هذا الفيض العظيم لتبدو خسائره واضحة على مدى التاريخ.

٤- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضية الخلافة؟

يتساءل البعض: ألم يكن من الأفضل أن يسدل الإمام عليه السلام الستار على الماضي ولا يتطرق إلى مسألة الخلافة؛ الأمر الذي قد يثير الفرقة والتشتت في صفوف المسلمين ويشق وحدتهم؟ ولا عجب فأننا نرى اليوم البعض ممن يردد هذا الكلام، فما أن تطرح قضية الخلافة وأن الإمام أحق بها وأولى من غيره حتى تتعالى الأصوات مطالبة بالصمت ونسيان الماضي تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة الإسلامية وأنها تواجه اليوم أعداء الإسلام والمخاطر الكبرى ومن شأن إثارة هذه الأحاديث أن تضعف المسلمين في مجابهة أعدائهم؛ بل هل من جدوى لمثل هذه الأحاديث والحال أن أتباع كل مذهب يواصلون مسيرتهم دون الإكتراث لهذا الصوت أو ذلك، وعليه فمن المستبعد أن تلعب هذه الأمور أي دور على مستوى إخوة المسلمين ووحدتهم.

وللإجابة على هذا التساؤل لابد من التذكير بأمرين:

أ- إن الوقائع الموجودة لا يمكنها إخفاء الحقائق البتة. فهذه حقيقة قائمة وهي أن النبي صلى الله عليه وآله قد أكد في أكثر من مناسبة على إستخلافه. فما الذي حدث لتشوه هذه الحقيقة وينصح بعدم إثارتها بعد تأكدها من قبل النبي صلى الله عليه وآله وبناءً على ما تقدم فإن علياً عليه السلام الذي يتبنى الحق حيثما كان له الحق في التصدي للوقائع القائمة التي لا تنسجم والحقيقة، فيتعرض للحقائق المرتبطة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليتسنى للمحققين أن يصدروا أحكامهم بهذا الشأن ولو بعد

قرون مديدة ليعرفوا الحق وأهله والباطل وأهله فيسلكوا سبيل الحق على ضوء دراساتهم وتحقيقاتهم. على كل حال لا يمكن منع إنسان عن بيان الحقيقة، ولو افترضنا قدرتنا على ذلك فاننا لا نمتلك الحق في منعه، لما يتضمنه المنع من خسائر فادحة، وذلك لأن الواقع القائم غالباً ما يختلف والحقيقة وقد يبتعد عنها مسافة شاسعة. فالوضع القائم لا يعني أبداً أن يكون هو السائد على الدوام حيث يلهمنا الإسلام أن نسعى لا قتفاء ما ينبغي أن يكون، ومما لا شك فيه أن مسألة الخلافة والامامة بعد النبي ﷺ لمن المباحث الدينية الرئيسية؛ سواء كانت جزءاً من أصول الدين كما يعتقد بذلك أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، أو جزءاً من فروع الدين. مهما كان فهي مسألة مصيرية من وجهة النظر الدينية ولا تنطوي على أية صيغة شخصية، خلافاً لما يزعمه البعض من الجهال والغافلين فهي ليست مبحثاً تاريخياً يتعلق بالماضي قد أكل عليه الدهر وشرب؛ بل هي قضية تنطوي على عدّة معطيات مؤثرة في حاضر المسلمين ومستقبلهم، كما لا يخفى أثرها في العديد من المسائل الإسلامية المرتبطة بأصول الدين وفروعه؛ وهذا هو الأمر الذي يقف وراء إثارة الإمام عليه السلام لمسألة الخلافة كراراً ومراراً.

ب - إن الأبحاث العقيمة والمجدل الفارغ القائم على أساس التعصب والجمود هي التي تشكل الخطر الأساس على وحدة الأمة الإسلامية وشق صفوفها؛ أما الأبحاث العلمية والمنطقية التي يراعي فيها أطراف الحوار والبحث الحدود والموازن العلمية والمنطقية فليست بذات خطر على الوحدة الإسلامية فحسب، بل من شأنها أن تساعد في إرسائها وتوثيق دعائمها. طبعاً هذا ليس ضرباً من الخيال الفكري بل عشناه على مستوى الواقع والتجربة. فقد أقيمت أخيراً ندوة في إحدى المدن بمناسبة أسبوع الوحدة حضرها كبار العلماء والمفكرين من الفريقين نوقشت خلالها أغلب القضايا الخلافية وقد تمخضت عن عدّة نتائج طيبة حيث قربت وجهات النظر وضغطت حدة الخلافات، بما جعل الجميع يوقنون بأن مثل هذه الأبحاث والحوارات يمكنها أن تقضي على الفجوة بين المذاهب الإسلامية وتوطيد أواصر الاخوة بما يخدم وحدة المسلمين^١.

١. انظر مجلة رسالة الحوزة للوقوف على المباحث المهمة التي طرحت في تلك الندوة والتقارب الذي حصل بين الأفراد.

بل أبعد من ذلك أننا نرى الحوار بشأن الأديان السماوية هو الآخر من شأنه أن يتمخض عن نتائج مفيدة بما يقلل من هوة الخلاف، وليعلم أولئك الذين يقفون بوجه هذه الحوارات البناء أنهم يساهمون بشكل أو بآخر في مضاعفة الخلافات وتعميق الفجوة بين الأديان والمذاهب.

القسم الثاني

حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَذَلَّى بِهَا إِلَى فَلَانٍ بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْمَى:
«شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَ يَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرٍ
فِيَا عَجَبًا!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخِرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ - لَشَدُّ
مَا تَشَطَّرَا ضَرَعَيْهَا - فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشَنُ
مَسُّهَا وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالْإِعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَّابِ الصَّعْبَةِ إِنْ
أَشْنَقَ لَهَا خَرَمًا، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمًا، فَمُنِي النَّاسِ - لَعَمْرُ اللَّهِ - بِخَبِطِ
وَشِمَاسٍ، وَتَلَوْنِ وَاعْتِرَاضِ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمُخْنَةِ».

۵۷۷

الشرح والتفسير

عصر الخليفة الثاني

أشار الإمام علي عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عهد الخليفة الثاني فقال: «حتى مضى الأول لسبيله فأذلى بها إلى فلان بعده». ^١ أدلى من مادة دلو وهي تستعمل في سحب الماء من البئر بالحبل والدلو كما تستعمل بمعنى الجائزة والأجرة والرشوة في الحكم، فقد قال القرآن بهذا المجال: «وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» ^٢.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: وعمر هو الذي شد بيعة أبي بكر، ورغم المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفن في صدر المقداد، ووطئ في السقيفة سعد بن عباد، وقال: اقتلوا

١. توفي في العام الثالث عشر من الهجرة بعد أن تولى الخلافة لمدة سنتين وثلاثة أشهر. «مروج الذهب

٣٠٤/٢ الطبعة الرابعة».

٢. سورة بقره / ١٨٨.

سعداً، قتل الله سعداً. وحطم أنف الخباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفة: أنا جذيلها المحك، وغذيقها المرجب.

وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين، وأخرجهم منها، ولولاه لما يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة^١.

ومن هنا تتضح روعة تعبيره عليه السلام بأدلى، ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخى جابر^٢

حيث أراد الإمام عليه السلام أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله وأعظمهم منزلة وحرمة بل كنت نفس رسول الله صلى الله عليه وآله غير أنهم أقصوني بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافة التي لا تصلح إلا لي فيرمون بها لمن يشاؤون.

وذهب البعض إلى أنه أراد أن يقارن بين خلافته - من تمثله بهذا الشعر - وخلافة من سبقوه ممن كانوا في نعمة ورخاء بينما حفل عهده لا بتعاده عن عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بالويلات والمصائب «بالطبع هذا إذا كان الأعشى أراد مقارنة حاله بحال حيان»^٣.

ثم يعبر الإمام عليه السلام عن اندهاشه وذهوله لما يحصل «فيا عجباً! بينا هو يستقبلها في حياته إن عقدها لآخر بعد وفاته».

الواقع هو أن هذه العبارة إشارة إلى حديث معروف نقل عن أبي بكر خاطب به الناس أوائل خلافته حيث قال: «أقيلوني فلست بخيركم». ورواه البعض الآخر «و ليتكم ولست بخيركم»^٤.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٧٤.

٢. الأعشى من أبرز شعراء الجاهلية. سئل يونس النحوي: من أشعر الشعراء؟ قال: لا أعلم أشعرهم إلا أني أقول إمراء القيس فارسا والنابغة حين الخوف وزهير عند الحب وإلا أعشى عند الطرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، لقب بالأعشى لضعف بصره وقد عمي آخر عمره واسمه ميمون بن قيس، وأراد بشعره السابق الزمان الذي كان يجالس فيه حيان أخو جابر أحد أشراف اليمامة حين كان يعيش الأعشى آنذاك في نعمة موفورة فيقارنها مع عيشه الآن في صحاري مكة والمدينة فيقول أين تلك الحياة من هذه!

٣. شرح ابن ميثم البحراني ١ / ٢٥٧.

٤. لقد استفاضت مصادر الفريقين التي روت هذا الحديث، وقد أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، ١ / ١٦٩.

وكيف كان مضمون الرواية فهي تشير إلى عدم رغبته بقبول الخلافة أو كما ذهب البعض لم يكن يكثر لها أو أنه لم يكن يرى نفسه جديراً بالخلافة مع وجود علي عليه السلام، ورغم ذلك فإن هذا الكلام لا ينسجم وما فعله أو آخر عمره؛ الأمر الذي أثار دهشة الإمام عليه السلام في كيفية تفويض الخلافة دون الرجوع إلى آراء الأمة: ثم قال عليه السلام «لشد ما تشطر ضرعيها» الضرع بمعنى الثدي وتشطرا من مادة شطر بمعنى جزء من الشيء.

فالعبرة تشبيهه رافع بالنسبة للأفراد الذي يستفيدون من شيء على وجه التناوب فالمراد بتشطر ضرعيها: إنها إقتسا فائدتها ونفعها، والضمير للخلافة، وسمى القادمين معاً ضرعاً وسمى الآخرين معاً ضرعاً لما كان لتجاورهما، ولكونها لا يجلبان إلا معاً، كشيء واحد فالعبرة بصورة عامة تشير إلى مشروع معد ومبرج مسبقاً ولم يكن من قبيل الصدفة أبداً.

إجابة علي عن إستفسار

لقد قال البعض بأنّ أبا بكر قال: أقبيلوني فلست بخيركم، وقد ورد مثل هذا الكلام عن علي عليه السلام في نهج البلاغة بعد مقتل عثمان حيث قال: «دعوني والتمسوا غيري... وان تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً» فما تقولون؟

للرد على ذلك نقول لابن أبي الحديد كلام بهذا الشأن ولنا كلام، فقد قال ابن أبي الحديد: قالت الإمامية هذا غير لازم والفرق بين الموضعين ظاهر لأنّ علياً عليه السلام لم يقل: إنّي لا أصلح، ولكنه كره الفتنة، وأبو بكر قال كلاماً معناه: إنّي لا أصلح لها، لقوله «لست بخيركم»، ومن نفى

و صرح العالم المصري الكبير الشيخ محمد عبده في شرحه لنهج البلاغة قائلاً: روى البعض أنّ أبا بكر لما تمت له البيعة قال: «أقبيلوني فلست بخيركم» لكن أغلب العلماء رووا الحديث أنّه قال: «أو لست بخيركم» (شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، ص ٨٦ ذيل هذه الخطبة). وجاء في حاشية إحقاق الحق عن ابن حنويه المحدث الحنفي الموصلي في كتابه «در بحر المناقب» حديثاً مفصلاً أنّ أبا بكر قال: «أقبيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم» (إحقاق الحق ١٨ / ٢٤٠). وروى الطبري في تاريخه لما بويج أبي بكر في السقيفة قال: «أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم» (تاريخ الطبري ٢ / ٤٥٠ طبع بيروت مؤسسة الأعلمي). وروى ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة أنّ أبا بكر خطب الناس باكياً فقال: «لا حاجة لي في بيعتكم أقبيلوني بيعتي» (الإمامة والسياسة ١ / ٢٠).

عن نفسه صلاحيته للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره - واعلم أن الكلام في هذا الموضوع مبني على أن الأفضلية هل هي شرط في الإمامة أم لا؟ (في إشارة إلى أنه يمكن القول بعدم اشتراط الأفضلية في الإمامة؛ الكلام الذي لا يقره أي منطق وعقل ولا يدعو سوى الخجل) ^١.
 إلا أننا نرى القضية أعمق من ذلك. فلو تأملنا الخطبة رقم ٩٢ التي استدلووا بها والتفتنا إلى بعض عباراتها التي لم يستشهد بها عند الاستدلال لا تضح لنا تماماً مراد الإمام عليه السلام. فقد صرح ضمن الخطبة المذكورة قائلاً: «فأنا مستقبلون أمرأله وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول» (إشارة إلى مدى التغييرات التي طالت الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية، عليه فلا بد لي من القيام ببعض الإصلاحات الشورية والتي ستودي لاعتراض البعض منكم وبالتالي نشوب المواجهة).

ثم أضاف عليه السلام: «و ان الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت»، ثم يشير عليه السلام إلى كبد الحقيقة فيقول: «و اعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب».

أما الشاهد على أن الإمام عليه السلام يرى وجوب الأفضلية كشرط في الخلافة ما أورده عليه السلام في الخطبة ١٧٣ من نهج البلاغة إذ قال عليه السلام: «أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه» ^٢ ونخلص مما سبق إلى أن المقارنة بين كلام الإمام علي عليه السلام وأبي بكر هو «قياس مع الفارق» لانعدام أي تشابه بين الكلامين.

ونختتم هذا الكلام بما أورده ابن أبي الحديد حين حاول تبرير حديث الخليفة الأول حيث قال: واحتج بذلك من لم يشترط الأفضلية في الإمامة.

ومن رواها إعتذر لأبي بكر فقال: إنما قال: أقيلوني، ليثور ما في نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدهم وكارههم، ومحبههم ومبغضهم. فلما رأى النفوس إليه ساكنة، والقلوب لبيعته مذعنة، استمر على أمارته، وحكم حكم الخلفاء في رعيته، ولم

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٦٩.

٢. نهج البلاغة، خطبة ١٧٣.

يكن منكرًا منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته^١.

ولا يخفى على أحد خواء هذه التبريرات، لأنَّ إعراف كل فرد ينبغي أن يحمل على معناه الواقعي، وصرف اللفظ عن معناه الحقيقي إنما يحتاج إلى قرينة ليست متوفرة هنا. بعبارة أخرى إنَّ هذا الاعتراف قانوني يؤخذ به في كل محكمة وليس من عذر لهذا الاعتراف فهو إقرار جائز عقلاً.

ثم يصف الإمام عليه السلام شخصية الخليفة الثاني وما انطوت عليه من خصائص ومميزات فقال عليه السلام: «قصيرها في حوزة^٢ خشتاء يغلظ كلمها^٣ ويخشن مسها ويكثر العثار^٤ فيها، الاعتذار منها»

المراد بالحوزة هنا أخلاق الخليفة الثاني وصفاته فالواقع قد ذكر له أربعة صفات، الأولى خشونته وعنفه التي عبر عنها بقوله «يغلظ كلمها» في إشارة إلى الجروح الروحية والجسمية التي يفرزها الاصطدام به. الصفة الثانية الشدة في التعامل «ويخشن مسها» وعليه فالحوزة الخشنة قد فسرت بالعبارتين اللاحقتين التين أشارتا إلى العنف في الكلام والعنف في المعاملة. الصفة الثالثة هي كثرة الأخطاء والرابعة الاعتذار من تلك الأخطاء «ويكثر العثار فيها الاعتذار منها».

أمَّا بشأن كثرة أخطاء الخليفة الثاني ولا سيما أخطائه في بيان الأحكام وإقراره بتلك الأخطاء والاعتذار منها والعنف في المعاملة فقد حفلت بها السير التاريخية بل أفرد لها علماء العامة عدداً من الكتب وسنكتفي لاحقاً بالإشارة إلى نماذج منها. ثم قال عليه السلام: «فصاحبها كراكب الصعبة^٥ إنَّ أشنق^٦ لها خرم^٧ وإنَّ أسلس^٨ لها تقحم^٩».

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/١٦٩.

٢. «حوزة» بمعنى الناحية والطبيعة، من مادة «حياز» بمعنى الجمع والاحاطة.

٣. «الكلم» في الأصل بمعنى الجرح، واطلق لفظ الكلام لاثره القاطع في المقابل.

٤. «العثار» بمعنى السقوط والكبوة.

٥. «الصعبة» بمعنى الإنسان أو الحيوان الطائش، ما ليست بذلول وأريد بالصعبة هنا الناقة الجامحة.

٦. «أشنق» بمعنى سحب زمام الناقة و«شناق» على وزن كتاب يطلق على الحبل الذي تربط به القربة.

٧. «خرم» من مادة «خرم» بمعنى القطع.

٨. «أسلس من» مادة «سلس» على وزن قضص وسلاسة بمعنى السهولة وعليه فإن أسلس بمعنى أرخى.

٩. «تقحم» من مادة «قحوم» على وزن شعور بمعنى رمي النفس في الهلكة دون إجماله الفكر.

قال الإمام عليه السلام يشرح بهذه العبارة حاله وحال فريق من المؤمنين على عهد خلافة الخليفة الثاني، بحيث إذا أراد أحدهم أن يصطدم بالخليفة - واستناداً إلى صفاته المذكورة سابقاً - فقد يؤدي ذلك إلى بروز الاختلافات والمشاجرات بين أوساط المسلمين أو الاخطار التي سيتعرض إليها من جانب الخليفة، وإن فضل الصمت برزت الاخطار التي تهدد الكيان الإسلامي والخلافة الإسلامية، فالواقع هناك خطران لا ينفصلان: خطر الاصطدام بالخليفة خطر فقدان المصالح الإسلامية ولهذا يشكو الإمام عليه السلام ما ألم به وبالمؤمنين آنذاك يعرض للمشاكل المتفاقمة التي أصابت المسلمين.

كما إحتمل بعضى شراح نهج البلاغة أن الضمير في (صاحبها) يعود إلى مطلق الخلافة؛ أي أن طبيعة الخلافة تختزن دائماً أحد هذين الخطرين، فلو أراد الحاكم - الخليفة - أن يتعامل بجرم مع كل شيء كانت هنالك ردود الفعل الحادة والعنيفة، ولو أراد التعامل على أساس الرفق واللين برز خطر السقوط في وادي الانحراف والخطأ وزوال القيم الإسلامية. لكن تشير القرائن إلا أن المعنى الأول هو المراد بالعبارة وهذا ما يتضح بجلاء من خلال التأمل في العبارات اللاحقة^١. ثم قال عليه السلام: «فمضى^٢ الناس لعمر الله بخبط^٣ وشماس^٤ وتلون^٥ واعتراض^٦».

فقد تضمنت العبارة إشارة إلى أربع ظواهر نفسية للأمة في عهد الخليفة الثاني كأنها تقتبس من رئيس الحكومة، لأن لسلوك الحاكم إنعكاس واسع على نفوس أبناء الأمة وقد قيل سابقاً «الناس على دين ملوكهم».

الاولى: أن أتشطتهم وقراراتهم الطائشة سبب ظهور الفوضى في المجتمع.

الثانية: أنهم خارجون على القوانين الشرعية والنظم الاجتماعية.

١. هنالك احتمال ثالث ذكرهنا في أن المراد الخلافة على عهد الإمام علي عليه السلام، حيث شهدت الأوضاع بروز خطرين، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً.

٢. «مضى» من مادة «مضى» بمعنى ابتلى واصيب.

٣. «خبط» بمعنى «ضرب» الناقة للأرض، وأريد بها السير على غير هدئ.

٤. «شماس» بمعنى الابهاء والطيش (إبهاء ظهر الفرس عن الركوب).

٥. «تلون» بمعنى تغيير الحال أو اللون.

٦. «اعتراض» بمعنى السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عرضاً في حال سيره طولاً.

الثالثة: التلون المستمر وركوب الموجة والتخبط والانسلاخ من فئة والالتحاق بأخرى وعدم امتلاك الهدف المعين في الحياة.

الرابعة: الانحراف عن مسار الحق والسير على سبيل غير الهدى.

و مما لا شك فيه - وكما سنتعرض إلى ذلك بالتفصيل لاحقا - أن السياسة الخارجية في عصر الخليفة الثاني والفتوحات الإسلامية والامتداد خارج الحجاز قد خلقت ذهنية للناس بشأن شكل الحكومة في أمتها موفقة على جميع الأصعدة فيقل إهتمامهم بالمشاكل الداخلية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي، والحال كما أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات أن طائفة من المسلمين قد شهدت حالة من التخبط على مستوى العقائد والعمل والقضايا الأخلاقية والابتعاد تدريجياً عن الإسلام الأصيل بفعل الأخطاء والاجتهادات في مقابل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية؛ الأمر الذي أدى في خاتمة المطاف إلى تلك الثورة العارمة على الخليفة الثالث وبما مهد السبيل أمام ظهور الحكومة الاستبدادية في العصر الأموي والعباسي التي تفتقر لادنى شبه بالحكومة الإسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والمفروغ منه أن هذه الحالة العشوائية لم تكن وليدة ساعتها، بل ظهرت إثر تصاعد حدة الأخطاء المتواصلة طيلة عصر الخلافة. ثم قال الإمام عليه السلام: «فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة».

فقد عانى عليه السلام من ذات الظروف والتحمل التي كانت أبان عهد الخليفة الأول، غير أن المحنة التي عاناها الإمام عليه السلام كانت أشد وأعظم بفعل تلك الظروف الاقهر والمدة الأطول. قال بعض شراح نهج البلاغة إن الإمام عليه السلام أشار إلى قضيتين كان لهما الأثر البالغ في إستياء الإمام عليه السلام: الأولى ازدياد مدة الابتعاد عن محور الخلافة، والثانية الاستياء والتذمر الذي أفرزته ظاهرة انشقاق الخلافة عن مسارها الأصلي في عدم سيادة النظم الصحيحة بالنسبة لشؤون الناس الدينية. لكن على كل حال فقد كانت هناك المصالح المهمة التي تتطلب سكوت الإمام عليه السلام والتضحية بالأمور الثانوية من أجل الأهداف الاسمي. فقد استمر هذا الوضع حتى إنتهى عصر الخليفة الثاني.

تأملات

١- نماذج الفضاة الأخلاقية على عهد الخليفة الثاني

لقد ألقت عدة كتب - سواء كتب الحديث والتاريخ - من قبل علماء العامة بشأن الخليفة الثاني ولا سيما إبان خلافته التي تكشف عن مدى دقة عبارات الإمام عليه السلام في وصف خصائصه. و مما لا شك فيه أنّ خروقاته في هذا المجال كثيرة نكتفي ببعض نماذجها:

١- روى المرحوم العلامة الأميني في المجلد السادس من كتاب الغدير عن مصادر العامة المعروفة من قبيل سنن الدارمي وتأريخ ابن عساكر وتفسير ابن كثير واتفان السيوطي والدر المنثور وفتح الباري عدة قصص مروعة بشأن الخليفة الثاني والرجل الذي يدعى «صبيغ العراقي». فالذي تفيده السير التاريخية أنّه كان رجل بجائته كثيراً ما يسأل عن الآيات القرآنية، غير أنّ عمر كان يجابهه بكل عنف بما يدعو للدهشة والعجب ومن ذلك.

فعن سلمان بن يسار إنّ رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ قال أنا عبدالله صبيغ: فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه وقال: أنا عبدالله عمر. فجعل له ضرباً حتى دمي رأسه فقال: يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي. وعن نافع مولى عبدالله: إنّ صبيغ العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقراه قال: أين الرجل فقال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الموجهة. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثة؟ فأرسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود له قال: صبيغ إن كنت تريد قتلي فقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري، أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر: أن يأذن الناس بمجالسته. وعن السائب بن يزيد قال: أتى عمر بن الخطاب فقيل: يا أمير المؤمنين! إنا لقينا رجلاً يسأل عن تأويل مشكل القرآن. فقال عمر: اللهم مكني منه، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدي الناس إذ جاء

الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدي حتى إذا فرغ قال: يا امير المؤمنين والذاريات ذروا
فالحاملات وقرأ فقال عمر أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت
عمامته فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك مخلوقاً لضربت رأسك ألبسوه ثياباً واحملوه
على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقيم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم
فأخطأ فلم يزل وضيعاً في قومه حتى هلك وكان سيد قومه. ^١ وأول من ضرب عمر بالدرّة أم
فروة بنت أبي قحافة، مات أبو بكر فباح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة، فنهاهنّ عمر
مراراً، وهنّ يعاودن، فأخرج أم فروة من بينهن، وعلاها بالدرّة، فهربن وتفرّقن.

كان يقال: درّة عمر أهيب من سيف الحجاج. وفي الصحيح أن نسوة كنّ عند رسول
الله ﷺ قد كثر لغظهنّ، فجاء عمر فهربن هيبة له، فقال لهنّ: يا عديّات أنفسهن! أتتهبّني ولا
تهبّن رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ. ^٢

٢. العثار والاعتذار

قال ابن أبي الحديد: ومرّ يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاءه، فجدع له
ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا» فقال
له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها: «وَيَوْمَ
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا» فقال عمر: كلّ الناس
أفقه من عمر!

وقيل: إنّ عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأة في بيت، فارتاب فتسوّر
الحائط، فوجد امرأة ورجلاً، وعندهما زقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنت ترى أنّ الله يسترك
وأنت على معصيته! قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأت في واحدة فقط أخطأت في ثلاث،
قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّوْا»، وقد تجسّست. وقال: «وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا»، وقد
تسوّرت، وقال: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا»، وما سلّمت! ^٣

١. الغدير ٦ / ٢٩٠.

٢. شرح نهج بلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٨١.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٨٢.

وأخرج المحافظان الدراقطني وابن عساكر: إن رجلين أتيا عمر بن الخطاب وسألاه عن طلاق الأمة فقام معها ففس حتى أتى حلقة في المسجد فيها رجل أصلع فقال: أيها الأصلع! ما ترى في طلاق الأمة؟ فرفع إليه رأسه ثم أومىء إليه بالسبابة والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أمير المؤمنين فحشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومىء إليك، وأتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فتلقاها علي فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردها علي وقال: قد كان ذلك. قال أو ما سمعت رسول الله ﷺ قال: لا حد على معترف بعد بلاء، أنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له، فخلا سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر. وأخرج ابن مبارك قال: حدثنا الأشعث عن الشعبي عن مسروق قال: بلغ عمر أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبها وقال: لا ينكحها أبداً وجعل الصداق في بيت المال وفشا ذلك بين الناس فبلغ علياً كرم الله وجهه فقال: ما بال الصداق وبيت المال؟ إنهما جهلا فينبغي للإمام أن يردهما إلى السنة قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال لها الصداق بما استحلت من فرجها، ويفرق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدتها من الأول ثم تكمل العدة من الآخر، ثم يكون خاطباً. فبلغ ذلك عمر فقال: يا أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة.^١

٣- رد على سوال

لعل الصورة التي رسمها الإمام ﷺ في الخطبة عن مشاكل المسلمين والفوضى التي سادتهم على عهد الخليفة الثاني تتنافى والذهنية السائدة لدى البعض في أن عهده كان مشرقاً حافلاً بالانتصارات والمكتسبات؛ الأمر الذي يشير السؤال الآتي: كيف يمكن التوفيق بين تلك الصورة والوقائع التي عكسها التاريخ الإسلامي؟

والالتماس إلى هذه القضية من شأنه أن يقدم الجواب الشافي لهذا السؤال، فما لا شك فيه -

كما أشرنا سابقاً - أن عهد الخليفة الثاني كان عصر الانتصارات والفتوحات على صعيد السياسة الخارجية للبلاد؛ لأن المسلمين وعلى ضوء التعاليم الإسلامية والآيات القرآنية التي تدعو إلى الجهاد قد مارسوا هذه الفريضة بشكل واسع بحيث لم تمض مدة حتى حققوا الفتوحات الإسلامية الباهرة خارج البلاد الإسلامية فتم لهم نيل ما لا يحصى من الغنائم المادية، الأمر الذي جعل هذه الفتوحات تغطي على ضعف الجبهة الداخلية والفوضى التي كانت سائدة آنذاك، وهو المعنى الذي نلمسه اليوم بوضوح في السياسة المتبعة في العصر الراهن، فقد يؤدي الانتصار الذي تحرزته الدولة على صعيد السياسة الخارجية إلى التغطية على كل شيء ولا سيما المشاكل والمعضلات التي تعيشها على مستوى الداخل، ومن هنا نرى سياسة الاستكبار الذين يحاولون التغطية على مشاكلهم الداخلية باخماد فورتها من خلال اللجوء إلى عدة أنشطة - بما فيها شن الحروب - خارجية.

وزبدة الكلام فإن الإمام عليه السلام إنما تحدث عن مدى العنف والاضطهاد والأخطاء الفادحة وسعة حجم المشاكل الداخلية إبان عهد الخليفة الثاني؛ الأمر الذي تم التعامل معه بعزل عن مسألة الفتوحات.

القسم الثالث

«حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ قَيَا لَلَّهِ
وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَيَّ
هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسْفُؤُوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا؛ فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ
لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْآخِرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هُنِ وَهِنِ، إِلَيَّ أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً
حِضْنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةً
الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَيَّ أَنْ انْتَكَتْ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبِتَ بِهِ
بِطْنَتُهُ».

۸۷۷۳

الشرح والتفسير

عصر الخليفة الثالث

أشار الإمام عليه السلام - في هذا القسم من خطبته - إلى انتهاء عصر الخليفة الثاني والأحداث التي مهدت السبيل أمام عثمان للاستيلاء على الخلافة بعد أن أمارط اللثام عن التفاصيل التاريخية والأسرار التي انطوت عليها هذه القضية ويعلن موقفه من ذلك، ثم عرج على المشاكل والفتن التي عاشتها الأمة الإسلامية على عهد عثمان والانتفاضة الشعبية العارمة التي أدت إلى قتله بعبارات مقتضبة عميقة المعنى من خلال الكنايات والاستعارات والتشبيهات البلاغية الرائعة التي طبعت كلماته وخطبه عليه السلام.

فقد قال عليه السلام: «حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنني أحدهم».

و لعل قوله عليه السلام «زعم أنني أحدهم» تشير إلى معنيين: الأول: أنه جعلني ظاهرياً أحد

أعضاء هذه الشورى بينما كان يعلم باطنياً بالنتيجة التي ستمخض عنها ومن يفوز بالأمر.

الثاني: أنه أراد أن يجعلني ظاهرياً في مصاف هؤلاء الخمسة، والحال كان يعلم باطنياً عدم إمكانية مقارنتي بأي منهم^١.

و العبارة تشير إلى الزمان الذي جرح فيه عمر جرحاً بليغاً من قبل ذلك الرجل الذي يدعى فيروز والمكنى بأبي لؤلؤة بعد أن رأى نفسه على فراش الموت. فقد حضره جمع من الصحابة وأشاروا عليه باستخلاف من يرضاه، فما كان منه إلا أن خطب خطبة - سنشير إلى مضامينها لاحقاً - واقترح الشورى وهم:

علي عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، على أن يجتمعوا لثلاثة أيام ويختاروا من بينهم الخليفة، فاجتمعوا لتتمخض نتيجة الاجتماع عن إختيار عثمان.

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه الشورى قائلاً: «فيالله وللشورى»^٢، ثم يتطرق عليه السلام إلى أولى نقاط ضعف هذه الشورى وهي أنه متى كان هناك من شك وترديد في أرجحيته على الخليفة الأول فضلاً عن إقترانه بهذه النظائر «متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر». فالعبارة تكشف عن قلة أسنى الإمام عليه السلام على هضم الحقوق الذي تعرض له، ويشير إلى حقيقة وهي أنهم ينبغي أن يختاروني لو أخذوا بنظر الاعتبار استحقاق الخلافة والجدارة والأحقية بها.

غير أن المؤسف له أنه كانت هناك أهداف أخرى أدت إلى جعل من كان بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه والعالم بالكتاب والسنة والعارف بأسرار المسائل الإسلامية وبطل التوحيد الذي تربى في حجر النبي صلى الله عليه وآله في مصاف عبدالرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وامثالها.

ثم أضاف عليه السلام: «لكنني أسففت إذ أسفوا وطررت إذ طاروا»^٣ قالوا ق هذه كناية بشأن

١. ورد في مقاييس اللغة أن «الزعم» عبارة عن الكلام الذي لا واقعية له وصاحبه ليس متأكداً منه.

٢. اللام في لفظ الجلالة مفتوحة للاستغاثة واللام في الشورى مكسورة وللمستغاث منه.

٣. «أسففت» من مادة «إسفاف» بمعنى إقتراب شيء من آخر ويستعمل هذا اللفظ في الطائر إذا دنا من الأرض، كما يستعمل في نسج الحصير لأن خيوطه تقترب من بعضها البعض الآخر، كما وردت بمعنى شدة النظر (راجع مقاييس اللغة ولسان العرب).

الطيور التي تطير على هيئة أسراب فتحلق أحيانا وتنخفض أخرى إلى الأرض وفي الحركتين تكون معاً. ومن الواضح أن الأوضاع المزرية في زمان الخلفاء - لا سيما إذا ابعده الخليفة وأقصى - تتطلب الابتعاد عن كافة أشكال الفرقة والتشتت حذراً من إستغلالها من قبل خصوم الدعوة والتأهب للاجهاض عليها. هنالك إحتمال آخر أيضاً بشأن تفسير هذه العبارة في أن مراده منها: أني أدور حيث مدار الحق والهت خلفه لكني طلبت الأمر وهو موسوم بالاصغر منهم، كما طلبته أولاً وهو موسوم بأكبرهم، أي هو حقي فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازغ فيه جليل القدر أو صغير المنزلة ثم أشار عليه السلام إلى نتيجة تلك الشورى وأعمالها المريبة حيث تحرك أحدهم بدافع من حقه وضغينته بينما إن دفع الآخر بوحى من قرابته ونسبه لينتهي الأمر إلى عثمان: «فصفاً رجل منهم لضغنه^١ ومال الآخر لصهره، مع هن^٢ وهن^٣».

فقد قصد الإمام عليه السلام بالعبارة الأولى «سعد بن أبي وقاص» الذي كان ينتمي من طرف أمه إلى بني أمية وقد قتل أخواله وأقربائه على يد علي عليه السلام في المعارك الإسلامية ضد الكفر والشرك، ولذلك لم يكن مستعداً لمبايعة علي عليه السلام حتى في خلافته.

و عمر بن سعد ذلك المجرم الجبار الذي قتل الحسين عليه السلام وصحبة في كربلاء هو ابنه. وعليه فقد كانت ضغينته لعلي عليه السلام أشهر من نار على علم وهي التي جعلته لا يصوت لصالح الإمام عليه السلام، وهذا ما أدى إلى فوز عثمان بعد أن منحه رأيه بواسطة عبدالرحمن بن عوف. وقال البعض المراد به «طلحة» المفروغ من كراهيته للإمام عليه السلام وهو الذي أشعل إلى جانب الزبير حرب الجمل التي أدت حسب قول المؤرخين إلى قتل سبعة عشر ألف.

و قد قوى هذا الاحتمال ابن أبي الحديد، بينما يرى بعض شراح نهج البلاغة أن طلحة وإن رشح للشورى من قبل عمر إلا أنه لم يكن في المدينة ولم يوفق لحضور جلسة الشورى^٤.

١. «صفا» من مادة «صغو» بمعنى الميل.

٢. «ضغن» على وزن ضمن بمعنى البغض والعداوة.

٣. «هن» سيأتي التفسير لا حقاً.

٤. نقل الخوئي في شرحه عن الطبري عدم حضور طلحة في الشورى بل في المدينة (شرح الخوئي، ٣/

أما الفرد الذي مال إلى صهره فهو عبدالرحمن بن عوف زوج أم كلثوم بنت عثمان. وقوله عليه السلام: «مع هن وهن»^١، استناداً إلى أن المفردة «هن» كناية عن أعمال قبيحة يكره ذكرها، فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الاغراض الأخرى التي كان يطمع بها عبدالرحمن بن عوف من خلال تصويته لصالح عثمان من قبيل مد إليه إلى بيت مال المسلمين أو التسلط على الناس أو الاستيلاء على الخلافة بعد عثمان أو جميع هذه الأمور. فالذي نستفيدة من هذا الكلام أن الشورى قد عقدت في أجواء متوترة، والشئ المغيب فيها إنما كان المصالح الإسلامية، وعليه فن الطبيعي الأتودي لضمان مصالح المسلمين، وقد أثبتت الحوادث التي وقعت على عهد عثمان مدى الخسائر الفادحة التي تكبدها المسلمون.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة النهائية للشورى فقال: «إلى أن قام ثالث القوم نافجاً^٢ حضنيه^٣ بين نثيله^٤ ومعتلفه^٥». ولم يقتصر هذا الأمر على عثمان بل سار معه في هذا النهج قرابته وبطانته «وقام معه بنو أبيه يخضمون^٦ مال الله خضمة الابل نبتة الربيع».

أما التعبير بنبتة الربيع للإشارة إلى أنها نبتة سائغة وطعمة سهلة للحيوان فيتنا ولها بكل شره ووله. والعبارة «يخضمون مال الله...» - وبالالتفات إلى المعنى اللغوي لخضم - تفيد أن بني أمية قد اقتحمت الميدان بكل ثقلها لتنهب بيت المال فتبتلع منه ما شاءت. وقال ابن أبي الحديد لقد سلط الخليفة الثالث - عثمان - بني أمية على رقاب الناس وأغدق عليهم الأموال فقد أعطى عبد الله بن خالد أربعمائة ألف درهم، وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال،

١. صرح علماء اللغة بأن «هن» تعني فلان وتقال حين يريد الإنسان الإشارة من بعيد إلى شيء لقبحته أو لأسباب أخرى، وعادة ما تستعمل هذه المفردة في الصفات السيئة والقبيحة ولا تستعمل في الأمور الحسنة.

٢. «نافجاً» من مادة «نفع» على وزن رفع بمعنى رافعا.

٣. «الحضن» ما بين الابط والكشح ونافجاً حضنيه تقال للمتكبر ولمن إمتلأ بطنه طعاماً.

٤. «نثيل» من مادة «نثل» على وزن نسل بمعنى غائط الإنسان وروث الحيوان.

٥. «معتلف» من مادة «علف» بمعنى مروض العلف، وقد أراد بالعبارة الشخص الذي همه جمع الأموال وملئ البطن وافرأها.

٦. «الخضم» أكل الشيء الرطب بتمام الفم وهي تقابل القضم التي تعني الأكل بأطراف الأسنان، وقال البعض الخضم بمعنى أكل العلف الطري والقضم بمعنى أكل العلف الجاف.

واعطى الحارث بن الحكم - زوج بنت، عائشة - مائة ألف من بيت المال، واعطى طلحه ثلاثمائة واثنين وعشرين ألف، والزبير خمسمائة وثمانية وتسعين ديناراً، حتى بلغ ما أغدقه من بيت المال مئة وستة وعشرين مليون وسبعمائة دينار.

والأعجب من ذلك الدنانير التي أغدقها على بني أمية فقد منح مروان بن الحكم خمسمائة ألف دينار، ويعلي بن أمية خمسمائة ألف دينار، وعبد الرحمن بن عوف مليونين وخمسمائة وستين ألف دينار والمجموع أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرة دنانير^١. وهنا يتضح عمق المعنى لقوله ﷺ: «يخضمون مال الله خضمة الأبل نبتة الربيع». وبالطبع فإن هذا الوضع لم يكن ليستمر لمدة طويلة حيث لا يسع المسلمون تحمل مثل هذه الظروف ولذلك لم تمض مدة حتى انطلقت تلك النهضة ضد عثمان لتطيح به في خاتمة المطاف وتقتله بمرأى ومسمع من الأمة دون أن يهب أحد من المسلمين لنصرته وهذا بعينه ما أشار إليه الإمام ﷺ حين قال: «إني أن انتكث^٢ عليه فقله^٣ وأجهز^٤ عليه عمله، وكبت^٥ به بطنته^٦».

و الواقع أن الإمام ﷺ رسم بثلاث عبارات صورة واضحة كاملة عن وضع الخليفة الثالث و انتهاء أمره وقتله. فقد صور في العبارة الأولى إزالته لكافة مظاهر القدسية والزهد التي عرفها عنه الناس ليقفوا على مدى تكالبه على الدنيا.

كما يصور في العبارة الثانية سوء أعماله التي وجهت له الضربة القاصمة، وأخيراً تخمته وامتلاء جوفه بالطعام بالشكل الذي لم يتمكن معه من الوقوف على قدميه حتى كب على وجهه على الأرض. فقد بين الإمام علي ﷺ بهذه العبارات الدروس والعبر التي ينبغي أن يقتدي بها ساسة البلدان ويضعوها نصب أعينهم بحيث إذا استغلوا مكانتهم وأقبلوا يتهافتون على الدنيا فإن ذلك سيؤدي إلى زوال سوابقهم الحسنة بما يعيب الرأي العام ضدهم وبالتالي الاطاحة بهم وبحكومتهم.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/١٩٨.

٢. «انتكث» من مادة «نكث» على وزن عكس بمعنى النقض والكسر ومن هنا يقال لعدم الالتزام بالمهد نقضه.

٣. «قتل» بمعنى اللف، ومقتول وفتيلة من هذا الباب.

٤. «أجهز» من مادة «إجهاز»، تطلق على المجروح وتفيد التسريع في الموت واتمام العمل.

٥. «كبت» من مادة «كبو» بمعنى السقوط والوقوع على الوجه، ومن هنا يقال كبابه الجواد إذ سقط لوجهه.

٦. «بطنته» من مادة «بطن» بمعنى التخمة (ملء الجوف الطعام أو النهم في الأكل).

جدير بالذكر أنّ العوامل التي بلورة ظهور وانبثاق خلافة عثمان هي ذاتها التي أدت إلى القضاء عليه، فقد دفع حب المال والثروة بعض الأفراد من قبيل سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وطلحة (بناء اعلى كونه حاضرا في الشورى) لأن يضموا أصواتهم لعثمان واختياره للخلافة، وهكذا اتسعت هذه المسألة واستفحلت حتى فقد عثمان مكانته لدى الرأي العام والذي أدى بالتالي إلى ثورة الأمة وإطاحتها به. أمّا بعض شرّاح نهج البلاغة فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بقوله «انتكث عليه فتله» انهيار الاجراءات والتدابير التي مارسها لتوطيد حكومته، ولعل تفويضه بعض الأعمال والمناصب لبطائنه وقرابته قد كانت ضمن تلك الإجراءات المتخذة، لكن نفس هذا الأمر قد أعطى نتائج معكوسة أسهمت في تقويض حكومة عثمان.

تأملات

١- كيفية انتخاب خليفة الثاني والثالث

نعلم أنّ الخليفة الثاني قد نصب من قبل أبي بكر الذي عهد إليه بالخلافة في وصيته حين نزل به الموت. فقد جاء في بعض التواريخ أنّ أبا بكر أحضر عثمان - وهو يجود بنفسه - فأمره أن يكتب عهدا، وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر إلى المسلمين، ثمّ أمّا بعد، ثمّ أغمي عليه، فكتب عثمان: «أما بعد فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب لم ألكم خيرا»^١.

وأفاق أبو بكر فقال: اقرأ فقرأه، فكبر أبو بكر وسرب وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي! قال عثمان: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله^٢. يتضح بجلاء من هذا الخبر أن عثمان قد خاط هذا القميص - الخلافة - لقامة عمر، ولو افترض عدم إفاقة أبي بكر لنشرت هذه الوصية على أنّها وصية أبي بكر. وعليه فلم هنالك

١. «ألكم» من مادة «الا» يالو بمعنى التصيير، وعلى هذا الاساس فان «لم ألكم» يعني لم أقصر في حقكم. «لسان العرب».

٢. الكامل لابن أثير ٢/ ٤٢٥.

من مجال للتعجب في إقتراح عمر لتلك الشورى وبذلك التركيب الذي سوف لن يؤدي إلا إلى استخلاف عثمان.

وهو ذات الأسلوب الذي إتبعه الخليفة الثاني في السقيفة حين مهد السبيل أمام خلافة أبي بكر، لكي يسارع هذا الأخير فيعوضه عما قدمه له. ويفهم ضمناً أن الحيلولة دون إختلاف الأمة وفرقتها هي التي تقف وراء تعجيل أبي بكر وعثمان في تعيين الخليفة. فإذا كان الأمر كذلك، فما بالك برسول الله ﷺ؟! ألم يكن من الواجب على النبي ﷺ أن يتكهن بهذا الأمر بالنسبة لأمته مع وجود تلك النزاعات والصراعات التي كشفت عن نفسها في السقيفة؟ كيف يمكن الاعتقاد بأن النبي ﷺ قد فوض للأمة مسألة إنتخاب الخليفة، بينما لا يرعى هذا الأمر في خلافة الثاني والثالث، حتى أن خوف الفتنة منع من تفويض الأمر للأمة؟! هذه هي الاسئلة التي ينبغي لكل محقق الرد عليها.

٢- الشورى وحكومة عثمان

وصورة هذه الواقعة أن عمر لما طعنه أبو لؤلؤة، وعلم أنه ميت، استشار فيمن يوليّه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبدالله، فقال: لاها الله إذا! لا يليها رجلان من ولد الخطاب! حسب عمر ما حُمل! حسب عمر أحتقب، لاها الله! لا أتحملها حياً وميتاً! ثم قال: إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: علي، وعثمان وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني رسول الله ﷺ ثم قال: ادعوهم لي، فدعوهم، فدخلوا عليه وهو ملقى على فراشه يجود بنفسه. فنظر إليهم، فقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدى! فوجموا، فقال لهم ثانية، فأجابه الزبير وقال: وما الذي يُبعدنا منها! وليتها أنت فقمتم بها، ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لو لا علمه أن عمر يموت في مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن تنفس منه بلفظه.

فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإننا لو استعفيناك لم تُعفنا. فقال: أما أنت يا زبير فوقع لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير! أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعري، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة، وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة وكان له مبعوضاً منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر فقال له: أقول أم أسكت: قال: قل، فإنك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما إنني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد وائبا بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب.

ثم أقبل على علي بن أبي طالب، فقال: لله أنت لولا دُعابة فيك! أما والله لئن وليتهم لتحملتهم على الحق الواضح، والمحجة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيباً إليك! كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي مُعيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالقيء، فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. والله لئن فعلوا لتفعلنَ فعلت ليفعلنَ، ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذا كر قولِي؛ فإنه كائن.

ثم قال: ادعوا إلي أبا طلحة الأنصاري، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحة، إذ عدتم من حُفرتي، فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بامضاء الأمر وتعجيله، واجمعهم في بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التي فيها عبدالرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمر، فاضرب أعناق الستة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلما دُفن عمر، جمَع أبو طلحة، ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم، ثم تكلم القوم وتنازعوا، فأوّل ما عمل طلحة أنه أشدهم على نفسه أنه قد وهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعامة أن الناس لا يعدلون به علياً وعثمان، وأن الخلافة لا

تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام، بهبة أمر لا انتفاع له به، ولا تمكُّن له منه.

فقال الزبير في معارضته: وأنا أشهدكم على نفسي أني قد وهبتُ حقِّي من الشورى لعلي، وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى علياً قد ضعف وانخزل بهبة طلحة حقه لعثمان، دخلته حمية النسب، لأنه ابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفة بنت عبدالمطلب، وأبو طالب خاله. وإنما مال طلحة إلى عثمان لانحرافه عن علي ﷺ، باعتبار أنه تيمى وابن عم أبي بكر، وقد كان حصل في نفوس بني هاشم من بني تيم حنق شديد لأجل الخلافة، وكذلك صار في صدور تيم على بني هاشم.

فمَّا لا شك فيه هنالك عدَّة اسئلة لا بدَّ من طرحها بشأن هذه الشورى ومنها:
 أولاً: لو كانت الضابطة في الخلافة تكمن في آراء الأمة فلم لا يرجع إليها؟ وإن كانت الخلافة قائمة على أساس التعيين فما معنى الشورى المركبة من ستة أعضاء وما بال إهمال سائر الشخصيات المعروفة وعدم إشراكها في الشورى؟
 ثانياً: لقد قيل أن رسول الله ﷺ مات وهو راض عن هذه الستة من قريش، فكيف التوفيق بين هذا وما صرَّح بأن رسول الله ﷺ مات وهو ساخط على طلحة بالثلمة التي قالها يوم أنزلت آية الحجاب^١؟

ثالثاً: لو افترض عدم تمكُّنهم من القيام بوظيفتهم فكيف يؤمر بضرب أعناقهم؟
 رابعاً: لو كانت الشورى حقا فما معنى الوصية بعثمان وذكره صراحة؟ ولو كان يخشى على الأمة الإسلامية من خلافته للزم عدم جعله أحد أعضاء تلك الشورى ليأتي آخر غيره؟
 خامساً: إذا انقسمت الشورى إلى قسمين فلم لا ترجح الكفة التي فيها علي ﷺ والذي قال له عمر: أمَّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والحجة البيضاء. وليس له من إشكال عليه سوى قوله «لولا دعابة فيك».

١. المراد بآية الحجاب قوله سبحانه: «فاستلوهن من وراء حجاب» الذي نزل في نساء النبي ﷺ والكلمة المذكورة أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله ﷺ: ما الذي يعنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا فننكحهن.

سادساً: وهل للدعابة من أثر سلبي على الخلافة وهل يرقى هذا الإشكال إلى الإشكال على عثمان بأنه إذا ولي الخلافة وسيسلط بني أمية على رقاب المسلمين فيتخذون عباد الله خولاً وماله دولاً؟

هذه هي الاسئلة والإستفسارات التي ليست لها من إجابة.

٣- أسباب الخروج على عثمان

ويجب أن نذكر في هذا الموضوع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتِل. وأصح ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «التاريخ»^١. وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً مشهورة تَقَمَّها الناس عليه، من تأمير بني أمية، ولا سيما الفساق منهم وأرباب السّفه وقلة الدين، وإخراج مال النّبي إليهم، وما جرى في أمر عمّار وأبي ذر وعبدالله بن مسعود، وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته. ثم اتفق إن الوليد بن عُقبه لما كان عاملاً على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر، صرفه وولى سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفة، استخلص من أهلها قوماً يسمرون عنده، فقال سعيد يوماً: إن السواد بستان لقريش وبني أمية. فقال الأشتر النخعي: وترعّم أن السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسياقنا بستان لك لقومك! فقال صاحب شرطته: أتردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له، فقال الأشتر لمن كان حوله من النّخع وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً، وجرّوا برجله، فغلظ ذلك على سعيد، وبعد سُمّاره فلم يأذن بعد لهم، فجعلوا يشتمون سعيداً في مجالسهم، ثم تعدّوا ذلك إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام؛ لئلا يفسدوا أهل الكوفة، وكتب إلى معاوية وهو وإلى الشام: إن نقرأ من أهل الكوفة قد همّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فإن أنست منهم رشداً فأحسن إليهم، واردهم إلى بلادهم.

ثم إن سعيد بن العاص قدم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته. فلما دخل المدينة

١. في حوادث ٣٣ ٣٥، مع تصرف واختصار في جميع ما أورده في هذا الفصل (٩ نهج ٢).

اجتمع قومٌ من الصحابة، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قرابات عثمان وما سوَّغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلوا إليه عامر بن عبد القيس وكان متأهلاً^١، واسم أبيه عبدالله، وهو من تميم، ثم من بني العنبر فدخل على عثمان، فقال له: إن ناساً من الصحابة اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أموراً عظيماً، فاتق الله وتب إليه.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وإلى معاوية وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبيدالله بن عامر وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحايتي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إليّ أن أعزل عمّالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم. فقال عبدالله بن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلّوا لك، ولا تكون همّة أحدهم إلّا في نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقل فروته.

فقال عثمان: إن هذا هو الرأي لولا ما فيه.

ثم كاتب عمّاله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايّة الناس منكم؟ إنّي لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلّا بي. فقالوا له: والله ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً. فقال عثمان: فأشيروا عليّ، فقال سعيد بن العاص: هذه أمور مصنوعة تلتقي في السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف.

وروى محمد بن عمر الواقدي رحمة الله تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت الفاقة فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبدالرحمن عديس البوي، وكنانة بن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن وهب السكسكي؛ وعليهم جميعاً أبو حارب الغافقي، وكانوا في ألفين. وخرج ناس من الكوفة، منهم زيد بن صوحان العبدي، ومالك الأشتر النخعي، وزباد بن النضر الحارثي، وعبدالله بن الأصم الغامدي، في ألفين. وخرج ناس من أهل البصرة. منهم حكيم بن جبلة العبدي، وجماعة من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدي؛ وذلك في شوال من سنة خمس وثلاثين، وأظهروا أنّهم يريدون الحج. فلما كانوا من

١. المتأهّل: المتعبّد المتنسك.

المدينة على ثلاث، تقدم أهل البصرة، فنزلوا ذاخشب وكان هواهم في طلحة. وتقدم أهل الكوفة، فنزلوا الأعوص وكان هواهم في الزبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المروة وكان هواهم في علي عليه السلام. ودخل ناس منهم إلى المدينة يخبرون ما في قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبي صلى الله عليه وآله، وقالوا: إنما نريد الحج، ونستعفى من عمالنا.

وخرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: يا هؤلاء، الله الله؛ فوالله إن أهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه، فامحوا الخطأ بالصواب. وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان؛ منهم سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة؛ فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل على وطلحة والزبير، فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله؛ وعند عثمان نفر من بين أمية، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلي.. عليه السلام: أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت! والله إن بلغت هذا الأمر الذي تريده لتمرن عليك الدنيا؛ فقام مغضباً، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى المدائني، قال: كان عثمان محصوراً محاطاً به، وهو يصلى بالناس في المسجد، وأهل مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق في عينه من التراب.

وروى الكلبي والواقدي والمدائني: أن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأرقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، ثم غلب عليها لما سار عبدالله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريين، بإذن عثمان له، فلما كان بأيلة، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول، وأن محمد بن أبي حذيفة قد غلب على مصر، فعاد عبدالله إلى مصر، فمنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قتل عثمان.^١

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤٣/٢.

٤- هل سار جميع الصحابة على نهج النبي ﷺ

المعروف بين أوساط الاخوة من أبناء العامة أن لصحابة رسول الله ﷺ - دون إستثناء - قدسية وعدالة وأن أحدا منهم لم يؤتي بما يخالف ما أمر به الله في الكتاب والسنة، بينما تعتقد الشيعة من أتباع مدرسة أهل البيت ﷺ أن الصحابة ليست سواسية ولها رأي بكل صحابي بما ينسجم وسلوكه سواء على عهد رسول الله ﷺ أو بعد وفاته.

ولاشك أن الاعتقاد السائد لدى الاخوة السنة بشأن الصحابة قد قادهم إلى مشاكل كثيرة؛ وذلك لأن هنالك من الصحابة ممن اختلفوا فيما بينهم إلى حد الاقتتال. فيكيف يمكن تبرير تلك العقيدة التي تتضمن عدالتهم وقدسيتهم. على سبيل المثال موقعة صفين التي قام فيها معاوية ضد إمام زمانه بما أدى إلى اراقة تلك الدماء، فهل هناك مورخ نزيه يمكنه توجيه ذلك العمل؟! أو الدماء التي سفكت في معركة الجمل التي قادها طلحة والزبير ضد الإمام علي ﷺ بعد أن نكثا بيعته حتى قيل أن عدد القتلى بلغ أكثر من سبعة عشر الف قتيل، فهل لهما من عدالة بعد تلك الفجائع التي ارتكبت بحق المسلمين وخروجها على الإمام ﷺ؟!!

أما بشأن عثمان وكما مر معنا وعلى ضوء إجماع كافة مؤرخي الإسلام فإنا نصطدم بموضوعين مهمين: الأول اغداقه المناصب الحساسة على بني أمية وتسليطهم على رقاب المسلمين ومن أولئك الذين عرفوا بفسقهم ومجونهم حتى تعالت عليهم أصوات المسلمين من كل حدب وصوب، والآخر نهب أموال بيت المال واغداقها دون حساب على هذا وذاك بالشكل الذي آثار حفيظة الأمة وأجج مشاعرها للغضب والثورة عليه.

فهل من إنسجام بين هذه الأعمال والخطوط العامة للقداسة وتنزيه الصحابة؟! فلو كان

هنالك من تبرير لمثل هذه الأعمال فهل ستبقى هنالك من أعمال يمكن إدانتها؟!!

لقد ذكرني هذا الكلام بقصة عجيبة وقعت لي ولا يسعني نسيانها أبدا. فقد تشرفت إحدى

السنوات بزيارة مكة لاداء العمرة وقد سنحت لي الفرصة لان ألتقي بعض علماء العامة - ولا

سيأ أثناء الليالي في المسجد الحرام وبين صلاتي المغرب والعشاء التي كانت فرصة مناسبة - في

أحدى الليالي (طبعاً كان البعض منهم من مشاهير علماء العامة).

وفي المسجد الحرام وسعينا لان نبقى على الأبحاث تعيش أجواء المنطق والعلم

والاستدلال والبرهان وإبعادها عن عناصر العداء والكراهية وجرح المشاعر. وقد جردنا الكلام إلى الحديث عن «تنزيه الصحابة وعتابهم» فكانوا يعتقدون جميعهم بعدم إمكانية جرأة أحد على توجيه أدنى تهمة إليهم. فسألت أحدهم: «لو شهدت صفين حيث معسكر علي عليه السلام معسكر معاوية، فممن كنت تقاوم؟» فاجاب من فوره: مع معسكر علي عليه السلام. فقلت: لو أعطاك علياً عليه السلام سيفاً وقال لك: «خذ هذا واقتل معاوية فهل كنت تمتثل أمره؟» هنا أجاب إجابة عجيبة لا أظنكم تتصورنها، فقد قال: «كنت أقتله ولا أذكره بسوء» نعم قضية تنزيه الصحابة قصة ذات شجون ولا يسعني الخوض في كافة تفاصيلها.

القسم الرابع

«فَمَا رَاعِنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَائِي، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَتَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعُلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، بَلَى! وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زَبْرَجُهَا».

٤٠٤

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى عصر خلافته ولا سيما أبان البيعة التي شهدت حضوراً خارقاً للأمم في مبايعته والوقوف إلى جانبه، البيعة الفريدة التي لم يعرف التاريخ الإسلامي لها من نظير، غير أن عدداً كثيراً لما جوبه بعدالة الإمام عليه السلام وتنمره في الحق قد إنفرجوا عنه وهبوا لمخالفته وبالتالي أججوا نيران الحرب «الجمل وصفين والنهروان» وشقوا صفوف المسلمين وحالوا دون تنويع جهود الإمام عليه السلام ومساعدته في النهوض بالمجتمع الإسلامي والأخذ بيده إلى السمو والتكامل.

فقد وصف عليه السلام باديء ذي بدء كيفية إقبال الناس عليه وهجومهم من أجل البيعة قائلاً: «فَمَا رَاعِنِي^١ إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ^٢ الضَّبُعِ^٣ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ^٤ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ» فالتعبير يعرف

١. «راعني» من مادة «روع» على وزن نوع بمعنى الخوف والخشية والقلق كما وردت بمعنى الدهشة والذهول.

٢. «عرف» بمعنى الكثرة والازدحام ومن هنا يطلق على شعر عرق الضبع.

٣. «ضبع» له ثلاثة معان، الحيوان المعروف وأحد أعضاء الإنسان (العضد) والثالث أنه أحد صفات

الضبع إشارة إلى الازدحام الشديد للناس واندفاعهم لمبايعة الإمام عليه السلام فهو مثل يضرب للكثرة والازدحام.

أما قلقه من الهجوم المفاجيء للناس من أجل البيعة فلعله يعزى إلى أن مثل هذه البيعة الحماسية من شأنها أن تقلد الإمام عليه السلام مسؤولية جديدة ولا سيما أنه كان يتوقع نقض البيعة من قبل أولئك الذين يتهافتون على الدنيا وحطامها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بوضوح في الخطبة ٩٢ حيث قال: «دعوني والتمسوا غيري، فانا مستقبلون أمراله وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عيه العقول، وان الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فانا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً، خير لكم مني أميراً».

أضف إلى ذلك كان يشعر بالقلق من جهة أخرى وهي أن تشير إليه أصابع الاتهام من قبل المنافقين وخصوم الدعوة بقتل عثمان. ثم يخوض الإمام عليه السلام في عمق ذلك الازدحام والانهيال عليه بالبيعة فقال عليه السلام: «حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفائي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم».

و يرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالحسنين هما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام. فقد كان الإمامان عليهما السلام في عنفوان شبابهما إلا أنّ الهجوم الشعبي العام قد جعلهما في موقع حرج في الحفاظ على والدهما. بينما ذكر بعض الشرّاح احتمالين آخرين؛ الأول أن يكون المراد اصبعي الرجل البارزين - كما روي ذلك عن الشريف الرضي عليه السلام - نقلاً عن بعض اللغويين (أبي عمر) و قد استدلوا على ذلك باشعار العرب، إلا أنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لأنّ وطىء اصبعي الرجل قضية عادية تحصل عند أدنى زحام ولا يمكنها أن تعكس ذلك الهجوم العظيم. والأبعد من ذلك التفسير الثالث الذي أورده البعض على أنّ المراد بها عظمي اليد وذلك

الناقة. وقد تكون كناية عن سنين القحط التي تهجم على الإنسان.

٤. «بتثالون» من مادة «ثول» على وزن قول بمعنى ازدحام زنابير العسل حين تجتمع وتروح وتجيء ثم اطلقت على كل ازدحام يتخلله ذهاب واياب (مقاييس اللغة والصحاح ولسان العرب).

لتعذر وطىء إصبعي اليد عادة سواء عظمي العضد أو الساعد، ولا يوطئان إلا حين يقع الإنسان على الأرض.

أمّا تشبيههم بريضة الغنم فهو لا يرمز إلى جهل الناس كما فسره بعض الشارحين، بل يتضمن إشارة إلى ما أوردناه سابقاً حيث يرمز إلى لو إذ الغنم بالراعي كلواذها بالمرعى حين تتعرض لهجوم الذئب.

فالمسلمون الذين تفرقوا هنا وهناك إثر الهجوم الذي تعرضوا له من قبل ذؤبان عصر الخليفة الثالث وتفككت عرى الوحدة بينهم قد رأوا في الإمام عليه السلام حلقة الوصل فاندفعوا إليه بلهفة ليتجمهروا حوله ويشعروا بالسكينة والاستقرار. غير أن المؤسف هو أن الاندفاع لم يكتب له الدوام حين عرضوا للاختبار لتفشل فيه طوائف من المسلمين، وهذا ما صورته الإمام علي عليه السلام إذ قال: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون».

وقد أجمع أغلب شراح نهج البلاغة على أن المراد بهم أصحاب الجمل والنهران وصفين فقد ذكروا أن أصحاب معركة الجمل (هم طلحة والزبير الذين استغلا وجود عائشة لتأليب الناس ضد أمير المؤمنين) الذين نقضوا البيعة هم «الناكثين» فقد بايعا علياً عليه السلام وهما يطمعان بالخلاصة فلما لم يتمّ لهما ذلك قدما البصرة وبنا بذور الشقاق والفرقة.

و«المارقين» هم أصحاب النهروان ويراد بهم الخوارج الذي خرجوا على الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله بعد قضية التحكيم في صفين. وهم من وصفوا بالمروق عن الدين كمروق السهم من الرمية. في إشارة إلى أنهم قد كانوا على الحق إلا أن تعصبهم الأعمى وجهلهم وحبهم لذاتهم قد أمرقهم من ذلك الحق. و«القاسطين» هم أهل الشام جيش معاوية، حيث وردت مفردة

١. «مروق» من مادة «مروق» على وزن غروب بمعنى الخروج من الشيء حيث تستعمل في خروج السهم - ويقول صاحب صحاح اللغة ولسان العرب - المراد به المرور من الهدف واصابة طرفه ومن هنا سمي الخوارج بـ«المارقين» لأنهم كانوا جماعة مفرطة متعصبة رأيت نفسها أكثر إسلامية من أمير المؤمنين علي عليه السلام.
٢. «قسط»، وردت أحيانا بمعنى الظلم والعدول عن الحق ولذلك يقال قسط على وزن فقط للأفراد الذين إعوجت أرجلهم، كما وردت بمعنى العدل. قال الراغب في المفردات القسط بمعنى السهم والنصيب فإذا أخذ سهم شخصي قيل له قسط وهذا مصداق الظلم، واقساط تعني دفع سهم الآخر وهذا عين العدالة، وعليه فالمعنيان يعودان إلى مادة واحدة فقد صرح صاحب لسان العرب أنه جاء في حديث علي عليه السلام قال: «أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» وأضاف صاحب لسان العرب «و القاسطون أهل صفين».

القسط بمعنى العدل إلى جانب ورودها بمعنى الظلم والطغيان والفسق.
والجدير بالذكر هنا أنّ هذه التسميات لهذه الفئات الثلاث - وعلى ضوء المصادر
الإسلامية - مما صرّحت بها الأحاديث النبوية الشريفة.

فقد روى الحاكم النيسابوري في مستدرك الصحيحين عن أبي أيوب الأنصاري أنّه
قال: «أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»^١.
كما ورد هذا المعنى في تلخيص المستدرك للذهبي^٢. ووردت هذه الرواية في كتاب أسد
الغابة في شرح سيرة الإمام علي عليه السلام^٣.

بينما وردت هذه الرواية مفصلة في تاريخ بغداد، حيث جاء عن أبي أيوب الأنصاري أنّه
قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين في ركاب علي عليه السلام. أمّا الناكثين
فقد قاتلناهم وهم - أصحاب الجمل - طلحة والزبير، وأمّا القاسطين فهم من عدنا الآن من
عندهم؛ أي معاوية وعمرو بن العاص (لقد قال ذلك حين عاد من صفين) وأمّا المارقين فهم
أصحاب النهروان، والله لا أعلم أين هم إلا أنني أعلم بأناسنقاتلهم»^٤
والحق أنّ هذا جواب قاطع لأولئك الجهال الذين لم تحسم لديهم الحروب التي وقعت إبان
خلافة علي عليه السلام.

نعم فأولئك الذين تهافتوا في بادى الأمر على علي عليه السلام من أجل البيعة لم يطبقوا تحمل
عدالته وشدته في الحق؛ ولا سيما ممارسته للعدالة التي أوشكت أن تموت بعد تلك المدّة الطويلة
التي شهدت إنعدامها وقد تمثل أبسط مظاهرها في التناول على بيت المال وسلبه ونهبه الذي
أقدم عليه الكثيرون فإني لهم بتحملها، ولذلك لم تصمد معه إلا ثلثة معدودة التزمت بعهودها
بينما إنفرج عنه الأعم الأغلب ممن بايعوه؛ الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في خطبته فقال:
«كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

١. مستدرك الصحيحين ١٣٩/٣ (طبعة دار المعرفة).

٢. لقد طبع هذا الكتاب في ذيل المستدرك (المجلد السابق والصفحة السابقة).

٣. اسد الغابة ٤ / ٣٣.

٤. تاريخ بغداد ١٣ / ١٨٧ (طبعة دار الكفر).

في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين»^١.

ثم أضاف ﷺ: «والله لقد سمعوها ووعوها^٢ ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم^٣ بزبرجها^٤»^٥.

فالإمام ﷺ يشبههم في البداية بالجهال الذين دفعهم جهلهم لمخالفته، ثم ينتقل في المرحلة اللاحقة ليصفهم بأنهم سمعوا هذه الأخبار والحقائق ووعوها وهي ليست خافية عليهم، إلا أن حب الدنيا والتكالب على حطامها والاعتزاز بزبرجها - ولا سيما بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى التي جرت عليهم ما لا يحصى من الغنائم النفيسة والتعود على الحياة الوادعة المرفهة خاصة تلك التي ظهرت أبان خلافة عثمان - جعلتهم يؤثرون الدنيا على الدين ويبيعون الحقيقة بالخرافة ويضحون بالدار الآخرة ويزهدون فيها.

فالعبارات التي أوردها الإمام ﷺ هي في الواقع عصارة التحليلات بشأن نشوب المعارك الثلاث في عهد الإمام ﷺ؛ الأمر الذي يعتبر درساً لجميع المسلمين على مدى التاريخ في أنهم يعيشون الفرقة والتشتت وتمزق عرى الوحدة كلما أقبلوا على الدنيا واغترتوا بزخارفها وزبرجها، فليس لهم من سبيل سوى الورع والتقوى والزهد بسغية الثبات على الطريق. ونشاهد اليوم بكل وضوح أن الاختلافات السائدة في أوساط المسلمين إنما تعزى لما بينه الإمام ﷺ وأوجزه الآية القرآنية الشريفة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين».

١. سورة القصص / ٨٣.

٢. «وعوها» من مادة «وعى» على وزن نعى، قال صاحب المقاييس تغني صنم الشيء إلى آخر، وقال صاحب المفردات تعني حفظ الحديث وما شابه ذلك (وكلاهما بمعنى واحد).

٣. «راق» من مادة «روق» - حسب المقاييس - بمعنى تقدم شيء على آخر و تأتي أحياناً بمعنى الحسن والجمال ومن هنا يصطلح بالرواق على مقدمة البيت أو الأضحية المقدسة وقد جاءت هنا بمعنى الحسن والجمال.

٤. «زبرج» بمعنى الزينة والذهب كما تأتي بمعنى نقوش القماش.

٥. يتضح بجلاء أن الضمائر في هذه العبارة والعبارات السابقة إنما يعود إلى الفرق الثلاث الناكثين والمارقين والقاسطين التي أشير إليها في العبارة السابقة، بينما يرجح المرحوم العلامة المجلسي في البحار أن هذه الضمائر إنما تعود إلى الخلفاء الثلاث، غير أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً. ولعل هذا هو الذي دفع المرحوم المجلسي لأن يختتم كلامه باحتمال رجوع الضمائر إلى كافة من أشارت إليهم الخطبة.

فألعو في الأرض والفساد والتكالب على الدنيا وحطامها هما أساس الفرقة والاختلاف
والتشتت في المجتمعات الإسلامية.

تأملات

١- البيعة الشعبية لأمير المؤمنين عليه السلام

إنها البيعة التي لا يمكن مقارنتها بتلك التي حدثت مع الخلفاء الثلاث.

كانت بيعة عفوية شعبية عامة بعيدة عن البرمجة والتخطيط، بل نابعة من أعماق الأمة
المستضعفة التي ذقت الظلم والاضطهاد، فهي ليست كبيعة السقيفة التي مثل إتخاذ القرار فيها
بعض الأفراد لترى الأمة نفسها أمام نتيجة حسمت سابقاً، وهي ليست كبيعة عمر التي
أسندت بطولتها لفرد واحد هو الخليفة الأول، وأخيراً ليست كبيعة عثمان التي استندت
للسورى السداسية وعلى ضوء التركيبة التي شكلها عمر.

بل هي بيعة واقعية وحقيقية جردت ماسواها من إنتحال هذا الاسم بعد أن برمجت
وخططت بهذه الكيفية.

فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن الثوار الذين أودوا بحياة عثمان إتجهوا صوب الإمام
علي عليه السلام ليبايعوه على الخلافة، فلم يجهم فلما أصرروا عليه، خاطبهم قائلاً: «أنا لكم وزيراً خير
منى اميراً».

حيث كان يعلم عليه السلام بأن سبقت هؤلاء في البيعة سيثير تهمة مفادها أن عثمان قتل مع سبق
الاصرار والترصد طبق خطة مدروسة.

أضف إلى ذلك فلو بايعوه، لزعم البعض أن قتلة عثمان فقط هم الذين بسطوا له أيديهم
بالبيعة، وناهيك عما تقدم فإن الإمام عليه السلام كان يتوسم فيهم عدم القدرة على إحتمال الحق؛ نعم
فالحق ثقيل وبسبب، إلا أن الإمام عليه السلام فوجيء بتقاطر المهاجرين والانصار الذين اصرروا عليه
بقبول الخلافة.

فلم يكن له من سبيل سوى قبولها، فارتقى المنبر عليه السلام لتندفع إليه الأمة زرافات ووحداً
وهي تعلن بيعتها له، ولم يشذ منها سوى النزر اليسير من قبيل سعد بن أبي وقاص وعبدالله

بن عمر ولم يجبرهم الإمام عليه السلام على مبايعته^١.

إننا نعتقد وعلى ضوء المصادر الإسلامية المعتبرة أن النبي صلى الله عليه وآله قد إستخلف علياً عليه السلام بأمر الله، ولم يقتصر ذلك على «غدير خم» بل أكده النبي صلى الله عليه وآله في عدة مواضع ومناسبات، ورغم مخالفة البعض - لاسباب لا يسعنا المجال إلى الخوض في تفاصيلها - بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله مع ذلك فما أن قتل عثمان حتى تدفقت الأمة بشكل عجيب على الإمام عليه السلام وهي تعلن عن نظامها ودعمها واسنادها للإمام عليه السلام؛ الدعم الذي لم تشهده النظم الديمقراطية طيلة تجاربها، بل قل نظيرها سوى بعض النماذج التي حصلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كبيعة الشجرة.

و مما لا شك فيه أن تلك البيعة إنما كانت تنبع من معرفة الأمة بمنزلة علي عليه السلام وسعة علومه ومعارفه ومدى ورعه وتقواه وزهده وادارته الناجعة التي لم يكن فيها من مكان للسيارات والتحزبات، فقد كانت من العفوية والإنسيابية بحيث سلبت زمام المبادرة من الخصوم لتجعلهم يعيشون حالة الدهشة أمام عمل تم ولا سبيل إلى الرجعة منه، ولو تركوا الأمة وحالها وتخلوا عن مؤامراتهم وغدرهم لنهض ذلك المجتمع نهضات ولعاش الاطروحة التي حملها له القرآن والمتمثلة بقيام مجتمع الحرية والعدالة.

وسنرى لاحقاً أن هذه العناصر المشبوهة العثمانية التي تطاولت على بيت أموال المسلمين وردت الميدان السياسي لتعبث الناس وتتلاعب بمشاعرها الدينية وتقودها في خاتمة المطاف إلى إشعال نيران الجمل وصفين والنهروان وتسدد تلك الضربات الموجعة للإسلام والمسيرة الإسلامية.

٢- مصدر الانحرافات الاجتماعية

يعتبر الإمام عليه السلام - في هذه الخطبة - أن العامل الأصلي الذي يقف وراء الانحراف عن الحق في عصره (و في كل العصور) إنما يكمن في حب الدنيا والاعتزاز بزخرفها وزبرجها الذي أوجع نار حروب الجمل وصفين والنهروان، ثم يؤكد عليه السلام على الآية الشريفة التي تصرح بأن الآخرة

١. في ظلال نهج البلاغة ٩٦/١.

من نصيب أولئك الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا. فهذه العبارات القصيرة إنما تكشف عن حقائق مهمة تلمس آثارها على مدى التاريخ.

فالاطماع هي أساس الحروب والنزاعات الدموية، والاهواء والفساد في الأرض هو العنصر الرئيسي الذي يقف وراء الفوضى والمهرج والمرج ومن هنا فاذا لم تجابه هذه العادات الشيطانية بالإيمان والاعتقاد الراسخ فلا مناص من نشوب هذه الحروب الفتاكة وانعدام العدالة وسيادة الفوضى والقلق والاضطراب، بل ستبرز هناك العناصر التي تتلاعب بالقيم الإنسانية والمفاهيم الأخلاقية وسائر الأصول من قبيل الحرية وحقوق الإنسان لتسخرها من أجل تحقيق أهدافها وأطماعها.

والذي يجدر ذكره أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن أولئك الذين تتضارب عقائدهم مع أعمالهم، ويبدو أنّهم مسلمون حيث سمعوا الآيات القرآنية ومنها «تلك الدار الآخرة...»، و آمنوا بها، غير أنّ دعائم إيمانهم قد تزعزعت وتفككت بفعل دوافعهم التي شدتهم إلى الدنيا والتكالب على زخارفها والاعتزاز بزبرجها، وهذه هي النتيجة الطبيعية لكل أولئك الذين يؤثرون دنياهم على دينهم.

٣- المعارك الثلاث على عهد الإمام علي عليه السلام

لقد تضمنت خطبته عليه السلام إشارة إلى المعارك الثلاث: الجمل، وصفين والنهران التي أشعلت من قبل الناكثين والقاسطين والمارقين. وسنشير هنا إلى هذه المعارك بصورة مختصرة:

أ- معركة الجمل

لم تمر على بيعة امير المؤمنين عليه السلام أكثر من ثلاثة أشهر حتى ضاقت طوائف من المستكبرين ذرعا بعدالة الإمام عليه السلام ولم تطق تحمله فهبت لمخالفته. معاوية من جانبه أعلن في الشام عن عدم استعدادة لمبايعة علي عليه السلام ثم تاهب للقتال. فكتب الإمام عليه السلام رسائل إلى ولاته على الكوفة البصرة ومصر ليجهزوا الجيش من أجل مقاتله معاوية... في هذه الاثناء هم طلحة الزبير بالسفر إلى مكة بذريعة أداء العمرة.

فالتقيا في مكة عائشة التي كانت متدمرة من مبايعة علي عليه السلام فانضمت إليهما واتجهوا إلى

البصرة لنصرة عثمان. وبالطبع فإن كافة القرائن تشير إلى أن هؤلاء لم يكونوا يطالبون بدم عثمان، ولم يكن لهم من تعصب للإسلام؛ قتلة عثمان لم يكونوا في البصرة، أضف إلى ذلك فإن نصرة عثمان لا تسلتزم مخالفة أمير المؤمنين علي عليه السلام، ناهيك عن أن طلحة من قادة الثورة على عثمان.

و واضح أن هدف هؤلاء من نقض بيعتهم لعلي عليه السلام هو عدم حصولهم على المناصب التي كانوا يحملون بها. وأخيراً تمكن طلحة والزبير مع عائشة في شهر ربيع الثاني عام ٣٦ هـ بالمكر والخداع من الاستيلاء على البصرة ثم أخذوا لأنفسهم البيعة من الناس حيث سدوا أولى ضرباتهم لوحدة الأمة الإسلامية.

الإمام عليه السلام بدوره لما كان عالماً بهذا الأمر أنفذ جيشه الذي جهزه لقتال معاوية نحو البصرة ثم كتب رسالة لعامله على الكوفة «أبو موسى الأشعري» يطلب منه تعزيز الجيش - ورغم أن أبا موسى لم يرد بالايجاب على رسالة الإمام إلا أنه أنفذ جيشاً قوامه تسعة آلاف مقاتل إلى الكوفة - وفي جمادي الآخرة التحم الجيشان، وطبق نقل «تاريخ يعقوبي» فإن المعركة استغرقت أربع ساعات هزم فيها جيش طلحة والزبير، فانبرت عائشة لتعبئة أهل البصرة فركبت الجمل ومن هنا سميت هذه المعركة بمعركة الجمل؛ وقد أبدى الجيش الذي تمحور حول الجمل مقاومة عنيفة.

فنادى الإمام عليه السلام: «إعقروا الجمل» فلما عقر الجمل إنتهت المعركة حيث قتل طلحة والزبير (فقد قتل طلحة في الميدان على يد مروان، بينما فر الزبير ليقتل خارج ميدان المعركة) فسرح الإمام عليه السلام عائشة بكل إحترام على أنها زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة. وقيل أن عدد القتلى في الجمل قد بلغ عشرة آلاف وقيل سبعة عشر ألفاً، وهكذا حسمت المعركة لصالح الإمام عليه السلام واخذت تلك الفتنة^١.

ب - معركة صفين

عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفة بعد الجمل، فكتب لمعاوية كتاباً طالبه بالبيعة. فلم يجبه معاوية

١. ما ورد أعلاه، اقتبس من «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ج ٣ مع تلخيص.

وأخذ يدعو الناس للطلب بدم عثمان حتى أمر البعض بان يعلنوا على الناس أن قاتل عثمان هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

وبعد مضي مدة كتب رسالة لعلي عليه السلام يعلن فيه الحرب بعد أن جيش جيوش الشام. فجهز الإمام عليه السلام أهل الكوفة لينفذ جيشه إلى صفين وقد أجابه أغلب الناس إلا القليل منهم.

فجعل الإمام عليه السلام جيشه طوائف وجعل لكل طائفة أمير. وصل الإمام عليه السلام صفين لثمان بقين من محرم عام ٣٧ هـ ليلتي جيش معاوية هناك. حاول بعض أصحاب الإمام عليه السلام البدو بالقتال، فكتب معاوية رسالة للإمام عليه السلام يناشده عدم التعجيل بالقتال.

الإمام عليه السلام من جانبه كان يسعى جاهدا للحيلولة دون نشوب القتال فكان يرسل الرسائل والأفراد يناشده جيش معاوية الالتحاق بصوف المسلمين حتى مرت عدة شهور ولم يأذن الإمام عليه السلام بالقتال رغم اصرار أصحابه عليه. إلا أن كل هذه الأمور لم تكن تجدي نفعاً، حتى نشبت المعركة في شهر ذي الحجة عام ٣٧ هـ ووقع بين الطرفين قتال شديد، ثم توقف القتال بجلول شهر محرم الحرام، ثم أخذ الإمام عليه السلام يرسل رسائله ويبعث بأصحابه، وما ان انتهى شهر محرم حتى نشب القتال ثانية حتى زحف جيش الإمام ومني جيش الشام بالفشل.

وأخيراً شعر معاوية بهزيمة جيشه فعمد إلى الجيش بحمل المصاحف، فحدث انشقاق في جيش الإمام عليه السلام بعد أن تعالت أصوات المناققين بالكف عن القتال ثم انتهى الأمر إلى التحكيم الذي فرض على الإمام.

فاختاروا أبا موسى الأشعري المعروف بسداجته ممثلاً عن الإمام عليه السلام وعمرو بن العاص عن معاوية بعد أن اتفقا على أن يخلع كل صاحبه.

فقام أبو موسى الأشعري وخاطب الناس أي خلعت علياً عليه السلام كما أخلع خاتمي، بينما خدعه عمرو بن العاص ولم يخلع معاوية. وهكذا ضاعت أعظم فرصة كادت أن تقضي على بني أمية وتغير وجه التاريخ فندم جيش الإمام عليه السلام حيث لا ينفع الندم.

ج - معركة النهروان

يفهم من أحداث معركة صفين أن الخوارج فئة أفرزتها تلك المعركة بعد مسألة التحكيم.

حيث أصروا على الإمام عليه السلام بقبول التحكيم فلما قاد إلى تلك النتيجة ندموا ندماً شديداً ليعتبروا التحكيم مخالفة صريحة للقرآن وأنه الكفر بعينه، وقد بلغت بهم الوقاحة أن طالبوا الإمام عليه السلام بالتوبة وإلا هبوا لقتاله. فلما رأى الإمام عليه السلام الاختلاف قد دب بين جيشه (ولاحظ عناصر النفاق التي كانت تحاول إثارة الفتنة) أصدر أمره بالعودة إلى الكوفة.

فلما عاد الجيش إلى الكوفة، انشق منه اثنا عشر ألف من الأفراد المتعصبين ليلجأوا إلى الحروراء - قرية تبعد ميلين عن الكوفة - ومن هنا اطلق عليهم إسم الخوارج الحرورية، وأخيراً استعدوا للقتال بعد أن تجمعوا في النهروان قرب الحروراء.

و الغريب في الأمر كان البعض منهم من أصحاب البرانس من الحفاظ. إلا أنهم كانوا يعرفون بالجهل والتعصب والالتزام بظواهر الدين دون باطنه ومن هنا استحقوا إسم «المارقين».

سعى الإمام عليه السلام بادىء ذي بدء إلى نصحهم والاعذار إليهم فبعث لهم الواحد تلو الآخر، فكان من ذلك أن استجاب عدد منهم وهم ينادون «التوبة التوبة يا أمير المؤمنين» حيث قيل إن ثمانية آلاف منهم قد رجعوا وتابوا (تفيد الروايات أن الإمام عليه السلام قد جعل راية في الميدان وأمر التوابين بالانضواء تحتها)، مع ذلك لم ياذن الإمام عليه السلام بمقاتلتهم أملاً بعودة من تبقى منهم. حتى بعث لهم من يحاجهم فقتلوه ثم نشب القتال، فقاتل عليه السلام قتالاً شديداً بعد أن أخبر أصحابه بأن مصارعهم دون النطفة ولن ينجو منهم عشرة ولن يهلك من جيشه عشرة. فكان الأمر كما أخبر عليه السلام.^١

وقعت هذه الحرب في اليوم التاسع من شهر صفر عام ٣٨ أو ٣٩ هجري، ولم تدم أكثر من

ساعة.^٢

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥٩.
٢. «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، شرح نهج البلاغة للسخونى، تاريخ الطبرى، ج ٤، نور الولاية، مروج الذهب، ج ٢ «مع التلخيص والاختصار».

القسم الخامس

«أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو لأحضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاتوا على كفة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أنهد عندي من عفة عنى».

٥٥٥٣

الشرح والتفسير

قبول البيعة والخلافة

يبين الإمام عليه السلام الأسباب التي دعت إلى قبول البيعة والأهداف التي يتوخاها من الخلافة، كما يشير إلى أن هذه الخلافة والامرة لا تعدل عنده شيء لولا تلك الأهداف الكبرى. فقال عليه السلام «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة،^١ لولا حضور الحاضر^٢، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاتوا^٣ على كفة ظالم، ولا سغب^٤ مظلوم، لا لقيت حبلها على غاربها^٥، ولسقيت آخرها بكأس أولها».

١. «نَسَمَةٌ» في الأصل بمعنى هبوب الرياح بشكل هادي، وتستعمل أحياناً للإشارة إلى التنفس، ويُطلق أحياناً على الإنسان، فيقال «نَسَمَةٌ» أما المقصود بها في بحثنا هذا فهو «الإنسان» أو «الروح».
٢. «حاضر» بمعنى حضور الشخص أو الشيء، وقال أرباب اللغة أنها تأتي بمعنى القبيلة والطائفة الكبيرة، ولعلها وردت هنا بهذين المعنيين.
٣. «لا يقاتوا» من مادة «قرار» بمعنى السكون، وعليه فالمراد بالعبارة أن لا يسكتوا ولا يسكنوا.
٤. كفة ما يعترى الأكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استثثار الظالم بالحقوق.
٥. «سغب» تعني الجوع، ولذلك يقال «ذو مسغبة على القحط» وورد في القرآن «أو اطعم في يوم ذي مستغبة» وجاءت في كلام الإمام عليه السلام كناية عن هضم حقوق المظلومين.
٦. «غارب»، الكاهل والكلام تمثيل للترك وإرسال الأمر.

فقوله ﷺ «والذي فلق الحبة» إشارة لما ورد في القرآن الكريم بشأن الذات الإلهية المقدسة «فالق الحب والنوى»^١ التي تتضمن أهم خلق الله سبحانه ألا وهو خلق الحياة. وقوله ﷺ «برء النسمة» إشارة لخلق الإنسان والروح الذي أشار له القرآن الكريم بقوله «فتبارك الله أحسن الخالقين»^٢ فهو يتضمن القسم باهم أعمال خالق الوجود للدلالة على أهمية الأمر الذي يريد التحدث عنه.

وقوله ﷺ «لولا حضور الحاضر» في إشارة إلى حضور الحاضرين بالبيعة له، وإن ذهب البعض إلى أن المراد بالحاضر ذات البيعة والذي لا يختلف كثيراً والمعنى الأول. أمّا القول بأن المراد حضور الله أو حضور الزمان الذي تنبئ به الرسول الكريم ﷺ لعلي ﷺ فهو مستبعد جداً، وإن أوردته بعض الفضلاء كتفسير لتلك العبارة. على كل حال فإن هذه العبارة تتحد في المعنى مع قوله ﷺ: «وقيام الحجة بوجود الناصر» لتشير كلاهما لتمام الحجة عليه ﷺ في أن ينهض بالأمر بعد توفر العدة من الأصحاب والبيعة أمّا قوله ﷺ «لألقيت حلها على غاربها» فهو كناية عن الانصراف عن الشيء، حيث جرت العادة أن يطرح زمام الناقة على ظهرها إذا لم يكن هناك من حاجة إليها في عمل.

وقوله ﷺ: «لسقيت آخرها بكأس أولها» كناية عن الصير على الأمر وتركه كما صبر عليه ازاء الخلفاء الثلاثة^٣. إلا أن الإمام ﷺ يرى نفسه ملزماً بالنهوض بالأمر والتصدي للخلافة لسنيين: أحدهما وجود الناصر الذي يتم الحجة عليه بالقيام من جانب، والثاني العهد الذي أخذه الله على العلماء بالقيام بالأمر إذا ما غيبت العدالة واستفحل الظلم وضيعت الحقوق «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم».

١. سورة الانعام / ٩٥.

٢. سورة المومنون / ١٤.

٣. والشاهد على ذلك الشعر الذي تمثل به ﷺ في قضية مخالفة طلحة والزبير والتعهد لنشوب معركة الجمل. حيث قال:

تسقى آواخرها بكأس الأول

فتن تحل بهم ومن شوارع

بحار الانوار، ١١٨/٣٢.

فالواقع أن كلام الإمام عليه السلام تحذير لكافة علماء في ممارسة مسؤوليتهم في تشكيل الحكومة وبسط العدل والقسط في ربوع المجتمع وعدم السكوت والتخاذل في حالة توفر هذه الأسباب. ويخطيء كل أولئك الذين يرون وظيفتهم إنما تقتصر على إقامة الشعائر العبادية كالصوم والصلاة والحج والزكاة إلى جانب الإتيان بالمستحبات. فبسط العدل والقسط والدفاع عن المظلوم والقيام بوجه الظالم تعدّ من جوهر الوظائف الإسلامية لهؤلاء العلماء.

ثم يقول عليه السلام: «و لا لفيتم ديناكم هذه أزهدي عندي من عطفة^٢ عنز».

وبالالتفات إلى ما ورد في صحاح اللغة من أن العطفة تعني الماء الذي يترشح من أنف الشاة (أو العنز حين العطسة) تتضح مدى تهاة الدنيا - التي تحظى بفائق الأهمية لدى أهلها - عند علي عليه السلام، فما قيمة العنز فضلا عن ماء أنفها والحق ان مثل هذه التعبيرات قد تبدو غريبة بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون شخصية علي عليه السلام؛ إلا أن هذه الغرابة ربّما تزول بأدنى نظرة إلى سيرته عليه السلام وحياته التي عاشها.

قال السيد الرضي (ره) في ذيل الخطبة.

«قالوا و قام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً - قيل أنّ فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها - فاقبل ينظر فيه (فلما فرغ من قرائته) قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: «هيهات يا بن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرّت» قال ابن عباس فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث يريد».

أمّا التعبير بأهل السواد فهو إشارة إلى المناطق الغنية بالزرع والأشجار التي تبدو من بعيد سوداء، لأنّ اللون الأخضر يتركز من بعيد ليميل إلى السواد، ولما كان هل الحجاز ألفوا الأرض اليابسة الخالية التي يصطلح عليها بالبياض فاتهم إذا ما انطلقوا نحو العراق المخضر بفضل

١. «ألفيتم» من مادة «الفاء»، بمعنى وجدتم ورأيتم.

٢. عطفة العنز: ما تنثره من أنفها، وأكثر ما يستعمل ذلك في النعمة وإن كان الأشهر في الاستعمال بالنون «النقطة».

نهره دجلة والفرات وتلوح أشجاره وزرعه من بعيد يبدو أسوداً فيصطلحون عليه بأرض السواد كما يطلقوا على أهله اسم أهل السواد.

أمّا مضمون الكتاب والمسائل التي فيه فقد تطرق إليها بعض شراح نهج البلاغة وسنعرض لها في البحث القادم.

وقد روى ابن أبي الحديد بهذا الشأن عن استاذه مصدق بن شبيب أنه قال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما إنتهيت إلى هذا الموضوع، قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمك أمر لم يبلغه فوالله ما رجعت عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله ﷺ.

قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعاية وهزل، قال: فقلت له: أتقول إنها منحولة. فقال: لا والله وإني لا أعلم أنها كلامه، كما أعلم أنك مصدق.^١

قال الشريف الرضي رحمه الله: قوله ﷺ «كراكب الصعبة إن اشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم» يريد أنه إذا شدد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها يقال «اشنق الناقة» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعها و«شنقها» أيضاً، ذكر ذلك «ابن السكيت» في اصلاح المنطق» وإنما قال «اشنق لها» ولم يقل «اشنقها» لأنه جعله في مقابلة قوله «أسلس لها» فكانه ﷺ قال: إن رفع رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام).

تأملات

١- الرد على سؤال

قد يقال: تعتقد الإمامية واتباع مدرسة أهل البيت ﷺ أن الإمام ينصب من قبل الله تعالى بواسطة النبي الأكرم ﷺ، لا على أساس إنتخابه من قبل الأمة، بينما صرح الإمام ﷺ في هذه

١. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٢٠٥/١

الخطبة قائلاً: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر و... لالتقيت حبلاً على غاربها» فكيف التوفيق بينهما؟

ونقول في الردّ على هذا السؤال أنّ للامامة والخلافة واقع ومقام ظهور و بروز فواقعها أنّها تعين من قبل الله بواسطة نبيّه ﷺ، أمّا ظهورها وبروزها والتصرف في شؤون المسلمين والمجتمع الإسلامي إنّما يتوقف على الأمة ونهوض أبنائها في توفير الدعم والاسناد؛ الأمر الذي لا يتأتى إلا من خلال بيعة الأمة.

ومن هنا أصبح الإمام عليه السلام جليس الدار إبان خلافة الخلفاء الثلاثة - طيلة خمس وعشرين سنة - ولم يتدخل في شؤون الخلافة، والحال لم تكن هنالك من ثلثة في إمامته المنصوص عليها من جانب الله بواسطة النبي ﷺ ويصدق هذا الكلام على بعض أئمة العصمة والطهارة، فقد اقترح أبو مسلم الخلافة على الإمام الصادق عليه السلام، ولعلمه عليه السلام بالمؤامرة لم يجيبه. بل كان البعض يطالب الأئمة بالقيام وتولي الخلافة. فيجيبون باننا لا نملك ما يكفي من الأنصار!

٢- المسائل التي تضمنها الكتاب

روى المرحوم «الشارح البحراني» في كتابه عن أبي الحسن الكيدري أنّ الكتاب الذي سلم إلى علي عليه السلام آخر الخطبة كان يقسم عشرة أسئلة هي:

١- الذي خرج من بطن وليس له بولد؟

قال عليه السلام: يونس الذي خرج من بطن الحوت.

٢- ما كان قليله مباح وكثيره حرام؟

قال عليه السلام: نهر طالوت.

٣- العبادة التي يعاقب على الإتيان بها أو تركها؟

قال عليه السلام: الصلاة في السكر.

١. اصول الكافي ٢/٢٤٢ كتاب الإيمان والكفر، باب قلة عدد المؤمنين، ح ٤.

٤- الطائر الذي ليس له أصل (أم)؟

قال ﷺ: الطائر الذي خلقه عيسى عليه السلام باذن الله.

٥- رجل مدين الف درهم وله الف درهم وضمنه آخر وكان له الف درهم، وقد مضى

عليه عام، فالزكاة على أي من المالين؟

قال ﷺ: إذا فعل الضامن ذلك باذن المدين فلا زكاة عليه، وإن فعله بدون إذنه وجبت عليه

الزكاة.

٦- حج جماعة فنزلوا بيتاً في مكة وأغلق أحدهم باب البيت فكان فيه طيور فماتت

عطشاً، فعلى من تجب الكفارة؟

قال ﷺ: على من أغلق الباب ولم يخرج الطيور ولم يسقيها.

٧- شهد أربعة على رجل بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه (لأنه كان محصناً) فرجمه أحدهم

وساعده جماعة وامتنع الثلاث. ثم رجع عن شهادته (وأقر بكذبه) ولم يميت المتهم. ثم مات

وبعد موته رجع الثلاث عن شهادتهم. على من تجب دينه؟

قال ﷺ: على ذلك الرجل والجماعة الذين ساعدوه^١.

٨- هل تقبل شهادة يهوديين لثالث باعتراف الإسلام؟

قال ﷺ: لا تقبل شهادتهما؛ لأنهم يحرفون كلام الله ويجوزون الشهادة بالباطل.

٩- هل تقبل شهادة نصرانيين لنصراني أو يهودي أو مجوسي بالإسلام؟

قال ﷺ: تقبل لقوله سبحانه: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا

نصارى»^٢.

١٠- قطع شخص يد آخر، فشهد أربعة عند الإمام قطعت يده وقد زنا بمحصنة، فاراد

الإمام أن يرجمه فتوفي قبل الرجم، فما حكمه؟

١. هذا إذا أخطأ الشهود فإن كان عن عمد فحكمهم القصاص كما ورد في كتاب القصاص. والنقطة الجديدة بالذكر للشهود الذين حصل الرجم لشهادتهم أن يرجعوا وما دفع يؤخذ من الأربعة بالتساوي وللوقوف أكثر راجع كتاب الجواهر، ٢٢٥/٤١، ولا بد من الالتفات هنا إلى وجود بعض التفاوت بين ما ورد في هذا الحديث وما جاء في الكتب الفقهية.

٢. سورة المائدة / ٨٢.

قال عليه السلام: تجب الدية على من قطع يده، لكن ان شهدوا أنه سرق بمجد النصاب فلا تجب الدية على القاطع^١. طبعاً ما ذكر هو مضمون رواية مرسله رويت عن الكيدري ولم تثبت صحة سند الحديث، ولذلك هناك أبحاث كثيرة من وجهة النظر الفقيهية بشأن بعض الفروع المذكورة في هذا الحديث.

٣- مميزات الخطبة الشقشقية

إن نظرة عامة إلى خطب نهج البلاغة تفيد أن الخطبة الشقشقية هي من الخطب التي قل نظيرها إن لم نقل لا نظير لها في نهج البلاغة؛ الأمر الذي يثبت أن الإمام عليه السلام قد أوردتها في ظروف خاصة للحيلولة دون نسيان الحقائق المتعلقة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لتخلد في التاريخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحة تامة. فقد أوضح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عدّة أمور منها:

١- أحقيته وجدارته بالخلافة التي بينها بوضوح وهذه هي الحقيقة التي إتفق عليها تقريباً كافة المحققين المسلمين وغير المسلمين، حتى إعترف معاوية أعدى أعداء الإمام عليه السلام بافضليته^٢.

٢- مظلوميته عليه السلام رغم أحقيته وكفائته.

٣- يفيد كلام الإمام عليه السلام عدم وجود مرجع واضح لانتخاب أي من الخلفاء الثلاثة، إضافة إلى المعايير المتعددة التي حكمت ذلك الانتخاب، فقد كانت خلافة أحدهم تستند إلى رأي واحد، وآخر لنصف من شوري سداسية وثالث لعدد من الآراء.

٤- ابتعاد الأمة في عصر الخلفاء عن تعاليم النبي الأكرام صلى الله عليه وآله وتفاقم الازمات على مرور الزمان، بحيث كانت من أبلغ الصعوبات التي واجهت الإمام عليه السلام حين تولى الخلافة تكمن في

١. شرح نهج البلاغة لابن ميشم البحراني ١/٢٦٩، المتسدرک ٥٥/٧.

٢. ورد هذا المعنى في الرسالة التي كتبها معاوية وبعث بها لمحمد بن أبي بكر والتي نقلتها أغلب المصادر الإسلامية ومنها مروج الذهب، فقد قال فيها أني وأبيك نقر بفضل علي وحقه علينا... إلا أن أبيك وفاروقه (عمر) هما أول من خالفه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله. وقال اليعقوبي في تاريخه: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي عليه السلام. (تاريخ اليعقوبي ١٢٤/٢).

إعادة الأمة إلى القيم الإسلامية التي كانت سائدة على عهد رسول الله ﷺ.

٥- أن التهافت على الدنيا والاعتزاز بزخرفها هو العامل الذي يقف وراء الفوضى

والاضطراب والحروب التي نشبت على عهد الإمام علي ﷺ.

٦- أن ما حصل للإمام علي ﷺ هو البيعة الحقيقية بعينها، غير أن عدالة علي ﷺ وشدته في

الحق أثارت حفيظة بعض زعماء المجتمع لينقضوا البيعة ويقسط ويمرق آخرون.

٧- لم يكن للإمام علي ﷺ أية رغبة بالخلافة ولم يراها هدفاً قط، بل هي وسيلة لاحقاق

الحق بإبطال الباطل وبسط العدل والقسط.

٨- كانت الانتفاضات التي حدثت في زمان عثمان والتي أدت بالتالي إلى قتله طبيعية جداً

ونتيجة لسلوكه وبطانته من بني أمية الذين سلطهم على رقاب المسلمين فجعلهم عمالاً وولاة

على بعض المناطق فعبثوا ببيت المال واسرفوا في تبذيره حتى ثارت الأمة بعد أن انطلقت

شرارة الرفض من المناطق البعيدة عن مركز الخلافة كمصر والبصرة والكوفة.

٩- كانت المعارك الثلاث - الجمل وصفين والنهروان - قد فرضت على الإمام علي ﷺ من قبل

الأفراد الذين لم يطبقوا عدله ﷺ إلى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

١٠- عدم انسجام عقيدة تنزيه الصحابة وعدالتهم لمجرد صحبتهم مع أي من المعايير

والوقائع التاريخية؛ وهو الاعتقاد الذي يقود إلى التناقض، فاصحاب فتنة الجمل هما إثنان من

الصحابة وصاحب صفين من الصحابة أيضاً بينما كانت طائفة من الصحابة من مشعلي نار

النهروان وقد خرج جميع هولاء على إمام زمانهم فاختراروا سبيل البغي وشق عصا الأمة

الإسلامية وبث الفرقة والاختلاف في صفوفها. فكيف والحال هذه نقول علي ﷺ.

على الحق وطلحة والزبير ومعاوية كذلك؟! أما الاستدلال بالاجتهاد في هذه الأمور فهو

توجيه يفتقر إلى المنطق ومدعاة حتى لارتكاب الكبائر.

الخطبة ٤

ومن خطبة له ﷺ

وهي من أفصح كلامه ﷺ وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال:
«إنه خطبها بعد قتل طلحة والزبير»

نظرة إلى الخطبة

يمكن أن تكون هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها قد وردت بعد أحداث معركة الجمل وقتل طلحة والزبير فهي تتحدث عن وقائع المعركة والدروس والعبر التي ينبغي أن يتعلمها المسلمون. حيث يمكن خلاصة الخطبة في محاور رئيسية ثلاث:

١- التصريح بهذه الحقيقة وهي هداية الأمة من الظلمات بواسطة أهل بيت النبي ﷺ حتى بلغت ذروة تكاملها ورقبها، وعليه فعليها أن تعيرهم آذاناً صاغية وتتفاعل مع موعظهم ونصائحهم.

٢- إن الإمام ﷺ كان يعلم بالخيانة ونقض العهود والتمرد، إلا أن جلباب الدين لم يدعه يكشف تلك الحقائق.

٣- يشير الإمام ﷺ في المقطع الأخير من الخطبة إلى أن اليوم لم يعد يوم التستر على الحقائق؛ لا بد من إعلان هذه الحقائق وإلا يخشى على الأمة من الضلال وهذا بذاته ما يجعل الإمام ﷺ يعيش هاجس القلق.

القسم الأول

«بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظُّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ العُلْيَاءِ، وَبِنَا أَفْجَرْتُمْ عَنِ السَّرَارِ وَقِرَّ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهُ الوَاعِيَةَ، وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبَأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟ رُيِّطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقَهُ الخَفَقَانُ».

الشرح والتفسير

التحلي بالوعي واليقظة

أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى النعم الجمّة التي تمتع بها المسلمون - ولا سيما في صدر الإسلام - في ظل الإسلام، حيث وضع هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة ذات تشبيهات رائعة فقال عليه السلام: «بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظُّلْمَاءِ^١ وَتَسَنَّمْتُمْ^٢ ذُرْوَةَ العُلْيَاءِ، وَبِنَا أَفْجَرْتُمْ^٣ عَنِ السَّرَارِ^٤». فالإمام عليه السلام يشير في العبارة الأولى إلى ظروف الجاهلية التي خيم فيها الظلام والجهل والفساد والجريمة على كافة الأماكن حتى تبددت هذه الظلمات بظهور النبي صلى الله عليه وآله

١. «اهتديتم» من «الاهتداء» تستعمل - حسب قول بعض شراح نهج البلاغة وارباب اللغة - حيث يعيل الإنسان بإرادته للهداية وهكذا جاءت في العبارة.
٢. «ظلماء» على وزن صحراء بمعنى ظلمة أول الليل أو بعبارة أخرى النور بعد الظلمة؛ خلافا للظلمة بمفهومها العام ولعل الإمام عليه السلام أراد بها عصر الجاهلية الذي يعتبر في الواقع ظلمة بعد النور؛ أي دعوة الأنبياء أولي العزم.
٣. «تسنمتم» من مادة سنم على وزن قلم بمعنى العلو ومن هنا يطلق على ذروة الجبل اسم سنام.
٤. «ذروة» من مادة «ذرو»، لها معنيان: أحدهما إشراف شيء على آخر ومن هنا تطلق الذروة على قمة الجبل، والآخر تفتت الشيء وتفرقه.
٥. «أفجرتم» من مادة «فجر» بمعنى الفجوة الراسعة في الشيء ومن هنا اطلق الفجر على الصباح الذي يشق عتمة الليل، وأفجرتم بمعنى دخول الفجر.
٦. «سرار» من مادة «سر» بمعنى الخفاء وما يقابل العلن، وتطلق مفردة السرار عادة على الليالي الأخيرة للشهر حيث يكون الجو ظلما دامسا.

وانبثاق الدعوة الإسلامية ليهتدي الناس إلى الصراط المستقيم ويتجهون نحو الهدف المنشود. ويشبه في العبارة الثانية حركة الرقي والتكامل والازدهار بالجمل ذي السنام (حيث اقتبست المفردة تسنم من مادة سنام أعلى قمة في الجمل) فقال ﷺ لقد بلغت هذه الذروة وقطعت مسيرة الرقي والتكامل في ظل الإسلام؛ الحقيقة التي إذعن لها جميع مؤرخي الشرق والغرب في كتبهم التي تعرضوا فيها للمدنية الإسلامية وحضارتها. ثم شبه في العبارة الثالثة أوضاع المجتمع الجاهلي بليالي الشهر الظلماء والمحاق (حيث تعني السرار الليالي التي لا يبرز فيها القمر أبداً) فقال ﷺ: «و بنا أفجرتم عن السرار». والواقع هو أن هذه التعبيرات إنما تتبع من القرآن الذي شبه الإسلام والإيمان والوحي بالنور، فقال: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»^١ وقال في موضع آخر: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ»^٢ وقال: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ»^٣ - ثم يذم ﷺ الأفراد الذين صخت آذانهم عن سماع الحق بينما يشني على غيرهم من ذوي الاسماع فقال ﷺ: «وقر سمع لم يفقه الواعية». تستعمل مفردة «الوقر» بشأن الصمم كما تستعمل في ثقل السمع، والمراد بالواعية الأصوات المرتفعة، وهي إشارة لآيات القرآن التي تقرر الاسماع بشأن المسائل المهمة العقائدية والعملية والأخلاقية وكذلك السنة النبوية الشريفة. أما التعبير «لم يفقه» بدلاً من «لم يسمع» تفيد عدم جدوى السمع ما لم يصحبه الإدراك والفهم. ثم واصل الإمام ﷺ كلامه فقال: «وكيف يراعى النبأ^٤ من أصمته الصيحة»^٥. والمراد كيف يصغي لي ويستمع قولي من لا يراعي أو امر الله ونبيه ﷺ فقد شبه

١. سورة البقرة / ٢٥٧.

٢. سورة المائدة / ١٥ -

٣. سورة الزخرف / ٤٤.

٤. «النبأ» من مادة «نبأ» بمعنى القدر من مكان إلى آخر ومن هنا اطلق النبأ على الخبر الذي ينتقل من مكان إلى آخر والنبأ بمعنى الصوت الخفي لأن الصوت ينتقل من مكان إلى آخر (مقاييس اللغة).

٥. قال بعض شراح نهج البلاغة أن قوله «أصمته الصيحة» ليس معناه أن الصيحة كانت علة لصممه، بل معناه أنهم كانوا صمما عن سماع صوت الوحي، كقول سبجانه «أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون» (سورة يونس / ٤٢).

ذلك بمن أصمته الصيحة القوية فانه محال أن يراعي بعد ذلك الصوت الضعيف، ولما كانت هنالك الفئة الأخرى المتعصبة للحق فقد قال ﷺ: «ربط جنان^١ لم يفارق الخفقان^٢».

ملاحظة

الهداية في ظل أهل البيت ﷺ

ما مر معنا في هذا القسم من الخطبة هو إشارة إلى واقعة تأريخية مهمة تتضح من خلال مقارنة عصر العرب الجاهلية بعصر التطور والازدهار الذي أعقب بزوغ شمس الإسلام، كيف كان عرب الجاهلية من حيث العقائد الدينية والقضايا المتعلقة بالمبدأ والمعاد والنظام الاجتماعي ونظام الاسرة والأخلاق والتقوى والأوضاع الاقتصادية وكيف أصبحت هذه الأمور أبان انبثاق الدعوة الإسلامية ونزول القرآن الكريم. والحق أن التفاوت بينهما إلى درجة من المدى والعمق بحيث لا يمكن سوى نعته بالمعجزة الكبرى وإلا تعذر تصور ذلك التفاوت. فما صورته الإمام ﷺ في هذه الخطبة لم يكن سوى الظلام المطلق الذي التى بظلاله على جميع المجتمع، ولم يكفد ينبثق الإسلام حتى تبددت هذه الظلمة بفجر الإسلام ليأخذ بيد المجتمع إلى العلم والمعرفة والثقافة والحضارة والمدنية. ولم تكن سوى إشارة قصيرة ولا يمكن الامام بتفاصيلها إلا بالرجوع إلى الكتب التي ألفت بشأن الحضارة الإسلامية. كما وردت بعض التفاصيل في سائر خطبه ﷺ في نهج البلاغة.



١. «جنان» بمعنى القلب لأنه في صدر الإنسان وقد اشتقت هذه المفردة من جن (علو وزن فن) بمعنى الاستتار ومن هنا يطلق جنة على الحديقة الغناء والأرض المغطاة بالأشجار، ويطلق الجنين على الطفل المستتر في بطن أمه كما تطلق مفردة الجن لأنهم استجنوا فلا يروا والمجنون تطلق على من ستر عقله.
٢. «خفقان» بمعنى الاضطراب، ويستعمل للخوف والخشية لأنها تدعو للاضطراب والمراد بها في العبارة نحرف الله.

القسم الثاني

«مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوْسَمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، حَتَّى سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تَمِيهُونَ.»

❦❦❦

الشرح والتفسير

كنت أتوقع غدركم، ولكن...

لقد خاطب الإمام علي عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة - سليلي أصحاب الجمل من تبنى منهم قائلاً: «مازلت أنتظر بكم عواقب الغدر، واتوسمكم بحلية المغترين^١». فقد روى أنه لما بويح علي عليه السلام كتب إلى معاوية: أمّا بعد فإنّ الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة مني وبإيعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوقد إلى أشرف أهل الشام قبلك.

فلما قدم رسوله على معاوية، وقرأ كتابه، بعث رجلاً من بني عميس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلام عليك، أمّا بعد، فإنّي قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين

١. «أتوسمكم» من مادة «وسم» على وزن ولم أنفوس فيكم، الأثر والعلامة: أي كنت أرى فيكم علانم الغدر منذ البداية.

٢. «مغترين» من مادة «غرور» بمعنى مخدوعين.

المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيدالله من بعدك، فأظهر الطلب بدم عثمان، وادَّعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكأ في النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف علي عليه السلام.

جاء الزبير وطلحة إلى علي عليه السلام بعد البيعة بأيام، فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كنتا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلَّها، وعلمت رأى عثمان كان في بني أمية، وقد ولّك الله الخلافة من بعده، فولّنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسم الله لكما، حتى أرى رأيي، واعلما أنّي لا أشرك في أمانتي إلا من أَرْضَى بدينه وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلها اليأس، فاستأذناه في العمرة.

طلب طلحة والزبير من علي عليه السلام أن يولِّيهما المصرين: البصرة والكوفة، فقال حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن تولِّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ماترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الكوفة والبصرة عَيْنُ الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولست آمنهما إن وليتهما أن يُحدِثا أمراً. فأخذ علي عليه السلام برأى ابن عباس.

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكة لم يلقيا أحداً إلا وقالوا له: ليس لعلي في أعناقنا بيعة، وأنما بايعناه مكرهين. فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغرب دارهما، أما والله لقد علمت أنّهما سيقْتلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، والله ما العمرة يريدان، ولقد أتيتني بوجهي فاجرئين، ورجعا بوجهي غادرين ناكثين، والله لا يلقىاني بعد اليوم إلا في كتيبة خشنا، يقتلان فيها أنفسهما، فبُعِداً لهما وسحقاً.^١

ثم أضاف عليه السلام أن لباس الدين وجليبابه هو الذي يجعلني أغض الطرف عنكم (ولا أهتك سريرتكم): «حتى سترني عنكم جلاباب^٢ الدين، وبصرنيكم صدق النية». والواقع هو أن عبارة الإمام عليه السلام إجابة عن سؤالين هما: أولاً: لو كان الإمام عليه السلام يتوقع نقضهم للعهد ويتوسم

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٣٠ و ٢٣١.

٢. «جلاباب» بمعنى الثوب والستر.

ذلك فيهم فلم لم يعلن ذلك على الملأ؟ وثانياً: من أين له هذا العلم بباطن هؤلاء؟ فقد رد الإمام عليه السلام على السؤال بقوله: «سترني عنكم جلباب الدين» ورد على السؤال الثاني بقوله «وبصرتيكم صدق النية»، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى تفسير العبارة الأولى بأنكم لم تعرفوني، وما ذلك إلا لسوء فهمكم للدين، أو أن تديني منعكم من معرفتي؛ إلا أن هذا المعنى يبدو مستبعداً لما ينطوي عليه من تكلف إلى جانب عدم انسجامه والعبارة السابقة، فالمعنى الأول هو الأنسب. ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول: «أقمت لكم على سبيل الحق في جواد المضلة^٢ حيث تلتقون ولادليل، وتحتقرون ولاتميهون»^٣ يشبه الإمام علي عليه السلام الناس في عصر عثمان ولا سيما أواخر عمره بالرحالة الذين ضلوا الطريق وساروا على غير هدى فهم يتضوون عطشاً وهم يحفرون الأرض موضعاً موضعاً من أجل الوصول إلى الماء فلا يحصلون عليه؛ فيهب الإمام عليه السلام لنجدتهم فيهديهم إلى الصراط المستقيم فينتهلون من منهله العذب. ثم يلفت إنتباههم إلى عظم الفتن الدينية والدنيوية التي كانت ستلتهمهم في ذلك العصر المظلم لولا وجوده عليه السلام.

تأملان

١ - البصيرة

لقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضية مهمّة وهي أنّ صفاء النفس وصدق النية من العناصر التي تكمن وراء البصيرة والفراسة. فالمؤمنون الأصفياء الباطن يرون ما لا يرى غيرهم، وهي الحقيقة التي صرح بها القرآن الكريم وأكدت الروايات الإسلامية. فقد جاء في القرآن: «ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً»^٤. وورد في الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^٥ وقال الإمام الرضا عليه السلام: «ما من مؤمن إلا وله فراسة ينظر

١. «جواد» جمع «جادة» بمعنى الطرق الكبيرة والواسعة.

٢. «مضلة» من مادة «ضلال» الموضع الذي يضل سالكه وعليه فمعنى جواد المضلة طرق الضلال.

٣. «تميهون» من مادة «موه» على وزن نوع بمعنى تجدون ماءً، ومنه أخذت مفردة الماء وأما بمعنى بلع الماء عليه فمعنى لا تميهون لا تبلغون الماء (وإن أجهدتكم أنفسكم في حفر الآبار).

٤. سورة الانفال / ٢٩.

٥. اصول الكافي ١/ ٢١٨.

بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ إستبصاره وعلمه وقد جمع الله للأئمة مناً ما فرقه في جميع المؤمنين وقال عز وجل في كتابه: إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وإن أول المتوسمين رسول الله ﷺ ثم أمير المؤمنين عليه السلام وبعده الحسن والحسين عليهما السلام والأئمة عليهم السلام من ولد الحسين إلى يوم القيامة^١ جدير بالذكر أن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام جواباً لمن سأله: كيف تعلمون باطن الناس وتخبرون عمّا في أنفسهم. والحق ليس هنالك من حجاب مضروب على حقائق العالم، وليس ذلك سوى حجاب الهوى والهوس الشيطاني الذي يغشى بصيرتنا فيحول دون رؤيتنا للحقائق، ولو إستشعرنا قلوبنا الورع والتقوى والإيمان واليقين فإن هذه الحجب سترفع ونرى كل شيء على حقيقته، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت»^٢.

٢ - ستر عيوب الناس

غالبًا ما يتصف الأفراد بالعيوب الخفية التي قد يطلع عليها الإنسان من خلال الطرق العادية أو إستناداً إلى الفراسة والإيمان؛ فإذا إطلع عليها فإن الواجب يحتم عليه - ولا سيما إذا إطلع ذلك ولاة الأمة وقادة المجتمع - أن يسعى جاهداً لسترها وعدم هتك حجابها مادامت لا تشكل خطراً يتهدد المجتمع؛ وذلك لأن هتك سريرة الآخرين وكشف عيوبهم يجردهم من حرمتهم من جانب ويفسح المجال أمامهم لارتكاب المعاصي والجرأة على مقارفتها من جانب آخر؛ فالفرد يبقى محتاطاً مادام عيبه مستور، فإن هتك وافتضح أمره فلا يراعى شيئاً، وناهيك عن كل ذلك فإن هتك العيوب مدعاة لاشاعة الفاحشة في المجتمع وتلوث الآخرين بارتكاب الذنب. ومن هنا ورد التأكيد في الروايات والأحاديث على كتم السر على أنه حق من حقوق المؤمنين على بعضهم البعض الآخر. فقد جاء في الحديث: «واكتم سره وعيبه واظهر منه الحسن»^٣. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله

١. بحار الأنوار ٢٤/٢٨٨ ح ١٣.

٢. بحار الأنوار ٦٧/٥٩ (باب القلب وصلاحه).

٣. أصول الكافي ٢/٢٤٩ ح ٣ (باب ان المؤمن صنفان).

عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة»^١ فقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذه الوصية الإسلامية وأعلن طاعته وامتثاله لها، وبالطبع فقد قلنا إنما يكون ذلك ما لم تقود تلك العيوب التي يراد سترها إلى بعض المشاكل الاجتماعية التي تهدد كيان المجتمع، وإلا فالوظيفة تقتضي إعلان الحقائق. ولكن لا ينبغي التذرع بهذا الاستثناء من أجل هتك عيوب الناس وأسرارهم.



القسم الثالث

«الْيَوْمَ أَنْطِقُ لَكُمْ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ! عَزَبَ رَأْيِي أَمْرِي تَخَلَّفَ عَنِّي! مَا شَكَنْتُ فِي الْحَقِّ مِذْ أَرَيْتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى ﷺ خَيْفَةً عَلَيَّ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَالِ وَدَوَلِ الضَّلَالِ الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير

اليوم أكشف الحجاب

لقد تضمن هذا القسم من الخطبة عدّة عبارات أشارت لعدة أمور مهمّة، ويبدو أنّ هنالك عدّة جمل تخللت هذه العبارات قد أسقطها السيد الرضي ﷺ حين التلخيص، فقد كانت عادة السيد في إختيار مقتطفات من الخطب وحذف بعض العبارات، على كل حال فإنّ الأمر الذي أشار إليه الإمام ﷺ هنا هو قوله: «اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان». والعجماء البهيمه التي لانطق لها، إلّا أنّها تطلق أحيانا على الحوادث والقضايا الصماء التي ليست لها قابلية على النطق. ومن هنا يرى أغلب شراح نهج البلاغة أنّ المراد بالعجماء الحوادث التي تتطوي على العبر والدروس التي حدثت على عهد الإمام ﷺ أو العهود الماضية وكلّ حادثة مع غموضها وخفائها فكأنّها تنطق لأولي الألباب. فالإمام ﷺ يتعرض لبيان عبرها ودروسها التي ينبغي أن يتعظ بها المسلمون. كما ذهب البعض إلى أنّ المراد بها صفاته الكمالية ﷺ أو الأوامر الإلهية فكأنّها هي الأخرى صامته والإمام ﷺ يكشف عن منطقتها. ثم قال ﷺ في العبارة الثانية: «عزب رأيي تخلف عني، ما شككت في الحق مذكأرأيته» في الواقع يبدو صدر وذيل هذه العبارة من قبيل العلة والمعلول أو الدليل والمدعى، وإذا أخذ بنظر الاعتبار تربية الإمام ﷺ في

حضن النبي ﷺ على الحق والاستقامة وبفضله كاتب الوحي وشاهد المعاجز والأعظم من ذلك كونه باب مدينة علم رسول الله ﷺ إلى جانب علمه بالشهود إضافة لعلمه بالظاهر فإن كلامه ﷺ لا يعرف معنى للاغراق والمبالغة قط. واحتمل بعض الشراح أن جملة «عزب رأي إمري...» من قبيل الدعاء؛ أي بعدا وترحا لمن تخلف عن أوامري. ويبدو المعنى الأول أنسب، أمّا العبارة الثالثة فقد أورد فيها الإمام ﷺ ردأعلى سؤال قد يقتدح في ذهن البعض بعد موقعة الجمل وهو: لم كان الإمام ﷺ قلقاً من أحداث تلك الموقعة؟ فالإمام ﷺ يجيب بأن هذا القلق ليس على نفسه قط، بل خشية من تسرب الشك والريب إلى قلوب عوام الناس بفعل إقترحام الميدان من قبل زوج النبي ﷺ وبعض الصحابة من قبيل طلحة والزبير وارتفاع الأصوات المطالبة بدم عثمان؛ كالقلق الذي عاشه موسى ﷺ حين واجهه السحرة بسحرهم خشية غلبتهم واضلال الناس «لم يوجس موسى ﷺ خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجاهل ودول الضلال». وهى إشارة إلى الآيات التي وردت في سورة طه بشأن موسى ﷺ والسحرة «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أُلْقِيَ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى»^١. أمّا في العبارة الرابعة فيحذر من تبقى من مثيري فتنة الجمل في أننا وإياكم قد وقفنا على مفترق طرق نتجه فيه إلى الحق بينما تتجهون نحو الباطل «اليوم توافقنا^٢ على سبيل الحق والباطل». كأن الإمام ﷺ يقول لهم، افتحوا أعينكم وانظروا إلى ما أنتم عليه فانكم إنما خرجتم على إمام زمانكم! لقد نكثتم البيعة ولم تقيموا حرمة للمواثيق! لقد شققتم عصا المسلمين وفرقتهم صفوفهم! وسفكتم دماءً غزيرة! وقلدتهم أنفسكم مسؤولية كبرى ستطيل وقوفكم أمام الله يوم القيامة! ارجعوا إلى رشدكم واعيدوا النظرا في أوضاعكم!. وأخيراً يختتم الإمام ﷺ خطبته بقوله: «من وثق بماء لم يظلماً» مراده ﷺ أن من كان له واعظ وقائد موثوق لا يتسلل إليه الشك والترديد والوساوس الشيطانية والقلق والاضطراب وإنعدام الثقة؛ وذلك لأنه يرى نفسه على جرف ماء المعرفة الفرات العذب ويلوذ بامامه عند الفزع فيأتمر بأوامره

١. سورة طه / ٦٥ - ٦٧.

٢. «توافقنا» من مادة «الوقوف» والقاف مقدمة على الفاء.

والاستضاءة بنور علمه. وأنتم كذلك لو عرفتم زعيمكم ووثقتم به فاعلموا أنكم سائرون على الحق وآمنون من كافة أشكال الشكوك والأهواء النفسية والوساوس الشيطانية.

الصراع بين الحق والباطل

لقد شبه الإمام عليه السلام الحق والباطل بطريقتين سلك فريق أحدهما والآخر الثاني، وإذا أردنا تفسير هاتين المفردتين باختصار، فلا بد أن نقول بأن الحق هو الواقع والباطل هو الخيال والسراب الذي يحسبه الظمان ماء. ومن هنا فإن الذات الإلهية المقدسة التي تعدّ أعظم من كل واقع اكتسبت أول اسم وهو الحق، وغيره على الحق بقدر إرتباطه به وكلما ابتعد عنه فهو على الباطل. فعالم الإمكان لانتائه لله فهو حق، وهو باطل لامتزاجه ببعض جوانب العدم. فالعالم ميدان لصراع الحق والباطل وقد صور القرآن الكريم أبعاد هذا الصراع وعاقبته نتائج بمثال رائع في سورة الرعد حيث قال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ»^١.



١. سورة الرعد / ١٧. للوقوف على تفاصيل هذا المثل القرآني راجع تفسير الأمثل / ١٠ ذيل هذه الآية.

الخطبة ٥

ومن خطبة له ﷺ

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وابوسفیان بن حرب في أن يبايعاه بالخلافة (و ذلك بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة وفيها ينهى عن الفتنة ويبين عن خلقه وعلمه)١.

٤٥٥٨

نظرة إلى الخطبة

هذه واحدة من الخطب التي نقلت عن الإمام ﷺ في أتمها خطبها قبل خلافته. والذي يستفاد من هذه الخطبة والمقدمة التي أوردتها الشريف الرضي (ره) عليها أن أباسفيان والعباس إنطلقا إلى علي ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ (و لعل أباسفيان دفع العباس إلى ذلك) واقترحا على الإمام ﷺ النهوض بالأمر والبيعة له على أنه خليفة رسول الله ﷺ. إلا أن الإمام ﷺ الذي كان يحرص على بيضة الإسلام واستناداً إلى علمه التام بالظروف التي كانت تهدد الدين آنذاك وضرورة قبر المؤامرات والفتن في مهدها ليس فقط لم يجبهم لتلك البيعة نحسب، بل حذرهما بكل صرامة من مغبة هذا العمل ونصحهما بالابتعاد عنه. ولما كان ﷺ

١. لقد نقلت هذه الخطبة من سائر المصادر الأخرى غير نهج البلاغة. ومن بين مصادر نهج البلاغة ماروي عن كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي، ١٣٩/٢، تذكرة الخواص للسبط الجوزي والاحتجاج للطبرسي ١٢٧/١ كما يستفاد من كلمات ابن أبي الحديد أنه نقل هذه الخطبة من طرق أخرى.

عالمًا ببعض المغرضين أو الجهال الذين قد يشكّلون على سكوته فقد ردّ الله على هذا الإشكال، ثمّ اختتم كلامه ببيان مدى عشقه للموت وانطوائه على العلم الذي لا يسع الآخرين سماعه فضلًا عن احتفاله. ولم يأذن له في الكشف عن أسرارهِ.

القسم الأول

«أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيْجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ فَأَرَّاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغْصُ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِي الثُّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتٍ إِنْبَاعِهَا كَالزَّرَّارِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ».

۳۷۷

الشرح والتفسير

احذروا مثيري الفتن

إنَّ سبب هذه الخطبة هو: لما قبض رسول الله ﷺ واشتغل عليٌّ رضي الله عنه بغسله ودفنه وبويع أبو بكر في سقيفة بني ساعدة ، خلا الزبير وأبوسفيان بالعباس عم النبي ﷺ قال: أمَّا والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم، يا لعبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم، ما بال هذا في أقل حي من قريش. ثم قال لعلي رضي الله عنه أبسط يدك أبايعك، فوالله إن شئت لأملأها على أبي فضيل - يعني أبابكر - خيلاً ورجلاً، فامتنع علي رضي الله عنه حيث كان يعلم الإمام ﷺ بأنه لا ينشد سوى الفساد والفتنة ومن هنا خطب هذه الخطبة. ^١ وأورد المؤرخ المعروف ابن أثير في كتابه الكامل أن علياً رضي الله عنه ردَّ على أبي سفيان بأنك تريد الفتنة ولا تضمر للإسلام سوى الشرف فلا حاجة لنا بنصحك. ^٢ ومن هنا تتضح أجواء الخطبة وسهولة تفسير ماورد فيها من عبارات. فقد أشار ﷺ في القسم الأول من هذه الخطبة إلى أربعة مواضع مهمة. فقال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ وَعَرِّجُوا^٣ عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ^٤، وَضَعُوا تِيْجَانَ الْمُفَاخَرَةِ».

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١/ ٢٧٦.

٢. الكامل لابن أثير ٢/ ٣٢٦.

٣. «عرجوا» من مادة «تعريج» بمعنى الرغبة أو الترغيب وهي هنا بمعنى الاعتزال.

٤. «المنافرة» حسب قول صاحب مقاييس اللغة تعنى التحاكم لدى القاضي ومن لوازمها النزاع والمخاصمة.

قوله ﷺ أيها الناس يفيد حضور عدد كبير من الناس فضلاً عن ذاك الفردين. ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة بهذا الشأن. والنقطة الجديرة بالذكر أنّ الإمام ﷺ شبه الفتن بالأمواج العاتية الكاسحة والتي يوصي بمجابتها من خلال الاعتصام بسفن النجاة. والمراد بسفن النجاة تلك السفن العملاقة التي تشق عباب البحر ولا تصمد أمامها الرياح العواقي فتبلغ بركابها شاطئ الأمان، ويراد بهم هنا الزعماء الربانيين ولاسيما أهل بيت النبي ﷺ^١، أي إسمعوا وأطيعوا لما نقول لا لما تريدون، وللتأكيد على هذا المعنى فقد شبه ﷺ التفاخر القبلي والفئوي بالطريق الخطير المرعب الذي ينبغي إجتنابه (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ المعنى الأصلي للمنافرة هو أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله، ثم يتحاكما إلى ثالث) - فالواقع هو أنّ الإمام ﷺ أراد بهذا الكلام القيم أن يركز على العامل الأصلي لآلام البشرية ومعاناتها، التي تفرزها على الدوام الحروب الدموية والاختلافات والزاعات والقتلات التي تستند إلى التفاخر؛ فإذا ما حطم هذا الصنم أمكن حل كافة مشاكل المجتمعات البشرية وعاد إلى الدنيا الأمن والصلح والسلام. طبعاً صحيح أنّ طلاب القدرة والمنصب إنّما يتقنعون بالدفاع عن حقوق المجتمع وحفظ القيم والمثل، ولكن ليس هنا لك من يشك في أنّهم إنّما يتظاهرون بهذه الشعارات من أجل تحقيق أغراضهم ومآربهم بغية التفاخر على الآخرين. ثم قال ﷺ: «أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فاراح»^٢. فالإمام ﷺ أشار إلى نقطة أساسية هي أنّ القيام بالحق يتطلب بعض الشرائط؛ فلو توفرت هذه الشرائط لما ترددت في القيام بالأمر، أمّا إذا لم تتوفر فالعقل والمنطق والدين لا يحكم بأنّ القيام ليس بمجدٍ فحسب، بل من شأنه أن يثير الفرقه والاختلاف والاذى والمعاناة للآخرين كما يؤدي إلى القضاء على القوى الناهضة بالحق، وهذا أصل من الأصول الثابتة التي ينبغي رعايتها في كافة الأنشطة الاجتماعية ولاسيما في النهضات والثورات السياسية. أمّا النقطة الأخرى التي تطرق إليها الإمام ﷺ فإنّما تكمن في

١. جاء في الرواية المشهورة عن النبي ﷺ: «مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق». أمّا قول ابن أبي الحديد أن هذا الحديث صحيح إلا أن أهل البيت ﷺ لم يراودوا بهذه اللفظة فهو خاطئ. فقد أراد الإمام ﷺ بهذه العبارة أن اسمعوا لما أمركم به وأطيعوا ولا تتبعوا ما تمليه عليه إرادتكم.

٢. لابدّ من الالتفات هنا إلى الفعل (أراح) قد يأتي لازماً أحياناً ومتعدياً أحياناً أخرى، ومفهومه على ضوء المعنى الأول أراح نفسه بينما معناه أراح الآخرين متعدياً.

مسألة الخلافة والأخذ بزمام أمور الأمة التي جعلها البعض شماعاً ليجيزوا حتى الوسائل غير المشروعة من أجل الوصول إليها فقال ﷺ: «هذاماء آجن^١، ولقمة يغص^٢ بها آكلها». فحياة الإنسان متقومة بالماء والغذاء، ولكن أي ماء وغذاء؟ طبعاً الماء النقي والغذاء الزكي، فالإمام ﷺ شبه هنا طبيعة الحكومة بالماء المتعفن والغذاء الغصة. والحق كما صوره الإمام ﷺ، فالإنسان كلما اقترب من حياة الحكام والساسة إكتشف مدى عظم مشاكلهم وشدة إستيائهم ووخامة أوضاعهم، فليس لهم من هدوء ولا سكينه كما ليس لهم من أمن أو إستقرار. وليس لهم سوى المظاهر الكاذبة الفارغة التي لا تنطلي سوى على بعض السذج. وبالطبع فإن أولياء الله يسارعون لاحتواء هذه المشاكل ويتحملون كافة الصعاب والمعضلات كما يضحون بهدوءهم واستقرارهم خدمة لدين الله وعباده. كما ذهب البعض إلى أن اسم الإشارة (هذا) يشير إلى نوع الحكومة التي إقترحها أبوسفیان. على كل حال صحيح أن الحكومة كالماء الذي يعدّ قوام حياة الامم، إلا أنها كانت ومازالت مطمع أهل الدنيا الذين هبوا بكل قوة لمنازعة أولياء الله على تلك الحكومة فلوئوا هذا الماء كما جعلوا طعام الحياة غصصاً؛ الأمر الذي جعل الأولياء يترفعون عنها ويعلنونها صراحة «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة... لألقيت حبلها على غاربها ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندي من عقطة عنز». أما في النقطة الرابعة فيشير إلى أحد أبعاد هذه المسألة وهو أن من أراد القيام بالأمر لتشكيل الحكومة الإسلامية فلا بد أن تكون المقدمات والظروف معدة لذلك أو أن يتولى هو تهيئة هذه الظروف وإلا فليست هنالك من قيمة أو أثر لهذا القيام ولا يتمخض سوى عن الهزيمة والفشل - فقد قال الإمام ﷺ بهذا الشأن: «و مجتني الثمرة لغير وقت إيناعها^٣ كالزراع بغير أرضه». وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن الضمير في (بغير أرضه) يعود إلى الزارع ومفهوم العبارة: كمن زرع في غير أرضه ولا ينتفع بذلك الزرع بل يعود ثمره على الآخرين؛ إلا أن

١. «آجن» من مادة «أجن» على وزن ضرب واجون المتعفن المتغير اللون والطعم وقد وردت هنا كإشارة للخلافة.

٢. «يغص» من مادة «غصص» على وزن هوس بمعنى صعبة الابتلاع.

٣. «إيناع» من مادة «ينع» على وزن منع بمعنى النضج والبلوغ، وعادة ما تستعمل هذه المفردة بشأن نضج الثمار، كما تأتي بهذا المعنى أيضاً إذا جاءت من باب الافعال.

ضعف هذا التفسير يبدو واضحاً من خلال كلام الإمام عليه السلام الذي قرن ذلك بجني الثمار غير الناضجة. وهنا لابد من القول بأن هذه العبارات قد تناولت الأصول الأساسية والدروس القيمة المعتمدة في تشكيل الحكومات الإلهية؛ الأمر الذي يدعو دعاء الحق وعشاق العدالة لعدم الانفعال بالعواطف والاحاسيس العابرة والاختصار على الدراسات المحدودة من أجل ممارسة أنشطتهم وعليهم أن يتربصوا بكل أناة وتحسب للوقوف على توفّر الشروط وتأهب القوى وإن إحتاج هذا الأمر لمُدّة من الزمان، على غرار المزارعين الذين لا يقصدون قطف الثمار غير الناضجة رغم حاجته القصوى لهذه الثمار من أجل توفير قوته أو تسويقها وبيعها بغية تغطية حاجاته الأساسية، أضف إلى ذلك فإنّ المزارع الماهر لا يغرس بذوره في أرض ليست خصبة أبداً، بل يتأنى قبل ذلك بمرث الأرض وسقيها بالماء ثم ينثر بذره.

سكوت الإمام عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله

يتساءل الكثيرون لماذا لم ينهض الإمام علي عليه السلام بالأمر بدلاً من السكوت رغم كونه الأجدر والأحق بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جانب تأكيدات النبي صلى الله عليه وآله على إستخلافه بما يثبت أنّ الخلافة من حقوقه المسلمة بل من حقوق الأمة الإسلامية؟

و يبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال قد وردت في العبارات القصيرة البعيدة المعنى في هذه الخطبة، حيث ذكر بعض الأسباب التي دعت له لعدم القيام والنهوض بالأمر. أولها عدم إنطواء الأفراد - كابي سفيان - على حسن النية في اقتراح النهوض بالأمر والتصدي للخلافة، أو أنّهم - كالعباس - كانوا ممن دفعوا من أصحاب الاغراض السيئة؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتعامل مع هذه الاقتراحات كفتن وبلا بل تستهدف القضاء على المسيرة ولم يكن معه الا القليل، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام: «فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي، فضنفت بهم عن الموت، وأغضيت على القذئ. وشربت على الشجا، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر أمر من طعم العلقم»^١ وناهيك عن كل ذلك فإنّ الخلافة والحكومة لم تكن هدفاً بالنسبة

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.

للإمام ﷺ حيث كان يراها الإمام ﷺ كالماء الآسن المتعفن والطعام المنغص؛ بل يراها وسيلة لاحقاق الحق وإبطال الباطل «قال عبدالله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين ﷺ بذي قار وهو يخصف نعله. فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! فقال ﷺ: والله هي أحب إلي من إمرتكم، إلا أن أقيم حقا، أو أدفع باطلاً»^١. إلا أن الإمام ﷺ حين يرى هذا القيام لا يؤدي إلى تحقيق الهدف، بل بالعكس إنما يثير الخلاف والشقاق والفرقة في صفوف المسلمين ولعله يتيح الفرصة للمنافقين الذين يتربصون بالاسلام الدوائر فلا يرى هناك من سبيل سوى الصمت والسكوت. وقد أورد ابن أبي الحديد أن فاطمة ﷺ حدثت الإمام ﷺ بالنهوض بالأمر، فلما ارتفع صوت المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله» إلتفت إليها قائلاً: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فلا بد من الصبر والسكوت^٢. وبغض النظر عما تقدم فإن كل عمل - ولاسيما النهضات الاجتماعية الإسلامية - يتطلب بعض المقدمات ولا بد من توفر كافة الشروط اللازمة، وإلا فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل والخذلان وهدر طاقات الأمة وتبديد قواها، وهذا الأمر أشبه بقطف الثمار غير الناضجة أو نثر البذور في الأرض المالحمة. ومن هنا كان الإمام ﷺ قيامه يكمن في السكوت والصمت.



١. نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/١١٣.

القسم الثاني

«فَإِنْ أَقْلُ يَقُولُوا: حَرَّصَ عَلَى الْمَلِكِ، وَإِنْ أَسْكُتَ يَقُولُوا جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي! وَاللَّهِ لِابْنِ أَبِي طَالِبٍ آتَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِئْذِي أُمَّهِ، بَلِ انْدَمَجَتْ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لِأَضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْضِيَّةِ فِي الطُّوِيِّ الْبَعِيدَةِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

ترى ما العمل مع المتربصين؟

يتعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى الحجج والذرائع الواهية المتضاربة التي يردها الجهال والحساد على الإمام عليه السلام. فيقول الإمام عليه السلام إن هذه القلوب العمي والبصائر الخافتة لا تنفك تعترض علي في كل موقف اتخذته، فإن اتحدت عن أحقيتي بالخلافة وعدم صلاحية الآخرين لها، فالبي دعوة الأمة يتخرصون بأنّي حريص على الحكومة، وأنّ آثرت الصمت والسكوت صوروه خوفا من الموت: «فإن أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت». نعم فهذا هو الأسلوب الرخيص الذي ينتهجه الجهال والمتخرصين ليعترضوا على أولياء الله في كل حركة وسكنة وموقف يمارسونه، وهم لا يتحفظون حتى عن التناقض والتضارب في هذا المجال، فإن قاموا أشكلوا عليهم وإن قعدوا أشكلوا كذلك. ومن هنا فإن المؤمنين لا يعيرون هذه التناقضات أية آذان صاغية. ويبدو أنّ هذا هو الأمر الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في الحديث المروي عنه أنه قال: «إنّ رضى الناس لا يملك

وَأَسْنَتَهُمْ لَا تَضْبِطُ»^١. كما ورد شبيه هذا المعنى في الخطبة ١٧٢ من نهج البلاغة: «وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا بن أبي طالب حريص، فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد، أنا أخص وأقرب، وإنما خلّيت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه، فلما قرعته بالحجة في أعلا الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به» ثم يواصل كلامه ﷺ في إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجباً من ذلك وهو الذي ثبت حين نكصت الأبطال في بدر وأحد وحنين والاحزاب وخيبر التي أثبتت مدى وله وشغفه بالشهادة وله الرضيع بثدي أمه: «هيهات بعد اللتيا والتي! والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه». غير أن سكوتي يستند إلى علم بخفايا الأمور لا تطيقون سماعه «بل إندمجت^٢ على مكنون علم لو بحت^٣ به لاضطربتم اضطراب الارشية^٤ في الطوى^٥ البعيدة».

تأملات

١ - سوابق الإمام ﷺ

يشير الإمام ﷺ باختصار إلى الشجاعة والبسالة التي أبداهما في الغزوات والمعارك الإسلامية وفي بعض المواضع الخطيرة كمبيته على فراش رسول الله ﷺ وما إلى ذلك ليذكر أولئك المرضى الذين يشكلون عليه بأنه لا يخشى أية حادثة مروعة وقد خرج مرفوع الرأس من كل تلك الاختيارات والتمحيصات، وعليه فسكوتي لا يقوى دليلاً على ضمني قط؛ وليس وراء هذا السكوت سوى مصالح الإسلام والمسلمين، ثم يستشهد على ذلك بالمثل العربي المعروف فيقول «بعد اللتيا والتي».

١. بحار الانوار ٦٧ / ٢؛ تفسير نور الثقلين ٤٠٥ / ١.

٢. «اندمجت» من مادة «اندماج» الانطواء وهي هنا إشارة للاسرار المودعة قلب الإمام ﷺ.

٣. «بحت» من مادة «بوح» على وزن لوح بمعنى الاعلان وترك الكتمان ومن هنا يطلق «الباحة» على المحيط الواسع و«المباح» على الأعمال الجائزة.

٤. «أرشية» جمع «رشاء» على وزن رضاء بمعنى الحبل الطويل، ومن هنا سميت الرشوة لأنها كالحبال التي تتصل بالدلو ليسحب الماء من البئر.

٥. «طوى» من مادة «طي» وهي البئر العميقة البعيدة.

وقصة هذا المثل أنّ رجلاً تزوج من امرأة كانت قصيرة القامة وصغيرة وسيئة الخلق فذاق منها الأمرين حتى طلقها. ثم تزوج من امرأة طويلة القامة فأذته كسابقها حتى اضطر لطلاقها، فلما عرض عليه الزواج قال: «بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً» فصار ذلك مثلاً يضرب من أجل الحوادث الكبيرة والصغيرة، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنه اجتاز كل تلك الحوادث والخطوب فهل من سبيل إلى الخوف والخشية.

٢ - لم أخاف الموت ١٢

القضية الأخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام قوله: «لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه». فالثدي ولبن الأم أساس حياة الطفل، ومن هنا فإن هذا الطفل يعيش حالة من الجزع والالين والصراخ إذا ما جرد من هذا الثدي وكأنه سلب الدنيا برمتها، فإذا عاد إليه سكن وقر وشعر بالفرح والسرور وكأنه نال الدنيا بما فيها؛ إلا أنّ هذه العلاقة معها كانت فهي تستند إلى الغريزة؛ أما علاقة الإمام عليه السلام والعرفاء بالموت ولقاء الله (ولا سيما الشهادة في سبيل الله) فهي علاقة قائمة على أساس العقل والمنطق والعشق. فهم لا يرون الموت سوى إنطلاقة الحياة الجديدة في ذلك العالم الأوسع والأشمل. يرون الموت نافذة على عالم البقاء والخلود والخلاص من هذا السجن وتحطيم قيوده وأغلاله والتخليق نحو العالم العلوي وبجواره الرحمن. فهل من عاقل يتردد في التحرر من قضبان السجن والخلاص من هذه القيود والانحلال^١. نعم إنّما يخشى الموت من يراه فاتحة لكل شيء وبداية للعذاب الذي ينتظره بفعل ما قارفه من رذائل وفواحش. فأنى للإمام عليه السلام بالخوف من الموت وهو ما عليه من المعارف والعلوم والسمو والرفعة؟ ومن هنا يقسم عليه السلام بأنه أنس بالموت من الطفل بثدي أمه. كما قال في موضع آخر: «قوائمه ما أبالي دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي»^٢. بل هذا ماجسده عملياً حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فصرخ قائلاً: «فزت ورب الكعبة»^٣.

١. لقد تناول أحد الشعراء المعروفين هذه الحالة ليشبهها بنوعين من الأفراد، طائفة قليلة المعرفة فهي كالثمار الغمام التي تلتصق بشدة في الشجرة، وأخرى عارفة وهي كالثمار الناضجة التي تتساقط بيسر وسهولة من الشجرة.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٥٥.

٣. بحار الأنوار ٢٣٩/٤٢.

٣- لم السكوت؟

قال الإمام عليه السلام: «بل انطويت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوى البعيدة». ومن الواضح أن الآبار كلما كانت أعمق كان اضطراب الحبال فيها أكثر. ولكن ماهو المراد بهذه الأسرار والعلم الذي إنطوى عليه الإمام عليه السلام؟ يبدو أن هنالك احتمالات كثيرة أوردتها شراح نهج البلاغة بهذا الشأن. فمنهم من فسّره بوصية النبي صلى الله عليه وآله له بالسكوت وعدم النهوض بالأمر والاشتباك مع الجماعة. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعواقب الأمور ومصالح ومفاسد المجتمع الإسلامي والذي دعاه لاتخاذ موقف السكوت. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعالم الآخرة؛ أي أني لأعلم بمسائل الآخرة بما لو بحت لكم به لما وسعكم الاستقرار ولعشتم الاضطراب. وهناك من فسّره بالقضاء والقدر الذي قدر هذه الأمة. ولكن لا يبدو أي من هذه التفاسير منسجم ومضامين الخطبة وماورد قبلها وبعدها من عبارات، ونرى الصحيح بأن تفسر هذه العبارة بالأحداث والتغيرات التي وقعت إبان الصحابة وادعياء الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأولئك الذين كانت تراهم الأمة على الحق وهم باطل وضلال، وأولئك الذين اندفعوا بالأمس خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وشهروا سيوفهم بوجه الكفر والشرك بينما تخندقوا اليوم في صفوف المنافقين وقد باعوا دينهم بدنياهم ولو عرفهم الناس لتعجبوا وذهلوا. «بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوى البعيدة». فمن يصدق أن طلحة والزبير الذين قاتلا في ركاب رسول الله صلى الله عليه وآله سيشعلان يوما نار حرب الجمل؟ ومن يصدق أن أحد أزواج النبي صلى الله عليه وآله أم المؤمنين - عائشة - ستكون يوماً وسيلة بيد المنافقين فتقود معركة يروح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شخص؟ وعدد لا يحصى من قبيل هذه الأسئلة. فإذا كان الأمر كذلك فكيف استند إلى مثل هؤلاء الأفراد وأنهض بالأمر.

الخطبة ٦



لما أشير عليه بالآ يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال
وفيه يبيّن عن صفته بأنه عليه السلام لا يخدع!

﴿﴾

نظرة إلى الخطبة

حين نكث طلحة والزبير البيعة وقصدا عائشة في البصرة واستوليا عليها، إعتقد البعض بأن الإمام عليه السلام لن يصطدم بهما وسيتركهما ريثماً يوطد دعائم خلافته فلا تمرّ مدّة حتى يعلننا إستسلامها. فالإمام عليه السلام يستهل خطبته بأنّ هذا الكلام خطأ محض وأني لن أقف مكتوف الأيدي لتشتد قوة العدو فيباغتني. ثم يبيّن عليه السلام عزمه الراسخ على مقاتلة هؤلاء والزحف إليهم بجنده المطيع، ثم يعلن أنّ هذا هو الأسلوب الذي سيتبعه إلى آخر حياته. وأخيراً يختتم الخطبة بالإشارة إلى هذه الحقيقة في أنّ هذه المخالفة والاعتراض ليست بالشيء الجديد وأنّ جذورها تمتد إلى زمان رحيل رسول الله ﷺ وما زالت مستمرة ليومنا هذا.

«وَاللّٰهُ لَا أَكُوْنُ كَالضَّبْعِ تَنَامُ عَلَى طَوْلِ الدَّمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا، وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمَقْبَلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَنِّي، وَبِالسَّمْعِ الْمَطِيْعِ الْعَاصِيِ

١. كثر الكلام بين الشراخ والمفسرين بشأن من أشار بهذا على الإمام عليه السلام. فقد نسبته المرحوم الشيخ المفيد في كتاب الجمل إلى إسامة بن زيد، بينما نسبته بعض المؤرخين والشراخ من غير الإمامية للإمام الحسن عليه السلام، ولكن لا يبدو هذا التفسير صحيحاً بالاستناد إلى الرابطة التي كانت قائمة بين الإمام الحسن عليه السلام وأبيه عليه السلام. الاحتمال الأخير فهو أنّ هذه الإشارة لم تكن من قبل فرد بل من قبل طائفة ضالة خلدت إلى الراحة والدعة.

المريب أبدا، حتى يأتي علي يومي. فوالله ما زلت مدفوعا عن حقي، مستأثرا علي، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا»^١

الشرح والتفسير

الحيطة والحذر تجاه الأعداء،

لقد رد الإمام عليه السلام على أولئك الذين يقترحون عدم مطاردة طلحة والزبير الذين نقضا بيعتهما، فقال عليه السلام: «والله لأكون كالضبع^٢ تنام على طول اللدم^٣ حتى يصل إليها طالبها، ويختلها^٤ راصدها^٥ ويبدو أن المثل يضرب بالضبع على أنه حيوان أبله يمكن صيده بكل سهولة؛ حيث يقوم الصياد بدق قطعة من الحجر أو العصا أمام عش الضبع فاذا نام تقدم إليه الصياد ليصيده بسهولة. وقد سطرت الخرافات والأساطير بهذا الشأن ومن ذلك أن يخاطب الصياد الضبع فيقول له: يا ضبع نم في عشك، ثم يكرر ذلك عدة مرات، فينتجه الضبع إلى أقصى غاره وينام. فينادي الصياد: الضبع ليس في العش، الضبع نائم، ثم يدخل عليه العش فيربطه بحبل ويخرجه من عشه ومن هنا شبه الأفراد الذين يعيشون الغفلة تجاه العدو بالضبع. أما الوقائع التاريخية آنذاك فهي تشير إلى سذاجة الاقتراح القاضي بعدم مطاردة طلحة والزبير؛ وذلك لأن خطتها كانت تستهدف السيطرة على البصرة والكوفة ثم يبايعها معاوية ويأخذ لها البيعة من أهل الشام فتخضع أغلب المناطق الإسلامية لسيطرتها فلا يبقى لعلي عليه السلام سوى المدينة. أضف إلى ذلك فان هؤلاء استطاعوا أن يؤلبوا أكثر عدد ممكن من الناس من خلال

١. أشار مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغة» إلى المصادر الأخرى التي نقلت هذه الخطبة ومنها «تاريخ

الطبري، أمالي الشيخ الطوسي، صحاح اللغة وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام».

٢. «ضبع» على وزن سبع، يطلق أحيانا على القحط والجفاف لأنه يأكل كل شيء ويقضي عليه.

٣. «اللدم» حسب ما صرح به بعضى أرباب اللغة هو صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً غير شديد، ومن الطبيعي أن مثل هذا الصوت إذا تكرر يمكنه أن يؤدي إلى النوم.

٤. «يختلها» من مادة «ختل» على وزن ختم بمعنى الخداع والمخاتلة بمعنى المشي بهدوء نحو الصيد بحيث لا يهرب.

٥. «الراصد» من مادة «الرصد» بمعنى المترقب ومن هنا يطلق على مراقبة المنجمين اسم الرصد كما يطلق على موضع الرصد اسم المرصد.

الشعار الذي يطالب بدم عثمان حتى رسخ في أذهان الناس أن قاتل عثمان هو علي عليه السلام. ومن الواضح أن تلك الخطبة كادت أن ترد الميدان عمليا لولا مبادرة الإمام عليه السلام وتسريعه بمواجهة الفتنة حتى استطاع أن يقبر تلك المؤامرة في مهدها فتمكن من إنقاذ البصرة والكوفة بل والعراق بأجمعه، ولولا المعارضة التي أبدتها الجهال تجاه الإمام عليه السلام في إطار تعامله مع ظلمة الشام لاراح المسلمون وإلى الأبد من شرهم ولعاد العالم الإسلامي برمته وحدة واحدة؛ غير أن المؤسف له - وكما أشير إلى ذلك في ذيل الخطبة الشقشقية - تعالت أصوات الجهال المغرضين الذين انطلت عليهم الدعايات ليوقفوا تلك المعركة التي كان النصر فيها للإمام عليه السلام قاب قوسين أو أدنى. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «ولكنني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي علي يومي».

طبيعي أن المجتمع لا يتبنى الحق بجميع أفراده؛ فهناك ضعاف الإيمان وعبدة الأهواء وأصحاب الجاه والمناصب الذين لا يروق لهم إمام عادل حيث يهدد منافعهم اللامشروعة فيلجأون إلى أساليب الدعاية والخداع والكذب والزيغ وإثارة الشائعات؛ الأمر الذي يدعو الساسة والحكام إلى الاجهاض على هذه العناصر الفاسدة وإجتثاثها من المجتمع بصفتها غدة سرطانية يمكنها أن تلوث المجتمع، أو السعي للحد من نشاطهم وفعاليتهم ألم تكن مخاطرهم شديدة، كما ينبغي على دعاة الحق أن يكونوا على أهبة الاستعداد على الدوام للانقضاض على هذه العناصر والقضاء عليها. وأخيراً يصف الإمام عليه السلام هذه المعوقات بأنها ليست جديدة وإنما لها جذورها التي تمتد إلى زمان رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فوالله ما زلت مدفوعاً عن حق، مستأثراً عليّ، منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا» في إشارة إلى قضية طلحة والزبير في إنهما تأتي في إطار حلقة مستمرة منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما زالت قائمة حتى اليوم. أما تعبيره بمدفوعاً ومستأثراً فهي إشارة إلى المقاومة التي أبدتها الأعداء حيال الإمام عليه السلام لحرز حته عن حقه وتقديم الآخرين عليه، لأنهم لا يطيقون عدله وشدته. أما قوله عليه السلام: «حتى يوم الناس هذا» - بالالتفات إلى إضافة اليوم إلى الناس - يمكن أن يكون إشارة إلى ذلك اليوم الذي كنت فيه وحيداً وقد غضبوا حقّي، واليوم قد ذهب البعض لمخافتي رغم وجود هذه الأمة التي بايعتني. والجدير بالذكر أن المرحوم الشيخ المفيد أورد في إرشاده

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «هذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوة ولا من ذرية رسول الله ﷺ حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد أعصر فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقي ويفرقا جماعة المسلمين عني»^١.

تأمل

رسالة إلى جميع المسؤولين

لقد لقّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات التاريخية كافة الزعماء من أهل اليقظة والإيمان وساسة البلدان الإسلامية درساً بليغاً في التأهب لمواجهة الأعداء، ولا ينبغي التخلي عن الفرصة بكل سهولة وعدم الاستسلام للحلول والاقتراحات التي يتقدم بها من يؤثر السكون ويخلد إلى الراحة والدعة. فقد شبه الإمام عليه السلام من ينخدع بهذه الاقتراحات ويفقد زمام المبادرة في تلك اللحظات الحساسة بالضبع، ويكمن وجه الشبه في عدّة أمور منها:

١- أن الضبع يشعر بوجود العدو إلا أنه ينام لسماع بعضى الأصوات التي يرددها؛ النوم الذي يؤدي به في خاتمة المطاف إلى الأسر والموت.

٢- أن الضبع يصطاد في غاره.

٣- لا يبدي الضبع أدنى مقاومة للذب عن نفسه وإنما يقع في مخالفه بكل سهولة.

فالأفراد الذين لا يتعاملون بحزم تجاه العدو ويبدون حالة من الضعف والوهن إزائه فهم كالضباع التي تنام في مخادعها وتستسلم للقتل دون مقاومة.

وأخيراً فلا يعني هذا أن يقدم الإنسان على عمل دون التأني والتامل والاستشارة والوقوف على كافة جوانبه؛ بل لا بدّ من إستشارة ذوي الحجى والشجاعة واتخاذ القرار قبل فوات الأوان والأقدام في الوقت المناسب.



يذم فيها اتباع الشيطان

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاطِلٌ وَفَرَحٌ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبٌّ وَدَرَجٌ فِي حُجُورِهِمْ فَانظُرْ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطِقْ بِالسِّنْتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطْلَ فِعْلٌ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ»^١

٤٥٥٨

الشرح والتفسير

اتباع الشيطان

إن الخطبة رغم قصرها تصور بدقة اتباع الشيطان وكيفية نفوذهم إليهم، ومن ثم تبين الآثار الوخيمة والعواقب المشؤومة والطرق التي يسلكها الشيطان في التغلغل إلى الإنسان والالقاء به في شباكه وحبائله، فيتلاعب به كيفما يشاء. والحق أنها تحذير جدي لاتباع الحق في ضرورة توفى الحيطة والحذر من تسلل الشيطان والوقوف بوجهه حال الشعور بأدنى آثاره. والخطبة وإن تحدثت عن بعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير أو معاوية وأهل الشام

١. جاء في «مصادر نهج البلاغة» أن هذه الخطبة وردت في ربيع الأبرار للزمخشري، ١٠٩/١ والنهاية لابن أثير في غريب الحديث ٥٠/٢.

أو أصحاب النهروان الذين سقطوا في فخ الشيطان، إلا أنها لا تقتصر عليهم البتة، بل هي رسالة واضحة (لكافة الأفراد من أجل مراقبة الشيطان وعدم فسح المجال أمامه. فقد تكفلت الخطبة بتبيين المراحل التي يعقبها تسلل الشيطان في أتباعه، حيث شرحها الإمام عليه السلام بما عرف عنه من فصاحة وبلاغة وتشبيه رائع بحيث لا يمكن تقديم صورة فنية أروع من تلك التي رسمها الإمام عليه السلام. فقد أشار في المرحلة الأولى إلى أن هذا التسلل والنفوذ إلى الإنسان إختياري ولا يمت بصلة إلى الاجبار. فالإنسان هو الذي يعطيه الضوء الأخضر ويدعه يلججه ويتصرف بوجوده حتى يجعله ملاكاً ومعياراً لنشاطاته وفعالياته «إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً». فلاك من مادة ملك بمعنى أساس الشيء ودعامته، كأن يقال القلب ملاك البدن، أي أن أساس وقوام البدن هو القلب وهذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بوضوح على لسان آياته «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^١ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ». بناءً على هذا فالعبرة المذكورة كالأيات القرآنية بمثابة رد على أولئك الذين يتساءلون عن سلطة الشيطان على بني آدم فيقولون: كيف سلط الله سبحانه هذا المخلوق الخطير على الإنسان ثم طالبه بعدم إتباعه. فالعبرة تقول أن الشيطان لا يخترق الجدران غيلة، بل يأتي من الباب ويطرقها فان فتح له ولج وإلا عاد من حيث أتى. صحيح أنه يصر على طرق الباب دون الشعور بالكلل والملل، لكن بالمقابل هنالك الملائكة الذين يهبون لنجدة الإنسان ويحذروه من مغبة فتح الباب. ثم أشار في المرحلة الثانية إلى الانتخاب الذي يتولاه الشيطان بعد ذلك الانتخاب حيث يصطنى هؤلاء كاعوان وشركاء «واتخذهم له اشراكاً»^٢ ثم وضح عليه السلام ذلك بقوله: «فباض وفرخ في صدورهم»^٣. فالإمام عليه السلام يشبه صدور تبعة الشيطان بعش إبليس الذي يبيض فيه ويفرخ. ثم قال عليه السلام: «ودب ودرج في حجورهم». صرّح بعض شراح نهج البلاغة بأن دب من مادة الدبيب بمعنى الحركة البطيئة الضعيفة، والدرج الحركة الأقوى منها كحركات الطفل في حضن

١. سورة النحل / ٩٩-١٠٠.

٢. «اشراك» جمع «شريك» و«شرك» بمعنى افتح ويحتمل المعنيان في العبارة المذكورة، وقد اختار كل شارح من شراح نهج البلاغة أحد هذين المعنيين.

٣. لقد استهلّت العبارة بفاء التفريع لبيان شرحها للعبارة السابقة.

أمه. ولعل التعبير بدرج إشارة إلى حقيقة وهي أنّ الأفكار والعادات الشيطانية ليست طارئة ومفاجئة على الإنسان؛ بل تنجذر فيه بصورة تدريجية؛ كما عبر عنه في حذر المؤمنين منها حيث يتسنى له اقتياد الإنسان خطوة خطوة نحو الفساد والضلال والكفر.^١

فقال: «فنظر باعينهم، ونطق بالسنتهم». أي أنّ هذه البيوض والفراخ الشيطانية ستتمو وترعرع حتى تتبدل إلى شياطين تتحد معهم بحيث تنفذ في جميع أعضائهم وجوارحهم حتى يعيشون الأزواج في شخصياتهم، فهم من جانب إنسان، ومن آخر شيطان، ظاهرهم إنساني أمّا باطنهم شيطاني. عيونهم وآذانهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أدوات تأتمر بأوامر الشيطان، فن الطبيعي أن يروا جميع الأشياء بصيغة شيطانية كما أنّ آذانهم تطرب لسماع الانغام الشيطانية. أمّا في المرحلة الرابعة فيتناول ﷺ النتيجة النهائية لهذه المسيرة التدريجية المنحرفة فيقول: «فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل»^٢ ويشبه هذا الكلام ما أورده الإمام ﷺ في موضع آخر من نهج البلاغة «إلا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها»^٣. ثم قال ﷺ في المرحلة الأخيرة «فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه»^٤. إشارة إلى أنّ أعمال هؤلاء تدل بوضوح على أنّ الشيطان استحوذ عليهم فتصرف فيهم كيف يشاء. فحديثهم حديث الشيطان ونظرهم نظر الشيطان وبالنتيجة فان بصمات الشيطان متجسمة فيهم، والواقع هو أنّ الإمام ﷺ أراد في هذه المرحلة أن يعرف هؤلاء الأفراد من خلال أعمالهم الشيطانية. ويبدو أنّ مراده ﷺ بعض الأفراد كطلحة والزبير وانصارهما وأصحاب معاوية والخوارج ومن كان على شالكتم، رغم أنّ الكتب المعروفة لشرح نهج البلاغة وأسانيدها لم تتعرض إلى الأفراد أو الطوائف المرادة بكلام الإمام ﷺ. مع

١. سورة البقرة / ١٦٨ و ٢٠٨؛ سورة الانعام / ١٤٢؛ سورة النور / ٢١.

٢. هذا التفسير على أساس أنّ حرف الباء في بهم للتعدية، أمّا إذا فسرت بالاستعانة فإنّ مفهوم الجملة سيصبح أنّ الشيطان بالاستعانة هؤلاء سيركب الخطأ والزلل؟ ولكنّ بالالتفات إلى العبارة «وزين لهم الخطل» وفاء التفریع في فركب يبدو التفسير الأول أنسب.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

٤. كلمة «فعل» يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره «فعلوا ذلك فعل...» كما يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لما سبق (نظر، نطق، ركب وزين) وسيصبح مفهوم الجملة أنّ أعمال هؤلاء أفعال من شرك الشيطان في عمله.

ذلك فالكلام دقيق وعميق ولا يختص بطائفة معينة، بل يشمل كل من وضع رجله على مسار الشيطان وخضع لسيطرته وامتلأ أوامره.

تأمل

خط الشياطين

شائك وشامل هو البحث بشأن الشيطان وفلسفة خلقه وكيفية نفوذه إلى الإنسان وطول عمره وقصته مع آدم وجنوده وأعدائه من الجن والانس وما إلى ذلك من الأمور التي لا يسع المجال شرحها والغوص في أعماقها. وسنكتفي ببعض الإشارات التي يمكنها أن تغني البحث بما ينسجم وما ورد في الخطبة المذكورة.

فالذي تفيد الآيات القرآنية أنّ الشيطان لم يخلق كموجود شرير منذ بداية الخليقة، بل خلق طاهراً حتى اصطف مع الملائكة (وإن لم يكن ملكاً). غير أنّ حب الذات والكبر دفعه للتمرد على أمر الله والامتناع عن السجود لآدم ﷺ، فلم يرتكب المعصية فحسب، بل إتهم علم البارئ سبحانه وحكمته ليهوي في وادي الشرك والضلال. لقد سأل الله النظرة إلى يوم القيامة فأجابه الله بالنظرة إلى يوم الوقت المعلوم ليتم تمحيص العباد، أو بعبارة أخرى فكما أنّ وجود الشهوات المركبة في الإنسان البشرية ومقاومة العقل والإيمان تجاه القوى المخالفة إنّما تضاعف قدرة الإنسان في مسار الطاعة لله؛ فإنّ الوسوس الشيطانية الخارجية ومجاهبتها من قبل الإنسان إنّما تقوده إلى السمو والتكامل؛ وذلك لأن وجود العدو إنّما يشكل العامل الذي يقف وراء حركة الإنسان وقوته وتطوره وتكامله. إلا أنّ هذا لا يعني أنّ للشيطان نفوذ إجباري في الإنسان، بل الإنسان هو الذي يهد لهذا النفوذ، فقد صرّح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»^١، وقال في موضع آخر «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^٢ كما صرّحت إحدى الآيات القرآنية على لسان الشيطان أنّه قال: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُؤْؤُنِي وَتَلْمُؤُوا أَنْفُسَكُمْ»^٣.

١. سورة الاسراء / ٦٥.

٢. سورة النحل / ٩٩.

٣. سورة إبراهيم / ٢٢.

الجدير بالذكر أنّ الله سبحانه قد خلق جنوداً للقضاء على وساوس الشيطان ومخططاته، ومنها العقل والفطرة والأنبياء والملائكة التي تتولى حفظ المؤمنين وطردهم وساوس الشيطانية عنهم. فكل من سار على درب هذه الجنود حظى بدعمها وإسنادها وأبعد عنه وساوس الشيطان، ومن سار على درب الشياطين وأقام على العناد واللجاجه رفعوا أيديهم عنه. القضية الأخرى الجديرة بالاهتمام هي أنّ الشيطان يسعى للنفوذ في أعماق النفس البشرية ليؤثر من هناك على أعماله، كما أشير لهذا في الخطبة المذكورة وكأنه باض وفرخ في الصدور فتكاملت الفروخ شياطين إتحدت معه حتى عاد نظره وسمعه وقوله ويده ورجله شيطانياً. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنه قال: «احذروا عدواً نفذ في الصدور خفياً ونفت في الأذان نجياً» كما ورد شبيه هذا المعنى - مع فارق طفيف - في الخطبة ٨٣ من نهج البلاغة. كما قال عليه السلام في الخطبة ١٢١ من نهج البلاغة: «إنّ الشيطان يسني لكم طرقه ويريد أن يحل لكم دينكم عقدة عقدة». على كل حال فإن الغرض من الخطبة هو تحذير الإنسان من عدوره اللدود الشيطان الذي تعود جذور عدائه منذ خلق آدم عليه السلام. وضرورة التوكل على الله والاتكاء على العقل والفطرة والوجدان والاستتضاءء بارشادات الأنبياء وتعاليمهم والاستمداد من الملائكة بغية حفظ الإنسان لنفسه من وساوس الشيطان.

وأخيراً فالنقطة التي أرى ضرورة التعرض لها وعلى ضوء صريح بعض الآيات القرآنية أنّ الشياطين ليست منحصرة بابليس وجنوده السريين، بل هناك مجموعة من الانس التي تشملها الشياطين، فأعمالهم هي أعمال الشياطين بعينها «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا»^١.

نعم لا بد من الحذار من وساوسهم.



ومن كلام له ﷺ

يعني به الزبير في حال إقتضت ذلك ويدعوه في الدخول في البيعة، ثانياً.

نظرة إلى الخطبة

دخل الزبير وطلحة على علي ﷺ، فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلقاله بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكت البيعة، فحلقاله ما الخلاف عليه ولا نكت بيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة. قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعادها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونها إلا في فتنة يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمر بردهما عليك، قال: ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.^١ أما الزبير فقد حاول أن يتذرع بما يبرر له نكت البيعة، ويقول ليس لعلي في عنقي بيعة حيث بايعته مكرها فالتقى الإمام ﷺ هذه الخطبة (جدير بالذكر أن البعض قد نسب هذا الكلام للإمام الحسن ﷺ وقد القاها بأمر من أبيه في يوم الجمل بعد خطبة عبدالله بن الزبير، لكن لا يستبعد أن يكون الإمام ﷺ قد أورده مسبقاً رداً على إدعاءات الزبير ثم استشهد بها الإمام الحسن ﷺ في الجمل.^٢

«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبائع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليجة، فليأت

عليها بأمر يعرف، وإلا فليدخل فيما خرج منه».

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٣٢/١.

٢. كتاب مصادر نهج البلاغة ١/٢٣٤-٢٣٥.

الشرح والتفسير

عذر أقبح من ذنب

كما أوردنا آنفاً فإن الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة كرد على الزبير الذي حاول تبرير نكثه للبيعة بأنه بايع مكرها بيده دون قلبه؛ لأن معاوية بعث له بكتاب قال فيه: أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب فإنه لا شيء بعد هذين المصرين.^١

فما كان من طلحة والزبير الذين كانا يطمعان بالمناصب إلا أن نكثا بيعتهما للإمام عليه السلام. أما الإمام عليه السلام فقد رد على زعم الزبير رداً حقوقياً يحظى بكافة التبعات المتعارفة اليوم في القوانين القضائية، فقد قال عليه السلام: «يزعم أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليجة»^٢ فالواقع أن كلامه مركب من إقرار وإدعاء، فأقراره مسموع ومقبول، أما إدعائه فيحتاج إلى إقامة دليل. ولذلك طالبه الإمام عليه السلام بإقامة الدليل (ليثبت أن بيعته قد حصلت من خلال الاكراه) وإلا وجب عليه الالتزام بلوازم البيعة: «فليأت عليها بأمر يعرف، وإلا فليدخل فيما خرج منه» لقد رأى أغلب الناس الزبير وطلحة قد دخلا على الإمام عليه السلام وبايعاه طائعين؛ فقد كانا من أوائل من بايعه في المسجد، فالبيعة ملزمة، ومن ادعى خلاف ذلك عليه أن يأتي بالدليل، أضف إلى ذلك فالكل يعلم بعدم وجود الاكراه والإجبار في بيعة علي عليه السلام، فقد كان هنالك من لم يبايع، ولم يضطروهم الإمام عليه السلام إلى البيعة، وعليه فليس هنالك من مبرر لنكث البيعة. وكما ذكرنا سابقاً فإن هذا من الأصول الأساسية في كافة المحافل الحقوقية والقضائية، في أن من أبرم عقداً راعياً بالظاهر فقد وجب عليه الالتزام به ولا يقبل منه إدعاء الاكراه الاجبار وعدم تأييد القلب لما فعله باليد، وإلا لا يمكن لكل واحد أن يقوض ما أبرمه بهذه الذريعة. فالمشتري والبائع والزوج والواقف و... إذا أبرم عقداً ولم يرى فيه من مصلحة لاحقاً أمكنه أن يدعي بأنه أبرمه لساناً ولم يكن قلباً موافقاً عليه. وإذا كان الأمر

١. شرح ابن أبي الحديد ١/ ٢٣١.

٢. «وليجة» من مادة «لوج» بمعنى الدخول، كما تعني الدخول الخفي ويقال وليجة لما يضم في القلب ويكنتم، وقد جاءت هنا بمعنى الأمر الخفي.

كذلك فقد عرضت كافة النظم والعقود والمواثيق الفردية والدولية للتصدع والانهيار وهذا
مالا يقره عقل أو منطق؛ والحق أن الزبير كان يعلم جيدا بهذا الأمر إلا أنه استهدف تضليل
الرأي العام الذي قد يسأله لم نكثت البيعة؟

جدير بالذكر أن كل هذا نابع من كون العرب آنذاك كانت تولي البيعة أهمية فائقة ولم تكن
تتساهل في نقضها وعدم الالتزام بها، وترى ذلك خطيئة كبيرة.

الخطبة ٩

ومن كلام له ﷺ

في صِفَتِهِ وَصِفَةِ خُصُومِهِ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي أَصْحَابِ الْجَمَلِ
«وَقَدْ أَرَعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفُشْلُ وَلَسْنَا نَرَعِدُ حَتَّى نُوَقِعَ
وَلَا نُسَيْلُ حَتَّى نُمْطِرَ»^١.

❦❦❦

الشرح والتفسير

ضجة فارغة

يستفاد من كلامه ﷺ أنه أوردته بعد انتهاء معركة الجمل كإشارة للضجة الفارغة التي إفتعلها طلحة والزبير ورهطهما في بداية موقعة الجمل، غير أنه لم يجدهم نفعا حيث هزم «طلحة والزبير» شر هزيمة حتى قتلا. فقد قال ﷺ: «وقد أَرَعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفُشْلُ». فهو تشبيه رائع بالسحب التي تتخللها ظاهرة الرعد والبرق كإشارة للناس بالأمطار التي تجلب عليهم الخير والبركة، إلا أنها سرعان ما تتبدد دون أن تحمل قطرة من المطر. ثم قال ﷺ: «ولسنا نَرَعِدُ حَتَّى نُوَقِعَ، وَلَا نُسَيْلُ حَتَّى نُمْطِرَ» يريد ﷺ أننا لن نرعد

١. قال صاحب «مصادر نهج البلاغة» علاوة على نقل الشريف الرضي لهذا الكلام في نهج البلاغة، فقد رواه الواقدي ضمن إحدى خطبه ﷺ يوم الجمل. كما نقله المرحوم الشيخ المفيد في كتاب الجمل (ص ١٧٧) عن كتاب الجمل للواقدي. وأخيراً ذكره ابن عثم الكوفي في كتاب الفتوحات.

ونزبد ما لم نسدد ضربات موجعة إلى العدو، ولسنا من أهل الضجيج حتى نقتحم الميدان ونقهر الخصم. فالواقع هو أن العبارتين رغم قصرهما تشيران إلى مدرستين لكل منهما أسسهما في الأنشطة الاجتماعية والعسكرية والسياسية؛ مدرسة تتبنى الكلام والضجيج حين ترد الميدان؛ إلا أنها لا تستبطن سوى الضعف والعجز والفشل حين العمل. أما المدرسة الأخرى فهي المعروفة بالسلوك والعمل، قليل كلامها كثير عملها. هي مدرسة صامتة هادئة إلا أنها بطلت باسلة في الميدان وبالطبع فإن الأنبياء والأولياء وأتباع الحق ينتمون للمدرسة الثانية، بينما ينتمي أتباع الباطل وجنود الشيطان إلى المدرسة الأولى.

وهنا نقطة مهمّة يجب الالتفات إليها وهي أن الرعد والبرق قبل المطر ثم يأتي السيل، غير أن هناك البعض الذي يرعد ويبرق دون المطر، والأسوأ من ذلك البعض الآخر الذي يتوعد بالسيول رغم إنعدام قطرة مطر، أي أنهم يتشدقون بالنصر والغلبة والنجاح حتى بعد الهزائم المنكرة التي يمتنون بها، فالطائفة الأولى كاذبة في مزاعمها وإدعاءاتها، أما الثانية باطلة عديمة الحياء. فالذي تفيده بعض الروايات أن الإمام علي عليه السلام بعث يرسله يدعون إلى الالتزام بالبيعة وعدم شق الصف الإسلامي والعودة إلى إحضان الحكومة الإسلامية، فعادوا يحملون رسائل الحرب حيث تضمنت رسائلهم التهديد بشن الحرب، فردّ الإمام عليه السلام ذلك الرد الحاسم «فإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصر للحق! ومن العجب بعثهم إلي أن ابرز للطعان وأن أصبر للجلاد، هبلتهم الهبول، لقد كنت وما أهدد بالحرب، ولا أرهب بالضرب، وإنني لعلى يقين من ربّي، وغير شبيهة من ديني»^١.

تأملان

١- رجل العمل

ما تضمنه كلامه عليه السلام - كما أشرنا سابقاً - بعض الصفات البارزة لأساليب الإدارة لأولياء الله، فهم ليسوا من أهل الكلام والضجيج، بل بالعكس كلامهم العمل والتنفيذ. وقد تجسد

نموذج ذلك في معركة بدر حين ذهل أبوسفيان للنفر القليل الذي كان مع رسول الله ﷺ فبعث عمير ليرى هل هناك من جند خلف الميدان، فعاد إلى أبي سفيان وقال له: «مالهم من كمين ولامدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع أما ترونهم خرساً لايتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي، مالهم ملجأ إلا سيوفهم، ما أراهم يولون حتى يقتلوا ولايقتلون حتى يقتلوا بعددهم فار تآوا رأيكم. فقال له أبو جهل: كذبت وجبنت.»^١

بالتالي أتبتت موقعة بدر أن الحق ماذهب إليه عمير لا ما قاله أبو جهل. وبالطبع فليس هناك من منافاة بين هذا الكلام والاستفادة من الأساليب النفسية في ميدان الحرب والرجز وممارسة الحماس وامطار العدو بوابل التبليغات وزرع الرعب في صفوفه. فالمشكلة إنما تكمن في خلاصة كل شيء في الكلام والتهديد والوعيد. فالعمل هو الأساس والمحور والكلام ترجمة لذلك العمل. فنموذج الفريق الأول طلحة والزبير ورهطهما، ونموذج الفريق الثاني علي ﷺ واتباعه. فقد وردت عبارات واضحة للإمام ﷺ - في الخطبة ١٢٤ من نهج البلاغة - بهذا الشأن، ففي الوقت الذي يحث اتباعه وجنده على الثبات في الميدان والشدة في الضرب يوصيهم قائلاً: «أميتوا الاصوات فانه أطرد للفشل».

٢ - الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال

لعل الفارق بين هذين الأمرين صعب التمييز على البعض، حيث ورد النهي عن القول بلاعمل واتخاذ الصمت والهدوء كمفهوم صحيح من جانب: ومن جانب آخر فإن الأحاديث التي تستبطن الأساليب التبليغية التي تشد قوى الحق من الناحية النفسية وتضعف معنويات العدو قد عدت من الوسائل الحربية اللازمة، إلى جانب الحث على الرجز والحماس في ميدان المعركة والذي تجسد في غزوات رسول الله ﷺ ومعارك أمير المؤمنين علي ﷺ وسائر الأئمة المعصومين ﷺ كالرجز الذي شهدته كربلاء، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟
الواقع هنالك فارق واضح بين هذين الأمرين. فالنهي إنما جاء بشأن الكلام الفارغ الذي

ينطوي على الرعد والبرق الكاذب والذي تصطليح عليه بالبلف حيث تفيد القرائن والشواهد بعدم وجود أي عمل خلف ذلك الكلام. ولا شك أنّ مثل هذا البلف والكلام الفارغ إنما هو ديدن الشيطان واتباعه من الأفراد عديمي المنطق. أمّا الترغيب والترهيب الذي يتبع ذلك والعمل والنشاط الذي يخرج الكلام من دائرته ليخرج به في ميدان العمل الذي ينتهجه الفريق الثاني فإنه ليس فقط غير مذموم فحسب، بل إنّما يأتي في نطاق الحرب النفسية التي تفعل فعلها في الواقع. وبالطبع فإن التذكير بهذه النقطة ضروري وهي أنّ الانهماك بالرجز والخطابة أثناء المعركة إنّما يشغل قسماً من طاقات الإنسان ويحد من الأثر المطلوب لصولاته وحملاته، ومن هنا ورد النهي عن ذلك.



الخطبة

ومن خطبة له ﷺ

يريد الشيطان أو يكني به عن قوم

نظرة إلى الخطبة

تشير هذه الخطبة إلى موقعة الجمل والحوادث الاليمية التي تخللتها؛ حيث يصف الإمام ﷺ اعوان طلحة والزبير بانهم جنود الشيطان، ثم يشير إلى خصائصه في الميدان، كما يتطرق إلى تبين خطته المستقبلية بهذا الشأن في عبارات قصيرة وقارعة مشوبة بتوعد العدو مع تكهن بما ستؤول إليه هذه المعركة.

«أَوَّانَ الشَّيْطَانِ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجَلَبَ حَيْلَهُ وَرَجَلَهُ وَإِنَّ مَعِيَ لَبَصِيرَتِي: مَا لَبَسْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلَا لُبَّسَ عَلَيَّ. وَإِنَّمِ اللَّهُ لِأَقْرَبَ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَا تَحَهُ! لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»^١

❦❦❦

الشرح والتفسير

تحذير المسلمين ثانية

كما ذكرنا سابقاً فإن خطبة الإمام ﷺ تعالج القضايا المرتبطة بموقعة الجمل، واستناداً إلى

١. جاء في مصادر نهج البلاغة أن المرحوم المفيد نقل هذه الخطبة في الإرشاد / ١٨٨.

العلاقة الوثيقة بين هذه الخطبة والخطبة الثانية والعشرين وأبعد من ذلك إرتباطها بالخطبة ١٧٣، والواقع هو أنّ هذه الخطبة قد استوعبت في تلك الخطبة وأصبحت جزءاً منها، فلا يبقى هنالك من مجال للشك والترديد في أنّ الهدف من هذه الخطبة هو الإشارة لموقعة الجمل، وكأني بأولئك الذين فسروها بالإشارة إلى موقعة صفين وأهل الشام قد أهملوا تلك العلاقة. فالمحور الأول لهذه الخطبة هو تشبيه أعوان طلحة والزبير بجنود الشيطان فقال ﷺ: «الأوان الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله».

وكيف لا يكونوا جنود الشيطان وقد نقضوا عهدهم مع الإمام ﷺ وقد دفعهم الحرص على المناصب لبث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الأمة الإسلامية واشعال فتيل الحرب الذي أودى بحياة الكثيرين حتى احترقوا بتلك النيران. أما التعبير بالحزب فهو إشارة إلى الانسجام بين أهداف هؤلاء وأهداف الشيطان، وأما التعبير بالخيال والرجل فهو إشارة لتنوع الجنود. القرآن الكريم من جانبه أشار إلى حزب الشيطان بقوله: «إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ»^١، ويشير في موضع آخر إلى حزبه من الراجلة والخيالة الذين يختبر بهم بني آدم «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»^٢. ولاشك أن تتابع هذه التنبهات إنما تستهدف تحلي المؤمنين باليقظة والوعي والحذار من الوقوع في حبال الشيطان والانضمام إلى حزبه والالتحاق بجنوده، غير أنّ هذا المصير المشؤوم قد طال طلحة والزبير وأعوانها ومن سار على نهجها قد دفعهم حب الجاه والمنصب لأن يكون لقمة سائغة للشيطان.

ثم تناول ﷺ المحور الثاني الذي بين فيه سماته وعمق بصيرته بما لا يجعل للشبهة والشك من سبيل إليه «وإنّ معي لبصيرتي ما لبست على نفسي، ولا لبس علي». الحق أنّ مصدر ضلال أي فرد إنّما يمكن في أحد ثلاث: الأول ألا يمتلك البصيرة والمعرفة اللازمة بالعمل الذي يقدم عليه، فيرد الميدان جهلاً فيتصرف بما لا يرضى الله. والثاني قد يتمتع بالمعرفة إلا أنّ حجب هوى النفس وحب الذات إنّما تحول دون رؤيته للحق وتسوقه للخطأ والزلل، وما أكثر الأفراد الذين يعلمون ببشاعة الذنب إلا أنّهم يصطنعون لأنفسهم الاعذار الناشئة من

١. سورة فاطر / ٦٧.

٢. سورة الاسراء / ٦٤.

وساوس النفس والدوافع الشيطانية التي تسول لأنفسهم عد تلك الذنوب من الفرائض، وكما صورهم القرآن الكريم «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»^١. والثالث أن يمنع شياطين الجن والانس الاذن بالنفوذ إلى قلبه وبشوهوا عليه الحقيقة. ولم يكن لأي من هذه المحاور الثلاث من سبيل إلى الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنه أوصد كافة الأبواب الباطنية والظاهرية للخطأ والانحراف بوجه الوسواس والأهواء وتحلى بتقوى وورع وبصيرة جعلته يرى الحقيقة كما هي.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد يقول عليه السلام: «إِنَّ مَعِيَ لِبَصِيرَتِي»، أن البصيرة التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كافة الأحداث المهمة التي وقعت على عهده مازالت معي ولم تتغير. والعبارة إشارة إلى الآية الشريفة «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي»^٢. بينما يرى البعض الآخر أن قوله عليه السلام: «ما لبست على نفسي، ولا لبس علي» هو تفسير لقوله «وإِنَّ مَعِيَ لِبَصِيرَتِي» إلا أن ما ذكر سابقاً أنسب.

الجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام قال: ما لبست على نفسي، ثم قال: ولا لبس علي؛ الأمر الذي يكشف عن ترتيب طبيعي ينبغي فيه ألا يجذع الإنسان من قبل نفسه أولاً ثم يأمن مكر الآخرين وخداعهم. ثم خاض في المحور الثالث ليكشف عما ستؤول إليه نتيجة موقعة الجمل محذراً خصومه بشدة «و آيم^٣ الله لأفرطن^٤ لهم حوضاً أنا ماتحه^٥! لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه». والواقع هو أن الإمام عليه السلام شبه ميدان القتال بالحوض الذي يريد ملأه بالماء بحيث لا يبقى معه من مجال؛ أراد عليه السلام لأملأن لهم حياض الحرب التي هي دريتي وأنا مجرب لها، ثم يشير عليه السلام إلى النتيجة التي سيؤول إليها أهل الجمل وهي لن تكون سوى القتل وإزهاق

١. سورة الكهف / ١٠٤.

٢. سورة يوسف / ١٠٨.

٣. يرى بعض أرباب اللغة أن «آيم» جمع «يمين» بمعنى القسم وقد سقطت النون وهي مبتدأ لخبر محذوف تقديره (و آيمن الله قسماً).

٤. «أفرطن» من مادة «إفراط» بمعنى تجاوز الحد (ما يقابل التقريط)، كما تأتي بمعنى ملأ الشيء حتى يفيض، وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة.

٥. «ماتح» بمعنى امتداد الشيء ثم اطلقت على المستسقي الذي يدلي بدلوه لاستخراج الماء من البئر. وقيل إن الماتح لمن يستسقي الماء من أعلى البئر، بينما المايح من تحته.

الأنفس، وإن كان هنالك من سبيل إلى الفرار فإنّ الفار لن يعود إلى الميدان ثانية.
وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ قوله ﷺ: «الأفرطن» لا تعني أنّي سأفرط في هذا السبيل، بل
المراد أنّي سأبذل قصارى جهدي لسد جميع الطرق على العدو (لابدّ من الدقة هنا). وهذا بعينه
ما جعل عائشة تعتبر من تلك المعركة ولم تشترك في المعارك اللاحقة.

تأمل

جند الشيطان

ما نستفيدة من الخطبة المذكورة أنّ الشيطان لا يمارس وظيفته في الاغواء والاضلال
لوحده؛ بل له جنوده وأعوانه والذين عبر عنهم في الخطبة بالخيانة والرجالة (خيل ورجل)
كإله اتباعه وانصاره الذين عبر عنهم بالحزب، وكما ذكرنا فان القرآن هو الذي أورد هذين
التعبيرين (لابدّ من الالتفات إلى الخيل تعني أحيانا الفارس وهذا هو المراد في العبارة لأنفس
الفرس). وبالطبع لا يراد بحزب الشيطان ورجالته ما يتعارف اليوم في المجتمعات المعاصرة
وتشكيلات الجيوش؛ إلا أننا نعلم بأنّ له مساعدوه من بني جنسه ومن جنس بني آدم الذين
ينشطون في إغواء الناس وإضلالهم، بل حتى الأحزاب القائمة اليوم والجنود الذين أصبحوا آلة
بيد السلطان الظالم والمستبدة إنما هي جنود الشيطان وأحزابه. فما كان من الجنود أشد وأقوى
فهو من خيله وما كان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناك من يرى نفسه في صفوف حزب
الله وهو في زمرة حزب الشيطان. أمّا أتباع الحق فان عليهم أن يتكلوا على الله وينضوا تحت
ولايته ليكونوا مصداقا لقوله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»
ليحظوا بعناية الله ولطفه ويفوزوا بمضمون «إلهي لا تكلفني إلى نفسي طرفة عين أبداً». أمّا
شرط الوصول إلى هذا المقام فهو ما ذكره الإمام ﷺ في الخطبة المذكورة، أي لابدّ من التحلي
بالبصيرة والمعرفة والحذر من خداع النفس، إلى جانب الحذر من الوقوع فريسة لحبائل
خداع الآخرين ومكرهم.

الخطبة ١١

ومن كلام له ﷺ

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل
«تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ! عَضُّ عَلَى نَاجِيكَ. أَعْرِ اللَّهَ جُمُجُمَتَكَ. تَدْفِي
الْأَرْضُ قَدَمَكَ. ازِم بِبَصْرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغَضُّ بَصْرِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

٤٥٥

نظرة إلى الخطبة

ما تفيده الروايات هو أن أمير المؤمنين علي ﷺ كان شديد الحرص على عدم نشوب معركة الجمل بغية الحيلولة دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنه سلم الراية يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفية، فاستغل الفرصة من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والصلاح والالتزام بالبيعة، ثم خاطب عائشة قائلاً: اتق الله وعود إلى بيتك فقد أمركن الله سبحانه «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ». ثم التفت إلى طلحة والزبير وقال لهم: صنتم نساكنكم وابرزتم زوج رسول الله ﷺ، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافة إلى الشورى (وقد انتخب الناس أمير المؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعة). ثم قال للزبير أتذكر كنا نتحدث يوماً في المدينة فسألك رسول الله ﷺ: أتحب علي؟ فقلت: كيف لأحبه وهو قرابي وإني لأحبه في الله. فقال لك رسول الله ﷺ: فاعلم إنك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعود بالله من ذلك اليوم. ثم واصل

الأنفس، وإن كان هنالك من سبيل إلى الفرار فإنّ الفار لن يعود إلى الميدان ثانية. وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ قوله ﷺ: «لأفرطن» لا تعني أنّي سأفرط في هذا السبيل، بل المراد أنّي سأبذل قصارى جهدي لسد جميع الطرق على العدو (لابدّ من الدقة هنا). وهذا بعينه ما جعل عائشة تعتبر من تلك المعركة ولم تشترك في المعارك اللاحقة.

تأمل

جند الشيطان

ما نستفيدة من الخطبة المذكورة أنّ الشيطان لا يمارس وظيفته في الاغواء والاضلال لوحده؛ بل له جنوده وأعدائه والذين عبر عنهم في الخطبة بالخيانة والرجالة (خيل ورجل) كما له اتباعه وانصاره الذين عبر عنهم بالحزب، وكما ذكرنا فان القرآن هو الذي أورد هذين التعبيرين (لابدّ من الالتفات إلى الخيل تعني أحيانا الفارس وهذا هو المراد في العبارة لأنفس الفرس). وبالطبع لا يراد بحزب الشيطان ورجالته ما يتعارف اليوم في المجتمعات المعاصرة وتشكيلات الجيوش؛ إلا أننا نعلم بأنّ له مساعده من بني جنسه ومن جنس بني آدم الذين ينشطون في إغواء الناس وإضلالهم، بل حتى الأحزاب القائمة اليوم والجنود الذين أصبحوا آلة بيد السلطان الظالم والمستبدة إمّا هي جنود الشيطان وأحزابه. فما كان من الجنود أشد وأقوى فهو من خيله وما كان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناك من يرى نفسه في صفوف حزب الله وهو في زمرة حزب الشيطان. أمّا أتباع الحق فان عليهم أن يتكلوا على الله وينضوا تحت ولايته ليكونوا مصداقا لقوله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» ليحفظوا بعناية الله ولطفه ويفوزوا بمضمون «إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً». أمّا شرط الوصول إلى هذا المقام فهو ما ذكره الإمام ﷺ في الخطبة المذكورة، أي لابدّ من التحلي بالبصيرة والمعرفة والحذر من خداع النفس، إلى جانب الحذر من الوقوع فريسة لحبائل خداع الآخرين ومكرهم.

الخطبة ١١

ومن كلام له ﷺ

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل
«تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ! غَضُّ عَلَى نَاجِدِكَ. أَعْرِ اللَّهَ جُمُجُمَتَكَ. تَدْفِي
الْأَرْضُ قَدَمَكَ. ازِم بِبَصْرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغَضَّ بَصْرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

٤٥٥

نظرة إلى الخطبة

ما تفيده الروايات هو أن أمير المؤمنين علي ﷺ كان شديد الحرص على عدم نشوب معركة الجمل بغية الحيلولة دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنه سلم الراية يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفية، فاستغل الفرصة من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والصلاح والالتزام بالبيعة، ثم خاطب عائشة قائلاً: اتق الله وعود إلى بيتك فقد أمركن الله سبحانه «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ». ثم التفت إلى طلحة والزبير وقال لهم: صنتم نساتكم وابرزتم زوج رسول الله ﷺ، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافة إلى الشورى (وقد انتخب الناس أمير المؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعة). ثم قال للزبير أتذكر كنا نتحدث يوماً في المدينة فسألك رسول الله ﷺ: أتحب علي؟ فقلت: كيف لأحبه وهو قرابتي وإني لأحبه في الله. فقال لك رسول الله ﷺ فاعلم إنك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعود بالله من ذلك اليوم. ثم واصل

الإمام علي عليه السلام نصحهم ووعظهم حتى قال اللهم إني نصحت لهم وأمهلتهم، ثم تناول القرآن وقال من يحاجهم بالقرآن فيقرأ عليهم الآية ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾^١ وهو مقطوع يمينه وشماله ومقتول؟ فتناوله مسلم المجاشعي فاقرب من العدو وحمل القرآن بيمينه وتلى عليهم الآية، فحملوا عليه وقطعوا يمينه، فتناول القرآن بشماله فقطعوها أيضاً، فاخذ القرآن بأسنانه فقتلوه. فقال علي عليه السلام: أحل لي الآن قتالهم عن آخرهم. ثم التفت إلى محمد بن الحنفية وخاطبه بتلك الكلمات.^٢ على كل حال فإن الإمام عليه السلام يسلط الضوء على الفنون القتالية المهمة والمسائل ذات الاثر من الناحية النفسية والجسدية في الجندي المسلم والتي تعده للتأهب والاستبسال في ساحة المعركة. والكلام يشتمل على سبع جمل: تضمنت الجملة الاولى الأوامر الكلية بشأن المقاومة والصمود في ميدان الحرب، بينما أشارت الجمل الخمس الأخرى إلى الجزئيات والأمور التي تلعب دوراً في الصمود وتحقيق النصر. أما الجملة السابعة والأخيرة فهي تؤكد على الإتكال على الله وأن النصر من عنده سبحانه ليتمكن من خلال ذلك وبقوة الإيمان تحمل المشاق والصعاب والتحلي بالروحانية العالية من أجل الصمود أمام العدو ومقاتلته.

الشرح والتفسير

كن كالجبل

كما أشرنا سابقاً فإن الخطبة تعالج مجريات موقعة الجمل حيث أعطى الإمام عليه السلام الراية ولده الشجاع محمد بن الحنفية، وقد أوصاه عدّة وصايا مهمة بشأن القتال وتحقيق النصر منها: أنه قال: «تزول الجبال ولا تزل»^٣. فالواقع إن أهم مسألة في ميدان القتال هي الاستقامة والصمود التي لا يمكن تحقيق النصر بدونها، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في بداية الأمر. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لمضمون الرواية المعروفة «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه

١. سورة الحجرات / ٩.

٢. منهاج البراعة للخوئي ٣/ ١٦٧-١٦٩.

٣. قال بعض شراح نهج البلاغة أن هذه العبارة جملة شرطية من حيث المعنى، فقد يرها لوزالت الجبال لانزل (شرح ابن ميثم ١/ ٢٨٧).

العواصف» كما ورد عن النبي الاكرم ﷺ أنه قال: «المؤمن أشد في دينه من الجبال الراسية وذلك أن الجبل قد ينحت منه والمؤمن لا يقدر أحد على أن ينحت من دينه شيئاً»^١. ثم تناول ﷺ ما من شأنه أن يؤثر في مسيرة المعركة فقال: «عض على نواجذك». فالنواجذ قد يعنى أقصى الضرس، كما فسّر بسن العقل، وقيل بل جميع الإنسان. وقيل أن العض على النواجذ يتضمن فائدتين: الاولى أنه يزيل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا يعرض الإنسان على أسنانه في مواطن الخوف ليهدأ وتسكن فورته، والثانية أنهم ذكروا أن العاض على نواجذه ينبو السيف عن دماغه، لأن عظام الرأس تشتد وتصلب؛ وقد جاء في كلامه ﷺ هذا مشروحاً في موضع آخر وهو قوله ﷺ: «وعضوا على النواجذ، فإنه أنبى للصوارم عن الهام»^٢. أما في الجملة الثالثة فقد قال ﷺ: «أعر الله جمجمتك» تعنى إستعد للتضحية والفداء والشهادة في سبيل الله فان هذا الاستعداد أساس الشجاعة والاستبسال. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة أن في العبارة إشعار له أنه لا يقتل في تلك الحرب، لأن العارية مردودة، ولو قال له: بع الله جمجمتك، لكان ذلك إشعار له بالشهادة. ثم قال ﷺ في الجملة الرابعة: «تدفى الأرض قدمك». في إشارة واضحة إلى الثبات في المعركة ورباطة الجأش في مقابل العدو وعدم التفكير قط بالانسحاب أو الفرار من الميدان؛ الأمر الذي أوصى به القرآن الكريم المؤمنين من قبل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا»^٣. ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة الاولى، هو أن الجملة الاولى تحدثت عن عدم التزلزل في الفكر والمعنويات بينما أشارت العبارة الأخيرة إلى عدم التزلزل الظاهري والبدني وعدم الانسحاب والتراجع وفي الجملة الخامسة قال ﷺ: «ارم ببصرك أقصى القوم» فثل هذه النظرة تجعله يحيط بالميدان والعدو والسيطرة على حركة الجنود بحيث يتعرف على نقاط الضعف والقوة فيصيب في الدفاع والهجوم والكر والفر. ثم قال ﷺ: «و غص بصرك». ليس هنالك من تناقض بين قوله «ارم ببصرك» قوله «غص بصرك» وذلك لأنه في الاولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحدق إلى أقاصي القوم

١. سفينة البحار، مادة أمن.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٤.

٣. سورة الانفال / ٤٥.

ببصره، فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولا المبالي، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفي الثانية أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفاً. والشاهد على ذلك ما أورده عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة بهذا الشأن إذ قال: «و غضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب»^١. أمّا في الجملة السابعة والأخيرة فقد أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة وأساسية تنطوي على أبعاد روحية معنوية تطمئن النفوس وتحذوها بالتطلع إلى الله «و اعلم أن النصر من عند الله سبحانه» فالنصر لا يستند إلى الأسباب والمقدمات الظاهرية، بل المهم إرادة الله سبحانه ونصره، فتوكل على الله وثق به واسأله الغلبة فهو القادر على كل شيء وهو الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»^٢. والطريف في الأمر أن القرآن الكريم تحدث عن نصره الملائكة إلا أنه حث المؤمنين بالتضرع إلى الله بنزول النصر لا الملائكة «بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم وتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم».

تأملان

١ - محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره

هو أحد أبناء أمير المؤمنين علي عليه السلام و«حنفية» لقب أمه واسمها خولة بنت أحد أشرف قبيلة «بني حنيفة» وقد اسرت في أحد المعارك الإسلامية وأرادوا بيعها، فأعتقها عليه السلام وتزوجها. ورث محمد الشجاعة من علي عليه السلام وقيل كان يشق الدرع بيده لقوته. ومن هنا سلمه عليه السلام الراية يوم الجمل، كما أسند إليه مع محمد بن أبي بكر وهاشم المرقال ميسرة جيشه في صفين. وكان شديد التواضع للحسن والحسين عليهما السلام.

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٤.

٢. سورة آل عمران / ١٢٦.

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه عليه السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له: احمل، فتوقف قليلاً، فقال له: احمل، فقال يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شايب المطر! فدفعت في صدره، فقال: أدركك عِرْق من أمك، ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة. قيل لمحمد لم يُغزَّر بك أبوك في الحرب ولا يغزَّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

إتهم البعض محمد بن الحنفية بأنه ادعى الإمامة بعد الإمام الحسين عليه السلام، بل قيل ادعى المهديوية، إلا أن الشيخ المفيد أبطل ذلك وقال لم يدع الإمامة (بل نسب الآخرون ذلك إليه وهم من ادعى الإمامة والمهديوية من الكيسانية. توفي بن الحنفية عام ٨١ هـ. واختلف في محل دفنه، فقيل توفي في الطائف ودفن فيها. وقيل في البقيع، كما قيل في الجبل الرضوي قرب المدينة.

أما أحد الشواهد الحية على رفعة مكانته وعلو منزلته فهو أن الإمام الحسين عليه السلام حين أراد الخروج من المدينة إلى مكة جعله خليفته ووصيه في المدينة ليطلع على الأخبار، كما أودعه وصيته طبق لنقل أرباب المقاتل.

٢ - الشرط المهم في النصر على الأعداء

تفيد الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أن العنصر الرئيسي الذي يقف وراء النصر والغلبة إنما يكمن في الصبر والمقاومة والثبات. فالقرآن يصف الفئة القليلة الصابرة بأنها هي المنتصرة في مقابل الفئة المعادية الكثيرة العدد والعدة: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»^١. كما ورد تأكيده عليه السلام على الصبر في سائر خطبه في نهج البلاغة ومن ذلك قوله عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس معه ولا في إيمان لا صبر معه»^٢.

١. سورة الأنفال / ٦٥.

٢. نهج البلاغة، الكلمات قصار / ٨٢.

وهو المعنى الذي ورد التأكيد عليه كرارا في الخطبة التي نحن بصدددها، فقد قال ﷺ كإشارة لمواطن الصبر «تزول الجبال ولا تزول» وقال: «تد في الأرض قدمك»، وهكذا سائر عباراته من قبيل العَض على النواجذ واعارة الله الجمجمة والإيمان بأنّ النصر والغلبة من الله سبحانه، حيث من شأن كل هذه الأمور أن تلهم الإنسان الصمود والثبات والمقاومة التي تستبطن النصر، وهذا بعينه ما جعل المسلمين ينتصرون على خصومهم حتى في المعارك التي لم تكن متكافئة، وهذا ما ينبغي أن يؤمن به ويستشعره جيلنا الإسلامي الجديد ليحقق الانتصارات الباهرة على الأعداء.





الخطبة



لما أظفـره الله بأصحاب الجمل وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: وَدِدْتُ أَنْ أُخِي فُلَانًا كَانَ شَاهِدَنَا لِيَرَى مَا نَصَرَكَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَعْدَائِكَ «فَقَالَ ﷺ: لَهُ أَهْوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَقَدْ شَهِدْنَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ»^١.

❦❦❦

نظرة إلى الخطبة

يتضح مما قاله السيد الرضي بشأن الخطبة أنها متعلقة باحداث الجمل والنصر المبين الذي حققه الإمام ﷺ حيث إلتفت إليه أحد أصحابه وكان شديد الحب لأخيه فقال له: ليت أخي كان معنا ليشهد ما نحن فيه من النصر والغلبة على هؤلاء البغاة. فأورد الإمام ﷺ هذه الكلمات الرائعة ليطمئنه بالحضور المعنوي لأخيه وكل من سار على نهجه ﷺ من حماة العقيدة، فالإسلام يرى الرابطة الدينية تفوق كافة الروابط العرقية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك. فقد تضافرت الروايات الإسلامية التي صرحت بأن من أحب عمل قوم حشر فيه معهم

١. سند هذه الخطبة هو ماورد في كلام الشريف الرضي، وقد ورد شبيه هذا الكلام في كتاب مصابيح الظلم من كتب المحاسن البرقي. أن أحد أصحاب الإمام ﷺ قال بعد أن أظفر الله الإمام ﷺ بالخوارج في النهروان، طوبى لنا قاتلنا بين يديك فقتلنا الخوارج، فرد الإمام ﷺ بعبارات شبيهة بما ورد في هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة / ١ / ٢٣٩).

والراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وبعبارة أخرى فإن الإمام عليه السلام أشار في هذه الخطبة إلى أنه قد شهد في عسكره وشركه في نصره كافة الأفراد الذين يقيمون اليوم في كافة أصقاع العالم والذين لم يشهدوا - لأسباب - ميادين القتال إلا أنهم وبسبب تعاطفهم العقائدي وكذلك الأفراد الذين مازالوا نطف في أصلاب الرجال وقرارات الفساد.

الشرح والتفسير

اللحمة العقائدية

يتضح مما مر معنا أن الإمام عليه السلام اورد هذا الكلام في إطار ردة على أحد أصحابه الذي أعرب عن تمنيه في أن يكون أخيه قد حضر معه في تلك المعركة ويشهد النصر المؤزر الذي من الله به على جيش الإمام عليه السلام فالتفت إليه الإمام عليه السلام: «فقال له: أهوى أخيك معنا؟»، «فقال: نعم»، فرد عليه الإمام عليه السلام: «فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان»^١.

أجل من كان على عقيدتنا أينما كان فهو معنا وإن لم يكتب لهم الله الحضور الفعلي في الميدان. أمّا قوله عليه السلام سيرعف بهم الزمان فهي إشارة إلى أن الدم وان جرى مستتراً في عروق الإنسان إلا أنه يظهر في أية لحظة وينتشر بكل سهولة، فهؤلاء مستترون في باطن هذا العالم إلا أنهم سيظهرون تدريجياً طبق التصنيف الزماني الإلهي ومن خصائصهم «و يقوى بهم الإيمان» فهم يتحركون باتجاه الحق؛ الأمر الذي يسهم في تقوية أواصر الدين والإيمان. هذا وقد كثر الكلام بين شراح نهج البلاغة بشأن طريقة هذا الشهود والحضور للغائبين فهل هو حضور روحي؟ أي هل أرواحهم حاضرة في ذلك المكان قبل أن تخلق الأبدان، أم هو حضور بالقوة؟ أي هم حاضرون وان غابوا عن الميدان ظاهرياً؟ يبدو أن مراد الإمام عليه السلام بهذا الحضور هو شركتهم في الثواب والحسنات والنتائج؛ أي أن هؤلاء الذين قلوبهم معنا وهم على خطنا وحركتنا (حزب الله) فهم شركاءنا في الأجر والثواب، وعليه فلهم حضورهم الروحي الفعلي في كافة ميادين صراع الحق ضد الباطل. فالواقع هو أن المسار واحد والحركة واحدة والجميع كتلة

١. «الرعاف» خروج الدم من الأنف.

واحدة إن تعانقت عقائدهم وأهدافهم وليس للزمان أن يفصل بعضهم عن البعض الآخر. وهذا يصدق أيضاً على خط الباطل، فالكل سائر على طريق الشيطان ويحمل نفس العقائد الفاسدة ويعيش حالة الظلم والعدوان ومقارفة الذنوب والمعاصي فالتأخر شريك للمتقدم في الجزاء والعقاب.

تأمل

الرابطة الحق

ما ورد في الخطبة يكشف عن حقيقة معنوية ليس للمعادلات الدنيوية المادية من سبيل إلى الوقوف على كنهها والاحاطة بها. فالإمام عليه السلام يرى أن أهم رابطة تحكم المؤمنين هي رابطة الدين والعقيدة التي لاتضاهيها رابطة (من قبيل رابطة الدم والجنس واللون والعرق واللغة والحزب والطائفة والقبيلة وما إلى ذلك) فهي أروع وأقوى وأعظم، ومن شأن هذه الرابطة أن تشمل كافة الأزمنة والأمكنة وجميع أفراد البشر في الماضي والحاضر والمستقبل ليصهرها في بوتقة الهية واحدة. فقد قال عليه السلام «لقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان» فالمعركة ليست صراع شخصي من أجل السيطرة، بل هي معركة بين الحق والباطل، وهما صفان متقابلان خالدان حتى ينفخ في الصور، وأن المؤمنين سيهبون لمجابهة الباطل والذود عن الحق مازالت هنالك آثار للباطل، وكل من كان على الحق فهو شريك في كل ما يترتب على هذه المجابهة من أجر وثواب. والدليل واضح على ذلك حيث الحقيقة واحدة لاينشد أتباع الحق سواها فهم يتحركون بهذا الاتجاه ويشهرون سيوفهم من أجل تحقيق هذا الهدف. وعلى أساس هذا الاصل الأساسي تكون قد حلت أكثر المسائل الواردة في القرآن والأحاديث والتي قد تبدو مستغربة للبعض. فقد صرح القرآن الكريم بشأن قوم ثمود قائلاً: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا»^١. بينما صرحت التواريخ أن الذي عقر الناقة كان واحداً منهم، في حين نسب الله العقر للجميع بفعل تضامنهم العقائدي معه فشمّلوا جميعاً بالعذاب. وهذا هو

المفهوم الذي أوضحه الإمام عليه السلام بقوله: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسُ الرِّضَى وَالسُّخْطَ وَإِنَّمَا عَقْرُ نَاقَةِ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَعَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَا»^١ وقوله عليه السلام: «الرَّاضِي بِفِعْلٍ قَوْمٌ كَالدَّخْلِ فِيهِ مَعَهُمْ وَعَلَى كُلِّ رَاضٍ بِالْإِثْمِ ذَنْبَانٌ؛ ذَنْبُ الرِّضَى بِهِ وَذَنْبُ الْعَمَلِ بِهِ». وورد في زيارة الأربعين لجابر بن عبد الله الانصاري أنه انكب على قبر الحسين عليه السلام وجعل يزوره بهذه العبارات: «أشهد أنك أقمّت الصلاة وآتيت الزكاة وأمّرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين، والذي بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دختلم فيه» فلما سمعه صاحبه عطية تعجب من قوله قائلاً: كيف ذلك ولم نهيط وادياً وقد قاتل القوم دون الحسين عليه السلام فطاحت رؤوسهم وترملت نسائهم ويتمت أولادهم فقال جابر: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أحبّ قوماً حشر معهم ومن أحبّ عمل قوم أشرك في عملهم، أما والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالنبوة لنتينا نية الحسين عليه السلام وأصحابه^٢ القرآن من جانبه خاطب كراماً يهود المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وبخهم على الأعمال التي أتى به أصحابهم على عهد نبي الله موسى عليه السلام؛ بينما كانت هنالك عدّة قرون بين القومين، فجعلهم القرآن كأولئك لانتهاجهم مسيرتهم ورضاهم بأعمالهم، ومن ذلك قوله «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^٣. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في ذيل هذه الآية أن الله إعتبر هؤلاء - ممن عاصر النبي صلى الله عليه وآله من اليهود - قتلة الأنبياء السابقين رغم عدم ارتكابهم لجريمة القتل ولكن حيث كانوا على عقيدة أولئك القتلة وراضين بفعلهم فقد عدّهم قتلة^٤. وقد روى المحدث الكبير عدّة روايات في المجلد الحادي عشر من وسائل الشيعة بهذا المضمون في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^٥.

ومن شأن هذا اللون من التفكير أن يفتح أمامنا آفاقاً واسعة ويجعلنا نقف على مضمون الآيات والروايات ويساعدنا في سلوك طريق الحق.

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

٢. بحار الأنوار ١٣١ / ٦٥.

٣. سورة آل عمران / ١٨٣.

٤. بحار الأنوار ٩٧ / ٩٤.

٥. وسائل الشيعة / ١١، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٥.

الخطبة ١٣

ومن كلام له عليه السلام

في ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل.

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرَاةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَيْهِيَةِ؛ رَغَا فَاَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقُ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقُ، وَدِينُكُمْ نِفَاقُ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقُ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّائِخِصُ عَنْكُمْ مُتْدَارِكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجَوْجُو سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا»^١.

❦❦❦

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كبعض الخطب السابقة واللاحقة واردة بشأن موقعة الجمل، وقد ذم الإمام علي عليه السلام أهل البصرة الذين أسلسلوا قيادهم لطلحة والزبير وفرقوا صفوف المسلمين، ثم توعدهم بعذاب الله سبحانه، ليعتبر من إعتبر فلا يقارف أعباهم.

١. قال المرحوم المحقق الخوئي أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد انتهاء معركة الجمل، ورواها - مع بعض الاختلاف - المرحوم الطبرسي في الاحتجاج وعلي بن إبراهيم القمي والمحدث البحراني، كما نقلها - حسب كتاب مصادر نهج البلاغة - عدد من العلماء من عاشوا قبل الشريف الرضي كالدينوري في الأخبار الطوال والمسعودي في مروج الذهب وابن قتيبة في عيون الأخبار وابن عبد ربه في العقد الفريد (مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٤٤).

الشرح والتفسير

خصائص أهل الجمل

لقد أشار ﷺ في هذه الخطبة إلى الصفات الذميمة التي إتصف بها مؤججي البصرة ليجمعها في سبع صفات. فقد قال ﷺ في البداية «كنتم جند المرأة». صحيح أن مؤججي نار الجمل هما طلحة والزبير، كما تشير الشواهد التاريخية إلى الدور المشبوه الذي لعبه معاوية في هذا الشأن، ولكن الذي لاشك فيه أن حضور عائشة وكونها زوج النبي ﷺ كان الدافع الأعظم الذي ساق الناس لقتال الإمام ﷺ والانخراط في صفوف أصحاب الجمل، ولا سيما أن كنيته بأأم المؤمنين كان له أبلغ الأثر في نخوة الناس للدفاع عن أمهم، ومن هنا خاطب الإمام ﷺ أهل البصرة بجند المرأة. الصفة الثانية لهم: «و اتباع البهيمة»، ثم يوضح ﷺ سبب استحقاقهم لهذه الصفة إثر تحزبهم واجابتهم حين كانت ترغي وهروبهم وتشتتهم حين عقرت «رغاً فاجبتم، وعقر^٢ فهربتم». فقد صرح بعض المؤرخين أن جمل عائشة - في معركة الجمل - كان بمثابة راية عسكر البصرة، حيث كان الجنود يلتفون حوله ويضربون دونه حتى قتلوا كما تقتل الرجال تحت راياتها. وجاء في بعض الروايات أن سبعين ألفاً أخذوا بزمام الجمل وكانوا يقتلون الواحد تلو الآخر، وكان أكثر من إتف حول الجمل والدفاع عنه من قبيلتي بني ضبة والأزد، لقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والأيدي تطيح من المعاصم وأفتاب البطن تندلق من الاجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ علي ﷺ بأعلى صوته: «ويلكم أعقروا الجمل، فانه شيطان» ثم قال: إعقروه والافنيت العرب. لا يزال السيف قائماً وراكعاً حتى يهوي هذا البصير إلى الأرض، فعمدوا له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمة. كما ورد في بعض الروايات أن أمير المؤمنين أمر بحرق الجمل وذر رماده في الرياح وقال: لعنه الله من دابة ما أشبهه بعجل السامري، ثم تلى «وَإَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا»^٣ والطريف في

١. «رغاً» من مادة «رغاء» على وزن دعاء صوت الجمل كما يطلق على صوت الضبع أيضاً.

٢. «عقر» من مادة «عقر» على وزن فعر بمعنى الأصل والجذر، وتعني الجرح والقطع إذا استعملت للناقة كما تأتي بمعنى الهلاك.

٣. سورة طه / ٩٧.

موقعة الجمل أن عائشة أخذت كفا من حصي، فحصبته به أصحاب الإمام عليه السلام وصاحت بأعلى صوتها: شأهت الوجوه كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر. فقال لها قائل: وما رميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى. ^١ فقد كان حسب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين أحد العوامل الاعجازية التي أدت إلى إنهيار عسكر الكفر، بينما انتهت معركة الجمل بهزيمة منكرة مني بها أعداء الإمام عليه السلام. أما الصفة الثالثة والرابعة والخامسة فهي تعالج أوضاعهم الأخلاقية حيث قال عليه السلام: «أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق» دقاق من مادة دقت بمعنى الدنيئة هنا، يصف بها أهل البصرة من عبدة الأهواء الذين نكثوا البيعة والتحقوا بصفوف الأعداء، أمّا نفاقهم فهو ناشئ من كون ظاهرهم هو الإسلام والدفاع عن زوج النبي صلى الله عليه وسلم وباطنهم القيام ضد الحكومة الإسلامية ووصي رسول الله صلى الله عليه وسلم والتخندق في صفوف أهل الشام. ثم أشار عليه السلام إلى صفتهم السادسة «و ماؤكم زعاق». ومن المعلوم إن مثل هذا الماء وإضافة إلى ملوحته ومرارته فإنه ينطوي على كل عناصر التلوث بسبب مجاورته لشاطئ البحر؛ فهو مضر بالنسبة لسلامة البدن، وهو يا لتالي مضر بروح الإنسان وفكره بفعل الرابطة القائمة بين الروح والبدن. وعليه فإن ذم ماؤهم هو في الواقع نوع ذم لأخلاقهم. ثم تطرق إلى صفتهم السابعة فقال: «و المقيم بين أظهركم ^٢ مرتهن بذنبه والشاخص ^٣ عنكم متدارك برحمة من ربّه». والعبارة إشارة إلى ما ورد في عدّة روايات، ومنها الحديث المعروف الذي نقله المرحوم الكليني في الكافي عن أبي الحسن الإمام الهادي عليه السلام حين قال لأحد أصحابه ويدعى جعفر: مالي أراك تغشى عبدالرحمن بن يعقوب (وكان منحرفاً في عقائده)، ألا تعلم أنه ينسب الله إلى صفات المخلوقين ثم نصحه عليه السلام بتركهم ومجالسة أعدائهم أو العكس، فرد جعفر على الإمام عليه السلام فليقل ما يقل في إشارة إلى أنه لا يتفق معه في العقيدة فلا يضره. فقال عليه السلام: «أما تخاف أن تنزل

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٥٢-٢٦٦ إلا أنه كتب حين خطأ بدلاً من بدر.

٢. «بين أظهركم» بمعنى بينكم، وأظهر جمع ظهر بمعنى الخلف وهو خلاف الباطن، ويستعمل هذا اللفظ للشخص الذي يعيش بين مجموعة تسانده و تحميه، وأحياناً يستعمل هذا اللفظ للعيش في مجموعة يؤيدونه ويحمونه أو لا يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل في التاريخ أو لا يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل في التاريخ لابن الأثير».

٣. «شاخص» من مادة «شخص» بمعنى المرتفع واطلقت على قامة الإنسان حين تلوح من بعيد، ومن هنا اطلق على الشخص المسافر اسم الشاخص، وقد وردت بهذا المعنى في العبارة المذكورة.

به تقمة فتصيبكم جميعاً»^١ ومن هنا وجبت الهجرة على المسلمين في صدر الإسلام حين عم الفساد كل شيء - ولا سيما الفساد العقائدي - ولم يسعهم القضاء عليه، بل كان يخشى تأثرهم به. وقوله ﷺ: «مرتهن بذنبه» إشارة إلى أن الذنب يأسر الإنسان وكأنه يجعله رهينة فلا يطلقه، وهو مستوحى من قول القرآن الكريم ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾^٢ والذي نخلص إليه من هذه العبارة هو التأثير الذي يلعبه المحيط والوسط على أخلاق الناس، فاما يغير هذا الإنسان المحيط الفاسد والملوث أو يهجره. ثم تطرق الإمام ﷺ إلى العذاب الدنيوي الذي ينتظر أهل البصرة فقال: «كأنني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من في ضمنها». وأما إخباره ﷺ أن البصرة تفرق عدا المسجد الجامع بها، «فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أن البصرة تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها. والصحيح أن المخبر به قد وقع، فان البصرة غرقت مرتين، مرة في أيام القادر بالله^٣ ومرة في أيام القائم بأمر الله^٤ غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخير به أمير المؤمنين ﷺ، جاءها الماء من بحر فارس^٥ من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها»^٦ أخبارها تين الحادثتين معروفة عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم.



ثم نقل السيد الرضي آخر هذه الخطبة ثلاث روايات بشأن العبارات الواردة في آخرها:
الرواية الأولى: «و آيم الله لتغرقن ببلدتكم حتى كأنني انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جائثة».

١. اصول الكافي ٢ / ٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، وقد وردت في هذا الباب عدّة روايات بهذا المضمون.

٢. سورة المدثر / ٣٨.

٣. الذي تولّى الخلافة عام ٣٨١ هـ (الكامل في التاريخ ١ / ٨٠).

٤. «القائم بأمر الله»، من خلفاء الدولة العباسية، أصبح خليفة عام ٤٢٢ هجري «الكامل في التاريخ ٩ / ٤١٧».

٥. من النقاط التي تسترعي الانتباه إن ابن أبي الحديد كان من الذين عاشوا في القرن السابع الهجري وكان يُطلق على الخليج الفارسي اسم «بحر الفرس».

٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٥٣.

الرواية الثانية: «كجؤجؤ طير في لجة بحر».

الرواية الثالثة: «بلادكم أنتن بلاد الله تربة: أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعة أعشار الشر، المحتبس فيها بذنبه، والخارج بعفو الله. كأني أنظر إلى قريتك هذه قد طبقتها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف المسجد، كأنه جؤجؤ طير في لجة بحر».



لابد من الالتفات إلى عدم وجود تفاوت يذكر بين ماورد في الخطبة المذكورة والرواية الاولى. فكلاهما قد استهلّت بالقسم وتحدثتا علانية عن غرق هذه المدينة، ثم اضافت تشبيه آخر لماورد سابقاً بشأن المسجد بالقول «و ايم الله لتغرقن بلد تكم حتى كائى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جائمة»^١.

أما في الرواية الثانية فهناك تفاوت طفيف جداً حيث استبدل تشبيه جؤجؤ السفينة بقولها «كجؤجؤ طير في لجة بحر».

بينما هنالك تفاوت كبير بين الخطبة الثالثة والخطبة الأصلية. فقد أشير في هذه الرواية إلى ثلاث أمور في ذم أهل البصرة «بلادكم أنتن بلاد الله تربة اقربها من الماء، وأبعدها من السماء» والصفة الثانية «وبها تسعة أعشار الشر» ولعل هذا الأمر ينبع من الخصائص الأخلاقية لناس تلك المنطقة أو بسبب كونها ميناءً يكون مركزاً لتردد مختلف الأفراد وهجوم الثقافات الأجنبية والتلوث الخلقى الذي يفرض عليها من الخارج. ولذلك كانت هذه المنطقة مسرحاً للأحداث الأليمة للقرون الإسلامية الاولى. أما الصفة الثالثة فهي «المحتبس فيها بذنبه، الخارج بعفو الله»^٣. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى تشبيه ماورد في الروايات المذكورة بقوله:

١. «جائمة» من مادة «جشوم» بمعنى الجمع والجثم بالصدر على الأرض، وتطلق هذه المفردة على الأفراد الذين يخلدون إلى الأرض وليس لهم من حركة سوى الكسل والنعاس.
٢. «لجة» بمعنى الموجة والماء الواسع العميق، وتعني في الأصل ذهاب وايباب الشيء ومن هنا يطلق لجة على البحر المائج، كما يطلق اللجوح على الأفراد الذين يصرون على شيء، كما تطلق على موج البحر.
٣. هذا التفسير يصدق في حال كون الباء في «بذنبه» والباء في «بعفو الله» بباء السببية، ولكن اذا كانت الباء للالصاق فيكون مفهوم الجملة: الشخص الذي تلوث وابتلى بالذنوب، وبقي بعيداً عن الناجين، ولكن العفو الالهي يشمل هذا الشخص فيصبح من الناجين. لكن المعنى الأول هو الأرجح طبق المقاييس الأدبية.

«كأنِّي انظر إلى قريبتكم هذه قد طبّقها الماء، حتى ما يرى منها الاشراف^١ المسجد، كأنه جَوْجُ طير في لجة بحر». ويبدو أن اختلاف العبارات يستند إلى رواية الحديث الذين قد نقلوا بعضها من حيث المعنى، أو أنهم أخطأوا في تدوين الحديث، ويبعد الاحتمال على أن الإمام عليه السلام قد كرر هذا الكلام في أكثر من موضع وقال فيه ما يناسبه.

تأملات

١ - نبوءة النبي صلى الله عليه وآله بشأن موقعة الجمل

الجدير بالذكر أن عدة روايات صرحت بإخبار النبي صلى الله عليه وآله عن يوم الجمل وخروج عائشة وتحذيره لها. ومن ذلك لما عازمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيّداً يحمل هوذجها، فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكراً، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رآته أعجبها، وأنشأ الجمال يحدثها بقوته وشدته، ويقول في أثناء كلامه: «عسكر»، فلما سمعت هذه اللفظة، واسترجعت، وقالت: ردّوه لا حاجة لي فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه، فغيّر لها مجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً، وأشدّ قوة، وأتيت به فرضيت.

وأرسلت إلى حفصة تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأتى أخته فعزم عليها فأقامت وحطّت الرّحال بعد ما همّت.

كتب الأشر من المدينة إلى عائشة وهي بمكة، أمّا بعد: فإنك ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أمرك أن تقرّى في بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، فإن أبييت إلا أن تأخذي منسأتك، وتُلقي جلابيك، وتبدي للناس شعيراتك، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك، والموضع الذي يرضاه لك ربك.

فكُتبت إليه في الجواب: أمّا بعد، فإنك أول العرب شَبّ الفتنة، ودعا إلى الفرقة وخالف

١. «شرف» على وزن هدف بمعنى الموضع المرتفع.

الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه؛ وسيكفينيك الله؛ وكل من أصبح مماثلًا لك في ضلالك وغيبك، إن شاء الله.

وقال أبو محنف: لما انتهت عائشة في مسيرها إلى الحوآب، وهو ماء لبني عامر بن صعصعة، نبحتها الكلاب؛ حتى نفرت صِعباب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أكثر كلاب الحوآب، وما أشد نباحها! فأمسكت زمام بعيرها، وقالت: وإتّها لكلاب الحوآب! ردّوني ردّوني؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول... وذكرت الخبر، فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله! فقد جُرّنا ماء الحوآب؛ فقالت: فهل من شاهد؟ فلقّقوا لها خمسين أعرابياً، جعلوا لهم جُعلاً، فحلقوا لها؛ إن هذا ليس بماء الحوآب، فسارت لوجهها.^١

والعجيب أن مثل هذه الروايات كانت سبباً لتردد عائشة، بينما تكن كل تلك الروايات الصحاح عن رسول الله ﷺ وقد روت أكثرها سبباً لتردها وإنصرافها. وهذا لعمرى من العجائب. كما يفهم من هذه الحكايات أنها سرعان ما كانت تخدع وتغير رأيها.

٢- ذم أهل البصرة

ما ورد من ذم للبصرة في الخطبة المذكورة يتعلق بعضه بتأثير المناخ وموقع المدينة وأوضاعها الاجتماعية (حيث كانت ميناء وموضعا لإستقطاب أنواع الثقافات والأفكار والأخلاق الملوثة والتي كانت هناك وما زالت في مثيلاتها) إلا أن البعض الآخر يرتبط بروحية وصفات سكنتها، والذي لا يلزم أن يكون كذلك في كل عصر ومصر، بل هو إشارة لاولئك الناس في ذلك العصر والزمان والذين كانوا يستسلمون لمحظطات طلحة والزبير القسيحة فينقضوا البيعة ويريقوا تلك الدماء. وعليه فلا منع من أن يسود تلك المنطقة الأخيار في سائر العصور. ولذلك وردت بعض الأخيار التي تقيّد مدح هذه المنطقة، ومن ذلك ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام حين إخباره منه... فقراءؤهم أفضل القراءؤ وزهادؤهم أفضل الزهادؤ وعتادؤهم

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٢٥/٦.

أفضل العباد وتجارهم أصدق التجار... ونساؤهم خير النساء.^١
 فلا منافاة أبداً أن يجد قوم ويجتهدوا في طريق تهذيب النفس وتزكيتها فيتطهروا من
 الرذائل الأخلاقية وينطلقوا صوب سمو الكمال، سيما إن كانت رذائلهم الأخلاقية من قبيل
 معركة الجمل وما ترتب عليها من نتائج هزتهم وأعادتهم إلى رشدهم.

٣ - المحيط والاخلاق

تتضح مسألتان من عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة:
 الأولى الأثر الذي بلعبه المحيط الطبيعي والجغرافي في خلق ومزاج الإنسان، حيث قال عليه السلام:
 «ماؤكم زعاق... بلادكم انتن بلاد الله تربة أقربها من الماء وأبعدها من السماء». والأخرى تأثير
 المحيط الاجتماعي في أخلاق الناس: «والمقيم بين أظهركم مرتين بذنبيه».
 ولكن من المسلم به أن هذا التأثير يقتصر على تمهيد السبيل وتوفير الأرضية ولا يرقى لأن
 يكون علة تامة قط؛ ولذلك هناك الأفراد الأخيار الذين يعيشون في هذه الأوساط. بل على
 العكس فهناك الأفراد المعروفون بالفساد والانحراف والسيرة الخبيثة والشريرة وهم
 يعيشون في المناطق التي تتمتع بالمناخ المناسب من أجل تعالي الأخلاق وبلورة المزاج.



الخطبة ١٤

ومن كلام له ﷺ في مثل ذلك

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأَكْلَةٌ لِأَكِلٍ، وَقَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ»^١.

❦❦❦

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة أخرى أوردتها الإمام ﷺ بعد الجمل ولعلها تشكل مع سابقتها خطبة واحدة ثم فصلها الشريف الرضي ﷺ . على كل حال فإن الإمام ﷺ يعرض بالذم ثانية لأهل البصرة ويتحدث عن خوائهم الفكري الذي جعلهم يتحولون إلى العوبة بيد المنافقين من أصحاب المطامع، وأخيراً يحذرهم ﷺ من مغبة مواصلة هذا الطريق الضال.

الشرح والتفسير

ذم أهل البصرة ثانية

كما أشرنا سابقاً فإن هذا الكلام هو قسم آخر من تلك الخطبة التي أوردتها الإمام ﷺ في ذم

١. جاء في مصادر نهج البلاغة أن المرحوم الشيخ المفيد نقل في كتاب الجمل / ٢١٧ عن الراقي أن علياً ﷺ حين انتصر في المعركة ووزع الغنائم على الجنود ألقى هذه الخطبة؛ كما وردت مع اختلاف طفيف في كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (مصادر نهج البلاغة، ١/ ٣٤٨).

أهل البصرة بعد موقعة الجمل حيث ضمنه ﷺ سبع صفات قبيحة إتصفوا بها. فقد وصفهم في العبارة الأولى والثانية «أرضكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء». يمكن أن تكون العبارتان إشارة إلى الجوانب المادية في أن هذه المنطقة قريبة من ماء البحر والشط وهي بعيدة عن السماء، أو إشارة إلى الجوانب المعنوية كأن يكون المراد أن أرض قلوبكم ورغم قربها من ماء الحياة بفعل وجود الإمام، إلا أنها بعيدة عن سماء رحمة الله ومغفرته. أو أن تكون هذه العبارة واردة في المسائل المادية والعبارة الأخرى في المسائل المعنوية هناك نقاش وبحث بين الشراح في هذا الشأن، غير أن ظاهر العبارة - بالالتفات إلى المعنى الحقيقي للأرض والسماء - فإن المراد المعنى الأول، فليس هنالك من خلاف في أن أرضهم قريبة من الماء ولها المشاكل التي تنطوي عليها الحياة عند ساحل البحر، ولا سيما البصرة التي يمر بها ذلك الشط الكبير ويصب في البحر مما يجعلها عرضة لظاهرة المد والجزر؛ أما كيفية إبتعادها عن السماء، فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع في الأرض عن السماء «الابلة» وذلك موافق لقوله ﷺ - ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف في ذلك. وقد دلت الارصاد والآلات النجومية على أن أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الابلة والابلة هي قسبة البصرة. وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين ﷺ لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب، لا تهتدي إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسراره وغرائبه البديعة.

ولكن لا يبدو هذا الكلام مقبولا لدى العلماء المعاصرين، لأن البصرة كسائر الموانئ العالمية المساوية لسطح ماء البحر، ونعلم أن مياه بحيرات العالم متصلة مع بعضها وتقع في مستوى واحد؛ والحال هنالك عدّة مناطق على سطح الكرة الأرضية وهي أوطئ من سطح البحار. لكن يحتمل ألا تكون المقارنة بالنسبة لجميع المناطق على سطح الكرة الأرضية، بل مع بعض البلدان والمناطق الإسلامية المتعارفة آنذاك.

ثم قال ﷺ في العبارة الثالثة والرابعة «خفت عقولكم، وسفهت حلومكم» والدليل الواضح على هذا ما أورده الإمام ﷺ في الخطب السابقة من انقيادهم السهل واستسلامهم لأهواء

طلحة والزبير وتقديهم التضحيات الجسام ذودا عن جمل عائشة وبالتالي هزيمتهم وفضيحتهم المنكرة التي جرت عليهم الندم والحسرة. عقول جمع عقل وحلوم جمع حلم، ويبدو أن (الحلم والحلم) من آثار العقل بعبارة أخرى فإنّ العقل هو القوة المدركة لدى الإنسان والفكر واعلم واجالة الرأي في الأعمال من نتائجه، ولما كانت عقول أهل البصرة خفيفة فإنّ أفكارهم كانت ضعيفة تثار بسرعة إثر الدعايات السيئة التي يمارسها ذوي الأهواء والمطامع. ومن هنا قال الإمام عليه السلام في العبارة الخامسة والسادسة والسابعة: «فأنتم غرض لنا بل^٢، وأكلة لأكل، وفريسة لصائل^٤».

ومن البديهي أن يقع الأفراد السذج من ذوي الأفكار السطحية الهشة لقمة سائغة في شباك صيادي الدين والإيمان والمتعششين إلى الشراء والمال والجاه والمنصب؛ ومن هنا فإنّ العنصر الذي يمكنه ضمان المجتمعات الإنسانية إزاء هؤلاء المكررة المخادعين، إنما يكمن في رفع المستوى الثقافي لدى الرأي العام وإيقاف الأمة على مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية؛ الأمر الذي أكدّه الإسلام، وهذا هو أحد الأهداف التي تستبطنها خطب صلاة الجمعة. فلو إستدرك أهل البصرة وعادوا إلى أنفسهم وأفكارهم وألما بشرائط الزمان والمكان لما أصبحوا العوبة بيد طلحة والزبير الذين نقضنا بيعة الإمام عليه السلام وتظاهرا عليه وألبوا الناس على قتاله فسالت تلك الدماء وحتى إنتهى الأمر إلى قتلها. والسؤال المطروح هنا: هل هناك معنى واحد للعبارات الثلاث «فأنتم غرض لنا بل» «وأكلة لأكل» «وفريسة لصائل» أم لها معاني متعددة؟ لا يبعد أن تكون كل عبارة إشارة إلى جانب من جوانب المسألة. فالعبارة الأولى تبين الاستهداف من بعيد في أنّ الساسة يسعون لميكم بسهامكم وإيقاعكم في شباكهم ولو من بعيد. والعبارة الثالثة تبين هذا الاستهداف من قريب بينما تبين العبارة الثانية النتيجة

١. «غرض» بمعنى الهدف وهو ما ينصب ليرمى بالسهم، ثم اطلق على كل هدف، كما ذكر له معان أخرى من قبيل الملل والشوق.

٢. «نابل» من مادة «نبل» بمعنى الضارب بالنبل.

٣. «فريسة» من مادة «فرس» على وزن فرض بمعنى الضرب، ولما كان الحيوان الوحشي يضرب فريسة بالأرض إطلاق عليه المفترس، كما اطلق اسم الفرس على الحصان لضربه الأرض برجله.

٤. «صائل» من مادة «صول» و«صولة» بمعنى الحملة والقهر والغلبة.

النهائية لهذا الاستهداف والصيد. وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الذم إنّما يرد بشأن أولئك الذين أصبحوا آلة رخيصة بيد المنافقين، وإلاّ فالبصرة آنذاك وما تبعه من أزمان قد حفلت بالأفراد الأخيار الذين أثنى عليهم الإمام عليه السلام كما ورد في شرح الخطبة السابقة.



الخطبة ١٥

ومن كلام له ﷺ

فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان
«وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمَلَكَ بِهِ الْإِمَاءَ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي
الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضِيقٌ»^١.

❦❦❦

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب التي أوردتها الإمام ﷺ بعد أن بايعه الناس في المدينة حيث توعد فيها كافة الأفراد الذين تناولوا على بيت المال إبان عهد عثمان إلى جانب بطانته وقرابته ممن حذا حذوهم، ويطالبهم باعادتها إلى بيت المال وإلا سيقف بوجههم بكل قوة. وهكذا يضع الإمام ﷺ حداً لأطباع الطامعين، ثم يحتتمها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بشأن العدالة وقيمتها في المجتمع.

١. «القطائع» ما يقطعها الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج، وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بني أمية وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد؛ عثمان أقطع القطائع صلة لرحمه وميلاً إلى أصحابه من غير عناء في الحرب ولا أثر.
٢. جاء في مصادر نهج البلاغة أن هذه الخطبة قد ذكرت في كتاب الاوائل لأبي هلال العسكري وكذلك كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان المصري وإثبات الوصية للمسعودي مع بعض الاختلاف (مصادر نهج البلاغة ١/ ٣٥٠).

الشرح والتفسير

القسم على إعادة الأموال المغصوبة

كما يفهم من مضمون الخطبة فإنها وردت في بداية الخلافة الظاهرية لأئمة المؤمنين عليؑ. وقال ابن أبي الحديد إن هذه الخطبة ذكرها الكلبي مروية مرفوعة إلى أبي صالح عن ابن عباسؓ أن علياًؑ خطبها في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة. والحق أن هذه الكلمات كانت كالماء البارد الذي سكب على ألسنة اللهب والنار المتقدة في صدور الأمة؛ فقد سادت السكينة والهدوء قلوب أولئك الذين كانوا يأنون من إنعدام العدالة على زمن عثمان إلى جانب أولئك الذين شعروا بها جس القلق على النظام الإسلامي وقوانينه الحقة، فاستبشروا بعودة الإسلام الأصل والحكومة الإسلامية التي كانت تتطلع لها الفطرة الإسلامية، ولولا هذه السياسة التي أعلنها الإمامؑ بهذه العبارات لما هددت المدينة وتكررت هجمات أبناء الأمة على دار عثمان ولسفكت الدماء واهدرت الأموال. فقد إستهل الإمامؑ كلامه بالقسم بارجاع كافة الأموال التي نهبت من بيت المال مهما فعل بها «و الله لو وجدته قد تزوج به النساء، ملك به الاماء، لرددته». ثم أضافؑ مذكراً بأن إجراء العدالة قد يثير غضب البعض إلا أن ذلك خطأ فادح، لأن العدل أساس راحة المجتمع ومن ضاق صدره من العدل فإنه سيكون أضيق إذا ما ساد الجور والظلم «فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق». فقد بين الإمامؑ في البداية عزمه الراسخ على إعادة الأموال التي أخذت ظلماً وعدواناً من بيت المال وإن تزوج بتلك الأموال أو تملك بها الإمام، فلا بد أن تعاد إلى بيت مال المسلمين، لتعلم الأمة بأن القانون الذي سادها سابقاً لم يكن قانون الإسلام فهو ليس النموذج الإسلامي الذي يحتذى به في المسيرة السياسية. ثم عزز هذا العزم بالمنطق والدليل «فان في العدل سعة». وأخيراً يعرض بالنصح لأولئك الذين مد أيديهم إلى بيت المال وظنوا بأن عزم الإمامؑ هذا سيتضمن ضررهم، في أن الأمر بالعكس سيكون بنفعهم؛ لأن من ضاق عليه العدل فالظلم عليه أضيق، فالعدالة تمنحه الأموال الحلال ولا تسلبه سوى الأموال المحرمة اللامشروعة، ولكن إذا لم يستجب للعدل وعاش الظلم والجور، فإنه سيخاطر بجميع أمواله المحللة منها المحرمة. صحيح أن الظلم يمكن أن يجر نفعاً على الظالم خلال مدة قصيرة، إلا أنه

ليس كذلك على المدى البعيد، وقد أثبت التاريخ كيفية تحطم الظلمة بنفس هذه القوانين الظالمة التي شرعوها وفرضوها على الناس بقوة الحديد والنار؛ حتى خانهم أقرب مقربهم وطعنوهم من خلفهم. قال الكلبي: ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره؛ تقوى به على المسلمين فقبض، وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمون، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانع فاصنع، إذ قسرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها. هذا وقد اختلفت أقوال المفسرين وشراح نهج البلاغة بشأن مراده بقوله «من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» وأحد التفاسير هو ما ذكرناه سابقاً. التفسير الآخر هو أن بسط العدالة فيه رضى الله وخلقه والانسجام مع نظام الوجود، بينما يوجب الظلم غضب الله وخلقه ويؤدي إلى ضيق الدنيا والآخرة. وتفسير آخر هو أن سلب الإنسان شيء بالعدل قد يشق عليه، إلا أن سلبه ظلماً سيكون عليه أشق وأصعب. وأخيراً أن الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في مظنة أن يمنع ويصد عن جوره. وإذا لم يطق الإنسان العدل والانصاف فأئى له بتحمل الظلم والجور. ولانترى من ضير في جمع كل هذه التفاسير كمراد لمفهوم تلك العبارة.

تأملات

١ - معطيات العدالة في المجتمعات البشرية

لقد ورد التأكيد كراراً في نهج البلاغة على مسألة العدل والانصاف، بل المعروف أن الإمام عليه السلام من كبار باسطي العدل في المجتمع الإنساني، حتى أسماه المفكر المسيحي المشهور جورج جرداق الإمام علي صوت العدالة الإنسانية. وقد تظافت الروايات الإسلامية - وعلى غرار كلمات الإمام عليه السلام في نهج البلاغة - الواردة بهذا الشأن وبعبارات غاية في الروعة واللطافة، منها ما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام بن الحسين عليه السلام أنه قال: «العدل أحلى من

الماء يصيبه الظمان»^١. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «العدل أحلى من الشهد وألين من الزبد وأطيب ريحاً من المسك»^٢. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «العدل أساس به قوام العالم»^٣. كما قال عليه السلام: «ما عمرت البلدان بمثل العدل»^٤. فالحق أن أساس العالم قد شيّد على العدل، والعدل بمفهومه الجامع يعني وضع الأشياء في مواضعها، فالسما والأرض والمجرات والمنظومات الشمسية إنما تتحرك حسب القانون والنظام والمواضع المخصصة لها، كما أن الالكترونات والبروتونات وسائر أجزاء الذرة ومداراتها إنما تتحرك هي الأخرى ضمن مواقعها المحددة لها. وإن أدنى خروج عن حالة الاعتدال والاتزان في بنية الإنسان أو أي من أجهزته فإن ذلك سيؤدي إلى مرضه أو موته، وهذا ما يصدق تماماً على عالم الحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء أن استقرار الحياة على وجه الكرة الأرضية إنما هو نتيجة لمجموعة معقدة من الأنظمة التي تحكمها بحيث تضعف هذه الحياة وربما تضمحل وتنهار إذا ما تغيرت هذه الأنظمة، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي المعروف «بالعدل قامت السموات والأرض»^٥. وهنا نتساءل هل يسع الإنسان الذي يعدّ جزءاً صغيراً من هذا العالم العملاق أن يمارس حياته بعيداً عن النظام والعدالة؟ وهل يسعه أن ينشق عن هذه المسيرة ويواصل حياته بمعزل عن الآخرين؟ نعم قد يستطيع الظلم تلبية مصالح فرد أو بلد خلال مدّة قصيرة، إلا أن آثاره المميّنة على المدى البعيد ليست بخافية على أحد.

٢ - اسراف عثمان

ورد في التواريخ أنه أعاد الحكم بن أبي العاص، بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله، قد سيّره ثم لم يرده أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم. وأقطع مروان فذك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله

١. بحار الأنوار ٣٦/٧٢.

٢. بحار الأنوار ٣٩/٧٢.

٣. بحار الأنوار ٨٣/٧٥.

٤. مستدرك الوسائل ٣٢٠/١١.

٥. تفسير الصافي، سورة الرحمن ٧/.

عليه، تارة بالميراث، وتارة بالنحلة فدُفِعت عنها.
 وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب؛
 وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين.
 وأعطى أباسفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في المال، في اليوم الذي أمر فيه
 لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم
 صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكي أن وصلت
 رحمتي! وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جلييلة، فقَسَمها كلّها في بني أميّة. وأنكح الحارث
 ابن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صرّه زيد بن أرقم عن
 خزنه.

وانضم إلى هذه الأمور أخرى تقمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذر رحمه الله تعالى إلى
 الرّبذة؛ وضرب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن
 طريقة عمر في إقامة الحدود، وردّ المظالم، وكفّ الأيدي العادية والانتصاب لسياسة الرعيّة،
 وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين.^١
 ومن هنا يتضح أمران: الأول: علة قيام الناس ضد عثمان، والثاني السبب الذي دفع ببعض
 الأفراد من قبيل طلحة والزبير ومعاوية وسائر كبار مكة والمدينة. أو لا يمكن خلاصة ذلك فيما
 ورد في خطبته عليه السلام من قوله: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته،
 فان في العدل سعة - ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق».

٣ - الإجابة عن سؤال مهم

يتساءل البعض ألم يكن من الأفضل أن يتجاوز الإمام عليه السلام الماضي - عفا الله عمّا سلف -
 ويستأنف في زمان خلافته مسيرة العدالة ليجتث جذور الحقد والبغضاء من صدور العناصر
 الانتهازية والنفعية؟ ويمكن العثور على جواب هذا السؤال في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فقد

ورد في بعض الروايات والقسم الآخر من هذه الخطبة أنه قال ﷺ: «إلا أن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته...»^١.

ومن البديهي أنّ الناس لو رأوا ناهبي بيت المال يتقلبون في البلاد بكل حرية ويسخرون عملياً من جرحهم لمشاعر الآخرين وأنّ العدالة ليست بصدد الماضي فاتهم لن يطبقوا مثل هذه العدالة ولا يرونها تنسجم وأي منطق وعقل حيث ينعم لصوص أمس بالحرية والراحة بينما لا تطال العدالة سوى لصوص اليوم؛ فهذا الازدواج من شأنه أن يدخل اليأس في قلوب الناس من بسط العدالة. الفقه الإسلامي هو الآخر نص على وجوب عودة الأموال المغصوبة إلى أصحابها وليس هنالك من فارق بين أمس واليوم، أمّا مسألة تقادم الزمان المطروحة هذا اليوم فبغض النظر عن اهمالها في الفقه الإسلامي، فاتّما ترتبط بالدعاوي لا بالأموال المغصوبة.

❦❦❦

الخطبة ١٦

ومن كلام له عليه السلام

لما بويح في المدينة وفيها يجبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى أقسام

القسم الأول

«ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةً. وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعَبْرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثَلَاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقْحُمِ الشُّبُهَاتِ أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عليه السلام. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبْلَبُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغْرَبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوَاطِنَ الْقَدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ، أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصْرُوا، وَلَيَقْصُرَنَّ سَبَاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَاللَّهِ مَا كَثَمْتُ وَشَمَّةً، وَلَا كَذَبْتُ كَذِبَةً وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ»^١

❦❦❦

نظرة إلى الخطبة

الخطبة من أولى خطبه عليه السلام بعد مقتل عثمان وتوليه عليه السلام الخلافة في المدينة، ويبدو تفسيرها

١. لقد نقلت هذه الخطبة في عدة كتب منها:

١- الشيخ الطوسي، تلخيص الشافي ٣/ ٥٣، ٢- الجاحظ، البيان والتبيين ٣/ ٤٤، ٣- العقد الفريد ٤/ ١٣٢، ٤- إرشاد المفيد، ٥- كتاب الجمل، ٦- عيون الأخبار، ٧- المسعودي، انبات الوصية، ٨- كنز العمال، ٩- الكليني، روضة الكافي ٦٧/ ١٠، ١٠- تاريخ يعقوبي، ج ١١- المجلسي، بحار الأنوار.

سهلاً بالالتفات إلى موقعها وزمان صدورها، وهي تدور حول أربعة محاور:

المحور الأول: الفات انتباه الأمة إلى الامتحان الذي ستمر به وتشبيه ذلك الزمان بزمان رسول الله ﷺ وانتهضته كنهضة النبي ﷺ التي طمرت بالأمة من عصر الجاهلية والظلمة إلى عصر الهداية والنور، وإن كان احتمال هذه النهضة صعب ثقيل على البعض وكون الامتحان شاق. فالانحرافات التي أعقبت رحيل النبي ﷺ والتي أدت إلى التمييز في عطاء بيت المال وسلب ونهب ثروات الأمة واغداق المناصب الحساسة على من تبقى من رجالات الجاهلية إنما تتطلب ثورة إصلاحية قام بها الإمام علي عليه السلام. ثم يذكر الإمام عليه السلام الناس بضرورة العودة إلى الإسلام الأصل والاعتبار بعاقبة ومصير الأقوام الماضية.

المحور الثاني: يقارن عليه السلام بين المعصية والذنوب والورع والتقوى ثم يبين كل منهما وكيف تصعب السيطرة على المعاصي بينما يتيسر نهج التقوى ويحذر الأمة من المخاطر التي تترتب بصيرها.

المحور الثالث: إشارة مقتضبة عميقة المعنى لمسألة الحق والباطل محذراً الأمة من عدم الاستيحاش من الحق رغم قلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه، والعمل بالحق الذي لا يقود سوى للغلبة والنصرة الإلهية.

المحور الرابع: الذي يشمل سلسلة من النصائح والمواعظ التي تعد كل واحدة منها ركن مهم من الأركان التي ينبغي الالتفات إليها في الحياة من قبيل الوعظ بالابتعاد عن الإفراط والتفريط والتمسك بالقرآن والسنة وضرورة معرفة الذات والدعوة إلى الآخاء والاتحاد وإصلاح ذات البين والتوبة من المعاصي والوثوق بأن البركة والخير منه سبحانه.



الشرح والتفسير

اليقظة والوعي في الامتحان

تعتبر هذه الخطبة - كما أشرنا سابقاً وعلى ضوء ما صرح به بعض شراح نهج البلاغة مثل ابن أبي الحديد - من الخطب المهمة التي أوردناها عليه السلام لما تمت له البيعة بالخلافة، فحذر الأمة مما ينتظرها وأبان لها المخاطر والانحرافات التي تترتب بها.

فقد قال بادئ ذي بدء: «ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم»^١ في إشارة إلى صدق القول وحقانيته ووجود الضمانات القائمة عليه، ولذلك ينبغي عليكم تلقيه دون نقاش إلى جانب الالتزام به والعمل بمقتضاه. أمّا المغزى الذي ينطوي عليه هذا التعبير فإنما يكمن في إلفات نظر السامع إلى أهمية وخطورة المضمون الذي يختزنه الكلام والتعامل مع أهدافه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل هذا المضمون في أن من استشعر الورع والتقوى وخشى العواقب نأى بنفسه بعيداً عن الشبهات وما من شأنه تعريضه لتلك العواقب «ان من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات^٢ حجزته^٣ التقوى عن تقحم الشبهات». ارجعوا إلى التأريخ وتأملوا ما أصاب الأقسام الماضية من عقوبات بفعل الانحراف عن الحق والتلوث بالمعاصي والذنوب واستفحال الهوى والشهوات وحب الذات! ارجعوا إلى زمان انبثاق الدعوة وقيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتدارسوا المؤامرات التي حاكتها الأقسام الجاهلية ضده ثم انظروا كيف كانت عواقبهم ومصائرهم لتتضح لكم معالم الطريق فتجوبوا الظلمة بنور التقوى والهداية؛ الكهف الحصين الذي يأمنكم من الضربات الموجعة التي يمكن أن تسددها لكم النفس الامارة وتزينها الشياطين. ثم يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن الواقع الخطير الذي يعيشونه ويطلعهم على صعوبة الامتحان «الأ وإن بليتكم قد عادت كهينتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم». اعلّموا أن أمامكم امتحان لا ينحج فيه سوى من استشعر نفسه كمال التقوى والاخلاص. فالإمام عليه السلام يميّط اللثام عن هذه الحقيقة في أنّ الأمة في عصر الخليفة الثالث ولا سيما أواخر عمره قد عاشت البذخ في بيت المال والمناصب التي فوضت لغير أهلها من الأفراد الصالحين والمفاسد التي اجتاحت المجتمع الإسلامي والاختلافات التي عصفت بوحدتها وكأنتها عادت القهقري إلى عهد الجاهلية وكأن بيعته كبيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي تطالبه بنهضة تجديده كتلك التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ تلك النهضة المعطاء التي صهرت الأمة في الإسلام الأصيل.

١. «زعيم» من مادة «زعم» بمعنى بيان الكلام الذي يحتمل فيه الخلاف، ثم أطلق الزعيم على من يكفل شخصاً ويضمنه لأنه يكون عرضة للتهمة، وقد جاءت هذه المفردة في العبارة بمعنى الضامن والكفيل، كما يطلق الزعيم على القائد الذي يتولى زمام الأمور لأنه يتكفل بالأعمال المهمة.

٢. «مثالات» جمع «مثلة» على وزن عضلة بمعنى مقارنة شيء بأخر، ثم أطلقت على العذاب الإلهي والعقوبة التي تحذر الإنسان من ارتكاب ما يوجبها.

٣. «حجز» من «حجز» على وزن عجز بمعنى الحائل بين شيئين وقد وردت بهذا المعنى في العبارة، فالتقوى تحول دون الوقوع في الشبهات.

ومن الطبيعي أن تهب بعض الفئات التي تعرض مصالحهم اللامشروعة للخطر لبدء ردود الفعل واظهار المقاومة؛ الأمر الذي يعقد الامتحان بما يجعل الحاكم الخبير كالإمام علي عليه السلام يوقظ الأمة وينبهاها إلى الأخطار المترتبة بها وهنا لابد من الالتفات إلى أن البعض فسّر البلية بالبلاء والمشاكل، في حين نراها تعني الامتحان والاختبار ويؤيد ذلك سائر عباراته الواردة في الخطبة. ثم خاض عليه السلام في تفاصيل هذا الامتحان الإلهي الكبير ليوضحه بمثالين، فقد ذكر أولاً «والذي بعثه بالحق لتبليبن ببلبة^١ ولتغربلن غربلة^٢» وهذه هي الطبيعة التي تسود كل نهضة ربانية في غربلة المجتمع حين تتويج مسيرتها بالنصر. فهناك إقصاء لأصحاب السطوة الخونة واستبدالهم بالمجموعة الصالحة المستضعفة، وهذا بعينه ما مارسه رسول الله ﷺ بعيد انتصار ثورته المباركة. فقد نحي أبو سفيان ومن لف لفه من طغمة الفساد ليفسح المجال لصهيب والخباب وبلال. أضف إلى ذلك فقد نحيت الشخصيات المستبدة التي استندت إلى منطق القوة على عهد عثمان بعد بيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام لتخلفها القوى الشعبية المخلصة.

وثانياً «ولتساطن سوط^٣ القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم». نعم فطبيعة كل ثورة أن تضع في النهضات الربانية التي تنبثق في المجتمعات الفاسدة فاتها تطيح بالمفسدين وترفع المستضعفين ليمارسوا دورهم في السليطة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «وليسبقن سابقون كانوا قسروا، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا» والعبارة الثانية إشارة إلى بعض الأفراد كطلحة والزبير الذين كانا يوماً في الصفوف الأولى بينما دفعتهم بعض العوامل للتراجع عن تلك الصفوف، بينما تشير العبارة الأولى إلى بعض الأفراد كصاحب الإمام عليه السلام وأتباعه الذين أصبحوا يوماً جلساء الدار، بينما سنحت لهم الفرصة على عهد الإمام ليتقدموا ويسبقوا كما احتل البعض أن يكون المراد المستقبل الذي سيشهد تردي الأوضاع فيتقدم بنو أمية ويتصدرون الأمور ويتأخر السابقون

١. «بلبلية»، ذكر أرباب اللغة عدّة معان لهذه المفردة منها الاختلاط وهذا هو المعنى المناسب لها في هذه العبارة.

٢. «غربلة»، لها معنيان أحدهما فصل الخبيث من الطيب بالغربال (بكسر الغين وضمها) والآخر القطع والفصل.

٣. «سوط» أي كما تختلط الأجزاء ونحوها في القدر عند غليانه فيقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وكل ذلك حكاية عما يؤولون إليه من الاختلاف وتقطع الأرحام وفساد النظام.

في الإسلام فتعود الجاهلية بأقطابها ليتسلموا زمام الامور، ولكن لما كانت هذه الخطبة قد أوردت إثر مبايعة الإمام عليه السلام مباشرة فإن المعنى الأول يبدو هو الأنسب. ثم يؤكد الإمام عليه السلام هذا الأمر بقسم آخر «والله ما كتمت وثمة^١ ولا كذبت كذبة، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم».

وما كل هذه الأمور إلا ليفيق الناس ولا يستسلمون للمؤامرات كمؤامرة الجمل وصفين والنهروان ويعلموا أنهم أمام امتحان صعب فيلتفتوا إلى أنفسهم، إلا أن المؤسف له هو أنهم لم يعيروا نصيح الإمام عليه السلام أية آذان صاغية ولم يتدبروا الأمر فكان من ذلك أن فشلوا في الامتحان أيما فشل.

يبدو أن مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو المغيبات التي أطلعه عليها رسول الله ﷺ، وكما ذكرنا في حينه - في مبحث علم غيب النبي ﷺ والإمام - أن الأئمة المعصومين هم قادة الأمة على مدى العصور والدهور ولا يمكن لهذه القيادة إلا تتطوي على علم الغيب والاحاطة بأسرار الماضي والمستقبل؛ وذلك لأن هناك رابطة وثيقة بين حوادث اليوم والأمس والغد، ومن هنا كانوا يطلعون أصحابهم على جانب مما ينتظرهم في المستقبل أو يعلنوا ذلك للناس ليكونوا أكثر حزمًا ووعياً في التعامل مع الأحداث وينأوا بأنفسهم بعيداً عن حبال الشيطان وشراكه. وهذا ما نلمسه بوضوح كراراً ومراراً في سيرة الإمام علي عليه السلام وكيف أنه حذر الأمة ولفت انتباهها إلى الأخطار التي تتربص بها. ومن الطبيعي أن يتعظ البعض ويتمرد البعض الآخر.



تأملان

١ - التأريخ يعيد نفسه

من المعروف أن الأحداث التاريخية سلسلة من الوقائع المتكررة التي تتخذ أشكال مختلفة، ومن هنا فإن الأفراد الذين يتأملون بعمق الماضي التاريخي يتمكنون من التعامل بمعرفة أفضل مع الحوادث الراهنة والآتية، ومن هنا رأينا القرآن الكريم مشحوناً بقصص

١. «الوشمة» في الأصل بمعنى الخال الذي يوخز بالابرة ثم يطلي بمادة ملونة تحت الجلد، كما أطلقت على الأشياء الصغيرة كقطرة ماء المطر أو الحديث القصير، وقد وردت هنا بالمعنى الأخير.

الأنبياء والأقوام السالفة التي تعكس بجلاء أحداث اليوم والمستقبل. الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة - أشار إلى هذه النقطة المهمة: «ان من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات» ثم قال عليه السلام: «الا وان بليتكم قد عادت كهينتها يوم بعث الله نبيه عليه السلام». ذات الفئات المناهضة للحق، والانحرافات والضلال والمؤامرات والفتن. فافيقوا وانطلقوا خلف إمامكم مخافة ان تضلوا - ولو أمعنا النظر وقارنا حوادث عصر الإمام عليه السلام بعصر النبي عليه السلام لوجدنا شهاً كبيراً، وليس هذا إلا أن المنافقين ومن تبقى من عصر الجاهلية سعوا وبشتى الطرق للقضاء تدريجياً على تعاليم النبي عليه السلام؛ ولا سيما أنهم سعوا لاختراق مراكز القوة لممارسة دور أكبر في تشويه الثقافة الإسلامية واستبدالها بثقافة جاهلية؛ الأمر الذي لمسنا آثاره بوضوح في العصر الأموي.

فالحق أن بعض الظواهر الإسلامية كانت قائمة في عصر الخليفة الثالث، إلا أن هذه الظواهر لم يبق منها إلا قشورها في العصر الأموي. على غرار الشعائر الإسلامية كالصوم والصلاة والحج التي كانت سائدة على عهد بني أمية ولكن أية صلاة وصوم وحج؟!!

٢ - بيان الحقيقة أم رعاية المصلحة

كثير هم الذين يعتقدون بأن المصلحة تكمن في كتمان الحقائق عن الناس، حذراً من ابداء ردود الفعل الطائشة، والحال ليست مصلحة الزعماء ومصالح عموم الأمة - باستثناء بعض الحالات الخاصة - سوى اطلاع الناس على الحقائق وفسح المجال أمامهم لاقتحام الميدان عن علم ومعرفة. فالتعتيم الخبري وتغييب الأمة عن الأحداث يمثل الأسلوب الذي يعتمد عليه الطغاة والجبابرة الذين لا يفكرون سوى في تحقيق أطماعهم ومآربهم، على العكس من الزعماء الربانيين وأئمة المسلمين الذين يكرسون جهودهم لنجاة الأمة من مشاكلها المادية والمعنوية، فهم يسعون باخلاص لكشف الحقائق والواقعيات لأنهم يستنصرون الأمة ويرومون دعمها واسنادها. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام لا يكتفم الوقائع عن الأمة - كما ورد في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة - فحسب، بل يطلعها حتى على الحوادث المستقبلية التي سمعها من النبي الأكرم عليه السلام فيقول لهم لا أبجل عليكم حتى بالأخبار عن الكلمة الواحدة التي من شأنها أن تنهبكم إلى الأخطار المحدقة بكم حرصاً على عدم الاغترار بوساوس الشيطان والوقوع في شباكه.

القسم الثاني

«أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ تُشْمِسُ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجْمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلٌّ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأَعْطُوا أَرْمَتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَكَلٌّ أَهْلٌ، فَلَيْتَ أَمْرَ الْبَاطِلِ لَقَدِيمًا فَعَلَّ، وَلَيْتَ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ».

۴۰۴

قال السيد الشريف: وأقول: إنَّ في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإنَّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلا العالمون».

الشرح والتفسير

الذنوب شماس كالخيل

يوصل الإمام عليه السلام البحث السابق بشأن الأوضاع المتأزمة بعد بيعة الإمام عليه السلام والتي تمثل ثورة تصحيحية في العالم الإسلامي، حيث ينطرق إلى نقطة غاية في الأهمية من خلال تشبيه رائع، وهي ضرورة السيطرة على الذنوب منذ بدايته حيث إذا ترك له العنان وتمادي في مقارفة شبيهه، جذبه إليه وسيطر على كيانه وسلبه زمام المبادرة وأوقعه في وادٍ سحيق فقد وصف عليه السلام الذنوب والمعاصي بالخيل الجامحة التي يصعب السيطرة عليها «ألا وإن الخطايا خيل شمس^١

١. «شمس» من مادة «شموس» و«شماس» على وزن فترح وكتاب بمعنى التغيير وعدم الاستقرار ومن هنا

حمل عليها أهلها، وخلعت نجمها، فتقحمت بهم في النار» ياله من تشبيه رائع، فركوب الفرس الجاح خطير، وتشتد الخطورة إذا فقد لجامها الذي يلجم عنانها، ثم تتضاعف هذه الخطورة أكثر من ذي قبل إذا كان هذا الجموح في أرض تشتمل على بعض المطيات. وهذا هو التصوير الواقعي للذنب، فارتكاب الذنب يقود الإنسان إلى ذنب آخر وهكذا، على سبيل المثال قد يرتكب الإنسان خيانة فيكتمها، وإذا استجوب حال ما لا يحصى من الأكاذيب للتغطية على خيانتته كما يقسم كاذباً أو يلجأ إلى اتهام الآخرين، فاذا لم يجد ذلك نفعاً ربما لا يتورع عن سفك دم من يعلم بخيانتته، بغية عدم افتضاح أمره وهكذا يصبح أرضية خصبة لمقارفة ما شاء من الذنوب؛ ولا غرو فقد أصبح كالخيل الشموس التي خلع لجامها فهي تقذف بصاحبها إلى الهاوية.

ثم ذهب عليه السلام إلى الصورة المعاكسة التي شبه فيها التقوى بالخيل الذلول فأوصلت راكبها الموضع الذي يريد «ألا وإن التقوى مطايا ذلل^١ حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمقتها، فأوردتهم الجنة» نعم فالأعمال الصالحة سلسلة متعاقبة الحلقات، فالعمل الصالح يكون سبباً لآخر وهكذا الإتيان بسائر الأعمال الصالحة. على سبيل المثال إذا ربى أحدهم ولده تربية صالحة فسيجده للإتيان بالخيرات والبركات، وسيكون له تأثيره البالغ في وسطه بما يحث رفاقه وأصحابه على القيام بمثل هذه الأعمال، وهكذا يسير المجتمع نحو السعادة والصلاح والفلاح. جدير بالذكر أن الإمام عليه السلام عبر عن الذنوب بالخيل الشمس وعن التقوى بالمطايا الذل، فالخيل من مادة خيال، فيطلق «المختال» على الفرد المغرور والمتكبر الذي يعيش الخيالات، ومن هنا اصطلاح على الفرس بالخيل لأنه عادة ما يدعو راكبه إلى الغرور والفخر. على العكس من المطايا جمع مطية من مادة المطو على وزن العطف بمعنى الجد والنجاة في السير؛ وبناءً على هذا فإن المطية دابة هنيئة سريعة تسير قدماً نحو الإمام عليه السلام بكل هدوء دون أن تجزع بصاحبها وتقحمت في المتاهات - ومن هنا تتضح ذروة فصاحته وبلاغته في كلماته عليه السلام

١ اطلق اسم الشمس، حيث تتحرك على الدوام، وشمس التي وردت في العبارة جمع شمس بمعنى الفرس الجموح الذي يمنع ظهره من الركوب.
١. «ذلل» جمع «ذلول» وهي المروضة الطائفة.

حتى تلك الكلمات القصيرة والعبارات الصغيرة. ثم يحذر الإمام عليه السلام من صعوبة الامتحان الإلهي في ظل حكومته وطيلة حياتهم مواصلاً البحث السابق بشأن الذنب والتقوى فقال عليه السلام: «حق وباطل، ولكل أهل».

أجل فالحياة البشرية ومنذ بدء الخليقة كانت وما زالت مسرحاً للصراع بين هذين الاتجاهين ويختصر الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى مسألة حساسة وهي أن الباطل إذا قدر له أن يحكم فلا عجب في ذلك فهذا ما حصل منذ قديم الزمان: «فلئن أمر الباطل لقديماً فعل». وإن قل الحق وأتباعه فلا داعي للقلق ولعله يزداد فيهزم الكفر في عقر داره «ولئن قل الحق فلربما ولعل» أن قصة الصراع بين الحق والباطل وما تخلله من وسائل وأدوات وما تمخض عنه من نتائج طيلة التاريخ الإنساني قصة ذات شجون وستتطرق إلى هذه التفاصيل في الأبحاث القادمة بما يتناسب وسائر الخطب الواردة بهذا المجال.

أما القضية الجديرة بالذكر والتي حظت باهتمام الإمام عليه السلام هي ضرورة عدم الاستيحاء من الحق لقلّة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه؛ لأنّ التاريخ يشهد على الدوام بكثرة أتباع الباطل وقلّة أتباع الحق، وكثيراً ما كانت تحسم المعارك والصراعات لصالح الحق؛ وهذا ما صرّح به القرآن الكريم على لسان طالوت: «حَمَّ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ»^١. وهو المعنى الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة بالقول: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ»^٢. كما ورد هذا المعنى في الخطبة ١ - ٢ من نهج البلاغة «أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله». أمّا المسألة التي ينبغي الالتفات إليها هي أنّ هذه الكثرة ليست دليلاً على الأحقية ولا النصر، بل يرى المنطق القرآني والروائي بل ومنطق الربانيين أنّ الملاك إنّما يكمن في الكيفية لا الكمية، ومن هنا فإن زوال حكومات الباطل يستتبع زوال كافة آثارها فلا يبقى لها سوى الخزي والعار، بينما تبقى آثار حكومات الحق باقية خالدة.

على كل حال فإن الصراع بين الحق والباطل وكثرة جند الباطل إنّما هي في الواقع امتحان إلهي يهدف إلى تمحيص طلاب الحق.

١. سورة البقرة / ٢٤٩.

٢. سورة المائدة / ١٠٠.

والنقطة الثانية التي يؤكد عليها الإمام عليه السلام قوله: «ولقلما أدبر شيء فاقبل». طبعاً يؤمن جميع المسلمين - من سنة وشيعة وسائر الفرق - أن الحق سينتصر يوماً حين ظهور المهدي الموعود (عج) وسيدحر الباطل وإلى الأبد وستسود العالم برمته حكومة العدل الإلهي. وعلى ضوء بعض الروايات فقد نقلت ذيل هذه الخطبة عبارة عن الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «وبنا فتح لا بكم ومنا نختم لا بكم». وقد صرح ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه العبارة قائلاً: إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الزمان، وأكثر المحدثين على أنه من ولد فاطمة عليها السلام وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه^١.

نعم العبارة ترشد إلى عدم فقدان الفرصة والآن وقد تمهدت جميع السبل من أجل بسط العدالة وإقامة حكومة الحق في ربوع المجتمع الإسلامي فالحذار من وساوس شياطين الانس والجن ومؤامرات أولئك الذين تبذرت مصالحهم اللامشروعة وخابت ظنونهم وآمالهم، فاذا ضاعت هذه الفرصة فان عودتها لا تبدو سهلة، وهذا ما دلت عليه حياة الإمام عليه السلام حيث لم تتعظ الأمة بوصاياه ومواعظه ففقدت زمام المبادرة وأضاعت الفرصة؛ فقد أوشك جيش الشام على الانهيار المطلق وأصبح القضاء على طاغية بني أمية يكون قاب قوسين أو أدنى فعمد ابن العاص لتلك الخدعة التي انطلقت على الأمة، فأبقت على تلك الحكومة الجائرة لتخلف من بعدها بني مروان وبني العباس والحجاج و...



الطريف في الأمر ما أورده السيد الرضي بشأن الخطبة إذ قال: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلا العالمون».

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٨١.

القسم الثالث

«شَغَلَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ! سَاعَ سَرِيعِ نَجَا، وَطَالِبِ بَطِيءِ رَجَا،
وَمُقَصِّرٍ فِي النَّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَالشُّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوَسْطَى هِيَ
الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَأَثَارُ النُّبُوءِ، وَمِنْهَا مَنَفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ
الْعَاقِبَةِ هَلَكٌ. مَنْ ادَّعَى، وَخَابَ مِنْ افْتَرَى. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكٌ. كَفَى
بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنٌّ أُضِلَّ، وَلَا يَظْلَمُ
عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ
وَرَائِكُمْ، وَلَا يَحْمَدُ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَلْمُ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ.»

۸۰۰۸

الشرح والتفسير

سبيل النجاة

لما فرغ الإمام عليه السلام من التحدث عن صعوبة الامتحان بعد بيعته وحذر الأمة من وبال
الذنوب والمعاصي مشيراً إلى الحق والباطل، عرج هنا بالإشارة إلى سبيل النجاة من مخالب
الهوى والهوس وبلوغ السعادة ونيل الفلاح، ليكشف عن الحقائق الواردة بهذا المجال. فقد
صنف الناس في مسيرتهم إلى السعادة والنجاة إلى ثلاث طوائف، فمن شغل بالجنة والنار
«وآمن بهما اعتزل كل ما يصده عن ذلك» وانهمك بالتفكير بالعاقة (على ثلاث)، منهم من
حث السير وبلغ الهدف سريعاً فهو ناجي. ومنهم من تباطأ في السير فهو مؤمل للنجاة أيضاً.
أما الأخير من قصر في السير فهوى في النار «شغل من الجنة والنار أمامه! ساع سريع نجا،
وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى».

يرى البعض أن هذه الطوائف هي تلك التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة فاطر بقوله:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾^١. وقيل بل هم من أشارت لهم الآية القرآنية الشريفة في سورة الواقعة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^٢. على كل حال فان هذه الطوائف الثلاث مطروحة على الدوام في المجتمع الإنساني وإذا ما اشتد الامتحان (كالذي عليه الحال إبان خلافة الإمام علي عليه السلام) تمايزت هذه الطوائف عن بعضها البعض؛ فهناك طائفة (وإن كانت غالباً قليلة) تتبع الحق دون أدنى ترديد أو تراجع وهي تحت الخطى سريعة نحو الهدف. وطائفة أخرى أضعف إيماناً من سابقتها فهي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأحياناً تحت الخطى وتسير بوثوق نحو الهدف فتعمل الصالحات بينما تتأخر أحياناً فتتقارف الطالحات فتخلط العمل الصالح بالسيء إلا أنها تؤمل بأن يشملها لطف الله وفضله فيبلغ بها الهدف المطلوب.

وأخيراً الطائفة الثالثة التي فارقت الإيمان والتقوى وغلبت عليها الشقوة وهوى النفس فضاوعوا وضيّعوا أنفسهم حتى وقعوا في الهاوية. فالعبارة المذكورة تبين بوضوح أن الإيمان بالمعاد فقط من شأنه أن يصون الإنسان من الفساد والانحراف والذنب. وتتناسب هذه الصيانة والحصانة من الذنب طردياً ودرجة الإيمان. وقد ذهب البعض إلى أن العبارة: «شغل من الجنة والنار أمامه» جملة خيرية تفيد معنى الإنشاء؛ أي أن من يرى الجنة والنار أمامه عليه أن يغض الطرف عن زخارف الدنيا وزبرجها! ولكن ليس هنالك من ضير في تفسير هذه الجملة بصورة الأخبار - على نحو الجملة الخيرية - أي أن مثل هؤلاء المؤمنون سيغضون طرفهم عن زخارف الدنيا. ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خصائص الطوائف الثلاث، أخذ يدعو الأمة إلى انتهاج السبيل القويم والابتعاد عن سبل الانحراف مبيناً علامات كل منها فقال: «اليمين والشمال مضلة^٣ والطرق الوسطى هي الجادة».

١. سورة فاطر / ٣٢.

٢. سورة الواقعة / ٧ - ١١.

٣. «مضلة» على وزن «مفعلة»، قال أرباب اللغة أنها تعني كثرة وجود الشيء في المكان وعليه فمفهوم العبارة أن الانحراف إلى اليمين واليسار يدعو إلى ضلال عظيم.

فالعبرة إشارة للمسألة المعروفة لدينا بأنّ السبل المنحرفة التي تقود الإنسان إلى الضلال. ولعل المراد باليمين والشمال هو الإفراط والتفريط الذين لا يوصلان إلى الهدف الذي لا سبيل إليه سوى الصراط المستقيم الذي يمثل الاعتدال بين الإفراط والتفريط، ومن هنا صرح القرآن الكريم بقوله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»^١. وقد صرح كبار علماء الأخلاق بأن كافة الصفات الفضلى إنما هي الاعتدال بين الصفات الرذيلة التي تقع على طرفي الإفراط والتفريط.

وذهب بعض مفسري نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالطريق الوسطى مسألة الإمامة وولاية الأئمة المعصومين التي يقود الإفراط والتفريط فيها إلى الضلال. ولا نرى من ضير في ان تحتزن هذه العبارة كافة المعاني فتشمل قضية الولاية كما تشمل سائر المسائل العقائدية والعملية والأخلاقية.

أمّا بشأن معرفة الله فقد وقعت طائفة في مصيدة التشبيه فتشبهت الخالق بمخلوقاته، بينما ذهبت أخرى إلى تعطيل معرفته على أن ذات الخالق وصفاته متعذرة على البشر حتى المعرفة الإجمالية، وهناك الحد الوسط بين التشبيه والتعطيل والذي يعني معرفة الله عن طريق أفعاله دون كنه الذات. وبالنسبة لأفعال العباد فليس الجبر صحيحاً ولا التفويض، والطريق الوسط هو الأمر بين الأمرين، وهكذا القول بشأن الولاية لا الغلو صحيح ولا التقصير، وهذا ما يصدق على الأخلاقيات والأعمال، فمثلاً في الانفاق الصحيح هو الحد الوسط بين البخل والاسراف.

والطريف أنّ الفرق التي وقفت بوجه الإمام عليه السلام لم تخرج من تلك الحالتين، ففرقة الخوارج سلكت الافراط، بينما انتهج أهل الشام التفريط، وقد ضلت الفئتان في معرفة الإمام عليه السلام. ثم خاض عليه السلام في خصائص الجادة الوسطى المعتدلة «عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منقذ السنة، وإليها مصير العاقبة». هناك تفسيران لقوله عليه السلام: «عليها باقي الكتاب»: أحدهما المراد القرآن الكريم؛ الكتاب الخالد والذي انفرد بالمعارف والقوانين والأحكام التي

يتعذر العثور عليها في ما سواه. والآخر المراد بالكتاب الخالد الإمام المعصوم المحافظ لكتاب الله، وهو عدل القرآن كما صرح بذلك حديث الثقلين المعروف، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب، ولا سيما أن آثار النبوة التي أعقبت العبارة يمكن تفسيرها بالآثار الباقية لدى الأئمة. كما أوردت عدة تفاسير بهذا الشأن لا تبدو صائبة.

وقوله عليه السلام: «منها منفذ السنة» فبالالتفات إلى كلمة منفذ يبدو أن المراد هو أن الطريق الوسطى فقط التي يمكن من خلالها الوقوف على السنة النبوية والتعرف على جوهر الدعوة، ومن هنا يتضح الفارق في هذه الملل الأربعة.

فقد أشار عليه السلام إلى أن الكتاب على هذه الجادة، ثم قال عليه السلام وعليها آثار النبوة، ثم أضاف ومنها منفذ السنة، وأخيراً قال وإليها مصير العاقبة من خلال هذه الجادة لا غير؛ كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^١.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مصير من يزعم الإمامة وولاية الناس بالباطل، حيث يصفهم في أربع عبارات: الأولى هلاك من يدعي الإمامة بغير حق فهو ضال مضل «هلك من ادعى» والثانية أن من يطلب هذا المقام كذباً وافترأً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يظفر بما طلب «وخاب من افتري».

والثالثة هلاك من يقف بوجه الحق: «من أبدى صفحته^٢ للحق هلك».

والأخيرة يكفي الإنسان جهل أنه لا يعرف قدره فيتمدد أكثر من حجمه «وكفى بالمرء جهلاً إلا يعرف قدره». طبعاً هناك احتمال قائم في ألا تكون هذه العبارات الأربع تعالج مسألة الإمامة التي تعرضت لها هذه الخطبة؛ بل تشمل معناً أوسع وهو كل ادعاء باطل سواء في مجال الإمامة أو سائر المجالات.

فالواقع هي تحذير لأهل الباطل من مغبة التمادي في غيهم بما لا يجلب عليهم سوى البؤس والشقاء والهلاك.

١. سورة الأعراف / ١٢٨.

٢. «خاب» من مادة «خبية» بمعنى الفشل والحرمان وعدم الظفر بالشيء.

٣. «صفحة» بمعنى عرض الشيء وقد يراد بها الوجه ومنها المصافحة.

أما قوله ﷺ: «من أبدى صفحته للحق هلك» فقد فسره بعض شرّاح نهج البلاغة أن من أبدى صفحته لنصرة الحق غلبه أهل الجهل، لأنهم العامة، وفيهم الكثرة، فهلك. فهذا الكلام وإن كان واقعياً إلا أنه لا يمكن أن يكون تفسيراً للعبارة المذكورة وذلك لأنه لا ينسجم والعبارات السابقة بشأن أدعياء الباطل، كما لا يتفق والعبارة اللاحقة بشأن الأفراد الجهال الذين لا يعرفون قدر أنفسهم. وأخيراً يختتم الإمام ﷺ هذه العبارات يعرض بالنصح والموعظة التي من شأنها تخليصهم من مخالب المنافقين وأدعياء الباطل، فقد دعاهم في البداية إلى التحلي بالورع والتقوى التي تعدّ الركن الركين لكل حركة وعمل صالح، فقال ﷺ: «لا يهلك على التقوى سنخ^١ اصل، ولا يظلم عليها زرع قوم» فالواقع هو أن الإمام ﷺ قد شبه - بهذه العبارة العميقة المعنى - التقوى بالأرض الخصبة ذات المناخ المناسب التي لا تجف فيها جذور الأشجار ولا يموت فيها الزرع من قلة الماء؛ أرض خصبة صالحة للزراعة ذات أنهار وآبار تمد الزرع بما يحتاج، ففي الحقيقة أن كافة الأعمال كالبدور والحبوب التي ينبغي أن تنثر في أرض خصبة وتسقى بالمياه؛ وليست هذه الأرض والمياه سوى التقوى، ثم قال في الموعظة الثانية: «فاستقروا في بيوتكم» فالإمام ﷺ وبنظرته الثاقبة يعلم بأن حكومته ستضيق الخناق على أولئك الذين عملوا إبان عهد عثمان على سلب ونهب بيت مال المسلمين ونشروا الظلم في ربوع المجتمع الإسلامي، وعليه فهم سوف لن يسكتوا وسيسعون إلى تأليب الناس واستقطاب الجهال، وهذا هو الوقت الذي يتطلب من الإنسان أن يلزم بيته لا حين العمل والجهاد.

وعلى حد قول بعض شرّاح نهج البلاغة فإن أفضل حركة في المجتمع الذي يضره العدل والحق هي السكون والصمت والسكوت.

والموعظة الثالثة بشأن الأخاء والوحدة بين صفوف أتباع الحق ونبذ كافة مظاهر الفرقة والشقاق بهدف ملاحقة الباطل والقضاء عليه، فقد قال ﷺ: «وأصلحوا ذات بينكم». وأخيراً

١. «سنخ» بمعنى الأصل والجذر، وكذلك محل غرس الشجر، وهو المكان الذي تثبت فيه جذور وأصل الشجرة. ويستعمل هذا اللفظ أحياناً بمعنى الرسوخ في شيء، وكل هذه المعاني مقاربة لبعضها، وفي العبارة أعلاه تشير إلى جذور العلوم والمعارف والأعمال الصالحة والتي رسخت في أرضية التقوى والتي لا يمكن أن تُجثَّت جذورها.

يعرض بالنصح لمن اتسخ قلبه بالذنوب على عهد الحكومة السابقة أن يغسلها بماء التوبة
«والتوبة من وراءكم»^١.

ثم يقول ﷺ: «ولا يحمد حامد إلا ربه ولا يلم لائم إلا نفسه» إشارة إلى أن كافة النعم من
عند الله وما يصيب الإنسان من توفيق وسعادة فبلطفه وفضله، وعليه فلا ينبغي الاغترار
بالطاعة، كما أن مرجع الذنوب والمعاصي تقصير الإنسان فلا ينبغي أن يلوم الإنسان إلا نفسه
ولا ينسب أخطائه إلى الآخرين أو يبررها بالقضاء والقدر، بل عليه أن يسارع إلى التوبة.

تأملان

١- الجاهل من جهل قدر نفسه

إن أغلب المشاكل الاجتماعية إنما تتبع من الطموحات الطائشة، أو تجاوز الإنسان لحدوده
الطبيعية والطمع بالمنصب الذي لا يستحقه أو لا يمتلك الجدارة اللازمة للنهوض به؛ ولا شك
أن كل هذا إنما تفرزه قضية مهمة تكمن في جهل الإنسان بقدره وعدم تقييمه له بصورة
صحيحة، وما ذلك إلا لحب الذات والمبالغة في نقاط القوة وعدم الالتفات إلى نقاط الضعف.
ولا شك أن اضرار هذا الأمر لا تقتصر على الإنسان لوحده فحسب، بل تنسحب على المجتمع
بأسره، ولربما استطاع الفرد أن يشغل منصباً فيقوم بوظيفته على أحسن وجه بما يضمن له
السعادة وإلى المجتمع الرفاه والأمن، غير أنه وإثر جهله بنفسه وطمعه بما لا يستحقه يسبد
طاقاته عبثاً ويكبد نفسه والمجتمع مالا يحصى من الخسائر والأضرار. وياليت الجميع كبيرهم
وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم أعادوا النظر في هذا الأمر الحيوي واقصوا عن أنفسهم الحجب
التي تحول دون معرفتهم لذواتهم ليجدوا من أجل تحقيق أهدافهم وسعادة مجتمعاتهم. ومن
هنا ورد التأكيد كراراً في نهج البلاغة على هذه المسألة، ومن ذلك ما ورد في الخطبة ١٠٣
«العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره». كما ورد في الرسالة ٣١ من نهج

١. «وراء» من مادة «ورى» على وزن «وزن» وفي الأصل بمعنى الاستتار، وأحياناً يطلق على الشيء الذي
يُحجب عن الأنظار بواسطة حاجز فاصح غير منظور باعتباره خلف الشيء أو وراءه.
وفي العبارة أعلاه جاءت هذه الكلمة بمعنى الخنف أو الورا.

البلاغة التي يعظ فيها ولده الحسن عليه السلام أنه قال: «ومن اقتصر على قدره كان ابقى له» وجاء في الكلمة ١٤٩ من قصار الحكم «هلك امرء لم يعرف قدره». كما ورد في الرواية أن شخصاً قال للإمام الكاظم عليه السلام مررت بالسوق فاذا هو يقول أنا من شيعة محمد وآل محمد عليهم السلام وهو يبيع الثياب بأكثر من ثمنها. فقال الإمام عليه السلام: «ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه»^١.

هناك احتمال آخر بالمراد من معرف قدر النفس في العبارة المذكورة وهو ألا ينسى الإنسان طبيعة خلقته فيقتصر بها على الجانب المادي المتعلق بالجسم دون الاهتمام بالمسائل المعنوية فيبيع نفسه ببعض الأمور المادية التي تفتقر إلى القيمة الحقيقية. فالإنسان يتمتع بالروح التي تنتمي إلى عالم السمو والرفعة، أنه خليفة الله في الأرض. أنه كائن ملكوتي لا موجود ترابي وإن تقولب مدة معينة في هذا القفص المادي من أجل نيل الكمال. وعليه فالعالم من عرف نفسه ووقف على قدرها ومنزلتها، ويلتفت إلى تكريم الله سبحانه له على من سواه، والجاهل من جهل قدر نفسه فقذف بها في مستنقع الأهواء والشهوات. بالكن بالالتفات إلى قوله «من اقتصر على قدره كان ابقى له» وكذلك العبارة المعروفة لدى العلماء استنباطاً من الأحاديث المشهورة «العالم من عرف قدره ولم يتجاوز حده» يبدو أن الأنسب هو المعنى الأول، ويؤيده مضمون الخطبة الذي يتناول قصة طلحة والزبير وآمالهم الزائفة.

٢ - الاعتدال هو الصراط المستقيم

إن أدنى نظرة إلى عالم الخلق تفتقد أن بقاء العالم إنما يستند إلى مسألة الاعتدال والتوازن في القوى. فالمنظومات السماوية العظيمة إنما حفظت بتوازن القوة الجاذبة مع القوة الدافعة، فلو تقدمت أحدهما على الأخرى أو ابتعدت لما بقي أثر لتلك المنظومات، ولو اقتربت وتصادمتا لأديا إلى انفجار هائل يقود إلى إنعدامها. والقانون المذكور الذي يحكم ذلك العالم الكبير كما يصدق على العالم الصغير أي عالم الإنسان، حيث تكون سلامة حياته ورمز بقائها مرهونة بحالة الاتزان التي تسود مختلف قواه الروحية والجسدية، من قبيل العناصر الداخلة في

١. بحار الأنوار ١٥٧/٦٥ «مع قليل من التخليص والإيجاز».

تركيب الدم وتوازن حركات الأعصاب السمبثاوية والباراسمبثاوية وضربات القلب ووزن الجسم وضغط الدم وتوازن أجهزة الجسم كالجهاز التنفسي والجهاز الهضمي وبالتالي فإن كافة أجهزته تمارس وظائفها بكل اعتدال واتزان بما يحفظ سلامة الإنسان ويكفل بقائه، ولو انحرفت هذه الأجهزة ذرة عن خط الاتزان وجنحت نحو الإفراط أو التفريط لانعكس ذلك سلباً على سلامة جسم الإنسان وروحه.

القرآن من جانبه أثنى على الأمة الإسلامية بصفتها الأمة الوسط، ومن هنا جعلها حجة على سائر الأمم. وهذه هي المسألة التي أكدها الإمام عليه السلام في أن الجادة الوسطى هي الطريق وعليها باقي الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنة. وإليها مصير العاقبة. أما في المجال الاقتصادي فإن الإفراط والتفريط قد أدى إلى ظهور النزعة الرأسمالية المقيتة التي بالغت في الملكية الشخصية بينما بالغت النزعة الاشتراكية في الملكية العامة ليعيش المجتمع ذلك التمايز الطبقي الفاحش بوجود الطبقات المرفهة الثرية والأخرى المعدمة الفقيرة.

وأما على المستويات الأخرى - العقائدية والسياسية والاجتماعية - فإن الإفراط والتفريط هو الذي يقف وراء كل هذا البؤس والشقاء الذي تعيشه البشرية.

الخطبة ١٧

ومن كلام له عليه السلام

في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل وفيها:
أبغض الخلائق إلى الله صنفان:

القسم الأول

«الصنف الأول: إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكَلَهُ اللهُ إلى نفسه فهو جائرٌ عن قصدِ السبيلِ، مشغوفٌ بكلامِ بدعةٍ، ودُعَاءِ ضلالةٍ، فهو فتنةٌ لمن افتتنَ به، ضالٌّ عن هديٍّ من كان قبلَهُ مُضِلٌّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حَمَالٌ خطايا غيره، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ»^١.

❦❦❦

نظرة إلى الخطبة

وردت الخطبة - كما يتضح من عنوانها - في صفات من يتصدى للقضاء وهو ليس له بأهل

١. نقل صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة» هذه الخطبة عن طائفة من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضي ومنهم:

١- الكليني في الكافي بطريقين ٢- ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث ٣- أبو طالب المكي في قوت القلوب ٤- الهروي في الجمع بين الغريبين ٥- القاضي النعمان في كتاب اصول المذهب.
كما نقلها عن طائفة أخرى من العلماء بعد السيد الرضي كالطوسي في الأمالي والطبرسي في الاحتجاج والمفيد في الإرشاد.

فيسوق الأمة إلى الضلال والهاوية.

فقد صنف الإمام عليه السلام هؤلاء الأفراد إلى صنفين:

الصنف الأول: من يشق طريق الضلال عن علم ويحكم هوى النفس وابتدع في الدين فهو ضال لنفسه مضل لغيره.

الصنف الثاني: الجاهل المتشبه بالعالم ويجهل بجهله فهو يعيش الجهل المركب؛ وليس له ذرة مما يؤهله للتصدي للقضاء، فهو فريسة للخطأ والزلل والشبهات، يخرج الحق بالباطل ويريق دماء الأبرياء بغير حلها ويهدر الأموال لغير أصحابها. ويحتمل أن يكون المراد بالصنف الأول حكام الظلم والجور والبدعة والضلالة، والصنف الثاني القضاة الجهال. وعليه فكلمة المحكم الواردة في الخطبة ذات معنى عام واسع تشمل القضاء والحكومة.

ويختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى الله من هؤلاء الأفراد الذين ولوا ظهورهم للقرآن وحسبوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وبناءً على ما تقدم فالخطبة على ثلاثة أقسام، يختص الأول والثاني منها بوصف هذين الصنفين والثالث بالشكوى إلى الله منهم ومن كان على شاكلتهم.



الشرح والتفسير

أبغض الخلائق

استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصنيف أبغض الخلائق إلى صنفين «إن أبغض الخلائق إلى الله رجالان» ومن البديهي أن للحب والبغض بالنسبة لله مفهوم يختلف عما هو عليه بالنسبة للإنسان؛ لأنّ الحب والبغض من قبيل الحالات والتغيرات التي تطرأ على روح الإنسان إثر رغبته واشمئزازه تجاه بعض الأشياء؛ بينما يكتسب الحب بالنسبة لله معنى الشمول بالرحمة والبغض معنى الطرد منها. ثم يخوض الإمام عليه السلام في صفات الصنف الأول؛ أي أصحاب الأهواء من الحكام، فيشير قبل أي شيء إلى أصل يؤسهم وشقائهم، فقال عليه السلام: «رجل وكله الله إلى نفسه». فروح الإنسان حية بالتوكل على الله والوثوق بما عنده؛ أي أنّه يسعى سعيه ويبذل

قصارى جهده من أجل النهوض بعمله وتطوير حياته، مع ذلك لا بد أن يعلم بأن الذات الإلهية هي مصدر كل خير وبركة ونعمة وعطاء. إلا أن الغرور والكبر وحب الذات قد يجعل الإنسان غافلاً عن هذه الحقيقة فيرى نفسه مستقلاً في مقابل الله فتتشوه بنظره جميع الأشياء. هذا الانقطاع عن الله هو إيكال الإنسان إلى نفسه؛ وهو أساس بؤس الإنسان وشقائه. ومن هنا ترى رسول الله ﷺ لا ينفك عن التضرع إلى ربه منادياً:

«اللهم... لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً»^١ وهو ذات المعنى الذي صرح به أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إلهي كفى بي عزا أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً»^٢ كما ورد ذلك عن المعصوم عليه السلام قوله: «إنك ان وكلتني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدي من الخير»^٣.

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان السبب الرئيسي لشقوة هؤلاء حتى يتطرق إلى افرازات ذلك الشقاء ليوجزها في ثمانية ارتبطت مع بعضها برباط العلة والمعلول فقال عليه السلام: «فهو حائر عن قصد السبيل» والمراد بقصد السبيل هو الحد الوسط الفاصل بين الإفراط والتفريط والذي يوصل الإنسان إلى الله؛ الأمر الذي أشار له القرآن الكريم بالقول «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»^٤ ومن البديهي أن الإنسان إنما يستطيع تمييز السبيل - الذي صورته الروايات بأنه أرفع من الشعرة وأحد من السيف - من بين آلاف السبل الانحرافية إذا شملته الألفاظ والعنايات الإلهية؛ أما إذا انفصل عن الله ووكل إلى نفسه فإنه سيعيش الحيرة والقلق التي تنتهي به إلى الضلال والسقوط في الهاوية.

الافراز الثاني «مشغوف بكلام بدعة» ومن هنا ينطلق نحو الافراز الثالث «ودعاء ضلالة». شغف من مادة شغاف على وزن كلاف بمعنى المولع بالشيء حتى بلغ حبه شغاف قلبه، وهو غلافه؛ وهو التعبير الذي أورده القرآن الكريم بشأن حب زليخا لنيبي الله يوسف عليه السلام على لسان طائفة من نساء مصر «قد شغفها حباً»، فالعبارة إشارة إلى أن مثل هؤلاء الأفراد

١. بحار الأنوار ٨٣ / ١٥٣.

٢. بحار الأنوار ٩١ / ٩٤.

٣. بحار الأنوار ٨٣ / ١٥٢.

٤. سورة النحل ٩ / ٩٤.

من ذوي حبّ الذات يتعلقون بشدة بأحاديثهم المبتدعة؛ التعلق الذي يؤدي إلى دعوة الآخرين إلى الضلال والانحراف.

القرآن أيضاً يقول: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»^١، وسنتطرق في الأبحاث القادمة - تأملات - إلى حقيقة البدعة ودوافعها ونتائجها. أمّا الوصف الرابع «فهو فتنة لمن افتتن به». وفي الصفة الخامسة والسادسة «ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته». المراد بمن كان قبله الأنبياء وأوصيائهم بالحق؛ في إشارة إلى اتضاح سبيل الهداية مسبقاً بما لا يدع من مجال لسلوك طريق الضلال؛ مع ذلك فقد ولى ظهره لسبيل الهداية والتقى بنفسه في ظلمات الضلال. والأُنكى من ذلك أن أضلال هؤلاء الأفراد للآخرين لا يقتصر على حياتهم فهم مدعاة للضلالة حتى بعد وفاتهم، فهم شركاء في هذه الضلالة، حيث ورد في الحديث النبوي المشهور: «من سنّ سنة حسنة عمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ سنة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»^٢.

فالعبرة تحذير حاد لأولئك الذين يحنون الخطى نحو البدع ويشيدون صروح الضلالة، في أنّ شقائهم وبؤسهم سوف لن يقتصر على حياتهم بل قد يتجاوز حتى مماتهم بآلاف السنين وعليهم أن يدفعوا كفارة تلك البدع ويستعدوا لتحمل تبعاتها. كما ورد عن الإمام علي عليه السلام تحذير شديد آخر في الخطبة ١٦٤ حيث قال: «وإنّ شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأما سنة مأخوذة وأحيى بدعة متروكة» وأمّا الوصفان الأخيران المترتبان على الصفات السابقة فهما «حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته» فالعبرة ليست كلاماً تعبدياً؛ بل هي منطقية تماماً. وذلك لأنّ أية معونة ومساعدة في ارتكاب الذنب تعدّ شركة فيه؛ ولما كان أتباع هؤلاء المضلين يقارفون الذنوب بمحض إرادتهم فلا ينقص من ذنبهم شيئاً، وهذا ما أشار له القرآن الكريم صراحة في الآية ٢٥ من سورة النحل إذ قال «بِئْحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً

١. سورة رعد / ١٤.

٢. ميزان الحكمة ٤ / ٥٦٦، كما ورد مضمون هذا الحديث في عدّة روايات نقلتها أغلب الكتب.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَ مَا يَزِرُونَ»^١ والتعبير الآخر الذي اعتمده القرآن بشأن ارتهان الإنسان بذنبه هو تعبير غاية في الروعة والدقة «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ»^٢.

فكما أن المحجوز لا يطلق من العذاب ما لم يكفر عن ذنوبه؛ كما أن التعبير باكمال بالنسبة لذنوب الآخرين هو الآخر تعبير عميق، كأن الذنوب (كما يفهم من كلمة وزر) حمل عظيم بثقل صاحبها ومن أسس لها وتصده عن القرب الإلهي وتلقي به في قعر جهنم. ومن هنا تتضح مدى خطورة الوادي الذي يسقط فيه من وكله الله إلى نفسه، وأي مصير مشؤوم ينتظره.



تأملان

١ - ما البدعة ومن المبتدع؟

لقد ورد الذم في هذه الخطبة للبدعة والمبتدع الذي يسوق الناس إلى الضلال؛ كما تضافرت الروايات الإسلامية - إلى جانب سائر خطب نهج البلاغة - التي تذم البدعة وأصحابها، ومن ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»^٣. كما ورد عنه ﷺ أنه قال: «أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة قيل يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: إنّه قد أشرب قلبه حينها»^٤.

والبدعة في اللغة بمعنى الإتيان بشيء لا سابقة له، أمّا فقهاء الإسلام فقد عرفوها بإضافة شيء إلى الدين أو نقصانه دون قيام دليل معتبر على ذلك؛ ولما كانت المعارف والأحكام الإلهية واجبة الثبوت عن طريق الوحي والأدلة المعتبرة، فإن البدعة من الكبائر، وهي أساس الفساد والانحراف، ولو لم تمنع البدع لأضاف الأفراد بعقولهم القاصرة إلى الدين ما شاءوا وانقصوا منه ما أرادوا، فلا يبقى من الدين شيئاً وتمحى آثاره؛ ولا شك أن قانون تحريم البدع

١. سورة نحل / ٢٥.

٢. سورة المدثر / ٣٨.

٣. شرح نهج البلاغة للمحقق الخوئي ٣ / ٢٥١.

٤. اصول الكافي ١ / ٥٤، باب البدع.

هو الذي صان القرآن والإسلام وحفظه من تلاعب الجهال وأصحاب الأهواء. والذي ينبغي أن نخلص إليه مما سبق وعلى ضوء التعاريف الفقهية هو أنّ البدعة لا تشمل الاختراعات والابداعات العلمية والفنون الطبيعية والطبية والصناعية، كما لا تشمل التجديد في الثقافة والأدب والسنن والعادات والتقاليد. فالبدعة ما أحلت حراماً أو حرمت حلالاً وأضافت دين الله أو انتقصت منه مما ليس فيه دون قيام دليل معتبر على تلك الاضافة أو النقصان، أو الإتيان بدين جديد ودعوة الناس إليه دون الاستناد إلى الوحي أو الدليل، هذه هي البدعة، وهي من الكبائر التي توعد الله عليها بالعذاب. ومن هنا نقف على خواء الوهابية التي اعترضت حتى على ركوب الدراجة على أنّها مركب الشيطان أو ما قام به بعض الاتباع ممن عمد إلى خطوط الهواتف فقطعها على أنّها بدعة فيما لا شك فيه أنّ مثل هذه الأعمال تعدّ ممارسات حمقاء ليس لها أدنى صلة بمفهوم البدعة كما صورها الفقهاء، ومما يؤسف له أنّ تأريخ هذه الحركة مليء بمثل هذه الممارسات الشائنة. ويمثالهم أولئك الذين سلكوا سبيل الإفراط تجاه هذه الحركة ليقولوا بعدم وجود أية ثوابت في الدين؛ الأمر الذي يهدد كافة قيم الدين ومثله ويعرضها للزوال، حيث يهدون السبيل أمام هذا وذلك للدس في الدين ما شاءوا. ونختتم بحثنا هذا بما قاله أمير المؤمنين عليه السلام - في كلماته القصار، الكلمة ١٢٣: «طوبى لمن ذل في نفسه... وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم ينسب إلى البدعة». فقد ورد السنة في الإمام مقابل البدعة، فمن أطاع الله واستن بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فارق البدعة، أمّا من عصى الله وفارق سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فهو على البدعة، وهو ضال لنفسه مضل لغيره.

٢ - أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين

تقتصر أغلب الذنوب على المسؤولية الفردية وإن كانت من قبيل الكبائر كالأفعال المنافية للعفة وشرب الخمر وسائر المحرمات، غير أنّ أخطر الذنوب هي تلك التي تدعو الآخرين لمقارفتها بحيث يبوء صاحبها بوزر تلك الذنوب من دون أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، وهذا ما يصدق على أئمة الظلم والفساد من أهل البدع الآمرون بالمنكر والناهون عن المعروف، وأحياناً تطاهم تبعة الذنب بل وتطال نسلهم لقرون بعد مماتهم، وعلى الآثم أن يدفع

ثم ذنوب هؤلاء بأجمعها (كما أن العمل الصالح كذلك قد تشمله بركاته لقرون).
 وقد صور القرآن الكريم وضع هؤلاء الائمة بقوله ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ
 أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^١. وأعظم خطر تختزنه هذه الذنوب في
 الغالب عدم صدق التوبة عليها؛ وذلك لأن من شروط التوبة إزالة آثار الذنب؛ فأنى للإنسان
 بإزالة آثار مثل هذه الذنوب التي قد تتخذ أبعاداً واسعة لتشمل منطقة بأكملها، أو موت
 الكثير من الأفراد على هذه الذنوب التي ساقهم لارتكابها، أو ظهور الجيل الجديد الذي يعمل
 بهذه الذنوب بعد وفاته؟

بالتالي لا بدّ لهذا الإنسان من التأمي في حركته، حذرأمن مقارفة مثل هذه الذنوب التي لا
 سبيل للتخلص من تبعاتها «حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته».



القسم الثاني

«الصف الثاني: وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوضِعٌ فِي جُهَالِ الْأُمَّةِ، عَادٍ فِي
أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ؛ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِمًا وَلَيْسَ
بِهِ، بَكَرٌ فَاسْتَكْتَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءٍ
أَجِنٍ، وَاکْتَتَرَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا ضَامِنًا لِتَخْلِيصِ مَا
التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّا لَهَا حَشْوًا رَثًا مِنْ رَأْيِهِ،
ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لَا يَدْرِي أَصَابَ
أَمْ أَخْطَأَ؛ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ
- جَاهِلٌ حَبَّاطٌ جَهَالَاتٍ، عَاشٍ رَكَابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعْضُ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ
قَاطِعٍ، يَذْرُو الرُّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمِ. لِأَمَلِيٍّ وَاللَّهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ
وَلَا أَهْلٌ لِمَا قُرْظِيهِ، لَا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَى أَنْ مِنْ وَرَاءِ
مَا بَلَغَ مَذْهَبًا لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ ائْتَمَّ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ،
تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدَّمَاءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ».

۸۰۸

الشرح والتفسير

الجاهل المتشبه بالعالم

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان الصف الأول بشكل جامع، تطرق إلى صفات الصف الثاني ليتحدث عن ذلك الشخص الذي يغط في هالة من الجهل والتخبط في حين يرى نفسه عالماً دون الاستناد إلى ركن وثيق من علم أو عالم. فيبين بادي ذي بدء خمس صفات لمثل هؤلاء الأفراد. الأولى «ورجل قمش جهلاً» فاستناداً إلى ما أورده أرباب اللغة بشأن مفردة

القمش التي تعني جمع الأشياء المتناثرة دون تناسب وكذلك بمعنى الأشياء التي لا قيمة لها، فإن الذي يفهم من كلام الإمام عليه السلام أن هؤلاء الجهال المشبهون بالعلماء إنما يتجهون صوب خواء من العلم الذي يفتقر إلى القيمة كما يفتقر إلى النسبة المنطقية. وقد علق المرحوم العلامة الخوئي في شرحه لهذا الكلام على أنهم يحصلون على المعلومات من فم هذا وذاك ومن الروايات الضعيفة غير المعتمدة وعن طريق القياس والاستحسان والمصادر من هذا القبيل (ذات الحجم الكبير والقيمة القليلة أو المعدومة).

الصفة الثانية أنه يهرع بسرعة في أوساط الجهال من عوام الأمة ليجمع له بعض الأنصار: «موضع^١ في جهال الأمة» ومن الطبيعي ألا يهب لنصرة هؤلاء ويتمحور حولهم سوى تلك الطائفة من الجهال، وليس هؤلاء من مكان بين العقال. فهدفهم هو لفت انتباه الجهال إليهم والنفوذ في أوساطهم لأنهم يعيشون اليأس من اقتحام دنيا العقلاء.

الصفة الثالثة «عاد^٢ في أغباش الفتنة» بالالتفات إلى أن بعض أرباب اللغة^٣ قد عني غباش من مادة أغباش بشدة الظلمة أو ظلمة آخر الليل التي تعتبر أفضل فترة للسارقين واللصوص، يتضح أن مثل هؤلاء الأفراد يفكرون دائماً في الاصطياد من ماء الفتن. فهم يهربون دائماً من النور والضياء ويلوذون بالظلمة وعمتة الليل كفرصة مناسبة من أجل خداع الجهال؛ ولا غرو فلو تبددت ظلمة الفتنة وبرزت شمس العلم والمعرفة لانكشف النقاب عن صورتهم الحقيقية ولافتضحوا أمام القاضي والداني.

وأشار عليه السلام إلى الصفة الرابعة من صفات تعاسة هؤلاء الأفراد «عم بما في عقد الهدنة»^٤. ومن الواضح أنه ليس المراد بالهدنة هنا الصلح بين المسلمين وغير المسلمين، لأن الكلام وبشهادة العبارات اللاحقة وارد بشأن القاضي بين الناس. وبناءً على هذا فالمراد بالهدنة الصلح بين الناس وحل المنازعات بالطرق السلمية؛ وبعبارة أخرى فإن الهدنة هنا تقابل

١. «موضع» من مادة «إيضاع» بمعنى السرعة في الحركة (وهو يعطي معنى اللازم لا المتعدي رغم أنه من باب الأفعال) وهو هنا إشارة لحركة الجهال المشبهين بالعلماء السريعة بين الجهال.
 ٢. «عاد» من مادة «العدو» بمعنى الركض.
 ٣. مقاييس اللغة، الجوهري، لسان العرب.
 ٤. «هدنة» بمعنى الصلح والمصالحة بين الناس.

الفتنة التي ذكرت في العبارة السابقة. وبصورة عامة فإن مثل هؤلاء الأفراد إنما ينشدون تعميق هوة الاختلافات وتشديدها ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم ومآربهم الخبيثة، والحال لو علموا أن الصلح والسلام بين الناس إنما يعود بالنفع على جميع الأفراد، وليس هنالك من ينتفع بالنزاع والشقاق، لما اتجهوا إلى مثل هذه الأمور. نعم ان هؤلاء الأفراد عمي عن مشاهدة الحقيقة فضلاً عن ادراكها.

وقال ﷺ في صفتهم الخامسة «قد سماه اشباه الناس عالماً وليس به» يبدو أن قوة الجاذبية التي تربط ذرات هذا العالم في الأرض والسماء بحيث يميل كل موجود وينجذب إلى شبهه، فإن هذه القوة تحكم هذه الفئات والأفراد أيضاً. وما أروع تعبيره ﷺ عن أتباع من تشبه بالعلماء بأشبهاء الناس، في إشارة واضحة إلى أن أشباه الناس هم خدمة أشباه العلماء. ومن البديهي أن شباهة هؤلاء بالناس كشباهة أئمتهم الجهال بالعلماء إنما هي شباهة صورية ليس أكثر، وغالباً ما يستعمل هذا التعبير بشأن الموارد ذات الشبه الصوري كقوله ﷺ في الخطبة ٢٧ من نهج البلاغة «يا أشباه الرجال ولا رجال».

وما أن فرغ الإمام ﷺ من بيان صفاتهم حتى تطرق إلى جانب من أفعالهم القبيحة النابعة بصورة مباشرة من تلك الصفات ونقاط الضعف التي تحكم كياناتهم، فقال ﷺ: «بكر^١ فاستكثر من جمع؛ ما قل منه خير مما كثر^٢». يمكن ان تكون هذه العبارة إشارة إلى الإمكانيات المادية والدينيوية التي تؤدي كثرتها إلى الغفلة والتكبر والانهاك الدائم بالماديات والابتعاد عن المعنويات؛ وغلباً ما يكون قليلها أفضل من كثيرها وأن الكفاف والعفاف أقرب إلى السعادة والفلاح من التكاثر والتفاخر. أو إشارة إلى فضول الكلام والمسائل العلمية التي لا طائل من وراءها على حساب الأصول والمبادئ وذهب البعض إلى أن المراد بها الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة، ولكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً؛ لأنّ القليل من هذه الآراء والعقائد فيه الضرر

١. «بكر» من مادة «بكرة» بكرة على وزن لقمة بمعنى أول النهار ثم أطلقت على كل بداية وانطلاقة، وهي هنا إشارة إلى أن الجهال المتشبهين بالعلماء إنما يلهثون خلف الأعمال العابثة من أول النهار حتى الليل.
٢. يمكن أن تكون الجملة (ما قل منه خير مما كثر) صفة لجمع مفهومه: يجمع شيئاً قليلاً خيراً من كثيره، كما قيل يمكن أن تكون مضافة، وفي هذه الحالة تتطلب تقديراً؛ أي من جمع شيء ما قل منه خير مما كثر، ولكن ليس هنالك من فارق في المعنى.

أيضاً، وإن كان هذا التفسير لا ينسجم وبعض العبارات القادمة. ثم قال ﷺ: «حتى إذا ارتوى من ماء آجن^١ واكثر من غير طائل^٢، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره».

أجل أن هذا الفرد الجاهل والضال المتشبهه بالعالم الذي يتمتع برصيد علمي مشوه مفعم بالأخطاء وله روح ونفس ولعة بعالم المادة شغفة بزخارف الدنيا وزبرجها، إنما وضع نفسه في موضع لا يتصدره سوى نبي أو وصي، كما ورد ذلك في الحديث المعروف عن الإمام علي ﷺ حين خاطب شريح القاضي قائلاً: «يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي أو وصي نبي أو شقي»^٣، والأدهى من ذلك يزعم أن هنالك حقائق، ولا غرو فهذه هي المزاعم والادعاءات الفارغة التي يتشدد بها كافة الجهال المتشبهين بالعلماء.

والآن بعد أن تصدى هذا الجاهل للقضاء فما عساه أن يفعل، قال الإمام ﷺ بهذا الشأن: «فان نزلت به احدى المبهات هيا لها حشوارثامن رأيه، ثم قطع به».

الحشو بمعنى الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه، والراث بمعنى الخلق القديم ضد الجديد، فقوله ﷺ: «حشوارثامن رأيه» كأنها إشارة إلى أنه ليس من أهل الخلاقية والمبادرة، كما ليس له ذهنية متفتحة، وأخيراً لا يمكنه أن يجمع الأدلة المقيدة التي تعينه على اصدار الحكم. فليس له رصيد سوى حفنة من الأفكار الزائدة التي لا طائل من وراءها وهي رثة قديمة أكل الدهر عليها وشرب، وهذا هو اسلوبه وديدنه ويقينه في الحكم.

ومن الطبيعي أن لا تؤدي هذه المقدمات الباطلة والفاصلة إلى أي يقين، فهو يخدع الناس متظاهراً لهم باليقين، وعلى فرض كونه وصل إلى اليقين فانه ليس معذوراً عند الله لأنه سلك الخطأ والتقصير في المقدمات. فالمشاكل القضائية كسائر المشاكل العلمية والاجتماعية والسياسية إنما تعالج دائماً عن طريق دراسة المقدمات الصحيحة والمنطقية؛ فذلك الذي ليست لديه أدنى معرفة بهذه المقدمات الصحيحة وقد تعلقت أفكاره بالمسائل الباطلة فانه ليس

١. «آجن» بمعنى الماء العفن.

٢. «طائل» من مادة «طول» على وزن قول بمعنى الفائدة والامتداد، ومن غير طائل تعني دون فائدة.

٣. الوسائل الشيعية ١٧ / ٣٧ (واضح أن وصي النبي هنا تنطوي على مفهوم واسع يشمل العلماء العدول من أتباع النبي).

فقط لا يتوصل إلى النتيجة الصائبة فحسب، بل سيغبط في هالة من الحيرة والتخبط والضلال كما سيسوق الآخرين إلى الضلال؛ والآنكى من ذلك أنه كلما تقدم أكثر في هذا المجال ابتعد أكثر عن الوقائع والحقائق.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه «فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت^١». وقد اختلفت أقوال الشراح بشأن التشبيه الذي استعمله الإمام عليه السلام في هذه العبارة، فأوردوا بعض التفاسير التي لا تخلو من التكلف والتقدير والتغيير في العبارة - أمّا التفسير الذي يبدو مناسباً هو أنّ الإمام عليه السلام شبه هؤلاء الأفراد الجهال المغرورين ضعيفي الفكر بالعنكبوت حيث ينسج لنفسه خيوطاً تكون حرزاً لبيته كما تكون فخاً لصيده، أمّا بيته فهو أو هن البيوت ولا يمكن الوثوق به أبداً، كما أنّ فخه لا يطيل سوى الحشرات الضعيفة العاجزة.

نعم هذا الجاهل أيضاً ليس لفخه من دور سوى صيد أمثاله من الجهال الحمقى. وعليه فهو كالعنكبوت وأفكاره كخيوطه وهمية ضعيفة وحيدة يقتصر على المغفلين عديمي العلم والمعرفة. «لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب». هذا هو حال الأفراد الجهال الذين يتصدون إلى المناصب الهامة التي لا يمتلكون الجدارة لممارستها. فهم على شك وترديد دائماً، حتى أنّ اتجاه صوب الصواب فحيث لا يؤمن بذلك فهو متزلزل يطلق سهمه في الظلام دائماً على يصيب الهدف. ويتصور بعض شراح نهج البلاغة أنّ الجملة الأخيرة تتناقض والعبارة «ثم قطع به» لأنّ تلك العبارة تحدثت عن القطع واليقين بينما تحدثت هذه العبارة عن الشك والترديد. والحال أنّ العبارة «ثم قطع به» تعني الحكم القاطع لا قطع القاضي و يقينه، فالواقع أنّه يحكم فقط ويتخذ لنفسه صيغة القطع، بينما يفيض باطنه بعاصفة من الشك والترديد. نعم مصيبتة الكبرى في دينه، فإن أصاب الواقع مصادفة شعر بالتزلزل لأنّه لا يملك الإيمان واليقين، وإن هذا التزلزل يؤرقه ولا يجعله قادراً على اتخاذ القرار؛ وإن أخطأ فإن سبيل الرجوع مغلق بوجهه لأنّه ليس واقفاً على خطأه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى ليصور حال هؤلاء الأفراد بتعبيرات قارعة

١. «العنكبوت» هي الحشرة المعروفة، وهناك اختلاف في أصلها من مادة عكب أن عنكب، وقيل اقتبست من مادة «عكوب» بمعنى الغبار لأنّ خيوطه تشبه الغبار.

وتشبيهات غاية في البلاغة والجمال فقال عليه السلام: «جاهل خباط^١ جهالات»، فهو كالأعمى في الظلمات المليئة بالمخاطر «عاش ركاب عشوات»^٢ فالإمام عليه السلام لا يكتفي بوصفه بالجاهل، بل يؤكد ذلك ليصفه بأنه يغط دائماً في هالة من الجهل، كما لا يكتفي الإمام عليه السلام بعشوته وعماه بل يصوره بأنه يمتطي الظلمة والعتمة ويحث السير دون أن يعلم أين يسير وإلى أين سينتهي به هذا المسير. المفردة عاش من مادة عشا، فسرت بالعمى المطلق، كما فسرت يضعف الرؤية وقيل أيضاً يراد به عشوة الليل، ومهما كانت فإن المراد هو أن صاحبها لا يستطيع رؤية ما حوله من الأشياء، فاذا ما تحرك سقط في الهاوية، بل قادته حركته إلى الجحيم، وهذا هو حال من يتصدى للقضاء بين الناس دون الاستناد إلى العلم والمعرفة ويزج بنفسه في هذا الطريق الشائك المليء بالمخاطر، فكلما مر عليه يوم من حياته كثر بؤسه وشقائه لنفسه وللناس حتى ينتهي به المطاف إلى السقوط في وادي الكفر والضلال، والأنكى من كل ذلك أن مثل هذا الفرد يرى نفسه عالماً ضالماً بموازين القضاء والحق والعدل فلا يسع أحد احصاء خطايا وذنوبه! ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان صفة أخرى من صفات هذا الجاهل المتخبط «لم يعرض على العلم بضرر س قاطع»، فقد شبهه الإمام عليه السلام بمن يتناول الطعام دون المضع بحيث لا يسع الجسم هضمه. ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالضرر هنا سن العقل الذي يظهر في مرحلة تكامل العقل، وكأن هؤلاء الجهال ليس لهم سن عقل، فهم لا يقيمون القضايا بشكل سليم، وبالمقابل هنالك الأفراد العلماء الحكماء الذين يتحدثون بالضرر س قاطع؛ أي أن حديثهم يستند إلى أسس العقل والمنطق السليم.

وقال عليه السلام في صفتهم الثالثة أنهم كالريج العاصف التي تهلك الحرت والزرع فهي تهب هوجاء دون هدف وهذا حال تعامل الجاهل مع الروايات الإسلامية «يذرو^٣ الروايات ذرو الريج الهشيم^٤». إشارة إلى أنه يطالع ظاهرياً الموضوعات التي تصدت لبيانها الروايات

١. «خباط» من مادة «خبط»، صيغة مبالغة من خبط الليل إذ سار فيه على غير هدى، ومن هنا يطلق خباط أو ضابط على الفرد المجنون أو الذي لا يستطيع توازنه.

٢. «عشوات» جمع «عشوة» بمعنى الظلمة.

٣. «يذرو» من مادة «ذرو» على وزن ضرب بمعنى يثر (وقد وردت هذه المفردة بهيئة ناقص واوي وناقص بائي).

٤. «هشيم» من مادة «هشم» بمعنى ما يبس من النبات وتهشم وتفتت.

والسنة النبوية، ولكن ما جدوى ذلك وهو يفتقر إلى تقييمها الصحيح، فهو لا يمتلك العلم بمضمونها ولا بقوة سندها من ضعفه، كما لا يعرف الجمع بين الروايات المتعارضة ولا يميز المحكمة من المتشابهة. فهو بالضبط كالريج الهشيم التي تذرو النباتات هنا وهناك. فالنباتات الجافة (الهشيم) قد لا تكون لها أية فائدة، بينما قد تفيد إذا جمعت، أما الريح الهوجاء تزيل حتى هذه الفائدة الضئيلة من خلال ذروها وتفريقها، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للأفراد الجهال الذين يتعاملون مع الروايات دون أن تكون لهم معرفة صحيحة بغشها من سمينها وصحيحها من سقيمها.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى صفتهم الرابعة، ليقسم بأن هؤلاء الجهال ليسوا حريين بحل ما ترد عليهم من قضايا ولا جديرين بأدنى مدح واطراء يارسه المتلمقون تجاههم «لاملي - والله - باصدار^١ ما ورد عليه، ولا أهل لما قرظ^٢ به».

بما لا شك فيه أن الفصل في الخصومات القضائية والذي يصطلح عليه الفقهاء برد الفروع إلى الأصول إنما يتطلب رصيذاً علمياً ثراً لا يتحلى به هؤلاء الجهال المغرورون، وهذه الضحالة العلمية تفحهم وتجعلهم يضلون سبل التعامل مع القضايا فلا يميزوا كيفية الدخول فيها أو الخروج منها (المراد بالدخول والخروج هنا ما تعارف بشأن الموضوعات المطروحة على العلماء فيقال أن فلاناً يعلم كيف يرد هذه المسائل وكيف يخرج منها، والفرد الجاهل يفتقر بالمرّة لهذه المسألة).

أما إحدى مشاكل هؤلاء الأفراد هي إطاحتهم بثلة من المتملقين الذين يهدفون إلى تحقيق مطامعهم الدنيوية فيطرونهم بمختلف ألوان المدح والثناء ويضفون عليهم ما لا يستحقونه من الصفات، فيطرب هؤلاء الجهال لمثل هذه الأكاذيب والنعوت الفارغة رغم علمهم بكذبها وزيفها إلا أنهم وبمرور الزمان يظنون أنهم كذلك وهذه قمة البؤس والشقاء التي يبلغونها بحيث تغلق أمامهم كافة سبل النجاة.^٣

١. «اصدار» من مادة «صدر» ضد الدخول.

٢. «قرظ» بمعنى مدح.

٣. ذكر بعض شراح نهج البلاغة هنا المفردة «فرط» من مادة التفريط و«فرض» من مادة التفريض بدلاً من

وقال ﷺ في صفتهم الخامسة «لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره». والواقع أن هذا من لوازم الضحالة الفكرية وضيق العلم والمعرفة حيث يرى الإنسان نفسه هو العلم الكامل فينكر كل ما ورثه فلا يرى من حرمة لأفكار الآخرين وعلومهم، بينما لا يرى العالم الحق في العلم والمعرفة سوى الاعتراف بالجهل، فيسوقه ذلك إلى التواضع للآخرين والاستماع إلى أقوالهم «فَبَشِّرْ عِبَادِ» الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ^١ فهم يستمعون إلى الآخرين ويصطفون أحسن ما يرد في كلامهم، في حين يطالعك الجاهل المغرور الذي يتحدث على سبيل القطع وهو ليس على شيء.

وصفته السادسة التي ذكرها الإمام ﷺ: «وان أظلم عليه أمر اكنتم به لما يعلم من جهل نفسه» هذا هو الفارق والحد الفاصل بين العالم والجاهل، فالعالم إذا عرض له أمر مبهم كرس له اهتمامه فان صعب عليه حله وإزالة ابهامه استشار من حوله واستفاد من أفكارهم وانفتح على تجاربهم، بينما يهمله الجاهل ويمر عليه مروراً عابراً، لأن يعلم بأن التعامل معه والتفكير فيه لا تزيده سوى فضيحة. وزبدة الكلام فهو يعمل على الخلاف مما ورد في الروايات الإسلامية بعدم الحياء من قول لا أدري إذا عرض عليه ما لا يعلمه ولا ينبغي أن يستنكف عن تعلمه «ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه»^٢. والواقع هو أن عدم الالتزام بمضمون هذه الرواية إنما يقود إلى اضرار فادحة تطيل الشخص والمجتمع الذي يعيش كواحد من أفراده.

ثم أشار الإمام ﷺ إلى حصيلة عمل هؤلاء القضاة الجهال عديمي الورع والتقوى بقوله: «تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج^٣ منه المواريث». أجل فما أكثر الدماء التي تسفك والأموال التي تهدر وهي تضح بصراخها من الأحكام المجحفة التي يصدرها هؤلاء القضاة الجهال، فيطرق هذا الصراخ ضمير السامع فيهز أعماقه، بينما يعيش هذا الجاهل نشوة الغرور

١ «قرظ» من مادة «التقريظ» بمعنى المدح والثناء. وحيث ألبنا على أنفسنا ألا نجري خلف اختلاف نسخ نهج البلاغة ونكتفي بالنسخة المعروفة المتداولة اليوم، لذلك نغض الطرف عن الخوض في ما ذكره.

١. سورة الزمر ١٧-١٨.

٢. نهج البلاغة، الكلمات قصار، الكلمة ٨٢.

٣. «تعج» من مادة «عج» و«عجيج» بمعنى ارتفاع الصوت وهنا بمعنى الصراخ.

فلا يسمع ولا يرى ما حوله. أمّا تعبيره ﷺ بـ «تصرخ» و«تعج» فهو تعبير في منتهى الروعة والجمال، حيث عبر عن الدماء التي تراق من غير حلها بالصراخ وكأن هذه الدماء علم وشعور وإدراك، في حين ليس لهذا الجاهل المغرور مثل هذه المعاني فهو يعيش في جهل مطلق. ومن هنا نعتقد بأن ما ذكره بعض الشراح من أنّ في الجملة تقدير ينسبون من خلاله هذه الصراخ إلى أولياء الدم وأصحاب الأموال إنّما يقضي على هذه اللطافة والروعة في التعبير. على كل حال فإن رسالة القضاء والقضاء التي تهدف إلى حفظ دماء الناس وأموالهم إنّما تضيع في ظل تصدي هؤلاء الجاهل لمسند القضاء؛ الأمر الذي يقود بالتالي إلى تغييب أمن المجتمع وسيادة الفوضى.

والكلام شبيه ما ورد عن الإمام الصادق ﷺ في رواية «أبو ولاد» حين سمع ﷺ اصدار بعض الأحكام القضائية الظالمة فقال: «في مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءها وتمنع الأرض بركاتها»^١.

تأملات

١- آفات علماء السوء

لقد أشار الإمام ﷺ في الخطبة إلى الآفات الخطيرة للجهال المتشبهين بالعلماء وعلماء السوء الذين يشقون أنفسهم وقومهم. وقد تتسبب بعض هذه الأخطار والآفات في سفك دماء الأبرياء وهضم حقوق المظلومين المستضعفين، فتصرخ تلك الدماء من الأحكام الظالمة كما فأن الأموال المهדרورة من القضاء الجائر. فقد جاء عن رسول الله ﷺ: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»^٢ كما قال ﷺ: «من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك»^٣.

والعجيب أن هؤلاء الأفراد كلما عملوا أكثر كان ضررهم أعظم، وهذا ما أشار إليه الإمام

١. وسائل الشريعة ١٣/٢٥٦.

٢. أصول الكافي ١/٤٤.

٣. أصول الكافي ١/٤٣.

الصادق عليه السلام: «العالم على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً»^١.

٢ - علم كخيبة العنكبوت

لقد شبه عليه السلام علم هؤلاء الجهال المتلبسين بزبي العلماء بخيوط العنكبوت؛ وهو التشبيه الذي اقتبس في الواقع من القرآن الكريم -سورة العنكبوت- الذي شبه أولياء المشركين ببيت العنكبوت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. والعنكبوت ينطوي على بعض خصائص العجائب في الخلقة. فالعنكبوت تنسج خيوطها من قطرة لزجة غاية في الصغر في بطنها تلصقها في الخارج بمساعدة مخلبها؛ حيث لهذا المانع تركيب خاص يتصلب وينجمد بمجرد ملامسته للهواء، ويعتقد بعض العلماء أن للعنكبوت القدرة على نسج ما يعادل خمسمئة متر من هذه الخيوط بالاستفادة من تلك المادة اللزجة الصغيرة. وهذه الخيوط هي التي تشكل بيت العنكبوت وفخه، إلا أن القرآن أشار إلى أن أوهن البيوت هو بيت العنكبوت، فأية ريح مها كانت خفيفة تحطم هذا البيت، كما أن قطرة الماء تخترقه، وأدنى شعلة نار تحرقه، بل ليس له قابلية استقطاب التراب والغبار فهي الأخرى تقضي عليه، وهذه هي الصورة الحقيقية لأولياء الشرك وعلم الجهال. فالعلماء الذين يستندون في علمهم إلى القياس والاستحسان وما إلى ذلك إنما علمهم كبيت العنكبوت أجوف هزيل لا يصمد أمام شيء وليس من شأنه فعل شيء.

كما يفهم من هذا التشبيه بشأن هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء أن فرائسهم كفرائس العنكبوت حيث ينحصر في الأفراد الضحلين الذين لا قيمة لهم كفرائس العنكبوت من الحشرات التافهة.

٣ - اطراء المتملقين

لقد تطرق الإمام عليه السلام في الخطبة إلى عدم استحقاق هؤلاء إلى المدح والثناء الذي يكيله لهم

المتملقون من أشباه الرجال؛ وهو الأمر الذي يستبطن البلاء الذي يعود على هؤلاء الجهال إلى الاعتقاد بالتدريج أنّ لديهم العلم والمعرفة والجدارة والأهلية، فيرون في أنفسهم الكفاءة في التصدي لهذا المنصب الخطير الذي يؤدي بالتالي إلى هلاكهم واهلاكهم. فضرر هؤلاء المتملقين الذين يحيطون بهؤلاء الجهال ويسوقونهم للتصدي للقضاء لا يقل عن خطر هؤلاء الجهال في التصدي إن لم يكن أعظم وأفدح؟ الأمر الذي ذمه القرآن الكريم إلى جانب الروايات الإسلامية. ومن ذلك أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا مدح الفاجر اهتز العرش وغضب الرب»^١ وقال ﷺ: «من مدح سلطاناً جائراً وتخلف وتضعض له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار»^٢. ومن هنا ورد التحذير من مطلق المدح والاطراء لتنبه إلى ذلك حتى الأفراد من أهل الورع والتقوى إلى الأخطار التي ينطوي عليها هذا المديح، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «احتوا في وجوه المداحين التراب»^٣ وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر في عهده الذي عهده إليه حين ولاء مصر بعد أن دعاه إلى مجالسة أهل الورع والتقوى والصدق: «ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وقدني من العزة»^٤.



١. بحار الأنوار ١٥٠ / ٧٤.
 ٢. بحار الأنوار ٣٦٩ / ٧٢.
 ٣. بحار الأنوار ٢٩٤ / ٧٠.
 ٤. نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

القسم الثالث

«إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سلعة أبور^١ من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق^٢ بيعاً ولا أغلى^٣ ثمناً من الكتاب إذا حُرّف عن مواضعه ولا عندهم أنكر^٤ من المعروف، ولا أعرف^٥ من المنكر!».

٤٥٥٤

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى الله بقلب كسير وأنين متواصل من مثل هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء والقضاة من عبدة الأهواء والشهوات الذين مردوا على الغرور وحب الذات، فقال عليه السلام: «إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً». والواقع هو أن الإمام عليه السلام ينعتهم بصفات أخرى استمراراً لما وصفهم به في السابق، فحياتهم بأكملها جهل في جهل فلم يكن موتهم سوى ضلال في ضلال (ففي الحقيقة ان العبارة الثانية نتيجة حتمية للعبارة الاولى) فكيف لا يموت على الضلال من يفني عمره في الجهل. أما الصفة الأخرى لهم والتي تعدّ علامة فارقة للتعرف عليهم هي: «ليس فيهم سلعة^١ أبور^٢ من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق^٣ بيعاً ولا أغلى^٤ ثمناً من الكتاب إذا

١. «سلعة» على وزن فرقة، المتاع والبضائع التجارية، وفي الأصل جاءت من مادة «سَلَع» بمعنى الفتحة أو الفرجة أو الشق، وتطلق على ثغرة الجبل أو شق الجبل، وبما أن البضائع التجارية توضع بشكل علني في منظر ومرآى العيون، لذلك سميت «سلعة».

٢. «أبور» من مادة «بُور» على وزن غُور بمعنى الهلاك والفساد، ومن هنا يطلق هذا اللفظ على الركود في السوق لأنه يتسبب في أضرار لرؤوس المال.

٣. «أنفق» من مادة «نفاق ونفوق»، وفي الأصل بمعنى الزوال والانعدام، ومن هنا يقال للعطاء والصرف

صرف عن مواضعه». إنهم يريدون قرآناً ينسجم مع أهوائهم وأغراضهم الفاسدة ونياتهم السيئة، ولما كان القرآن بتفسيره الحق لا ينسجم مع تطلعاتهم، فهم ينبذوه ويعمدون إلى تحريفه وتفسيره برأيهم وما تمليه عليهم خيالاتهم.

والنقطة الجديرة بالذكر هنا هي أنهم يعيشون في وسط يكن للقرآن منتهى القدسية والاحترام والاكبار على أنه وحي الله الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ؛ الأمر الذي يدفع بهم ولتحقيق أغراضهم ومآربهم إلى التظاهر بالانضواء تحت رايته فيسعون جاهدين لاضفاء الصيغة القرآنية على تحريفاتهم وتفسيراتهم الخاطئة، فيعود هذا الكتاب السماوي الذي يفيض نوراً وهداية إلى وسيلة لاضلال الناس.

أما الصفة الأخيرة التي ينعتها بهم الإمام عليه السلام فهي «ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر».

ملاحظة

التفسير بالرأي وقلب الحقائق

إن أعظم فارق بين المؤمنين المتقين وعديمي التقوى إنما يكمن في كون الفريق الأول يتعامل مع القرآن الكريم والأحكام الشرعية كأصل ثابت ويسعى لتكليف إرادته وشؤونه على ضوئه، فإن شعروا بأنهم أخطأوا أو خرجوا من دائرة تلك الأحكام ندموا وتضرعوا إلى الله وطلبوا منه العفو والمغفرة «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ».

أما الفريق الثاني الأناني المغرور فهو يمنح هذه الأصالة لإرادته وأهوائه الطائشة التي لا تعرف القيود والحدود، فهو يسعى لتكليف الآيات القرآنية مع أهوائه ورغباته؛ ولا عجب

﴿١٥٥﴾ «انفاق»، والظاهر بان ذلك يطلق على الاموال التي تصرف أو تنفق، أي التي تخرج من اليد، وإذا استفيد من اللفظ في موضوع الانفاق والعطاء فيكون معناها، البذل والمساعدة، حيث يقصد بها الاموال التي يتم انفاقها.

ويطلق أيضا على رواج الأمتعة في السوق «نفاق» على وزن «طلاق» وذلك لانها تُشترى بسرعة من قبل الناس، وبذلك تخرج من السوق.

فهو يرى نفسه الأصل والقرآن الفرع، فالأحكام الإلهية محترمة لديه ما كانت منسجمة مع هواه وهوسه، فان لم تكن كذلك ضربها عرض الجدار. ومن هنا وصفه القرآن بالازدواج في التعامل مع الآيات القرآنية «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ» فهو مصداق بارز لقوله سبحانه «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ». أما الاسلوب الآخر الذي درج عليه هذا الفريق فأنما يكمن في التحريف المعنوي للقرآن وتفسيره برأيه، ولا ينشد من ذلك سوى خداع الناس أحياناً أو خداع نفسه أحياناً أخرى، وهذا ما ذمته بشدة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. فقد أشار القرآن الكريم إلى اليهود التي مارست هذا الاسلوب بالقول: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^١ ومن المسلم به أن مثل هؤلاء الأفراد لا يسلمون لأية حقيقة تطرح عليهم، أنهم كخفافيش الليل التي تعادي الشمس الحقة، وفوق ذلك أنهم لم يؤمنوا بالله طرفة عين؛ ولذلك ورد في الحديث النبوي الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله جل جلاله: ما آمن بي من فسر برأيه كلامي»^٢.

كما قال ﷺ: «أشد ما يتخوف على أمتي ثلاث: زلة عالم، أو جدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم»^٣.

أما الحديث عن التفسير بالرأي ومفهومه والأخطار المترتبة عليه فهذا ما سنعرض له في محله في الأبحاث القادمة إن شاء الله.



١. سورة البقرة / ٧٥.

٢. بحار الأنوار ١٠٧/٨٩.

٣. بحار الأنوار ١٠٨/٨٩.



الخطبة



في ذم اختلاف العلماء في الفتيا وفيه يذم أهل الرأي ويكل أمر الحكم في أمور الدين للقرآن.^١

القسم الأول

«تَرَدُّ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرَدُّ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقَضَاءُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُمْ وَاجِدًا وَنَبِيِّهِمْ وَاجِدًا وَكِتَابُهُمْ وَاجِدًا.»

❦❦❦

١. طبق ماورد في مصادر نهج البلاغة بشأن سند الخطبة، رواها محمد بن طلحة الشافعي في كتاب مطالب السؤال ١٤١/١ وصرح بأن محمد بن طلحة وان عاش بعد الشريف الرضي إلا أن رواية هذه الخطبة مع بعض الاختلاف الطفيف دليل على وجود مصدر آخر لديه غير نهج البلاغة، ثم أضاف: يستفاد من رواية القاضي نعمان المصري في «دعائم الإسلام» الذي عاش قبل الشريف الرضي أن هذه الخطبة كانت معروفة عند الشيعة. والذي يستفاد من كلام محمد بن طلحة أن هذا الكلام هو جزء من الخطبة السابقة، والواقع أنهما خطبة واحدة مع سابقتها فهي مرتبطة بها تماماً، ولذلك يبرز هنا هذا السؤال: لم فصلهما الشريف الرضي عن بعضهما؟ ذهب صاحب مصادر نهج البلاغة إلى احتمالين:
الأول أن يكون الشريف الرضي نقلهما من مصدرين، والآخر أنه كتب حقاً، ومن هذا الكلام؛ أي أن هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة، إلا أن نساخ نهج البلاغة التيس عليهم الأمر فكتبوا «ومن كلام له عليه السلام» ليفيدوا كلاماً مستقلاً. (مصادر نهج البلاغة ١/٣٦٢ مع شيء من التوضيح).

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض المحققين - كما ذكرنا سابقاً - أنّ هذه الخطبة هي جزء من الخطبة السابقة وقد فككها الشريف الرضي (ره)؛ الأمر الذي يؤيده مضمون الخطبة ومحتواها؛ فالخطبة السابقة تحدثت عن القضاة والجهال المنحرفين الذين يصدر عن الأحكام الجائرة في قضائهم بما يهدد بالصميم أمن الأمة وصيانة عرضها وأموالها وأنفسها وبالتالي استئثار الفوضى والفساد في صفوف المجتمع.

كما تحدثت هذه الخطبة هي الأخرى عن القضاة الذين يستندون في أحكامهم إلى الأدلة الواهية الضعيفة من قبيل القياس والرأي والاستحسان فتوصلهم إلى نتائج خاطئة، والأنكى من ذلك يصوب رئيسهم كل هذه الأحكام المتناقضة ويرى فيها أحكام الله المطابقة للواقع. ثم ينطرق الإمام عليه السلام إلى ابطال نظرية التصويب (النظرية التي ترى أن آراء القضاة وفتيا الفقهاء تمثل الأحكام الإلهية الواقعية رغم تضادها وتضاربها مع بعضها)، على أساس الأدلة المنطقية التي تفند مثل هذه العقيدة، ثم يكشف النقاب عن السبيل الذي يقود إلى الحق في هذه القضايا الإسلامية التي ضل فيها الكثيرون.

والخطبة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الحديث عن الأسلوب الذي اعتمده القضاة في تعاملهم مع القضايا والتي تستبطن الأحكام المتناقضة التي تخالف أحكام الله.

والقسم الثاني: في ابطال النظرية التي تصرح بصواب الجميع.

وأخيراً القسم الثالث الذي يتحدث في الإمام عليه السلام عن عظمة القرآن وكونه المرجع الفصل في حل جميع الاختلافات.



الشرع والتفسير

ما علة كل هذا الاختلاف؟

يستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم

فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله» ثم أردفه ﷺ بالقول «ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلهم واحد أو نبيهم واحد! وكتابهم واحد».

ولعل هذه المسألة تبدو عجيبة للأعم الأغلب من الناس صعبة التصديق لديهم في أن تصادق جميع الآراء المتضاربة والمتناقضة على أنها أحكام الله؛ إلا أنها واقع قائم تبلور بشكل عقيدة لدى طائفة إسلامية من أبناء العامة. ولو تأملنا العلل والدوافع التي ساقته هذه الطائفة إلى هذا الاعتقاد - والذي سنتطرق إلى تفاصيله في الأبحاث القادمة - سنكتشف أنهم جعلوا أنفسهم في زاوية ضيقة حرجة لم يبق أمامهم من سبيل للخروج من هذا المأزق سوى اللجوء إلى عقيدة التصويب.

إلا أن الإمام ﷺ يوجه ضربة قاصمة إلى دعائم هذه العقيدة المنحرفة بقوله «واللهم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد».

فما لاشك فيه لا يصدر من الله الواحد في مسألة واحدة سوى حكم واحد، فهو العالم بكافة الحقائق المحيط بجميع الأشياء فيحكم فيها بحكم واحد على ضوء المصالح والمفاسد. فلا يخطئ في هذا الحكم ولا من سبيل للنسيان إلى ذاته المقدسة ليختلف الحكم ولا يندم ولا ينكشف له بمرور الزمان ما كان مجهولاً - إذن فلا يمكن تصور الاختلاف من جانب الله أبداً.

أضف إلى ذلك فإن نبيهم واحد، وهو معصوم في اصدار الأحكام، فبيّن الحكم الإلهي دون زيادة أو نقيصة، وعليه فليس هنالك اختلافاً من جانبه أيضاً. وأخيراً كتابهم واحد؛ الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس للتحريف من سبيل إليه، فهو يستند إلى الوحي الإلهي الذي يأبى الاختلاف والتضاد؛ فهو كتاب الله «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»^١.

إذن فليس هنالك اختلافاً من جانب الكتاب. فهذه العبارات في الواقع مقدمة لما سيأتي

من كلام في أنّ هذا الاختلاف إنّما ينبع من أفكارهم القاصرة وعجزهم العلمي، وبعبارة أخرى فإنّ هذه العبارات اجابة ورد على مسألة التصويب التي تعرض لها الإمام عليه السلام بصورة مفصلة لاحقاً.

والواقع هو أنّ الاعتقاد بالتصويب وصحة الآراء المتناقضة إنّما هو انحراف عن أصل التوحيد ونزوع نحو نوع من الشرك. فالتوحيد الإلهي يعني أنّ الله واحد، وتوحيد النبوة يرى أنّ نبوة أولي العزم واحدة في كل عصر، وتوحيد الشريعة في أنّ الكتاب السماوي واحد. وعليه فالميل نحو تعدد الأحكام الواقعية ليس سوى الشرك الذي يتقاطع صراحة وأصل التوحيد.

تأمّلات

١- مسألة التصويب ونشأتها

تعتبر هذه المسألة من أهم المسائل الإسلامية ذات الصلة الحميمة بمسألة «الاجتهاد» و«الرأي» و«القياس» و«الاستحسان» وما إلى ذلك، كما ترتبط بالأحداث السياسية والتاريخية التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله. وإليك شرحها باختصار بعيداً عن الاطالة والخروج عن أسلوب البحث:

١- أنّ عصر الرسالة كان مفعماً بالأحداث المعقدة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بحيث لم تدع للمسلمين من مجال للوقوف على كافة الأحكام، وإن بينت اصولها الاساسية في القرآن.

٢- لقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله بحيث كانت تظهر مسائل جديدة كل يوم في الأحكام الفقهية الإسلامية حتى رأى المسلمون أنفسهم أمام كم هائل من المسائل المستحدثة ولم يروا أجوبتها في الأحاديث النبوية الشريفة.

أضف إلى ذلك منع بعض الخلفاء (عمر) الصحابة من تدوين السنّة^١ مخافة أن تختلط

١. المرحوم العلامة الأميني ذكر في المجلد السادس من الغدير الأدلة على هذه المسألة من أهم مصادر

بالقرآن، حتى اندثرت أغلب أحاديث رسول الله ﷺ، فأصبح هناك نقصاً حاداً في المصادر الإسلامية، حتى رأى الفقهاء ولا سيما الخلفاء الذين كانوا يشهدون كل يوم هجوم المسائل الفقهية الجديدة أنهم يعيشون حرجاً شديداً، بحيث إذا زعموا أن الإسلام لا يمتلك الردود تجاه مختلف القضايا الحقوقية والجزائية والفردية والاجتماعية، فند زعمهم بالآية القرآنية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^١.

فالدين الخاتم الذي لا يعرف معنى للمكان والزمان بل يتصف بالعالمية والخلود لا بد أن يلبي كافة الحاجات على مدى الدهور والعصور إلى نهاية الدنيا، ولكن كيف بذلك مع هذه الأحاديث القليلة التي نقلت عن رسول الله ﷺ. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن هذا المأزق الحرج إنما نشأ من تجاهل وصية رسول الله ﷺ وحديثه المعروف بحديث الثقلين الذي قرن فيه العترة الطاهرة من أهل بيته بالقرآن الكريم وأن الأمة ان تمسكت بهما معاً فاتها لن تضل بعده أبداً^٢ فلو عمل المسلمون بهذه الوصية وتلقوا أحاديث الأئمة المعصومين التي تمثل الامتداد الطبيعي لأحاديث رسول الله ﷺ فإن مشكلة لم تكن لتحدث قط ولم يشهد المسلمون هذه المعضلة التي عصفت بالفرق الإسلامية، وهذا بعينه ما جعل أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) لا يشعرون بنقص تجاه أية مسألة من المسائل الفقهية، وقد نقلت الآلاف المؤلفة من أحاديث هذه العترة لتمكن فقهاء الإمامية من التعامل مع كافة القضايا الفقهية على ضوء النظرة الإسلامية.

٣- أخيراً ويهدف خروج فقهاء العامة من هذا المأزق والطريق المسدود لم يكن لهم من سبيل سواء اللجوء إلى القياس والاستحسان والاجتهاد بالمعنى الأخص وتشريع القوانين والأحكام من الفقهاء - فانبهروا ليقسموا المسائل إلى قسمين: مسائل منصوصة ومسائل لانص فيها (أي المسائل التي ورد بشأنها حكم في الكتاب والسنة والمسائل التي لم يرد فيها نص في

١- العامة من قبيل سنن ابن ماجة وسنن الدارمي ومستدرک الحاكم في تذكرة الحفاظ وكنز العمال وغيرها تحت عنوان «نهى الخليفة عن الحديث» وبين كيف ان عمر نهى عن تدوين أحاديث رسول الله ﷺ وهدد بالحبس والنفي كل من رواها.

٢- سورة المائدة / ٣.

٣- لقد تحدثنا بالتفصيل في كتاب نفحات القرآن ج ٩ بحث «الولاية والإمامة العامة في السنة» عن حديث الثقلين وتواتره في المصادر الروائية للفريقيين ومصادره المعروفة في صحيح مسلم والترمذي والدارمي ومسنده أحمد وخصائص النسائي ومستدرک الصحيحين وسنن البيهقي وغيرها من المصادر.

الكتاب ولا السنة). فافتوا في المسائل المنصوصة طبق ماورد في النص. وأمّا المسائل التي لم يرد فيها نص فقالوا: حل المشكلة يكمن في أنه إن كان له شبيه ونظير في الأحكام الإسلامية قاسوا عليه، مثلاً إذا ورد في باب الصلاة حكم قاسوا الصوم بذلك الحكم، ان ورد حكم في الحج قاسوا عليه أحكام العمرة، وإذا لم يكن هناك من شبيه في الأحكام الإسلامية يجتمع الفقهاء ويتدارسوا مصالح ومفاسد ذلك الأمر ثم يتخذوا بشأنه حكماً وهذا ما أسموه بالاجتهاد (بالمعنى الأخص).

وبعبارة أخرى فان هناك من قال صراحة: ما لم يرد فيه النص ليس له في الإسلام قانون خاص، وهذه وظيفة الفقهاء في أن يضعوا له حكماً من خلال الظن وتخفيف ثقل المصالح والمفاسد وما يروونه أقرب إلى المصلحة. وهكذا أصبح الاجتهاد بمعنى حق الفقيه في التشريع متداولاً بينهم.^١

وهنا لا بدّ من الالتفات إلى أن للاجتهاد معنيان مختلفان إذا لم يميز بينهما فان ذلك يؤدي إلى عدّة نتائج سيئة:

المعنى الأول للاجتهاد هو الاجتهاد العام والذي يعني استنباط الأحكام من الكتاب والسنة وسائر الأدلة الشرعية. وهذا هو الاجتهاد الذي يعتقد به كافة علماء الشيعة، وهو الاجتهاد الذي أنكره الأخباريون قولاً واعتقدوا به عملاً، لأن كبار الأخباريين يستدلون بالكتاب والسنة لاثبات الأحكام الشرعية كما يراعون أحكام العام والخاص والمطلق والمقيد وأمثال ذلك.

المعنى الثاني للاجتهاد هو الاجتهاد الخاص وهو الاجتهاد في المسائل التي لم يرد فيها نص في الكتاب أو السنة، فيلجأ على ضوئه إلى التشريع وسن الأحكام مع الأخذ بنظر الاعتبار المصالح والمفاسد والتشابه والتناظر. وهذا النوع من الاجتهاد يختص بجمع كثير من علماء العامة وهو ما يصطلحون عليه بالاجتهاد بالمعنى الأخص. وأمّا ما ذكرنا آنفاً بعدم وجود مثل هذا الاجتهاد لدى علماء الشيعة إنّما يعزى إلى الثر الهائل الذي لديهم من أحاديث الأئمة

المعصومين عليهم السلام كما يرون أنّ الموارد التي لا نص فيها قليلة جداً ولا تتطلب الاجتهاد بالمعنى الثاني، وذلك لأنهم يلجأون في مثل هذه الحالات إلى القواعد الكلية أو ما اصطالحوا عليه بـ «الاصول اللفظية» و«العملية» التي تبين حكم المسألة والعجيب أن طائفة من علماء العامة تعتقد بأنّ الموارد التي لا نص فيها أنّها لا حكم لها «ما لا نص فيه لا حكم فيه» وهذه وظيفة العلماء في وضع الأحكام لمثل هذه الحوادث (والالتفات إلى هذه المسألة يعدّ ضرورة لفهم الكلمات القادمة في الخطبة)؛ الأمر الذي يتنافى تماماً وإكمال الشريعة.

٤- إذا ما اعطي حق التشريع ووضع الأحكام في «ما لا نص فيه» للفقيه وبالالتفات إلى كثرة عدد الفقهاء ولكل منهم الحق في التشريع، وليس هنالك من الزام في جمعهم في شورى لتصوب حكماً واحداً فإنّ ذلك سيؤدي إلى اختلاف الآراء وربما تناقضها في المسألة الواحدة وهنا يبرز مأزقاً آخر وهو: هل يمكن قبول جميع هذه الآراء المختلفة على أنّها حكم الله، أم هناك حكم واحد حق والبقية باطل؟ ولما لم يكن هناك من تفاوت بين هذه الآراء لأنّها صادرة من الفقهاء؛ وليس هنالك من حكم واقعي لله ليكون معياراً في تمييز الصحيح من السقيم فسوف لن يبقى هنالك من سبيل سوى التمسك بعقيدة التصويب، أو بعبارة أفضل فقد سقطوا في وادي التصويب وقالوا كل هذه الآراء تمثل الحكم الواقعي! ويعزز ذلك أنّهم يقولون بعدالة الصحابة وأحياناً عدم خطأهم في الرأي، ومن هنا كانت هناك آراء متعددة بعدد المجتهدين في الموضوع الواحد، وكلها تعتبر الحكم الواقعي للمسألة.

فهم حين اعتقدوا بأنّ المرجع في تعيين الخلافة رغم خطورتها إنّما وكل إلى أهل الحل والعقد (العلماء) فما المانع في أن يوكل للعلماء الحق في سن القوانين والأحكام في المسائل الفرعية التي لم يرد نص بحقها - ومن هنا ظهرت عقيدة التصويب بكل نتائجها وأخطارها بين طائفة من المسلمين إثر عدم العمل بوصية الرسول صلى الله عليه وآله والالتزام بحديث الثقلين.

٥- غلق باب الاجتهاد: فقد أدت هذه المسألة إلى تنامي الآراء والعقائد المختلفة والمتضاربة في المجتمع الإسلامي وبين فقهاء المسلمين، لتتخذ صبغة خطيرة، كما كانت السبب في ترديد الأمة في مسائلها الدينية واتاحة الفرصة لأعداء الإسلام بالتفوه ضد الإسلام والمسلمين والأحكام الإسلامية وهنا انبرت طائفة من المسلمين لتوضع حداً لهذا الوضع

المؤسف فارتكبت عملاً قبيحاً تجسد في غلق باب الاجتهاد. فقد صرحوا بأن هذا الحد يكفي ولا يحق لأحد بعد هذا ممارسة الاجتهاد؛ وحيث اختلفت الأمة طوائف في الأحكام الشرعية وذهبت كل طائفة لاتباع عالم. فاخترتوا أربعة من هؤلاء الفقهاء ممن لهم أتباع كثيرون (وهم أبو حنيفة ومالك ومحمد بن ادریس الشافعي وأحمد بن حنبل) ثم الزموا الناس بتقليد أحد هؤلاء الأربعة وأبطلوا سائر الآراء والعقائد للحيلولة دون الاختلاف والتمزق؛ بينما لا نرى هنالك من دليل في الكتاب أو السنة على إمامة هؤلاء الفقهاء الأربعة، وليس لهم أدنى امتياز على من سواهم سوى كثرة أتباعهم، كما لم يرقم الدليل على غلق باب الاجتهاد وحصره بهؤلاء الأربعة لكل عصر ومصر! وكما أشار الإمام عليه السلام في الخطبة رقم ١٦ «ألا وأن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار». فإن هذه الهفوات العظيمة إنما افرزتها الزلات الأولى حتى تبلورت كسلسلة ارتبطت حلقاتها لتؤدي بالتالي بأصحابها إلى النار. لقد خلق غلق باب الاجتهاد اليوم مشاكل عويصة لفقهاء العامة وعلماهم؛ وذلك لأنهم يرون أنفسهم اليوم أمام سيل جارف من المسائل المستحدثة التي ليس لها من حكم في المذاهب الأربعة؛ ومن هنا انبرت جماعة منهم علانية وأخرى خفية تطالب بفتح باب الاجتهاد بوجه الفقهاء والخروج من حالة التوقوع والانطواء على المذاهب الأربعة، كما خاضوا في ضرورة الافتاء في المسائل المستحدثة وإعادة النظر في المسائل السابقة وهم يتساءلون عن عليية حصر الاجتهاد في المذاهب المذكورة، مع العلم قد ظهر العلماء الذين فاقوهم، وحتى على فرض عدم تفوقهم على أسلافهم، فمثل هذا السؤال يبقى مطروحاً، إذا أغلق باب الاجتهاد فمن يتصدى للإجابة على المسائل المطروحة اليوم؟

أما أتباع أهل البيت عليهم السلام فقد بقوا في أمان من هذه العاصفة الهوجاء، فهم لم يعتقدوا بغلق باب الاجتهاد (طبعاً الاجتهاد بالمعنى الأول لا الثاني) طرفة عين أبداً، وقد منحوا فقهاءهم وعلماهم حق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها المعروفة، في ذات الوقت الذي حظروا فيه الاجتهاد بالمعنى الثاني على كائن من كان.

سؤال:

هنا سؤال يطرح نفسه: الاجتهاد بالمعنى الأول هو الآخر يقود إلى الاختلاف وعليه

فليس هنالك من فارق بين الاجتهاد بالمعنى الأول أو الثاني؟

جواب:

إن الالتفات إلى نقطة قد يوضح الجواب على السؤال المذكور، وهي أن الاجتهاد بالمعنى الأول يعني استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، وعليه فالمحور الأصلي للاجتهاد هو نصوص الكتاب والسنة التي يجمع عليها الفقهاء، فهناك الوحدة التي تجمع هؤلاء الفقهاء، وإن كان هنالك بعض الاختلاف في الاستنتاجات؛ إلا أن هذه الاختلافات طفيفة عادة، ومن هنا نرى وحدة آراء الفقهاء في غالبية المسائل المشهورة، ولا يوجد سوى اختلاف بسيط في بعض تفاصيل المسائل.

أما الاجتهاد بالمعنى الثاني فهو لا ينطوي على محور معين يجتمع حوله الفقهاء، بل المعيار لدى كل فقيه فكره ورأيه، ومن هنا كانت الخلافات لا تعد ولا تحصى، فقد تطالعتنا عدة آراء في المسألة الواحدة؛ الأمر الذي يشوه سمعة الشريعة الإسلامية ويسيء إلى كيانها. أضف إلى ذلك فإن أنصار الاجتهاد بالمعنى الأول الذي يعني استنباط الحكم من القرآن والسنة يقولون: إن دين الله لم ولن يكون ناقصاً، وليس هنالك من واقعة - بالأمس واليوم والغد - إلا والله فيها حكم قد ورد في العمومات والاطلاقات أو الأدلة الخاصة للكتاب والسنة وهي واضحة لدى أئمة العصمة عليهم السلام. فمن بلغ باجتهاده ذلك الحكم فقد أصاب، ومن لم يبلغه فقد أخطأ، فإن لم يقصر في مقدمات الاجتهاد واستفرغ مافي وسعه كان معذوراً عند الله ومأجوراً. وهذا هو الاعتقاد بالتخطئة في مقابل الاعتقاد بالتصويب ولذلك يقول أصحاب هذا الاعتقاد «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد» بينما زعم أنصار الاجتهاد بالمعنى الثاني أن «كل مجتهد مصيب» أي أن كافة الأحكام المتناقضة للمجتهدين والتي تمثل آرائهم هي أحكام إلهية واقعية حقة (لا بد من الالتفات والتأمل في هذا الأمر).

•••••

٢ - نتائج القول بالتصويب وعلق باب الاجتهاد

نشير بصورة مختصرة إلى المفاصد التي ترتبت على القول بالتصويب وعلق باب الاجتهاد:

١- الاعتراف بنقصان الدين (والعباد بالله) من حيث الأحكام والاعتماد على آراء الفقهاء وأفكار الأفراد غير المعصومين من الخطأ في إكمال أحكام الشريعة وسد النقص.

٢- غلق باب الاجتهاد يعني الاعتقاد بعدم أحقية أي فرد في الاجتهاد بعد الفقهاء الأربعة من العامة! لأنّ فتح هذا الباب قد يؤدي أحياناً إلى ظهور عشرات الآراء والفتاوى المختلفة في المسألة الواحدة؛ كما نعلم أنّ غلق باب الاجتهاد، يغلّق الطريق على فقهاء الإسلام في التصدي للرد على المسائل المستحدثة فيزج بمسلمي العالم بمأزق خاتق لا يمكنه النجاة منه بالنسبة للأحكام الشرعية.

فالاقتصار على المذاهب بأربعة تأريخ خطير ذا شجون، كما دل على أنّ هذه البدعة في الإسلام وبسلبها لاستقلالية الفقهاء قد جرت الولايات. وعلى ضوء ما أورده المقرئ في كتاب الخطة المقرئية وكذلك ابن الفوطي وآخرين أنّه لم تكن هناك من ضابطة معينة في انتخاب هذه المذاهب الأربعة سوى أنّ كثرة المذاهب قد أرعبت ولاية البلدان الإسلامية المختلفة وأدت إلى ظهور موجة من الفوضى والهرج والمرج من جانب، ومن جانب آخر أنّ العلل السياسية والاجتماعية هي التي أدت إلى انتشار هذه المذاهب في كافة بلدان العالم الإسلامي؛ وعليه فلم يكن بالإمكان اسقاطها. ولذلك توأمت الفقهاء والحكام آنذاك بالوقوف بحزم بوجه كل من يتفوه بما لم يرد في المذاهب الأربعة المذكورة، والعجيب أنّ هذه المسألة قد حدثت في القرن السابع عشر. فقد انطلقت في مصر عام ٦٦٥ وفي بغداد ٦٣١ بحيث قرر أساتذة المدرسة المستنصرية المعروفة في عام ٦٤٥ عدم قبول أي طالب ينتمي إلى غير هذه المذاهب.

وهكذا فقد اغلق باب الاجتهاد بعد مرور سبعة قرون على ظهور الإسلام وبلوغ الاجتهاد ذروته، ليصبح كافة الفقهاء مقلدين لهؤلاء الأئمة الأربعة ففقدوا استقلاليتهم الفقهية. وما هذا إلا نتيجة طبيعية لذلك الانحراف الذي وقع في القرن الأول. فقد أقصيت العترة الطاهرة عدل القرآن الكريم وأحد الثقلين وفتح باب القياس والاستحسان والاجتهاد بالرأي وظهرت هذه الآراء المتناقضة التي جرت الفوضى، فكان كل رأي حكم الله، والمؤسف له هو

أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لم تتخذ مكانها حتى في مصاف المذاهب الأربعة.^١
فالحق أن ذلك الانحراف الأول هو سبب ظهور هذه البدعة، البدعة التي لم يكن هنالك من
سبيل سواها.

٣ - الهرج والمرج الفقهي والقضائي الذي أفرزته الآراء المتعددة والمتناقضة التي قد يصل
عددتها أحياناً إلى عدد المجتهدين؛ ومما لاشك فيه أن المشاكل آنذاك تفوق مشاكل المجالس
التشريعية في عصرنا الحاضر بكثير، وذلك لأن مجالس العصر تشهد على الأقل حضور
الوكلاء لبلد أو منطقة من العالم في مكان واحد فيتخذ القرارات على أساس أكثرية الآراء التي
تتمتع بالوحدة كحد أدنى بالنسبة لمنطقة معينة؛ أما الاجتهاد بالرأي والتصويب فهو يسمح
لكل مجتهد من المجتهدين أن يشرع بمفرده، والأعجب من ذلك كل ما يتوصل إليه من حكم
فهو حكم الله الواقعي، وخلافاً لمجالسنا المعاصرة التي تكون أحكامها أحكاماً وضعية بشرية،
فإن أحكام المجتهدين آنذاك تمثل الأحكام الإلهية التي يلزم الناس باتباعها.
وأخيراً لا نروم الخروج من بحثنا في **الشرع والتفسير** ولذلك نوكل من أراد المزيد
بهذا الشأن إلى المصادر المعروفة.^٢



١. للوقوف على التفاصيل انظر كتاب «توضيح الرشد في تاريخ عصر الاجتهاد» للمحدث المحقق المرحوم
الحاج الشيخ آقا بزرك الطهراني.
٢. أنوار الأصول ٥١٩/٢ - ٥٤٣ و ٦٣٢/٣ - ٦٥٨، المستصفي للقرافي ٢/٢٣٤، الأصول العامة للفقهاء المقارن /
٣٠٥ و ٦١٧.

القسم الثاني

«أَفَأَمَرَ هُمُ اللّهُ سُبْحَانَهُ بِالاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَا هُمُ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى اِتِّمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًا فَقَصَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَاللّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وَفِيهِ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا».

❦❦❦

الشرح والتفسير

الاختلافات غير المبررة

يفند الإمام عليه السلام في هذا الكلام بالأدلة المحكمة مسألة الاجتهاد بالرأي وتصويب آراء المجتهدين وبالتالي حق الفقهاء في اصدار الأحكام، ثم يصنف الإمام عليه السلام ذلك إلى خمسة أسس ويغلق كافة الطرق على هولاء، ثم يبين بجلاء تام خطأ هذا اللون من التفكير.

فقد قال عليه السلام بعد أن تساءل على نحو الاستنكار عن السب الذي يقف وراء هذا الاختلاف في المسائل الفقهية «أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه».

حقا لا يمكن قبول هذا الامر، فالله واحد أحد يدعو إلى الوحدة ويحذر من الاختلاف والفرق فهو القائل: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا»^١ وبناءا على هذا فان

الاختلاف تابع من موضع آخر، رام الإمام عليه السلام الإشارة إليه «أم نهاهم عنه فعصوه» فالحق أن هذا الأمر يشكل أحد مصادر الاختلاف؛ غير أن القضاة الذين يوردون عدّة آراء بشأن مسألة واحدة لا يسعهم الاقرار بمثل هذا الاحتمال!

و عليه فان ردّهم على هذا السؤال سيكون بالسلب. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الاحتمال الثالث فقال عليه السلام: «أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه». من المسلم به أنه ليس هنالك مسلم يقول بنقصان دين الله وإن الله استعان بالعباد لا كماله، بل بالعكس قد صرحت الآيات القرآنية باكمال هذا الدين من جميع الجهات «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا»^١.

ثم يورد الإمام عليه السلام الاحتمال الآخر الذي يبدو بطلانه واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار لا أم كانوا شركاء له، قلمهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى «فن البداهة أن من قال يتعدد الآلهة فأنه عليه أن يؤمن بأن لكل منهم سهم في التشريع واصدار الأحكام؛ فهل للمسلم الذي ينطلق في عقيدته من التوحيد أن يعتقد بوجود الشركاء ويرى في الفقهاء والقضاة شركاء لله؟ وبعبارة أخرى فان أحد فروع التوحيد (بعد توحيد الذات والصفات) هو توحيد الأفعال، أحد تفرعات توحيد الأفعال هو توحيد الحاكمية والتشريع؛ وعلى ضوء ذلك فان الحكومة لله وحده وتنتهي إليه، فلا حكم إلا حكمه ولا أمر إلا أمره!

ولو لم يكن الأمر كذلك لاختفى الحق سبحانه بقسم من التشريع ثم يفوض القسم الآخر منه للعقول البشرية العاخرة.

وهل لغيره من إحاطة قامة بمصالح الأحكام ومفاسدها! أو يجوز على الله أن يفوض زمام أمور عباه لمشرعين يصدر كل منهم حكماً وقانوناً على ضوء ظنه ورأيه القاصر بحيث يعيش العباد في حالة من الفوضى والقلق والحيرة في ظل الآراء المتناقضة المتضاربة!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى آخر احتمال فيقول: «أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه». لا شك ولا شبهة أنه ليس هنالك من ينسب

مثل هذا القول إلى النبي ﷺ؛ وذلك لأنّ حتى أولئك الذين لا يقرون بمسألة العصمة بصورة مطلقة ويظنون بعدم وجود الدليل على عصمة النبي ﷺ في كافة الميادين، فإنّ الحد الأدنى أنّهم يسلمون بعصمته في التبليغ وأداء الوحي، حيث لا يبقى من مفهوم للنسبة والرسالة دون الاعتقاد بالمعنى المذكور.

آنذاك يعود الإمام عليه السلام إلى أصل المسألة فيكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهي أنّ الإسلام قد شرع كل ما من شأنه تلبية حاجات البشرية ومتطلباتها، وعليه فالإمام عليه السلام يصادر ما أوردوه من قولهم «ما لا نص فيه لاحكم فيه» بالاستناد إلى قوله «والله سبحانه يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان لكل شيء﴾^١ فالآيتان دليلان واضحان على أن الله لم ينزل ديناً ناقصاً عولهم يستعين باحد لا كماله؛ بل جاء في القرآن كل ما يحتاج إليه، بعضها في العمومات وبعضها الآخر في الأحكام الخاصة التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله في مبحث التأمّلات ولم ينس الإمام عليه السلام أن يسلب حربة التناقض من القضاة الذين يستشهد كل منهم بآية يتباين مفهوماً وسائر الآيات فقال عليه السلام: «وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لا إختلاف فيه» ثم يعزز الإمام عليه السلام دعوى عدم الاختيارات في الآيات القرآنية متشهداً بالقرآن «فقال سبحانه! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً»^٢.

فالواقع أنّ علم الإنسان محدود، وأنّ تقادم الزمان أو تغيير المكان وكشف الظواهر الجديدة إنّما يدعو إلى تغيير أفكاره باستمرار، ومن هنا فقد يورد كاتب بعض الموضوعات المتناقضة خلال حياته، وليس ذلك بعجيب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن رصيد الإنسان النسيان، فلعله يتحدث اليوم عن شيء فينساها بعد شهر أو سنة ليتحدث عن خلافه، إلّا أنّ هذه الأمور لا تصدق على الباري سبحانه العالم بكل شيء «وما كان وما يكون» والعالم بالمحال لو كان كيف يكون، فليس لمرور الزمان من أثر على ذاته المقدسه؛ فهو فوق الزمان والمكان، وناهيك عن هذا فليس هنالك من مفهوم للنسيان بالنسبة لله سبحانه،

١. لا بدّ من الالتفات إلى أن قوله «ما فرطنا في الكتاب من شيء» هو نص الآية ٣٨ من سورة الانعام، أمّا قوله «فيه تبيان لكل شيء» فهو مضمون الآية ٨٩ من سورة النحل لا عينها «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء».

٢. سورة النساء / ٨٢.

فكيف الحال هذه ان يصدر عنه أدنى إختلاف أو تناقض.

وزيادة الكلام أنّ الإمام عليه السلام قد قند ببيان واضح بليغ عقيدة التصويب والتمسك بالقياس والاستمسان والاجتهاد بالرأي، فالله سبحانه أنل ديناً كاملاً وقرآناً جامعاً يلبي كافة حاجات البشرية، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتوانى في تبليغ الرسالة، كما أنّ الله لم يقبل للأمم الإسلامية أي إختلاف ودعا الملة مراراً إلى الإخاء والوحدة. وبناءً على ما تقدم فما تفسير الاعتقاد بصحة الآراء المتناقضة وتصويب الفتاوى المختلفة على أنّها جميع حكم الله المطابق للواقع، سوى الانحراف والضلال.

شمولية القرآن

لقد تضمن القرآن الكريم الآيات الصريحة التي تبين كافة أمور المسلمين ومتطلباتهم وحاجاتهم إلى يوم القيامة. كما صرّحت الروايات الإسلامية بهذا الأمر، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ان الله تبارك وتعالى انزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا وقد أنزل الله فيه»^١ ولكن هنا يبرز هذا السؤال: إننا نرى أحكاماً مختلفة لم ترد في القرآن الكريم وهذا الأمر لا ينسجم وشمولية القرآن الكريم؛ مثلاً لم يرد في القرآن شيء بشأن عدد ركعات الصلاة والسلع التي تجب عليها الزكاة وتصاب الزكاة وبعض مناسك الحج وعدد اشواط السعي بين الصفا والمروة والطواف ومسائل أخرى في القصاص والحدود والديات وآداب القضاء وشرائط المعاملات وأنواع المعاملات المستحدثة وما شاكل ذلك من الموضوعات الشرعية. وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى ثلاثة أمور:

الأول: أنّ القرآن يشتمل على الأحكام الكلية والقواعد العامة والعمومات والاطلاقات التي يتم حل أغلب المشكلات على ضوءها. فمثلاً الآية «**أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**»^٢ في المعاملات والاية

١. تفسير نور الثقلين، ٣/ ٧٤، اصول الكافي، ١/ ٥٩ (هناك احتمالان بشأن هذه الرواية: الأول ان «لو» شرطية، والأخرى أنها حرف تعني و«إلا» احياناً للإستثناء واخرى للتنبية، راجع مرآة العقول، ١/ ٢٠٢).

٢. سورة المائدة / ١.

﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^١ في أبواب العبادات و﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ﴾^٢ في حقوق الوالدين وسائر الآيات من هذا القبيل التي من شأنها الإجابة على أغلب الأسئلة والمسائل المستحدثة أضف إلى ذلك فإن القرآن الكريم صرح بأن السنة النبوية تمثل إحدى المصادر الرئيسية للأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^٣ كما وصفه في آية أخرى بأنه مبين القرآن ومفسره ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^٤.

النبي ﷺ من جانبه وعلى ضوء حديث الثقلين فقد جعل أهل بيته وعترته ﷺ من مصادر الأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية، ولو التزم المسلمون بوصية القرآن والنبي الأكرام ﷺ بما بقي هناك سوال في مجال الأحكام دون إجابة.

وأخيراً يستفاد من الروايات الإسلامية المختلفة أن للقرآن ظاهر وباطن، وظاهره المعاني والمفاهيم المعلومة لدى الجميع ويعملون على ضوئها، أما باطنه فهو معاني ومفاهيم أخرى ليس لاحد من سبيل إليها سوى النبي ﷺ والأئمة المعصومين ﷺ، الذين يتعاملون مع الآيات وفق روية وإدراك آخر.

و بناءً على هذا لو إصطف الثقلان (القرآن وأهل البيت) ولم يفصلهما المسلمون عن بعضها، لا استفادوا من هذا العدل القرآني الذي يحل أغلب معضلاتهم.

فقد قال الإمام الصادق ﷺ: «أنا أعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خير السماء وخير الأرض وخير الجنة وخبر النار وخبر ما كان وما هو كائن، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي ان الله يقول فيه تبين كل شيء»^٥ وجاء في نهج البلاغة

١. سورة الحج / ٧٨.

٢. سورة البقرة / ٢٣٣.

٣. سورة الحشر / ٧.

٤. سورة النحل / ٤٤.

٥. اصول الكافي، ١ / ٦١ (كما نقل المرحوم الكليني في هذا الباب عدّة روايات).

«و في القرآن نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم»^١ وقال ﷺ في موضع آخر بشأن القرآن «إلّا أنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم»^٢ ولم يقتصر نقل هذه الأحاديث على أهل البيت عليهم السلام، بل نقلت من طرق العامة أيضا، فقد روى السيوطي في الدر المنثور عن الصحابي المعروف ابن مسعود «أنّ فيه علم الأولين والآخرين». وروى عن الاوزاعي في تفسير الآية «و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء». قال: بالسنة»^٣. وقد روى السيوطي في كتاب الاتقان هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «في كتاب الله نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»^٤ ثم قال: وقد أورده الترمذي وغيره.



١. نهج البلاغة، الكلمات قصار، الحكمة ٣١٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

٣. الدر المنثور ٤/ ١٢٧-١٢٨.

٤. الاتقان، نوع ٦٥ من العلوم المستفادة من القرآن.

القسم الثالث

«وإنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ».

﴿﴾

الشرح والتفسير

أناقة القرآن وعمقه

يختتم الإمام عليه السلام خطبته - في القسم الثالث - بوصف القرآن الكريم بخمس صفات تنطوي على حقائق عظيمة بشأن أهمية القرآن، مشيراً إلى ضرورة عدم غفلة القضاة والفقهاء عن هذا القرآن والاستضاءة بنور حقائقه ومعارفه، إلى جانب الشعور بأن القرآن يغنيهم عما سواه من المصادر الأخرى سوى السنة التي تستند القرآن يغنيهم عما سواه من المصادر الأخرى سوى السنة التي تستند إلى القرآن وتفسير مضامينه. فقد قال في صفته الأولى «وإنَّ القرآنَ ظاهره أُنِيقٌ»^١.

فالعبرة إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته، الفاظه موزونة وعباراته رصينه وآياته وقع ونعمة خاصة لا تجعل الإنسان يشعر بالكلل أو الملل مهما تلاها، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى نتركها لعدم الخروج من اصل البحث^٢.

وأما صفته الثانية «وباطنه عميق». غالباً ما يبتعد الإنسان عن رصانة المعنى إذا ما خاض في جمال الظاهر، والعكس صحيح أيضاً فعادة ما يتعذر على الإنسان حسن اختيار الألفاظ إذا

١. «أُنِيقٌ» من مادة «انق» على وزن رمق بمعنى الشيء الجميل.

٢. للوقوف على المزيد راجع كتاب نفحات القرآن، ١١٤/٨ بحث «اعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة».

رام الدقة في أداء المعنى، والخلاصة تبدو عملية الجمع بين المعنى واللفظ ليست بالهينة؛ الحقيقة التي يمكن مشاهدتها بوضوح في القرآن الكريم الذي جمع العمق في المعنى إلى جانب الرصانة والسبك في اللفظ.

أما عمق القرآن فقد تلاشت على سطحه كافة الأفكار وتصاغت أمامه جهايزة العقول، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الثابت من ذاته المقدسة المطلقة، ولعل المتتبع يشعر بحقيقة هذه الكلمات أراما طالع أي من السور القرآنية لتتجسد أمامه بوضوح الصفتين التين أوردها الإمام عليه السلام بشأن القرآن.

وأما الصفة والرابعة للقرآن فهي «لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه». ولعل الفارق بين هاتين العبارتين هو أن العبارة الأولى تتحدث عن خلود العجائب والحقائق القرآنية السامية، وذلك لأننا الكثير من الكتب والمؤلفات والمصنفات التي كانت أعجوبة في زمانها، إلا أن تقادم الزمان قد سلبها تلك الميزة وجردها من أعجوبتها، والقرآن ليس كذلك، فلا يزداد قارىء القرآن ومعبده إلا لذة وحلاوة وطلاوة، بل إن قراءته قد تشكف له كل يوم ما كان غائبا عنه بالأمس؛ فتظل لألفاظه ومعانيه مواقع السحر في النفس.

وأما العبارة الثانية فهي تتحدث عن أسرار القرآن التي تتكشف يوما بعد آخر. أما الصفة الأخيرة للقرآن فهي «و لا تكشف الظلمات إلا به» ليس فقط ظلمة الجهل وظلمة الكفر وإنعدام الإيمان والتقوى، بل ليس لظلمات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية دون التعاليم القرآنية. فالיום وإن ازدهر العالم من حيث الصناعة وقطع أشواطاً في الرقي التطور، مع ذلك فهناك الظلمات الهائلة التي ألقَتْ بظلالها المشؤومة على المجتمعات البشرية التي فأن من المعارك والقتال وسفك الدماء واستتضحال أنواع الظلم والجور والاضطهاد والفقر والحرمان، والأنكى من كل ذلك إنعدام الأمن والاستقرار وسيادة الفوضى والقلق والاضطراب، وما ذلك إلا نتيجة مباشرة لغياب معاني الإيمان والتقوى والفقر الاخلاقي والمعنوي، وليس هنالك من سبيل للخروج من هذه المآزق سوى بالتمسك بالقرآن بل الأدهى من ذلك هجر القرآن واللجوء إلى الآراء الظنية والأفكار البشرية القاصرة على مستوى الأحكام من قبل قطاعات واسعة من المسلمين.

تأملان

١- القرآن والمسائل المستحدثة

هنالك سوال يقتدح في الأذهان وهو: أن المجتمع البشري في حالة حركة وتطور مستمر بحيث تستجد يوميا عدّة مسائل على الساحة، فكيف للقرآن أن يواكب هذه الحركة في حين تتصف أحكامه بالثبات وعدم التغيير؟ وكيف يسعه الردّ على المسائل المستحدثة؟

و للإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك نوعان من الأحكام في القرآن الكريم هما: الأحكام الجزئية والأحكام الكلية. فالأحكام الجزئية من قبيل الأحكام التي ذكرت للصلاة ككيفية الوضوء والغسل والتيمم وسائر المسائل كالقبلة وعدد الصلوات وما شابه ذلك. وأمّا الأحكام الكلية فيراد بها القواعد العامة الواردة في القرآن والتي تتصف بالسعة والشمولية، كقاعدة وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»^١ وقاعدة «لا حرج» «وما جعل عليكم في الدين من حرج»^٢ وقاعدة «لا ضرر ولا ضرار» التي استفيدت من بعض الآيات القرآنية، وهي القواعد التي تلبي المتطلبات الإنسانية في اضفنا إلى القرآن الأصول والقواعد الكلية التي صرح بها الائمة عليهم السلام في كلماتهم. بعبارة أخرى: الموضوعات في حالة تغيير مستمر، أمّا الأصول الكلية فهي ثابتة لا يعترها التغيير، وتغيير الموضوعات لا يعني سوى تبدل أحكامها حيث تخرج من حكم وتتضوي تحت حكم آخر، وعليه فإننا نستطيع اليوم وبلاستناد إلى القواعد الكلية أن نستنبط كافة الإجابات على المسائل المستحدثة التي لم يرد ذكرها على وجه الخصوص في الكتاب والسنة، فجعلها في كتاب نطلق عليه اسم المسائل المستحدثة، ويقال أن أفضل دليل على إمكان الشيء وقوعه (في إشارة إلى وجود مثل هذه الكتب وبكثرة لاغلب فقهاء الشيعة والتي تصدت للإجابة على كافة المسائل المسجدة اليوم على الساحة).

ومن أراد المزيد فليراجع كتب العلماء بشأن المسائل المستحدثة.

١. سورة المائدة / ١.

٢. سورة الحج / ٧٨.

٢- لم لا تنقضي عجائب القرآن

لقد صرح الإمام عليه السلام في عبارته الأخيرة بشأن القرآن قائلاً: «لا تفتنى عجائبه ولا تنقضي غرائبها». فكلما تقادم الزمان واجال العلماء والمفكرون أفكارهم في أسرار القرآن، كشفوا حقائق جديدة كانت خافية عليهم، أضف إلى ذلك فإن حلاوة القرآن وطلاوته حقيقة خالدة لا تعرف معنى للزمان، وهي الحقيقة التي ثبتت لدينا بالتجربة فما أكثر ما قرأنا القرآن وتلونا، ولا نزداد تجاهه سوى حيوية دون أن نشعر بأدنى ملل أو تعب؛ ولا غرو فالقرآن كلام الله، وكلام الله كذاته مطلق لا يقيد بالحدود، فهو ليس كلام المخلوق ليكتسب صفات عقله فكره المعروف بالحدود والزمان والمكان، أضف إلى ذلك فإن الخطاب القرآني متواصل إلى يوم القيامة، فاودعه الله من الأسرار التي تتجدد على مدى الزمان.

ونختتم البحث بحديث الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزداد على الدرس والنشر إلا غضاضة»، فقال الإمام عليه السلام لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد عند كل يوم غرض إلى يوم القيامة»^١.

الخطبة ١٩

ومن كلام له عليه السلام

قال للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب ففضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي، عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ! خَائِكَ ابْنُ خَائِكَ! مُنَافِقُ ابْنُ كَافِرٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى! فَمَا فَذَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالِكٌ وَلَا حَسْبُكَ! وَإِنَّ أَمْرًا دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفُ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفُ!

لَحْرِيٌّ أَنْ يَمُقَّتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلَا يَأْمَنُهُ الْأَبْعَدُ»^١

❦❦❦

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام أنه أسرى الكفر مرة وفي الإسلام مرة وأما قوله: دل على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غر فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عرف النار» وهو اسم للغادر عندهم.

١. جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة عدم وجود الاختلاف بين العلماء في نقل هذه الخطبة، وقد نقلها من عاش قبل السيد الرضي، كآبي الفرج الاصفهاني في كتاب الاغانى، وقد توفي الاصفهاني قبل نشر نهج البلاغة ٤٤ سنة (مصادر نهج البلاغة، ١ / ٣٦٩).

الشرح والتفسير

الاصطدام بمنافق طائش

لابد من الإشارة إلى نقطتين قبل الخوض في شرح هذه الخطبة:

١- جاء في التاريخ بشأن الأشعث أن اسمه الأشعث معدي كرب، وأبوه قيس الأشجّ سمي الأشجّ؛ لأنه شجّ في بعض حروبهم بن معدي كرب بن معاوية. وأم الأشعث كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك.

كان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسُمّي الأشعث، وغلب عليه حتى نُسي اسمه.

٢- أمّا بشأن المناسبة التي دعت الإمام ﷺ لمخاطبة الأشعث بهذه الكلمات فهناك اختلاف بين العلماء فقد ورد في رواية أن أمير المؤمنين ﷺ استوى جالساً على منبر الكوفة فأخرج كتاباً فيه كلام رسول الله ﷺ أنه قال: «المسلمون تتكافؤ دماءهم وهم يد على من سواهم من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والناس أجمعين»^١.

فانبرى الأشعث بن قيس المنافق قائلاً: «هذا والله عليك لا لك» فخفض الإمام ﷺ إليه بصره فخاطبه بهذه الكلمات أمام الملأ. ولعل مراد الأشعث بن قيس إذا كانت دماء المسلمين متكافئة وهم يد على من سواهم، فما معنى قتالك لطائفة من المسلمين؟ (و الحال أن المنافقين الذين أوقدوا نار الجمل وصفين والنهروان كانوا يرون الإمام ﷺ خليفة رسول الله ﷺ فبالإضافة إلى نص النبي ﷺ على خلافته فقد بايعه الناس).

نعود الآن إلى شرح الخطبة، فقد رد الإمام ﷺ على الأشعث بن قيس حين اعترضه بقوله «يا أمير المؤمنين هذا عليك لا لك» فقال: «ما يدريك ما علي مقالي».

حيث أراد الإمام ﷺ أنك لم تفهم كلامي وما أريد أن أقول. فرادي هو دعوة المسلمين إلى الوحدة وانبههم إلى خطاهم في مسألة التحكيم ليرعوا عن تكرار مثل هذه الأخطاء، إلا أنك فهمت الكلام بالعكس. ثم اغلظ عليه ﷺ فقال: «عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين».

و يشهد تاريخ الأشعث وسيرته الخبيثة أنه كان مستحقاً لمثل هذه اللعنة وعلى حد قول ابن أبي الحديد فإن كل فساد في خلافة علي ﷺ وكل اضطراب حدث فاصله الأشعث^٢ ثم

١. ورد في عدة روايات ان المراد بقوله «من أحدث حدثاً» القتل وسفك الدماء وهو المعنى الانسب لهذه

العبارة، راجع وسائل الشعية، ١٩/١١-١٩ ابواب القصاص، الباب ٤ و٨.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٢٧٩.

قال ﷺ «حائك بن حائك، منافق بن كافر».

اختلفت أقول الشراح بشأن المراد من «حائك» فقد حملها البعض على المعنى الظاهري على أن الحياكة كانت شغلاً للأشعث وأبيه وقد كانت مهنة تمارس من الطبقة الوضيعة في المجتمع آنذاك البعيدة عن معاني المعارف الدينية والاداب الاجتماعية والمدنية، غير أن هذا المعنى لا ينسجم وما ورد في ترجمة الأشعث وأبيه؛ لأنهما لم يكونا يعملان بهذه المهنة.

و ذهب البعض الآخر إلى أن المراد بها الإنسان المتكبر والأثاني لأن أحد معاني «حائك» بمعنى الشخص الذي يتبختر في مشيه ويتكبر^١ وأخيراً قيل بأن المراد بها المعنى الكنائي وهو حياكة الأباطيل والأكاذيب وهذا ما كانت عليه سيرة الأشعث وأبيه؛ ولا تقتصر هذه الكناية على اللغة العربية فحسب بل وردت في سائر اللغات أيضاً.

والجدير بالذكر فإنّ هناك رواية أشارت بوضوح إلى هذا المعنى، فقد ورد الكلام عن الحائك عند الإمام الصادق ﷺ فقال ﷺ: «أته ملعون، الحائك ملعون» ثم قال ﷺ في تفسير ذلك «إنما ذلك الذي يحوك الكذب على الله وعلى رسوله»^٢.

إنّما أن الإمام ﷺ عده منافقاً فذلك ممّا لا نقاش فيه لأنّ أفعاله في زمان حكومة الإمام ﷺ إنّما تشير إلى أنّه كان من رؤوس النفاق، فقد كان يشكل أحد العوامل التي أدت إلى شهادة أمير المؤمنين على ﷺ وفشل المسلمين في معركة صفين ونشوب معركة النهروان وبروز مسألة التحكيم، وقد كان في أصحاب أمير المؤمنين ﷺ كما كان عبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله ﷺ كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه.^٣ وزيدة الكلام فإنّ نفاقه أشهر من نار على علم، وأمّا التعبير بالكفار عن أبيه فذلك من مسلمات التاريخ حيث كان من المشركين وقد قتل في الجاهلية إثر خلافات قبلية.

ثم قال ﷺ: «والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك». فقد أورد ابن أبي الحديد: فأما الأسر الذي أشار إليه أمير المؤمنين ﷺ إليه في الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبي في «جهرة النسب» فقال: إنّ مراداً لما قتلت قيساً الأشجّ، خرج

١. «حائك»: وتأتي أحياناً من مادة «حوك» بمعنى الحياكة والنسيج، وتأتي أحياناً من «حيك» بمعنى التكبر والخيلاء أثناء المشي.

٢. وسائل الشيعة، ١٠١/١٢، الباب ٢٣، من أبواب ما يكتب به، الحديث ٢.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٩٦/١.

الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كِنْدَةُ مُتْسَانِدِينَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَلْوِيَةِ: عَلَى أَحَدِ الْأَلْوِيَةِ كَبْسُ ابْنِ هَانِي بْنِ شُرْحُبَيْلِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ مَعَاوِيَةَ الْأَكْرَمِينَ وَيَعْرِفُ هَانِيَّ بِالْمَطْلَعِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَغْزُو فَيَقُولُ: أَطْلَعْتُ بَنِي فُلَانٍ، فَسُمِّيَ الْمَطْلَعُ، وَعَلَى أَحَدِهَا الْقَشْعَمُ أَبُو جَبْرِ بْنِ يَزِيدِ الْأَرْقَمِ. وَعَلَى أَحَدِهَا الْأَشْعَثُ أَبُو جَبْرِ، وَأَسْرَ الْأَشْعَثُ، فَقُدِيَ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ بَعِيرٍ، لَمْ يَفْدَ بِهَا عَرَبِيٌّ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ، وَأَمَّا الْأَسْرُ الثَّانِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَتْ كِنْدَةُ حِجَّاجاً قَبْلَ الْهَجْرَةِ، عَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا كَانَ يَعْضُ نَفْسَهُ عَلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَدَفَعَهُ بَنُو وَالِيعَةَ، مِنْ بَنِي عَمْرٍو بْنِ مَعَاوِيَةَ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ، فَلَمَّا هَاجَرَ ﷺ وَتَمَهَّدَتْ دَعْوَتُهُ، وَجَاءَتْهُ وَفُودُ الْعَرَبِ، جَاءَهُ وَفَدُ كِنْدَةَ، فِيهِمُ الْأَشْعَثُ وَبَنُو وَالِيعَةَ فَأَسْلَمُوا فَأَطْعَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي وَالِيعَةَ طُعْمَةً مِنْ صَدَقَاتِ حَضْرَةِ مَوْتٍ، وَكَانَ قَدْ اسْتَعْمَلَ عَلَى حَضْرَةِ مَوْتِ زِيَادِ بْنِ لَبِيدِ الْبِيضِيِّ الْأَنْصَارِيِّ، فَدَفَعَهَا زِيَادٌ إِلَيْهِمْ، فَأَبَوْا أَخْذَهَا، وَقَالُوا: لَا ظَهْرَ لَنَا، فَابْعَثْ بِهَا إِلَى بِلَادِنَا عَلَى ظَهْرٍ مِنْ عِنْدِكَ، فَأَبَى زِيَادٌ، وَحَدَّثَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ زِيَادِ شَرٍّ، كَادَ يَكُونُ حَرْباً، فَرَجَعَ مِنْهُمْ قَوْمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَتَبَ زِيَادٌ إِلَيْهِ ﷺ يَشْكُوهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ كَانَ الْخَبْرُ الْمَشْهُورُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِبَنِي وَالِيعَةَ: «لَتَنْتَهَنَّ يَا بَنِي وَالِيعَةَ، أَوْ لَا بَعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلًا عَدِيلَ نَفْسِي، يَقْتُلُ مُقَاتِلَتِكُمْ، وَبِشْيءٍ ذَرَارِيكُمْ». قَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَمَا تَمْنَيْتَ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، وَجَعَلْتَ أَنْصَبَ لَهُ صَدْرِي رَجَاءً أَنْ يَقُولَ: هُوَ هَذَا، فَأَخَذَ بِيَدِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَقَالَ: «هُوَ هَذَا».

ثُمَّ كَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى زِيَادٍ، فَوْصُولاً إِلَيْهِ الْكِتَابَ، وَقَدْ تَوَقَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَطَارَ الْخَبْرُ بِمَوْتِهِ إِلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ، فَارْتَدَّتْ بَنُو وَالِيعَةَ، وَغَنَّتْ بَغَايَاهُمْ، وَخَضَبْنَ لَهُ أَيْدِيَهُنَّ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبٍ: كَانَ إِسْلَامُ بَنِي وَالِيعَةَ ضَعِيفًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ. وَلَمَّا حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الْوُدَاعِ، وَانْتَهَى إِلَى فَمِ الشَّعْبِ دَخَلَ أَسَامَةَ بْنُ زَيْدِ لَيْسَبُولِ، فَانْتَظَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَكَانَ أَسَامَةُ أَسْوَأَ أَفْطُسٍ، فَقَالَ بَنُو وَالِيعَةَ: هَذَا الْحَبِشِيُّ حَبَسْنَا! فَكَانَتْ الرَّدَّةُ فِي أَنْفُسِهِمْ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ: فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ زِيَاداً عَلَى حَضْرَةِ مَوْتٍ، وَأَمْرَهُ بِأَخْذِ الْبَيْعَةِ عَلَى أَهْلِهَا وَاسْتِيفَاءِ صَدَقَاتِهِمْ، فَبَايَعُوهُ إِلَّا بَنِي وَالِيعَةَ، فَلَمَّا خَرَجَ لِيَقْبِضَ الصَّدَقَاتِ مِنْ بَنِي عَمْرٍو بْنِ مَعَاوِيَةَ، أَخَذَ نَاقَةً لِعَلَامٍ مِنْهُمْ يَعْرِفُ بِشَيْطَانِ بْنِ حُجْرٍ، وَكَانَتْ صَفِيَّةً نَفِيسَةً، اسْمُهَا شَذْرَةَ، فَمَنَعَهُ

الغلام عنها، وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك وولج، فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حُجر، فقال لزياد: دَعها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، وولج الغلامان في أخذها وولج زياد وقال لهما: لا تكوننَّ شذرة عليكما كالبسوس، فهتف الغلامان: يالعمرو! أنضام ونُضطهدا! إنَّ الذليل مَنْ أكل في داره. وهتفا بمسروق بن معدى كرب، فقال مسروق لزياد أطلقها.

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لبيد أصحابه، واجتمع بنو وليعة، وأظهروا أمرهم، فبيتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعا كثير، ونهب وسبي، ولحق فلهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا أنصركم حتى تملكوني عليكم. فلكوه فخرج إلى زياد في جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر ابن أبي أمية وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث فهزموه وقتل مسروق، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل ليلاً إلى المهاجر وزياد، فسألها الأمان على نفسه، حتى قدما به على أبي بكر فيرى فيه رأيه؛ على أن يفتح لهم الحصن ويُسلم إليهم من فيه. فحملوا الأشعث إلى أبي بكر مؤثقا في الحديد، فعق عنه وزوجه، أخته أم قروة بنت أبي قحافة وكانت عمياء فولدت للأشعث محمداً وإسماعيل وإسحاق.

تأملان

١- علة هذا الاصطدام العنيف

لعل هنالك من يصاب بالذهول ممن لا يعرف مدى نفاق الأشعث بن قيس لهذا الاصطدام العنيف الذي اتبعه الإمام إزائه حتى خاطبه بلعنة الله والناس أجمعين، ثم وصفه بتلك الصفات الشائنة كقوله: «حائك بن حائك، منافق بن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك! وإن إمرأ دَلَّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف! لحرى أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه إلا بعد» ألا أن أدنى نظرة إلى التاريخ الأسود الذي حفلت به حياة هذا المنافق لتكشف عن مدى فساده وفساده للوسط الإسلامي، بل كان منقوتا حتى في الجاهلية، إلى جانب كونه اليد الخبيثة في تأجيج نار الحروب حتى اشتهر بلقب «عرف النار».

نعم، ليس هنالك ما يثير الدهشة والعجب في مخاطبته بهذه الكلمات من قبل الإمام عليه السلام. والواقع لم يرد في كلام الإمام عليه السلام سوى بعض صفاته الشنيعة التي تحتم على القائد الحكيم في ظل بعض الظروف أن يعري بعض الأفراد المتآمرين أمام أعين الأمة وانظارها لكي لا تنطلي عليها حيله والأعيبه، ولا سيما طائفة الشباب من المجتمع التي قد لا تمتلك الاطلاع الكافي عن حياة وماضي أولئك الأفراد، اذن فقد كانت كلماته من قبل التعريف به للأمة، لأنها إنطلقت بدافع الإساءة والسب والشتم.

٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق

لعل ما ورد في الخطبة المذكورة يثير لدى البعض هذا السؤال: إذا كانت للأشعث بن قيس مثل هذه السابقة في الغدر والنفاق واثارة القلاقل والمفاسد، لم صبر عليه الإمام عليه السلام ولم يأمر بقتله؟ والجواب على هذا السؤال هو أن تعامل أئمة المسلمين مع عناصر النفاق ينطوي على شيء من التعقيد؛ فقد كانت عناصر النفاق تعيش الازدواج في تظاهرها بالاسلام وأدائها لشعائره من قبيل الصوم والصلاة وقراءة القرآن، واضمارها للكفر والتآمر والخيانة والفساد وعليه فالاصطدام بهم قد يؤدي إلى إثارة بعض التوترات وتعالى أصوات الرأي العام في قتل المسلمين من أهل القبلة دون التورع في سفك دمائهم، ولا سيما بالنسبة للأشعث الذي كان ينتمي إلى قوم وقبيلة؛ الأمر الذي يصعد من حدة التوتر لا محالة. وقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذه المشكلة، بل كانت أعظم حدة مما هي عليه في عهد أمير المؤمنين عليه السلام حتى ورد عنه عليه السلام أنه قال: «لولا أنني أكره أن يقال ان محمداً صلى الله عليه وسلم استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوه فتلهم لضربت أعناق قوم كثير»^١.

أجل فقد كانت هنالك طوائف من المنافقين التي إندست بين صفوف المسلمين، بل كانت تشهد حتى الغزوات إلى جانبهم، ولعل الاصطدام بهم كان يعني أن الإسلام لا يقيم وزناً لدماء المسلمين، ومن هنا لم نسمع بان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل أحدهم طيلة حياته المباركة، إلا أن ذلك لم يكن ليمنع الرسول صلى الله عليه وسلم بل القرآن في التصدي لهم وتعريتهم أمام الأمة.

الخطبة ٢٠

ومن كلام له عليه السلام

وفيه ينفر من الغفلة وينبه إلى الفرار لله

«فَانْكُم لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزَعْتُمْ وَوَهَلْتُمْ،
وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ
الْحِجَابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأَسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدَيْتُمْ إِنْ
اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمْ الْعِبْرُ، وَزَجَرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْنَجَرٌ،
وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ»^١.

❦❦❦

الشرح والتفسير

طرح الحجب قريباً

لقد حذر الإمام عليه السلام الأمة من الغفلة ودعاها للتحلي باليقظة وتدارك ما فاتها من خلال
العبودية والطاعة خشية من الأحداث التي تنتظرها في المستقبل القريب. فقد استهل

١. أورد المرحوم الكليني في كتاب الكافي في باب «ما يجب من حق الإمام على الرعية» بعض هذه الخطبة
في ذيل رواية (راجع كتاب الكافي، ١/٤٠٥ ح ٣، باب ما يجب من حق الإمام على الرعية).

كلامه ﷺ بالقول «فإنكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم^١ وسمعتم واطعتم».

والذي يستفاد من الروايات أن الإمام ﷺ قد التقى هذه الخطبة في الجمعة الأولى بعد البيعة، وقد حذر الأمة - طبق رواية الكافي - من خيانة ائمتها ودعاها إلى الوحدة وحرص الصفوف واجتناب الاختلاف والفرقة، ثم أورد هذه الكلمات لتأكيد المعنى المذكور. أما ما هي المواضيع التي سيشهدها الإنسان في عالم ما بعد الموت بعد أن تطرح عنه الحجب فيسوده القلق والاضطراب والجزع، فهذا مما اختلفت فيه أقوال العلماء، لكن المسلم به أن هناك موضوعين مهمين: أحدهما أنه سيرى نتائج أعماله وما ينتظره من جزاء وعقاب عليها، والثاني مدى الحسرة والأسف الذي سيشعر به تجاه تقصيراته التي صدرت منه في حياته الدنيا، الإمكانيات التي كان من شأن استثمارها أن تبلغ به السعادة والفلاح والفوز بالقرب الإلهي ومجاورة الرحمن، غير أنه ضيع كل تلك الفرص، والادهى من ذلك لاسبيل إلى الرجوع إلى الحياة ثانية. ثم قال ﷺ: «ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب» نعم أن هذه الحجب هي التي جعلتكم تغطون في هذه الغفلة وتتعلقون بالدنيا وتغترون بها، ولكن اعلموا إن هذه الحجب آيلة إلى الزوال وسترون الأشياء والحقائق كما هي حيث لا ينفع حينها القلق والجزع والفرع، كما ليس هناك من مجال للتوبة.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم لا يطرح الباري سبحانه هذه الحجب عن الإنسان في الحياة الدنيا لينتبه إلى نفسه ولا يعيش السكر والغفلة؟ يبدو أن الآيات القرآنية قد تكفلت بالإجابة على هذا السؤال: فلو طرحت هذه الحجب ورأى الناس الحقائق على صورتها فإن أدنى ترمد سيؤدي إلى مواجهتهم للعذاب الشديد حيث لم يعد هنالك من عذر للتقصير.

فقد صرحت الآية الثامنة من سورة الانعام و«ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون». و بغض النظر عن هذا الأمر فإن الإيمان من جراء مشاهدة الحقائق المترتبة على ما بعد الموت سوف لن يكون مدعاة للعبودية والطاعة وسيكون نوعاً من الاجبار والاضطرار، كما

١. «وهلتم» من مادة «وهل» على وزن «وهب» بمعنى فقد صبره في مقابل الحوادث الصعبة، وتأتي بمعنى الخوف واحياناً بمعنى التأوه والأنين.

نشاهد ذلك في الأفراد - حتى الصبية منهم - حين يبدون ردود فعلهم المباشرة إذا ما إقتربت أيديهم من النار، فاجتناب المعصية على هذا الضوء سوف لن يكون بدافع من الورع والتقوى و العبودية أبداً.

أمّا قوله ﷺ «قريب ما يطرح الحجاب» فعمر الإنسان مهما كان ليس سوى لحظات عابرة مقارنة بعمر الدنيا وزمان الآخرة. ثم أشار الإمام ﷺ إلى مسألة مهمة بهذا الشأن وهي أنكم وإن لم تروا عالم ما بعد الموت، إلا أن الأدلة عليه قائمة لديكم ومعالمه واضحة أمامكم «ولقد بصرتم ان ابصرتم، واسمعتم ان سمعتم، وهديتم ان اهتديتم».

وعليه فليس هنالك من عذر لمن ضل السبيل وأخطأ المسيرة، فالحقائق المرتبطة بعالم الآخرة وان حجبت عنكم، إلا أنكم على علم بها من خلال ثلاثة طرق: الأول من الاعتبار بما تشاهدونه في هذا العالم، فآثار الفراعنة وقبور الأسلاف لأدلة واضحة على العاقبة المريرة التي تنتهي إليها مسيرة الأقسام الظالمة والتي تشير إلى أن الله بالمرصاد، كما لديكم الكتب السماوية و الرسائل النبوية، أضف إلى ذلك فإن الأدلة العقلية ليست بالقليلة وهي تقودكم بكل بساطة إلى المعاد واليوم الآخر.

و عليه فعبارته ﷺ إنما تشير إلى الأدلة الحسية والنقلية والعقلية.

كما يحتمل أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى الأدلة الحسية والعقلية (لأن البصيرة تطلق على الإدراك العقلي أيضاً) والجملة الثانية تلمح إلى الأدلة النقلية، بينما تشير الجملة الثالثة الهداية الناجعة من هذه الادلة. ثم قال ﷺ: «وبحق أقول لكم: لقد جاهر تكم العبر»

فالعالم مليء بحوادث العبرة والاعتبار التي لا تخفى على أحد، فتلك آثار الفراعنة والأقاصرة والأكاسرة التي تخبر عن أحوال من كان من الأمم السالفة. وهذا ما أشار إليه

القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَعْمُرُونَ عَلَيْهِمْ مَضْجِعِينَ﴾ وَيَاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ^١

وقال أيضاً: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَابٍ وَعَيْونٍ﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا

فَاجْهِينَ﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ. وقال في موضع آخر ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ

وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ^٢».

١. سورة الصافات / ١٣٧-١٣٨.

٢. سورة الدخان / ٢٥-٢٩.

فقد شحن القرآن بهذه الآيات إلى جانب الروايات الإسلامية التي أكدت هذا المعنى. الأدباء والشعراء تعرضوا لهذه الحوادث في نتاجاتهم مما يثبت حقيقة قوله ﷺ: «لقد جاهرتمكم العبر». ثم قال ﷺ: «و زجرتم بما فيه مزدجر»^١. ولعل هذا الزجر يستند إلى لسان التكوين الذي ينطلق من أعماق التاريخ واخبار الماضين كما صور ذلك القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾^٢.

أو عن طريق لسان التشريع والوحي الذي ورد في الكتب السماوية. وعليه فقد تمت الحجة تكوينياً وتشريعياً ولم يعد هنالك من عذر. ثم قال ﷺ: «وما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر». فما هذا الانتظار؟ أتتوقعون أن تهبط عليكم الملائكة ويتلون عليكم الآيات؟ فقد تشدق بذلك الكفار على عهد النبي ﷺ قائلين: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^٣. فرد عليهم القرآن بالقول: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾^٤ وخلاصة القول فان الله قد أتم حجته عن طريق المشاهدات الحسية لآثار الأمم السابقة ومن خلال العقل وأخيراً الوحي، وليس لاحد أن يخرج عن سبيل الطاعة بحجة «لولا أنزل علينا الملائكة».

ملاحظة

عالم ما بعد الموت

صحيح أن هنالك الاغشية الغليظة التي تحول بيننا وبين ذلك العالم وأن الحجب الظلمانية لا تدعنا نرى حوادث عالم البرزخ (و ينبغي أن يكون الأمر كذلك؛ فلو طرحت الحجب لفقد الامتحان حرارته ولا نطلق الجميع في حالة شبه اضطرارية نحو الحق فلم يعد هنالك من معيار لتمييز المطيع من العاصي)، غير أن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الواردة عن أئمة

١. «زجرتم» و«مزدجر» من مادة «زجر» بمعنى الصدع عن عمل بصوت عال، ثم اطلق على كل منع صدر كما يستعمل في التهي عن الذنوب.

٢. سورة القمر / ٤.

٣. سورة الحجر / ٧.

٤. سورة الحجر / ٨.

العصمة عليها السلام قد أشارت إلى طبيعة هذا العالم المرعب، كما بينت مدى الهلع الذي يعتري الإنسان حين مشاهدته لملك الموت وحين يرى ما عمل حاضراً أمامه، فينطلق صوته «ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت»^١ فيأتيه الجواب بالسلب، فليس هنالك من سبيل إلى الرجعة كاستحالة عودة الجنين إلى رحم أمّه.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه في نهج البلاغة إلى هذا الأمر، من ذلك أنّه قال: «يفكر قيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره ويتذكر أموالاً جمعها اغمض في مطالبها... واشرف على فراقها تبقى لمن ورائه»^٢ أجل أن كل هذا الجزع والفرع من جراء مشاهدة ذلك العالم الخطير ورؤية ملك الموت. وقد أسمعنا أولياء الله من أئمة الدين ما ينبغي سماعه عن تلك المنازل المرعبة، إن كانت لنا آذانا صاغية.

«اللهم رزقنا عيناً بصيرة واذناً سمیعة وقلباً حافظاً، لنتزود لتلك الدار قبل وفاتنا وفوات الأوان، فنحلق إلى ذلك العالم بقلب مطمئن ونفس واثقة ونفوز بقرب أوليائك من الشهداء والصديقين «و حسن أولئك رفيقا».

اللهم تقبل منا هذا الجهد المتواضع ومن علينا باكباله بفضلك ورحمتك.

الختام

النصف من شهر رمضان المبارك

الولادة الميمونة للإمام المجتبي عليه السلام

سنة ١٤١٦ الموافق ١٩٩٥/٣/٧ م

١. سورة مؤمنون / ٩٩-١٠٠.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

الفهرس

٥	الدافع الرئيسي لتأليف هذا الكتاب
٩	السيد الرضي جامع نهج البلاغة
٩	أساتذة السيد الرضي
١٠	تلامذة السيد الرضي
١١	كتب ومؤلفات السيد الرضي
١١	السيد الرضي والشعر
١٢	القابه ومناصبه
١٣	وفاة السيد الرضي
١٥	كلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه
١٧	١- فصاحة النهج وبلاغته
٢٣	٢- المضامين الرصينة الشاملة لنهج البلاغة
٢٥	مصدق لقوله تعالى: (وتوا الكتاب) و (فصل الخطاب)
٢٧	٣- جاذبية نهج البلاغة الخارقة
٢٩	أقوال العظماء بشأن جاذبية نهج البلاغة
٣١	أسناد نهج البلاغة
٣٤	شروح نهج البلاغة
٣٧	مقدمة السيد الشريف الرضي
٣٧	لماذا جمعت نهج البلاغة

الخطبة الاولى

٤١	نظرة إلى الخطبة
٤٣	القسم الأول: بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية

- ٤٩ القسم الثاني: توحيد الذات والصفات.
- ٥٧ القسم الثالث: ليس كمثل شئ.
- ٦١ تأملات
- ٦١ ١ - علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»!
- ٦٤ ٢ - انحراف الجهال عن حقيقة صفات الله
- ٦٦ ٣ - نفي الحدوث الذاتي والزمني للذات القدسية
- ٦٧ ٤ - هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟
- ٦٩ القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم
- ٧٣ الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم
- ٧٤ تأملان
- ٧٤ ١ - هل يصطلح بالعارف على الله؟
- ٧٥ ٢ - كيفية علم الله بالموجودات قبل ايجادها
- ٧٩ القسم الخامس: كيفية بداية خلق العالم
- ٨٠ تأمل: هل العالم المادي حادث؟
- ٨٣ القسم السادس: الماء كان أول مخلوق
- ٨٧ القسم السابع: دور العواصف في انبثاق الخلقة
- ٨٩ تأملات
- ٨٩ ١ - دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة
- ٩١ ٢ - كيفية ظهور العالم
- ٩٢ ٣ - الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن
- ٩٤ ٤ - ما المراد بالسفوات السبع؟
- ٩٦ ٥ - كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الأمور
- ٩٧ القسم الثامن: عالم الملائكة
- ١٠٢ تأملات
- ١٠٢ ١ - ماهية الملائكة!
- ١٠٤ ٢ - أصناف الملائكة

- ٣- العرش وحملته..... ١٠٥
- ٤- عصمة الملائكة..... ١٠٧
- ٥- مقام معرفة حملة العرش..... ١٠٨
- القسم التاسع: خلق آدم ﷺ..... ١٠٩
- مراحل خلق آدم ﷺ من الناحية الجسمية والروحية..... ١١٠
- تأملات..... ١١٤
- ١- خلق آدم ﷺ..... ١١٤
- ٢- التركيب المزدوج للجسم والروح..... ١١٦
- ٣- الإنسان، أعجوبة عالم الكون..... ١١٧
- القسم العاشر: بداية انحراف ابليس..... ١١٩
- تأملات..... ١٢٢
- ١- عظمة مقام الإنسان..... ١٢٢
- ٢- كيف كان السجود لآدم؟..... ١٢٢
- ٣- أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان..... ١٢٣
- ٤- تبريرات جوفاء..... ١٢٦
- القسم الحادي عشر: عاقبة آدم..... ١٢٩
- تأملات..... ١٣٢
- ١- ما كانت جنة آدم؟..... ١٣٢
- ٢- هل اقترف آدم معصية؟..... ١٣٣
- ٣- ما حقيقة الشجرة المحظورة؟..... ١٣٥
- ٤- الكلمات التي تاب الله بها على آدم ﷺ..... ١٣٦
- القسم الثاني عشر: بعثة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم..... ١٣٩
- تأملات..... ١٤٤
- ١- الأنبياء بمثابة المزارعين..... ١٤٤
- ٢- حوادث الاعتبار واليقظة..... ١٤٤
- ٣- دور الدين في الحياة..... ١٤٥

١٤٦	٤- لا تخلو الأرض من حجة
١٤٧	٥- مميزات الأنبياء
١٤٩	القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام
١٥١	تأملان
١٥١	١- الأديان قبل البعثة النبوية
١٥٤	٢- آفاق الأنبياء المستقبلية
١٥٥	القسم الرابع عشر: خصائص القرآن
١٦١	تأملات
١٦١	١- شمولية القرآن
١٦١	٢- من عنده علم الكتاب؟
١٦٣	٣- معيار التمييز بين الكبائر والصغائر
١٦٣	٤- الناسخ والمنسوخ وفلسفتها
١٦٤	٥- تأريخ الأمم الماضية والأمثال القرآنية
١٦٧	القسم الخامس عشر: أهمية فريضة الحج
١٧٠	تأملان
١٧٠	١- نبذة تاريخية عن الكعبة
١٧٢	٢- فلسفة الحج

الخطبة الثانية

١٧٦	القسم الأول
١٧٦	نظرة إلى الخطبة
١٧٦	ظروف وملابس الخطبة
١٧٨	الركنان الأساسيان في الإسلام
١٨١	تأملان
١٨١	١- التوحيد ركيزة الصالحات
١٨٣	٢- التوحيد الخالص الذي طبع حياة أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
١٨٥	القسم الثاني: العصر الجاهلي

- ١٩١ صورة الحياة الميتة في العصر الجاهلي
- ١٩٥ القسم الثالث: المنزلة السامية لآل محمد ﷺ
- ١٩٨ تأملان
- ١٩٨ ١- آل النبي ﷺ كهف الأمة الإسلامية
- ١٩٩ ٢- من هم آل النبي ﷺ؟
- ٢٠١ القسم الرابع: لا يقاس بآل محمد أحد من الناس
- ٢٠٥ تأملان
- ٢٠٥ ١- مكانة أهل البيت في القرآن والرويات
- ٢٠٧ ٢- تبريرات واهية

الخطبة الثالثة

- ٢٠٩ القسم الأول
- ٢٠٩ نظرة إلى الخطبة
- ٢١٢ مضمون الخطبة
- ٢١٣ تحليل مهم لمسألة الخلافة
- ٢١٧ تأملات
- ٢١٧ ١- لم آثر الإمام ﷺ الصير؟
- ٢١٩ ٢- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟
- ٢١٩ ٣- الإمام ﷺ جليس البيت
- ٢٢٠ ٤- لماذا تعرض الإمام ﷺ لقضية الخلافة؟
- ٢٢٣ القسم الثاني: عصر الخليفة الثاني
- ٢٢٥ إجابة على إستفسار
- ٢٣٠ تأملات
- ٢٣٠ ١- نماذج الفضاضة الأخلاقية على عهد الخليفة الثاني
- ٢٣١ ٢- العثار والاعتذار
- ٢٣٢ ٣- رد على سوال
- ٢٣٥ القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث

٢٤٠	تأملات.....
٢٤٠	١- كيفية انتخاب خليفة الثاني والثالث.....
٢٤١	٢- الشورى وحكومة عثمان.....
٢٤٤	٣- أسباب الخروج على عثمان.....
٢٤٧	٤- هل سار جميع الصحابة على نهج النبي ﷺ.....
٢٤٩	القسم الرابع.....
٢٥٤	تأملات.....
٢٥٤	١- البيعة الشعبية لأمر المؤمنين ﷺ.....
٢٥٥	٢- مصدر الانحرافات الاجتماعية.....
٢٥٦	٣- المعارك الثلاث على عهد الإمام علي ﷺ.....
٢٦١	القسم الخامس: قبول البيعة والخلافة.....
٢٦٤	تأملات.....
٢٦٤	١- الرد على سؤال.....
٢٦٥	٢- المسائل التي تضمنها الكتاب.....
٢٦٧	٣- مميزات الخطبة الشقشقية.....
الخطبة الرابعة	
٢٦٩	نظرة إلى الخطبة.....
٢٧١	القسم الأول: التحلي بالوعي واليقظة.....
٢٧٣	ملاحظة.....
٢٧٣	الهداية في ظل أهل البيت ﷺ.....
٢٧٥	القسم الثاني: كنت أتوقع غدركم، ولكن.....
٢٧٧	تأملان.....
٢٧٧	١- البصيرة.....
٢٧٨	٢- ستر عيوب الناس.....
٢٨١	القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب.....
٢٨٣	الصراع بين الحق والباطل.....

الخطبة الخامسة

- نظرة إلى الخطبة ٢٨٥
- القسم الأول: احذروا مثيري الفتن ٢٨٧
- سكوت الإمام عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله ٢٩٠
- القسم الثاني: ترى ما العمل مع المتربصين؟! ٢٩٣
- تأملات ٢٩٤
- ١ - سوابق الإمام عليه السلام ٢٩٤
- ٢ - لم أخاف الموت؟! ٢٩٥
- ٣ - لم السكوت؟ ٢٩٦

الخطبة السادسة

- نظرة إلى الخطبة ٢٩٧
- الحيطة والحذر تجاه الأعداء ٢٩٨
- تأمل: رسالة إلى جميع المسؤولين ٣٠٠

الخطبة السابعة

- أتباع الشيطان ٣٠١
- تأمل: خطط الشياطين ٣٠٤

الخطبة الثامنة

- نظرة إلى الخطبة ٣٠٧
- عذر أقبح من ذنب ٣٠٨

الخطبة التاسعة

- ضجة فارغة ٣١١
- تأملان ٣١٢
- ١ - رجل العمل ٣١٢
- ٢ - الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال ٣١٣

الخطبة العاشرة

- نظرة إلى الخطبة ٣١٥

- ٣١٥ تحذير المسلمين ثانية
- ٣١٨ تأمل: جند الشيطان

الخطبة الحادية عشرة

- ٣١٩ نظرة إلى الخطبة
- ٣٢٠ كن كالجبل
- ٣٢٢ تأملان
- ٣٢٢ ١- محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره
- ٣٢٣ ٢- الشرط المهم في النصر على الأعداء

الخطبة الثانية عشرة

- ٣٢٥ نظرة إلى الخطبة
- ٣٢٦ اللحمة العقائدية
- ٣٢٧ تأمل: الرابطة الحق

الخطبة الثالثة عشرة

- ٣٢٩ نظرة إلى الخطبة
- ٣٣٠ خصائص أهل الجمل
- ٣٣٤ تأملات
- ٣٣٤ ١- نبوءة النبي ﷺ بشأن موقعة الجمل
- ٣٣٥ ٢- ذم أهل البصرة
- ٣٣٦ ٣- المحيط والاختلاق

الخطبة الرابعة عشرة

- ٣٣٧ نظرة إلى الخطبة
- ٣٣٧ ذم أهل البصرة ثانية

الخطبة الخامسة عشرة

- ٣٤١ نظرة إلى الخطبة
- ٣٤٢ القسم على إعادة الأموال المغصوبة
- ٣٤٣ تأملات

- ١ - معطيات العدالة في المجتمعات البشرية ٣٤٣
 ٢ - اسراف عثمان ٣٤٤
 ٣ - الإجابة عن سؤال مهم ٣٤٥

الخطبة السادسة عشرة

- القسم الأول ٣٤٧
 نظرة إلى الخطبة ٣٤٧
 اليقظة والوعي في الامتحان ٣٤٨
 تأملان ٣٥١
 ١ - التاريخ يعيد نفسه ٣٥١
 ٢ - بيان الحقيقة أم رعاية المصلحة ٣٥٢
 القسم الثاني: الذنوب شماس كالخيل ٣٥٣
 القسم الثالث: سبيل النجاة ٣٥٧
 تأملان ٣٦٢
 ١ - الجاهل من جهل قدر نفسه ٣٦٢
 ٢ - الاعتدال هو الصراط المستقيم ٣٦٣

الخطبة السابعة عشرة

- القسم الأول ٣٦٥
 نظرة إلى الخطبة ٣٦٥
 أبغض الخلائق ٣٦٦
 تأملان ٣٦٩
 ١ - ما البدعة ومن المبتدع؟ ٣٦٩
 ٢ - أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين ٣٧٠
 القسم الثاني: الجاهل المتشبه بالعالم ٣٧٣
 تأملات ٣٨١
 ١ - آفات علماء السوء ٣٨١
 ٢ - علم يخيط العنكبوت ٣٨٢

- ٣- اطراء المتملقين ٣٨٢
 القسم الثالث ٣٨٥
 التفسير بالرأي وقلب الحقائق ٣٨٦

الخطبة الثامنة عشرة

- القسم الأول ٣٨٩
 نظرة إلى الخطبة ٣٩٠
 ما علّة كل هذا الاختلاف؟ ٣٩٠
 تأملات ٣٩٢
 ١- مسألة التصويب ونشأتها ٣٩٢
 ٢- نتائج القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد ٣٩٧
 ٣- الهرج والمرج الفقهي والقضائي ٣٩٩
 القسم الثاني: الاختلافات غير المبررة ٤٠١
 شمولية القرآن ٤٠٤
 القسم الثالث: أناقة القرآن وعمقه ٤٠٧
 تأملان ٤٠٩
 ١- القرآن والمسائل المستحدثة ٤٠٩
 ٢- لم لا تنقضي عجائب القرآن ٤١٠

الخطبة التاسعة عشرة

- الاصطدام بمنافق طائش ٤١٢
 تأملان ٤١٥
 ١- علة هذا الاصطدام العنيف ٤١٥
 ٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق ٤١٦

الخطبة العشرون

- طرح الحجب قريباً ٤١٧
 ملاحظة: عالم ما بعد الموت ٤٢٠
 الفهرس ٤٢٣





Nafahāt al-Welāyah

Description of
Nahj al-Balāghah

آوین کراچی

